الأتراك العثمانيون

في افريقيا الشمالية

تأليف
عزيز سامح

ترجمة
عبدالسلام أدهم



صفحة ليبيا تاريخ وثقافة على الفيسبوك



الأتراك العثمانيون

صفحة ليبيا تاريخ وثقافة على الفيسبوك



الأتراك العثمانيون

في أفريقيا الشمالية

تأليف
عزيز سامح

ترجمة
عبد السلام أدهم

١٩٦٩

الطبعة الاولى

١٣٨٩ ﻫ - ١٩٦٩ م

ترجمة المؤلف

كتبتُ للسيد سكرتير عام مجلس الأمة التركي ارجوه بأن يزودني بالمعلومات المتوفرة لديهم عن السيد عزيز سامح الذي كان سنة١٩٣٧ عضواً في مجلس الأمة التركي عن ارزنجان فبعث ترجمة حاله المختصرة التي قدمها النائب المذكور لمكتب المجلس لما انتخب نائباً وهي مؤرخة ٢٢ اوكتوبر سنة ١٩٢٧ أذكرها فيما يلي :

تخرجتُ في سنة ١٣١٧ هـ ١٩٠١ م بدرجة يوزباشي اركان حرب وذهبت الى سورية .

قضيت مدة ثمانية اشهر تدريب في كل من الصفوف الثلاثة (مشاة وفرسان ومدفعية).

وبما انه لايمكن استخدام المهندسين النصارى في تخطيط السكك الحديدية المراد مدها بين المدينة المنورة ومكة المكرمة فقد تقرر تدريب سبعة من ضباط اركان الحرب على هندسة الخطوط الحديدية لاستخدامهم مهندسين في خط الحجاز وارسلت الى حيفا وعملت اثناء مد خط حيفا ـ المزيريب في سوريا في كافة الشؤون الفنية والعملية به .

اخيراً انتقلت لأركان حربية الجيش ونقلت من سوريا الى الروم الى حيث توليت قيادة الكتيبة المكلفة بمطاردة العصابات .
اشتركت في جميع القوات المقاتلة في البانيا .
اشتغلت ثلاثة اعوام كوميسيراً لحدود الجبل الأسود .
اثناء الحرب الطرابلسية عملت بصفة تاجر في تونس في خدمة نقليات الجيش .
في الحرب العامة كنت في المقر الرئيسي لأركان حرب الجيش .
وفي سنة ١٣٢٩هـ ١٩١٣م كنت رئيساً للجنة تحديد الحدود الأيرانية وحددتها من الفاد حتى آرارات .
في الحرب العالمية كنت رئيساً لاركان حرب فيلق الفرسان وفي وكالة قيادة فرق وفي رياسة مكتب التجنيد واثناء الهدنة كنت متقاعداً .
خلال حرب الإستقلال عملت قنصلاً عاماً لحكومتنا القومية في باطوم ومن ثم عينت لرياسة ادارة تجنيد صامسون وبقيت فيها الى انتهاء القتال بالنصر .
كنت في سنة ١٩٢٥ قد عينت كوميسيراً لخطوط ساحل صامسون الحديدية بعد انتخابي للنيابة قدمت استقالتي .
والسيد عزيز سامح ايلتر هو ابن شعبان وامه تدعى ألفت .
ولد سنة ١٢٩٣ هـ ١٨٧٧ م في كوروتشاي .
دراسته اركان حرب .
يجيد اللغات التركية والفرنسية والألمانية والروسية .
متخصص في الشؤون العسكرية واعمال السكك الحديدية .
متزوج وله اربعة اولاد .
انتخب في ١٣ / ١٠ / ١٩٢٧ نائباً عن ارزنجان للهيئة النيابية الثالثة واعيد انتخابه من نفس الدائرة للدورات الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة وانتخب للدورة الثامنة نائباً عن قارص وتوفي بتاريخ ٢ / ١٢ / ١٩٤٨ .
وهو نائب عن قارص .

مقدمة المؤلف

ان حدود افريقيا الشمالية لم تتعين بعد تماماً ، ومصرذات التاريخ المستقل والمدنية العريقة كانت دائماً تعتبر خارج هذه الحدود . بعض المؤلفين الأوروبيين اعتبروا طرابلس الغرب وبنغازي من افريقيا الشمالية وكثير من المؤلفين يقررون ان افريقيا الشمالية هي الأراضي المرتفعة التي بين المحيط الأطلسي والصحراء الكبرى والبحر الأبيض المتوسط .

ان الجبال التي في اقاليم المغرب والجزائر وتونس لا تمتد حتى طرابس الغرب الا ان اختلاف الأراضي لا يستدعي اختلافاً في التاريخ .

ان الإيالة التي كان العرب يطلقون عليها اسم افريقية في مبدأ فتوحاتهم ما هي الا طرابلس الغرب وبنغازي ؛ وبما انى اريد البحث في تاريخ الأتراك بالشمال الأفريقي ـ ما عدا مصر ـ فأني رجحت الرأي القائل ان طرابلس الغرب وبنغازي تدخلان في هذا التعبير .

لقد ذكرت في هذا المؤلف باختصار جغرافية افريقيا الشمالية وتاريخ ازمنة الفينيقيين والعرب ثم علاقاتها بالنشاط البحري للأتراك وعبورهم للشمال الأفريقي وسجلت اخبار الجزائر وتونس وطرابلس الغرب كلاً على حده .

ان الأتراك لم يحكموا بلاد المغرب الا ان اشتراك الجزائر في الحدود مع المغرب جعلتني اذكر الحوادث التي قد تؤثر الى درجة بعيدة في شؤون المغرب

الداخلية سواء كانت قبل مجيء الأتراك لأفريقيا الشمالية أم إبان حكمهم لها .
لقد اختصرت تاريخ المغرب قبل الأتراك بحيث سردت شبه قائمة بأسماء الحكام.
وكان من الضروري ان استهل ذلك بذكر ماضي المغرب والفوضى التي ضربت أطنابها في افريقيا والظلم والفساد وانعدام القيم الأخلاقية لأثبت ان الادارة القوية المنظمة التي أسسها الأتراك في شمالي افريقيا كانت عامل استقرار فيها ، كما اني سردت احوال المغرب بطريقة موازية مع الجزائر بعد دخول افريقيا الشمالية في يد الترك لمنح فرصة للمقارنة بين الادارتين .

ذكرت في آخر هذه المقدمة اسماء الكتب (المراجع) التي اطلعت عليها لتأليف هذا الكتاب ، وبما ان كل مؤلّف يرُاجع عدداً من المؤلفات لجمع المواد اللازمة للتأليف فأني أظن ان مؤلفات قليلة بقيت خارج نطاق التدقيق .

وان ما يزيد تأليفي قيمة هي الوثائق التاريخية الهـــامة التي اخذتها عن المخطوطات الغير المطبوعة الكائنة بسجلات الشؤون الهامـة للديوان السلطاني .

ان الكتب التي لها قيمة في عالم التأليف تذهلنا كثرتها لأن معظمها كتبت قبل دخول افريقيــــا في حوزة الأجانب ؛ لقد كـُتبت يوم كنا هناك نرقص خيولنا ونهز سيوفنا وفي الأزمنة التي كنا نرفع راياتنا المظفرة خفاقة في اجواء تلك البلدان .

لقد وضعت مؤلفات قليلة عن تلك البلدان الجميلة التي بقيت اكثر من ثلاثة قرون في حوزتنا وان التفصيلات التي يحتويها التاريخ العثماني قليلة جداً .

أما أكثر المؤلفات تفصيلاً فهي تلك الخاصة بمناقب الغازي « بارباروس » خير الدين باشا كما ان وقائع افريقيا الشمالية الداخلية وعلاقاتها بالأوروبيين تكاد تكون مجهولة .

ان السلاطين العثمانيين لم يتعرفوا على هذه الأقطار الجميلة وعلى ابطـــال الترك ذوي القبضات الفولاذية الذين استولوا عليها واكتفوا بأن اطلقوا عليها اسم

اوجافات المغرب ولم يسعوا لأخفاء الطابع التركي على تلك المواطن التي خلقوها ببطولاتهم .

وهذه هي مراجع الكتاب :

١ ـ افريقيا الرومانية تأليف أشلتن .

٢ ـ تأسيس سلالات الأشراف في المغرب وتنافسها مع الأتراك .

٣ ـ تاريخ افريقيا الشمالية تحت السيادة الأسلامية .

٤ ـ تاريخ الجزائر تحت حكم الترك تأليف غرامونت .

٥ ـ تاريخ المغرب من ١٦٣١ ـ ١٨١٢ تأليف هوراس .

وهذا الكتاب هو ترجمة للتأليف المسمى (الترجمان المريب عن دول المشرق والمغرب) لمؤلفه ابي القاسم احمد الزياني .

٦ ـ افريقيا الشمالية تأليف هنري لورين .

٧ ـ استعمار افريقيا الشمالية تأليف و. بيكه .

٨ ـ مدنية افريقيا الشمالية تأليف و. بيكه .

٩ ـ ايالة طرابلس تأليف فر. هوفر .

١٠ ـ تونس وطرابلس تأليف غ. شارم .

١١ ـ تونس تأليف ج.ج مارسيل .

١٢ ـ تحفة الكبار في اخبار البحار .

١٣ ـ مرآة الجزائر .

١٤ ـ تاريخ ابن غلبون .

١٥ ـ تاريخ هامر .

١٦ ـ تاريخ جودت .

١٧ ـ تاريخ واصف .

١٨ ـ تاريخ يحوى .

١٩ ـ تاريخ نعيما .

٢٠ ـ خير صاحب .

٢١ ـ تاريخ السلحدار .
٢٢ ـ الجغرافيا العامة لأرنس لاغرانج .
٢٣ ـ التاريخ العمومي لأحمد رفيق .
٢٤ ـ تاريخ الترك تأليف رضا نور .
٢٥ ـ تاريخ الترك تأليف نجيب عاصم .
٢٦ ـ قاموس الأعلام تأليف شمس الدين سامي .
٢٧ ـ بارباروس خير الدين تأليف علي رضا سيفي .
٢٨ ـ الرئيس درغوت » » ».
٢٩ ـ الرئيس كمال وبابا اورج » » ».
٣٠ ـ مجلات مجمع التاريخ .
٣١ ـ مجلات الأسطول
٣٢ ـ مجلات كلية الآداب بالجامعة .
٣٣ ـ غزوات خير الدين باشا الموفقة .
٣٤ ـ المخابرات الرسمية الغير مطبوعة المحفوظة بخزانة الأوراق .
[سجلات الشؤون الهامة للديوان الهمايوني]
٣٥ ـ تاريخ الأسلام المصور .
٣٦ ـ تاريخ الدول الأسلامية .
٣٧ ـ للملك وللمجالس [حقيقة اسباب قطع العلاقـــات مع الجزائر]
تأليف الكساندر ديلابورد باريس ١٨٣٠ .
٣٨ ـ غزوات خير الدين . منظومة .
٣٩ ـ كتاب البحرية تأليف بيري رئيس .
٤٠ ـ المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب تأليف احمد النائب .
٤١ ـ الكتابات العربية والتركية في الجزائر ج ٢ تأليف غابرييل كولين .
٤٢ ـ تاريخ تونس باللغة العربية .
٤٣ ـ خلاصة اخبار تونس مخطوطة لمسجل الأحداث اسعد افندي .

٤٤ ـ تاريخ منجم باشي المعروف باسم صحائف الاخبار .

ان مؤلف كتاب[تأسيس سلالات الأشراف في المغرب وتنافسها مع الأتراك] المسجل تحت الرقم (٢) درس جميع الكتب الموضوعة باللغات العربية والفرنسية والأسبانية ، كما انه اطلع على كل الوثائق السياسية ولعب دوراً هاماً في المغرب واجرى تحقيقات بخصوص ملوك البرتغال وكبار رجالهم وفي تراجم احوالهم الخاصة ؛ قام بكل هذه المجهودات لجمع المواد التي ضمنها كتابه .

المؤلف

مقدّمة المُترجم

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، وبعـــد فإني قد بذلت جهدي لترجمة الجزءين الثاني والثالث من تاريخ « الأتراك في إفريقيا الشمالية » من اللغة التركية للعربية ، وكان الجزء الأول خاصاً بالجزائر ، والثاني بتونس ، والثالث خاصاً بإيالة طرابلس الغرب في العهد العثماني الأول والعهد القرمانلي والعهد العثماني الثاني .

لقد تمسكتُ في الترجمة بالأمانة والحرفية ، وإني لم أزد من عندي على ما قرأته في هذا المؤلف ، حتى أنني ترجمت كل ما ذكر من الألقاب والأسماء التي كان السلاطين يتخذونها لأنفسهم أو تلك التي يدعوهم بها وزراؤهم وأتباعهم ، وتلك التي يدعون بها ممالیكهم وخدام دولتهم وأتباعهم وأصدقائهم وأعدائهم .

إني لستُ ركاكةً في بعض ما كتبت ، ولكن السبب هو تمسكي بحرفية الترجمة التي ما حدثتُ عنها . لقد ترجمت جزءي تونس وطرابلس بسبب ارتباط تاريخيهما في كثير من الحوادث ، كما أن جزءاً من الأراضي التونسية كانت في بعض السنين من العهود السالفة الذكر تابعة لطرابلس ، أو جزءاً من أرض طرابلس كان تابعاً لتونس وذكرها المؤلف في جزء تونس أو طرابلس .

إن هذا المؤلف لم يستكمل المعلومات الخاصة بالفترات الثلاث من تاريخ بلادنا ولكنه على كل حال زوّدنا بالكثير من الأخبار والمعلومات التي استقاهـــا من المصادر التي ذكرها في القائمة التي ذيل بها كتابه ، ونحن نشكر فضله على الجهود

القيمة التي بذلها للحصول على المادة الدسمة التي ضمنها سفره القيم. إلا أني لاحظت أن المؤلف السيد عزيز سامح لم يتجرّد من العوامل النفسية والعواطف القومية ، وهو يكتب تاريخه ، وكان يحصر البطولات التي صدرت عن المقاتلين في بر إفريقيا الشمالية وفي البحار التي بينها وبين أوروبا بالترك ، ولا غير الترك . بيد ان التاريخ يذكر لسكان هذه الأقطار الثلاثة كفاحهم في البر والبحر قبل مجيء الترك في عهد السلطان سليمان القانوني ، وشاركوا الأتراك في نشاطاتهم التي نقلوها في ذلك العهد من الشرق إلى الغرب . وشهادة أخيرة على تعصب المؤلف لبني جنسه أنه يحصر بطولات الدفاع والقتال ضد المعتدين من الطليان بالضباط والعساكر الأتراك .

إننا لا ننكر جهود القواد والضباط الذين شاركوا في توجيه وقيادة الحرب الإيطالية أمثال نشأت وخليل وعلي فتحي وعبد الرحمن نافذ وإسحق وأنور ومصطفى كمال وعزيز علي المصري وأدهم باشا الحلبي ونوري وجعفر العسكري وغيرهم من الضباط الأتراك والعرب من الأقطار الشقيقة ، ولكن كان هناك العديد من القادة والضباط من أبناء البلاد البررة الذين يعرف أسماءهم مواطنونا ، وسننشر يوماً ما القوائم بأسمائهم ، لقد اشتركوا في إدارة الدفة من أول الحرب حتى نهايتها . أما الذين كانوا وقوداً لنار الحرب الضروس فهم أبناء هـــذه البلاد الأشاوس الذين ضحوا بنفوسهم في ميادين الفخار .

لم يذكر المؤلف أهل البلاد في حرب الطليان إلا في قوله : « كانت مساعدات الوطنيين بالمال والتموين أيضاً لا تعطي الفوائد الكثيرة » .

إننا لا ننكر المساعدات التي قدمها العثمانيون في حدود إمكانياتهم ، إلا أن تلك المساعدات كانت للتكفير عن تقصيرهم في « ترك البلاد في حالة تطمع الذئاب في السطو عليها » . وأن الوطنيين بذلوا النفس والنفيس والمال ، وكل ما يعزّ على الإنسان بذله ، في سبيل الذود عن بلادهم .

إن الضباط والأفراد المتطوعين من مهـــاجري طرابلس وبرقة الذين بذلوا مهجهم تحت الرايات الحمراء ذوات الأهلة والنجوم على حدود الولايات التركية وفي حروب استقلالها يزيدون عدداً عن ضباط وعساكر الترك الذين حاربوا معنا هنا، وعلى كل حال فقد حاربنا جنباً إلى جنب الأعداء المشتركين هنا وهناك وعفا الله عما سلف .

إن للمؤلف بعض الأغلاط في سرده للتشكيلات الإدارية في سنة ١٣٢٧ (١٩١١ م) لقد ذكر أن ترهونة والزاوية والعزيزية كانت نواحي تابعة لقضاء غريان بينما كانت هذه البلدان الثلاثة قائمقاميات قبل ذلك التاريخ وتابعات رأساً إلى مركز طرابلس ومثلهن غريان. كما أن مركز لواء الجبل الغربي كان في يفرن والعجيلات ونجاد لم تكونا ناحيتين تابعتين لورفله ، بل أن العجيلات كانت قائمقامية تابعة لمركز طرابلس ونجاد أيضاً قائمقامية تابعة لمتصرفية الجبل الغربي وورفله قائمقامية تابعة إلى متصرفية الخمس .

أني أكتفي بالأشارة إلى هذه الهفوات وأكرّر شكري وتقديري للمغفور له المؤلف الذي زوّدنا بمعلومات قيمة عن بلادنا تشرفت بتقديمها للطبع .

الأتراك العثمانيون
في افريقيا الشمالية

الجزء الأول

في طرابلس الغرب

مختصر تاريخ طرابلس الغرب
الى أن دخلت في حوزة الأتراك العثمانيين

كان البربر يقيمون في طرابلس الغرب ، وفي غيرها من أقطار افريقيا الشمالية . وقد دخل الجزء الشمالي من طرابلس الغرب تحت حكم الفينيقيين الذين أسسوا مدينة قرطاجنة ، ولا تزال هذه المدينة ومن بنوها باقية في تونس .

أسس المصريون (في ١٣٢٤ قبل الهجرة) في عهد «نيهو ابن بسامتس» أحد ملوكهم ، مدينة « لبدة » الكائنة على مسافة ثلاثة كيلومترات من مدينة « الخمس » .

إن بنغازي ، وما حولها ، الواقعة في الجهة الجنوبية المقابلة لليونان كانت في يد اليونانيين ، وبقي اليونانيون فيها أحقاباً طويلة ، وأسسوا مراكز تجارية هامة مثل بارتشي وأبولوني وتشيريني وهسبريس وجعلوها وكأنها جزء من البلاد اليونانية ، ولما غزا الشاه الإيراني قمبيز مصر في سنة ١١٤٣ قبل الهجرة واحتلها قدم له الوالي اليوناني لهذه البلاد المدعو

« أركسيلاس » فروض الطاعة ، وبعد أن عين الشاه المدعو « آرياندس » والياً على مصر وعاد إلى بلاده قتل أهل بنغازي وطرابلس «أركسيلاس» الذي رضي أن يكون تابعاً لأيران . ومن ثم جاء « آرياندس » من مصر واحتل هذه الجهات بصعوبة .

لما استولى الإسكندر الأكبر على مصر (٣٣٢ ق. م) سقطت طرابلس وبنغازي تحت سيطرة الحكم اليوناني ، وبعد موت الإسكندر تقاسم قواده ممتلكاته فيما بينهم ، وكانت مصر وليبيا من حصة بطليموس سوتير ، ولما استولى الرومانيون في عام ١٢٤ ق . م على قرطاجنة انتقلت إليهم طرابلس ، ولما انقسمت روما إلى إمبراطوريتين شرقية وغربية بقيت طرابلس تحت حكم الأمبراطورية الغربية .

ولمـــا عبر الواندال إفريقيا احتلوا طرابلس. وفي عهد جوستنيان ، أحد أباطرة روما الغربية، قضى القائد بليساري على مملكة الوندال . وفي سنة ٥٣٤ من الميلاد استولى على مستعمراتهم الأفريقية بمـا فيها طرابلس . وبقيت طرابلس في يد الرومان حتى سنة ٦٣٤ ميلادية الموافقة لسنة ٢٣ من الهجرة النبوية . وقد ذكرنا في تاريخ الجزائر كيف تمكن خلفاء المشرق من احتلال افريقيا .

انتقلت طرابلس إلى يد إبراهيم بن الأغلب الذي أسس دولة الأغالبة. ثم عـــين يوسف ابن زيري من قبل الفاطميين والياً على تونس وطرابلس واتخذ مدينة طرابلس مقراً له ودام حكم أبنائه وأحفاده على هذه الجهات حتى سنة ٥٤٠ هـ ـ ١١٤٥ م .

بعد أن أخرج النورمانديون العرب من صقلية اجتازوا البحر للعدوة الإفريقية سنة ٥٤١ هـ ـ ١١٤٦م واحتلوا سواحل تونس وطرابلس إلا أن بقاءهم لم يطل وأخرجهم الموحدون في عهد الملك غليوم من طرابلس والمهدية . وفي عهد انحطاط حكم الموحدين تولى حكام تونس من بني حفص إدارة طرابلس أيضاً (٥٥٣ هـ ـ ١١٥٨ م) وبقيت تابعة لهم حتى ظهور دولة بني عمار [١] .

في سنة ٧٢٤ هـ ـ ١٣٢٣ م أسس ابو بكر ويحيى بن عمار في طرابلس حكم اسرته . ويقول المؤرخ التركي الحاج خليفة ان هذه الأسرة ظهرت للوجود في سنة ٧٢٤ هـ واستمر حكمها حتى سنة ٨٠٢ ، وانحدر منها خلال هذه المدة ١٦ اميراً . وجاء في تاريخ الدول الأسلامية ان هذه الأسرة حكمت طرابلس الغرب من ٧٢٤ هـ حتى ٨٠٣ هـ وانتهزت فرصة ضعف الحفصيين لتستقل في حكمها، وجدها الأعلى هو الأمير ثابت ابن عمار وولي بعده بالترتيب محمد وثابت وابو بكر والأمير علي ويحيى وعبد الواحد [٢] .

---

(١) يقول حسن صافي بك في تاريخ طرابلس أن الذين استولوا على طرابلس في سنة ٥٤١ ليسوا النورمانديين بل الصقليين بقيادة جورجي ميخالي، وهذا عين شيخ البلد يحيى بن مطروح والياً عليها ثم غادرها بعد ان رتب لها حامية قليلة وبعد مضي اثنى عشر عاماً جاءها عبد المؤمن سليل اسرة الحفصيين في ٥٣٣ هـ وطرد منها الصقليين ص ٣٠ - ٣١ .

(٢) ان ابن غلبون لم يذكر بني عمار في تاريخه ويقول ان عبد المؤمن الحفصي احتل طرابلس في ٥٥٣ هـ وبعد ان ولى عليها يحيى ابن مطروح ذهب الى المغرب .

وبعد ان اسس صلاح الدين الأيوبي دولة الأيوبيين في مصر بعث مملوكه الأرمني الأصل المسمى قره قوسن الى المغرب فاتفق مع قبيلة بني هلال وغيرهم من النهابين واحتل في سنة ٥٦٨ هـ مدينة طرابلس ثم قام بالدعوة للاستقلال. وفي سنة ٥٨٦ هـ جاء يعقوب ابن يوسف ملك المغرب الى تونس =

كان الأسبـــانيون قد بدأوا الأستيلاء على الشمال الأفريقي واحتلوا سنة ١٥٠٥ م المرسى الكبير في الجزائر وفي سنة ١٥٠٨ بينون دى ويليز وفي سنة ١٥٠٩ وهران ثم استمر القائد دون بدرودي نودارا فاحتل اولاً بجاية وفي عـام ٩١٦ هـ ـ ٢٦ يونيو ١٥٠٩ م اكتسح مدينة طرابلس بعد حرب عنيفة قتل فيها معظم سكانها وألحق ادارتها بصقلية التي كانت حينذاك تابعة له. وفي ٩٣٧ هـ ١٥٣٠م تركها الأسبان لفرسان مالطة وهؤلاء بالأستناد على مالطة وطرابلس تمكنوا من إلحاق الأضرار الكثيرة بالمسلمين وبمراكبهم.

ولما احتل الأسبانيون مدينة طرابلس لجأ الذين تمكنوا من الهروب الى تاجوراء التي تبعد ستة عشر كيلو متراً ، اما بقية الأنحاء وبرقة لم تقـع في أيدي الأعداء ، وعندما أدرك اهل طرابلس عجزهم عن التخلص من العدو بعثوا في عام ٩٢٦ هـ ـ ١٥١٩م الى استانبول وسيطاً ليطلب المساعدة وهناك قابله مراد أحد خدام القصر الذي كان يتكلم بالعربية ، وحدثه وأفهمه ما تعاني الدولة العثمانية من متاعب في ذلك الوقت ، ومع ذلـك

= وهجم على قابس التي كانت مقاماً لقره قوسن واستولى على اموال قره قوسن وعلى زوجته واولاده وبعثهم الى المغرب كما استسلم قره قوسن ورضخ للأقامة في تونس .

الا انه لم يهدأ فجمع اعوانه ويمم شطر طرابلس فاحتلها . ولما بلغ هذا الخبر الى يحيى ابن اسمر والى الجريد من قبل الحفصيين زحف عليه وطرده منها ، غير ان قره قوسن عاد اليهـا وتمكن من حكمها حتى سنة ٦٠١ هـ وفي هذا التاريخ حضر يعقوب بن يوسف وولى يحيى ابن اسمر بن مبروك الذي تمكن من القبض على قره قوسن وامر بقتله .الا ان يحيى لم يستقم في حكمه وظلم الرعية مما دعا الناصر ابن يعقوب للزحف عليه فولى يحيى هارباً ثم نصب مكانه محمد عبد الواحد والياً . وقد بلغت البلاد خلال حكمه ارج السعادة ولما توفي تولى ابنه مكانه ؛ ولما وقع الخلاف بين الحفصيين وتنازعوا على الملك التجأ احدهم للأسبان وحرضهم على ارسال اسطول في سنة ٩١٦ هـ لاحتلالها .

فقد عرض مطالب أهل طرابلس على السلطان ، الذي أمر بإسناد امـارة طرابلس الى مراد آغا نظراً لمعرفته اللغة العربية وأرسل لهـا مزوداً بقليل من الجنود .

اقـام مراد آغا إدارة في تاجوراء باسم الدولة العثمانية وانشأ حصناً صغيراً بمثابة مركز امامي فيما بين تاجوراء وطرابلس وبذل كل مـا في امكانه لإقلاق راحة الأسبان والترحيب بالفارين من طرابلس ، إلا أنه لم يوفق في زحزحة الأعداء بالحصار الذي ضربه من حول طرابلس بالقوات القليلة التي جندها من الأهـالي باختيارهم ، وقد بنى في تاجوراء مدرسة وجامعاً كبيراً مزداناً بعرصات المرمر وحفر بئراً للسابلة على طريق طرابلس تعرف باسمه وتذكر اسمه بالخير .

كان مراد آغا لاينفك عن الكتابة الى استانبول بما يقترفه فرسان مالطه ،وكلاء الأسبان، من مظالم في حق المسلمين و يلتمس تخليصهم؛ كما أن الربان درغوت بطل سواحل المغرب كان يزكي هذه الألتماسات .

- ١ -

الرئيس درغوت

ان للرئيس درغوت [١] مكانـة كبيرة في تاريخ طرابلس الا ان معلوماتنـا عن حياة واعمال هذا الربان العظيم قليلة جداً . ولا تعرف

(١) ان كلمة رئيس باللغةالتركية تعني الربان وبما ان كلمة رئيس متممة لاسم العلم فقد ابقيتها في اسماء الربابنة . غ . أ

بالتفصيل أو بالتاكيد ايامه الأولى واعماله المشهورة .

ولد درغوت في سنة ٨٩٠لأب يدعى ولي بقرية تابعة لناحية «سراولوز من لواء منتشا» .

لم اعثر على مكان ناحية سراولوز ويقول علي حيدر امير بك ان بيري بك يذكر سراولوز بانها تلك السواحل المقابلة لجزيرتي استانكوى وسومبكى من الشرق[1] وقد ذُكرت ستراولوز في التقويمين السنويين لعامي ١٢٨٢ و١٢٨٣ ضمن النواحي التابعة الى لواء منتشا ولم تذكر في التقاويم التالية .

ان أسماء الأقضية والنواحي والقرى تتبدل لأسباب عديدة بحيث يصعب معرفة اسم بعضها قبل اربعين او خمسين سنة ، لذلك فإني لم اعثر على الناحية التي كانت تدعى ساراولوز وحتى اذا وجدتها فان اسم القرية مجهول.

كان درغوت شجاعاً وقوي البنية ومغرماً بالمصارعة وبرمي النبال ، وقد التحق منذ صغره ،اسوة بالأتراك المغامرين والباحثين عن الصيت والبطولة ، باحدى سفن القرصنة[2] .

اشتغل درغوت صبياً مساعداً ومرشداً ومدفعيا،ولما بلغ في سنة ٩١٠هـ العشرين من عمره اصبح بحاراً ذا خبرة وتجارب ويظهر من هذا التاريخ ان درغوت زاول الملاحة والقرصنة قبل الأخوين اوروج وخضر .

---

(١) ان هاتين الجزيرتين تقعان الى الشمال من جزيرة رردس وسكانها من اليونان .

(٢) تحفة الكبار ص ٦٧ .

لأن هذين سافرا للمغرب في عام ٩١٩ .

كان درغوت يأخذ حصته من الغنائم مثل رفقائه ، وقد وفر مبلغاً مما كان يتقاضاه دخل به شريكاً في إحدى سفن القراصنة . وفي إحدى ضرباته غنم سفينة انتقل إليها تاركاً السفينة المشتركة ، إلا أن الجدفين في سفينته كانوا أتراكاً ، وكان يتوق إلى أعفائهم من هذا العمل الشاق للاستعانة بهم في القتال الجديرين به .[1]

وذات مرّة فاجأ إحدى قرى صيادي الأسماك على ساحل صقلية بهجوم خاطف وأخذ منها العدد الكافي من الجذفين العتاة . وخلال جولاته وصولاته التقى بالربانين أولوج وخضر وعملوا معاً لعدة سنوات ... ثم تزوج درغوت ، ولكن ممن تزوج ؟ هذا ما لا نعرفه[2]

عمل درغوت مساعداً للربان خضر وزوّج ابنته لحسن بك نجل خضر رئيس المذكور ، ولكن تواريخ هذه الحوادث يظل مجهول التفاصيل .

إن في حياة درغوت أربع حوادث هامة وجديرة بالذكر ، غير أن

---

(١) كانت عملية التجديف في المراكب الحربية في تلك الأزمنة توكل إلى الأسرى أو إلى المحكومين بالاشغال الشاقة تحت إشراف بعض الزبانية المزودين بالسياط والعصي الغليظة للضرب على ظهور المقصرين في التجديف وهم على الاكثر عراة الابدان . «ع.أ»

(٢) يقول قورت أوغلي فوزي في كتابه المسمى « درغوت باشا » بأنه تزوج من بنت سرايلات صالح أحد أتراك مودون المقيم في جربه .

أصولها وتواريخها غير معروفة بالضبط وكل واحـــد يكتبها في صورة مغايرة للأخرى . وهذه الحوادث هي :

١ ـ وقوع الرئيس درغوت ونجاته .

٢ ـ الإطباق عليه في جربه وأفلاته .

٣ ـ احتلاله للمهدية . و ٤ ـ استدعاؤه إلى استانبول بعد مهاجمته لسفن البندقية إبان توليه إمارة لواء « قارلي إيلي » وذهابه ثانية للمغرب .

١ - وقوع درغوت في الأسر وخلاصه منه

وقع الرئيس درغوت في أسر النصارى ، كما جرى لأوروج رئيس أثناء قيامه بالقرصنة وتحرر بعد انقضاء مدة طويلة ، وتقول تحفة الكبار في هذا الخصوص :

« بينما كان درغوت يشحم السفينة في إحدى المرات باغته الربان جانتينو دوريا الابن ، وبعد أن أسره سجنه في جنوه . فذهب خير الدين باشا باسطول لمقابلة الجنويين وهددهم بإحراق سواحلهم كافة وتم له تخليصه وأطرى عليه في ديوانه حيث قال : « إن درغوت أشجع مني » وأهـــداه السفينة التي كان يحتفظ بها احتياطاً ، ثم توجه إلى المغرب وشنّ على غرار خير الدين باشا غزوات موفقة ، وكلما توفر لديه المال زاد في عدد مراكبه حتى أصبح يتجوّل على رأس خمس وعشرين سفينة » .

ويقول « هامر » في كتابه ٣٣ ص ٢١٢ : « دخل درغوت الخدمة في إحدى سفن القرصنة وخلال مدة وجيزة عين ضابطاً على سرية من رجال

البحر ، وأخيراً لما حاول الاستيلاء على جزيرة كورسيكا تغلب عليه آندريا دوريا وأسره و صفده بالأغلال كالعبد في سفينة غالبه ، وبوصول باربا روس أمام جنوه وتهديده بتخريب بلدان الجمهورية فيما إذا لم يطلق سراح درغوت رئيس أعيدت له حريته » .

يستفاد من رواية الكتابين أن أسر درغوت وخلاصه كانا في فترة عمله مع رجال البحر القراصنة .

ولم يذكر البجوي أي شيء عن أسر درغوت .

يقول علي رضا سيفي في كتابه المسمى «درغوت رئيس» أن أسره كان في سنة ٩٤٦ هـ وخلاصه في سنة ٩٤٩ هـ .

ويقول صفوت بك في مقاله المنشور في « الصحيفة » من الجزء الأول من مجلة مجمع التاريخ العثماني أن أسره كان في سنة ٩٤٧ هـ وخلاصه في سنة ٩٥٠ هـ .

يقول علي رضا سيفي بأن « خيرالدين باشا وهو في طريقه إلى نيس مرَّ بجنوه وخلَّص درغوت ، وحقيقة الأمر أن خير الدين باشا ذهب في سنة ٩٤٩ هـ إلى نيس لمعاونة الفرنسيين ، ومن الطبيعي أن الباشا يستفيد من وجود الأسطول العظيم تحت قيادته لفك أسار صديقه البطل ، إلا ان الوقعة التي تذكرها تحفة الكبار تشير إلى أن الأسر والخلاص حدثا قبل هذا التاريخ .

تقول تحفة الكبار في «الصحيفة » ٤١ أن خضر رئيس استدعي إلى

استانبول ، وكان بين الأسرى الذين في الجزائر ربابنة من النصارى لهم خطورتهم لا يريد أن يذهب ويتركهم ، كما أنه لم يرجح فكرة قتلهم ، لأن الكفار كانوا يبادلون الأسارى بأمثالهم وبالفداء ، وحينما كان النصارى يعذبون أسرى المسلمين بجـــدع أنوفهم وقطع آذانهم وأعصابهم كتب لهم خير الدين بوجوب رفع التعذيب عن الأسرى فرضخوا للأمر ولم يلحق الربانين صالح ودرغوت أي أذى ، بينما كان خير الدين ينتظر الفرصة المواتية » .

بعد أن ذكر « هامر » مقتل الأسرى في كتابه ٢٨ ص ١٦٨ يقول :

« لم تمس حياة أحد بأذى خوفاً من معاملة النصارى بالمثل في حق الربانين البطلين صالح ودرغوت الأسيرين » .

« هامر » يقول انه استقى هذه المعلومات من تحفـة الكبار ، إلا ان هناك فرقاً بين الروايتين .

إن « هامر » فهم من تحفة الكبار أن الرئيسين صالح ودرغوت كانا اسيرين في ذلك التاريخ . إلا اني استنتج ان تحفة الكبار تبحث عن حادث وقع في السابق ، وان الرئيسين لم يكونا اسيرين في ذلك التاريخ .

ان خير الدين باشا استدعي إلى استانبول في سنة ٩٣٩ هـ ـ ١٥٥٣ م ، وعليه فإن صالح ودرغوت تخلصا من الأسر في سنة ٩٣٩ هـ ، وبما أنهما بالتأكيد كانا في عام ٩٤٥ مع الأسطول العثماني أمام برەوزه فإن خلاصهم من الأسر لا يمكن أن يكون بعد هذا التاريخ .

ان و قعة المهدية تبين أن حادث الأسر كان قبل سنة ٩٣٩ .

ان كيفية خلاص درغوت من الأسر مشكوك فيها ، كما أنه مشكوك فيمن أسره وأين قضى مدة أسره ؟ .من المحتمل أن يكون قضى مدة اسره في جنوه ، لأنني لا أرى إمكان استخدام ربان له اهميته في التجديف بإحدى السفن ، والذي أسر درغوت هو آندريا دوريا أو ابن اخيه جانتينو ، وعلى كل ، فهذا كلام يحتاج للإثبات . هناك اكثرية تقول ان خلاص درغوت كان بسبب ذهاب خير الدين باشا إلى جنوه وتهديده لهم.

ويقول صفوت بك بأنه حصل على حريته مقابل ثلاثة آلاف دوقة وجزيرة طبرقه في تونس .

مباغتة الرئيس درغوت في جزيرة جربه

في الوقت الذي كان فيه الربان درغوت يهاجم الشواطىء الشمالية للبحر الأبيض فيحرقها ويشيع فيها الذعر والفزع كانت دول جنوه والبندقية واسبانيا المالكات لأقوى الأساطيل يجدون في البحث للقبض عليه.

وأخيراً ، وبينما كان درغوت بائتاً في ميناء القنطرة بجزيرة جربه انحدر اسطول العدو على هذا المرسى الصغير وأطبق على سفنه ، فدفع الرئيس درغوت سفنه من البر واجازها للجانب الآخر من البحر وخلص نجياً . ان النجوى وتحفة الكبار يقولان ان هذا الحادث كان ايام قرصنة درغوت بينما « هامر » و « علي رضا سيفي » يسجلانه في سنة ١٥٥٠ م ،

ولذا فإني كتبت هذه الحادثة معتمداً على روايتي النجوى وتحفة الكبار وهما أقدم الوثائق .

فتح المهدية وضياعها

لا يوجد في تاريخي النجوى وتحفة الكبار أية معلومات عن احتلال الريان درغوت للمهدية .

ان علي رضا سيفي وهامر يسجلان هـــذا الحادث ، وهامر لم يذكر تاريخ احتلالها من قبل درغوت بل يذكر أنها فتحت من قبل بابا أوروج[1] ، ثم انتقلت إلى درغوت ، وعلي رضا سيفي يقول أنها أُخذت في سنة ٩٥٦هـ ولو أن تاريخ فتح المهدية غير معروف بالتأكيد ، إلا أن استيلاء الاسبانيين لها كان في ١٠ سبتمبر ١٥٥٠ م الموافق ٧ رمضان ٩٥٧ هـ .

إن فوريج يعطينا معلومات كثيرة عن درغوت والمهدية ، ويقول بأن المهـــدية دخلت في حوزته سنة ٩٣٩ ، ولذا فإني اكتب وقعة المهدية بالاستناد على هذا المؤرخ .

ذهاب الرئيس درغوت للمغرب

إن روايات ذهاب الرئيس درغوت للمغرب وعمله كقـــائد عام لأسطول حكومته ، وذلك بعد استدعائه إلى استانبول من قبل رستم باشا للتحقيق معه عن سفينة البندقية التي أغرقها يوم كان حاكماً على «فارلي ايلي»

---

(١) أحد رؤساء القراصنة المشهورين .

هذه الروايات بحاجة للتمحيص . إن تدقيقها الصحيح بحاجة إلى المزيد من التفصيلات : لنبحث أولاً متى حضر درغوت للاستانة ونصب حاكماً للواء « قارلي ايلي » .

تذكر تواريخنا أن «سنان بك كان حاكماللواء غاليبولي وهي بلدة على يمين الداخل لمضيق الدردنيل من بحر مرمرة ، وكان قبطاناً للبحر ، وكلما خرج للغزو يخابر درغوت فيجتمعان ويسافران معاً لغزو الأعـــداء ، وكلما اجتمعت سفنهما تقيم مجموعة السفن مهرجاناً تطلق فيـــه البنادق والمدافع ابتهاجاً بتلك المناسبة، وكان سنان بك معجباً بنظام سفن درغوت وبتدريب بحارتها وبسرعتهم في إطلاق البنادق والمدافع ، ولما كان تطويع هذا المغامر لا يمكن إلا بالملاينة فقد لاطفه واستماله وساقه لخدمة الدولة . وقد حضر درغوت وبرفقته ثماني سفن والربابنة غازي مصطفى وأولوج علي وحسن كـله والرئيس محمد والرئيس حامـــل العلم ودلي جعفر وقره قاضي فأسند إليه حاكمية لواء « قارلي إيلي » ، وخصص لكل من الربابنة مرتباً قدره سبعون أقجه وفانوس » .

لم يذكر ضمن هذه المعلومات تاريخ ذهاب درغوت إلى استانبول ، ونستطيـع بلوغ هـــذه الغاية عن طريق معرفتنا لتاريخ امارة سنان باشا للبحرية العثمانية (قبطان باشا) ان التواريخ العثمانية تبين ان سنان عين في سنة ٩٥٧ هـ قبطان باشا ، اي قائداً عاماً للأسطول ، وهي بمثابة وزير البحرية في عصرنا الحاضر . ولذا فإن موعد تلاقي درغوت بسنان باشا كان على اقرب تقدير في سنة ٩٥٧ هـ والاستيلاء على طرابلس الغرب في سنة

٩٥٨ هـ ، وعلى هذا فإن قدوم درغوت بتشويق من سنان باشا إلى استانبول وتنصيبه حاكماً «لقارلي ايلي» يجب ان يكون في هذا التاريخ .

لذا فإن الشك يحوم حول روايات إغراق درغوت لسفينة البندقية ثم ذهابه إلى المغرب وبقائه سنتين هناك ، واخيراً استدعاؤه من أجل الاستيلاء على طرابلس الغرب .

فأما ان هذه الحوادث لم تقع أو جرت خلال بضعة شهور من الزمان.

تفصيلات عن حياة الرئيس درغوت

ان الذي بلغنا من غزوات درغوت قليل جداً ، لقد كان رباناً ذا صيت وكفاءة . وفي إحدى ضرباته عطل ثماني عشرة سفينة للنصارى واستولى عليها ، وفي رأس مانيا استولى على مركبين محملين بالقمح كانا في طريقهما من سلانيك إلى البندقية ، وكان يهاجم بوارج نصرانية في ضخامة الجبل ويطفىء جذواتها ، وكان يجوب البحار في رفقة الكثير من الربابنة الأتراك .

وبينما كان مع ثلاثة عشر سفينة ملقية مراسيها في خليج صغير مجاور لـ « جير الاتا » الكائنة بين كالوي وليانزا من جزيرة كورسيكا بوغت بهجوم « جانتينو دوريا » .

لقد هاجم العدو سفن درغوت بثمانين سفينة ، وكان حصن صغير على الساحل يصب قنابل مدافعه على السفن التركية ، وبما ان عدداً كبيراً من الكورسيكيين المسلحين تجمعوا على الشاطىء فقد صار من المستحيل

الخروج لليابسة ،ولما رأى الخطر يحيط به من كل الجوانب لم يجد مندوحة من مهاجمة اعدائه ، ودام القتال ساعات، وعلى ظهر كل سفينة وقعت معارك دامية ، إلا أن العدو تغلب بكثرة عـــدده واسر درغوت بعد ان غرق مركبه ونقل إلى ظهر سفينة قائد الأسطول المعادي . كان درغوت يظن ان قائد الأسطول هو آندريا دوريا، ولما رأى الشاب جانتينو قال محتفياً : « هل صرت اسيراً مثل هـذا الصبي »[1] ونقل درغوت إلى جنوه حيث اعتقل ، وكان جل رفاقه قد استشهدوا ، والقليل منهم وقع في الأسر ، وكان الرئيس صالح ضمن هؤلاء الأسرى .

كان الجنويون يرفضون مبادلة الأسرى رغم الأموال التي تعرض لتخليص درغوت ، ودامت مدة اسره سنتين ، ولما فهم خير الدين بك انه لا يستطيع تخليص درغوت بالحسنى ذهب إلى جنوه باسطول قوي من القراصنة وهدد بأنه ـ في حالة رفضهم إطلاق سراح البطل، صديقه القديم ـ سيحرق ويدمر جنوه وسواحلها .

اجتمع مجلس شيوخ جنوه ورضي بفك أغلال الربانين درغوت وصالح وتسليمهما إلى خير الدين بك .

تعانق البطلان على ظهر سفينة بارباروس وقام الأسطول بمراسم التحية له واهدى «بارباروس» سفينته الإحتياطية لدرغوت واثنى عليـــه امام المصطفين في تشكيلة حرس قائلاً : « ان درغوت اشجع مني » .

---

(١) تحفة الكبار .

وبعد ان انتقل درغوت إلى سفينته عاد لنشر الرعب والفزع على سواحل ايطاليا واسبانيا ، وزاد في عدد مراكبه بما دخل في يده من الغنائم وصار يتجول في اسطول يتألف من خمس وعشرين سفينة .

بعثت الدول النصرانية أساطيل قوية تجوب البحار باحثة عن درغوت للقبض عليه ، ويقول «بجوي» : « إن أمراء البحر الأعداء علموا بوجود درغوت على ساحل جزيرة جربة فتجمعوا وتوجهوا فوراً إليهـــا ، كان درغوت مع ثمان من مراكبه راسية في مكان يدعى بون على مصب جدول القنطرة من جزيرة جربه يشحم سفنه ، وكانت اساطيل العــــدو تتألف من ماية وخمسين سفينة حربية منتقاة من أساطيل البندقيـــة وجنوه واسبانيا » .

ألقى اسطول الأعداء مراسيه أمام بون ، وبوغت درغوت بمثل تلك المفاجأة التي تعرض لها في كورسيكا ، إلا انه في هذه المرة كان هنا في بلده ، ولما رأى من المناسب أن يخفي عن العدو قوته ووضعه وتحركاته استقل سفينتين مما كان في البحر وهاجم القريب إليه من سفن الأسطول مطلقاً عليهم وابلاً من قنابل مدافعه مما اضطرهم إلى رفع المراسي والابتعاد قليلاً عن فم المرفا لمسافة تجعلهم في مامن من القنابل ، وتستطيع من مكانها مراقبة الميناء .

ولما حل الليل عمل درغوت مع رفاقه في نقل عدد من المدافع وتركيزها في الاستحكام الذي أقامه على الربوة الكائنة بمدخل المرسى ، ولما طلع النهار أطلق النار من هذا الاستحكام واضطرها للابتعاد قليلاً .

« هامر » يقول إن قائد الأسطول كان آندريا دوريا ، وتحفة الكبار يقول إنه جيفالا، وربما كان الإثنان آندريا دوريا ورفقاؤه يعدون درغوت سجيناً في القفص ولا يرون أنهم بحاجة لاقتحام الميناء بالقوة ويظنون أنه ورفقاءه متى جاعوا من قلة الطعام وهزلوا يأخذونهم مع سفنهم بدون أي عناء .

ومع هذا ، وضد كل احتمال فقد بعث دوريا يطلب تزويده بجنود البر من صقلية وقرر انتظار قدومهم ، وفي هذه الأثناء تجول حول الجزيرة ولما تأكد من عدم وجود مكان يتسلل منه أخبر أوروبا مسبقاً انه ألقى القبض على درغوت واثناء انتظاره لقدوم القوات من صقلية قام بنصب أوتاد في نقاط مختلفة من المضيق والميناء لتحديد المسافات .

ركب درغوت مركبه السريع وأطلقه في اتجاه أسطول العدو ، وفي طريقه أزال كل العلامات التي نصبها العدو وعاد دون ان يلحق به أي ضرر من القنابل والرصاص الذي صبه عليه الأعداء ، ومن ثم أقام درغوت على مدخل المرسى تحصينات جديدة زودها بالجنود والمدافع فجعلت من المستحيل حتى على القارب الصغير أن يعبره .

كان العدو يضحك من الجهود التي يبذلها درغوت والتي سوف لا تجدي نفعاً أمام القوات القادمة من صقلية . وكان درغوت يعرف هذا ويسخر أيضاً منهم . وكان قد وضع مخططاً للخلاص وقرر أن يفعل مثلما فعل أومور بك في كورنت والسلطان محمد الفاتح في القسطنطينية بان يجيز سفنه من البر وبدأ في التحضير لذلك .

كان في مجرى المستنقع الذي يصب في الميناء من الماء ما يكفي لتعويم زورق وعلى مسافة ميلين يوجد البحر . فكلف الرئيس درغوت بجدفي أربع سفن لتوسيع هذا المجرى والزيادة في تعميقه ، كما كلفهم بفتح منفذ في القسم الترابي ، وبذل مجهوده ليلاً ونهاراً لشق قناة تسهل مرور السفن، كما مُدت على الطريق الواح سميكة طليت بالشحم لتنزلق عليها المراكب وخلال الأيام التي كانت تجري فيها هذه العمليات كانت البطاريات تطلق نيرانها بلا انقطاع لجلب أنظار العدو إليها .

قام درغوت بسحب السفن بجهود الرجال والدواب ودفعها في الجانب الآخر إلى عرض البحر دون أن يدري العدو بذلك . وأخيراً، وفي ظلمة الليل نقل المدافع والجنود التي كانت بالإستحكامات إلى السفن وأقلع دون أن يترك سوى خيام بالية تغطي بعض الإستحكامات .

كان أمراء حاشية امبراطور إسبانيا الذين حضروا مع آندريا دوريا قد سئموا التوقف والإنتظار ، إلا أنهم تذرعوا بالصبر في انتظار ورود الإمدادات . حتى أنه بلغ من يقين أعداء درغوت بالقبض عليه حداً جعلهم يشيعون للملأ كأنه أمر واقع ، وأبحر كثير من أبناء أمراء النصارى في سفينة مزدانة ليشاهدوا بعيونهم مصيبة درغوت .

بعد أن غادر درغوت جزيرة جربة تلاقى بسفينة القيادة الصقلية وسفينة مالطية كانتا تحملان أبناء الأمراء فعاجلهما درغوت بالهجوم ، إلا أن السفينة المالطية البالغة السرعة تمكنت من الإفلات وهربت ووقع راكبو السفينة الصقلية في أسر درغوت .

لما وصلت السفينة المالطية إلى جربة أخبرت أندريا دوريا بأن درغوت مع كافة سفنه يتجولون في عرض البحر وانه استولى على سفينة حاكم صقلية .

لم يصدقوا في بادىء الأمر هذا النبأ وظنوا أنه من الحيل التي يلجأ إليها درغوت لإبعادهم من هناك ، ولذا تقدموا في اتجاه الميناء للتأكد من الأمر ، فوجدوا الأماكن التي كانت تفتح نيرانها بالأمس خالية ولم يبق أمام الأسطول المعـــادي إلا الرجوع من حيث أتى ، وبذلك اصبح درغوت هو المسيطر على شواطىء اسبانيا وإيطاليا سنة ٩٣٨ هـ .

احتلال المهدية ثم ضياعها

« ظهر لدرغوت جلياً بعـــد هاتين الحادثتين ، الوقوع في الأسر والإفراج عنه ثم تعرضه للاطباق عليه في جربه ،أنه لا بد له من ان يكون متأهباً على الدوام لمجابهة الحوادث وان يكون مالكاً لمرفأ حصين يلجأ إليه عند اللزوم .

في الواقع كانت موانىء الجزائر وملحقاتها تؤدي له هـــذه المهمة ، إلا انه فكر في امتلاك بعض البلدان وتأسيس امارة مثل « بارباروس » .

ـ« هامر » الكتاب ٣٣ ص ١١٢ .

بحث درغوت عن مكان مناسب في افريقيا الشمالية غـــير الجزائر ، فوجد ان البلدان الساحلية الواقعة شرقي تونس مناسبة جداً وهي ليست بيد النصارى ، كما انها لا تقع تحت حكم امراء تونس . في سنة ٩٣٩ حضر الرئيس درغوت امام المهدية وهي واحدة من أقوى القـــلاع التونسية .

وكان سكان القطر التونسي يبغضون حكامهم المحتمين بالنصارى وينتظرون قدوم الأتراك لحمايتهم من النصارى ومن حكامهم ، لذا فإن الرئيس درغوت احتل المدينة والقلعة بدون مقاومة .

يقول « هامر » : « ان المهدية استولى عليها أوروج في عهد مولاي الحسن ومنه انتقلت ليد زعيم القراصنة درغوت » الكتاب رقم ٣٣ ص ١١٤ .

إن درغوت بعد أن تمركز في المهدية تغلغل كثيراً في غزواته .

في سنة ٩٤١ هـ - ١٥٣٤ م استولى خير الدين باربروس على مدينة تونس . وفي سنة ٩٤٢ هـ - ١٥٥٣ م استردها شارل الخامس ونصب مولاي الحسن حاكماً عليها . وعملاً بمنطوق المعاهدة كان مولاي الحسن سيسلم بونة والمهدية إلى شارل الخامس فاستولى على بونة ، وبما ان المهدية كانت في حوزة درغوت فإن مولاي الحسن لم يستطع الوفاء بوعده . قال « فوربيجه » في الصحيفة ٢٦٧ أن « هامر » يقول: ان المهدية بيد خير الدين ، إلا أنها كانت بيد درغوت .

لما جلس مولاي الحسن على عرش تونس صادفته مصاعب جمة ، إذ أن القيروان والبلدان الساحلية لا تعترف به وحكمه يسري على الأراضي التي بين تونس وبنزرت ، فطلب من شارل الخامس ان يمده بالجنود ليوطد حكمه في كل البلاد التونسية ، وشاركه في هذه الرغبة قائد حلق الواد الإسباني ، ولم يحدث أي شيء في سنة ٩٤٢ هـ - ١٥٣٦ م .

في سنة ٩٤٣ هـ - ١٥٣٧ م ورد قليل من جنود صقلية لم يحالفهم التوفيق

في الهجوم الذي شنوه على سوسه ، وبعد سنتين أي في عام ٩٤٥ هـ حضر آندريا دوريا واحتل مدن الساحل ، ولكنه لم يستطع عمل شيء للمهدية لأنها كانت في قبضة درغوت (فوربيجه ص ٢٦٨) والهجوم كان صعباً جداً.

حاول مولاي الحسن في سنة ٩٤٧ هـ احتلال القيروان ، لكنه انهزم في هجوم تعرض له ، وقد استغل سكان مدن الساحل الصغيرة هذه الفرصة للدخول تحت حماية درغوت ، وبهذا أصبح درغوت مالكاً لكل السواحل (فوربيجه ص ٢٦٨) .

في سنة ٩٤٩هـ - ١٥٤٢ م انتقل عرش تونس إلى المدعو حميدة أو أحمد وكانت السواحل والمهدية بيد درغوت ، وانتقلت أنظار أهل تونس كافة إلى درغوت بطل المسلمين (فور بيجه ص ٢٧٢) .

ان الأمارة التي أسسها درغوت في المهدية [١] ضمت إليها مدن الساحل ودامت حتى سنة ٩٥٧ هـ - ١٥٥٠ م في يسر وهناء .

ان الأضرار التي ألحقها درغوت بسواحل اسبانيا وبمراكبها اضطرت شارل الخامس ليقوم بحملة كبيرة على المهدية .

في أواسط ١٥٥٠م توجه درغوت لضرب سواحل اسبانيا تاركاً المهدية لقيادة الربان عيسى ، وكان درغوت قد دمر سواحل بلنسيه وآليكانت ثم توجه إلى جزر الباليار ، ولما عاد وجد المهدية مطوقة براً وبحراً [٢] .

---

(١) ان الموسوعة الإسلامية تطلق على درغوت لقب أمير أفريقية .

(٢) «هامر» الكتاب ٣٣ ص ١١٤ .

كان الانغلاق في القلعة غير مناسب بتاتاً، ومن الخير له أن يبقى باسطوله طليقاً لقطع مواصلات أسطول النصارى بأوروبا ولمهاجمة أجنحتهم ولبذل المساعي لجلب المدد . هذا ما عمله درغوت .

عين شارل الخامس الربان آندريا دوريا للاستيلاء على أراضي درغوت بقوات برية وبحرية انضمت لها غاليطات البابا وعدد من قاليونات مالطة مع ١٤٠ من الفرسان و ٤٠٠ جندي ، وليس هذا فحسب بل كانت تتجمع قوات كبيرة لسوقها للمهدية . إن أعظم دولة في ذلك العهد لم تأخذ على عاتقها مهمة التخلص من درغوت بل كانت تجمع جيوشاً صليبية لمحاربته. ان حاكم صقلية وأمير نابولي أيضاً كانا يتجهزان للاشتراك في هذه الحملة . بدأ آندريا دوريا حرب تصفية أملاك درغوت بإنزال المحاربين للمستير وطوق المدينة من البر والبحر فشن أهل المدينة وأفراد الحامية هجوماً على المحاصرين ، الا أنهم اضطروا أمام الكثرة في العَدد والعُدد للانسحاب الى القلعة وقد رفض قائد القلعة اقتراح التسليم .

بدأ قتال شديد ، وخسر النصارى الكثير من القتلى في الهجوم الذي شنوه ، كما أن فرسان مالطة تضعضعوا . وفيما كان قائد القلعة يدافع شخصياً أمام فجوة فتحتها مدفعية العدو في سور القلعة سقط شهيداً واحتل العدو القلعة في مايو ١٥٥٠ وأخذ ١٥٠٠ أسير .. « هامر » .

بما أن قراصنة الترك متسلطون كثيراً على سواحل نابولي وصقلية كان حاكما هاتين المملكتين يتوقان للاشتراك في الهجوم على المهدية وقد هيئا

جيشيهما وأسطولهما ، الا أنهما كانا يتحسبان من القيام من صقلية والذهاب للمهدية لوجود القرصان الرهيب درغوت في البحر .

استدعوا آندريا دوريا ليتولى حراستهم ، فذهب إلى باليرمو وأخذ معه دون جوان دي ويفا حاكم صقلية ، ثم توجه الى ترابانو حيث اجتمع بثلاثين مركباً محملة بعدد وافر من جنود البر بقيادة دون غارسيا ابن دون بدرودي توليدو ونشروا القلوع الى المهدية . حضر أيضاً لحصار المهدية لويس دي فارغاس قائد القوات الإسبانية في حلق الواد بمعظم قواته ، كما كان أحد أمراء العرب المدعو عارف على اتفاق معهم .

كل هذه القوات توجهت للقتال في المهدية . إن القوات التي تألفت من مملكة اسبانيا ونيابة الملكية بصقلية ومن أمارة نابولي ومن فرسان مالطة ومن الحكومة الباباوية ، ضد هذه القوات والأساطيـــل الصليبية العظيمة ، تقف في المهدية بقيادة الرئيس عيسى قوة تتألف من ٦٠٠ خيال و ١٧٠٠ من المشاة .

أنزل آ ندريا دوريا الجنود الى جوار المهدية بسهولة وباشروا في حفر المتاريس والتحصين . كانت حالة الأتراك المحصورين في القلعة بالغـــة الخطورة ، ولما شاهد المتنفذون من أهل المهدية كثرة القوات المعادية فكروا في الاستسلام . خاطب الرئيس عيسى الأهالي محاولاً افهامهم في عبارات لاهبة وتهديدهم بأن السلامة ليست إلا في القتال والنصر لاغير ، ولرفع معنوياتهم أمر قوة مختارة من ثلاثمائة فدائي وثلاثمـائة فارس فهجمت على

قوات دون غارسيا التي بدأت في تنظيم الحصار ، ثم عزز الرئيس عيسى المهاجمين بأربعمائةمقاتل تمكنوا من الفتك بثلاثة أرباع قوى دون غارسيا وقد خف فرسان مالطة وقوات حاكم صقلية لإمداد دون غارسيا ، إلاأنهم لم يوفقوا لأكثر من إرجاع المهاجمين للأسوار . ان الأتراك لم يدخلوا القلعة بل انسحبوا إلى غابة الزيتون المجاورة للعمل ضد أجنحة العدو .

بدأت مدفعية العدو في قصف القلعة ، وكان للقلعة سوران تفصلهما مسافة خمس وعشرين قدماً يتعرضان لنيران مدفعية مستمرة . وقد دام قصف الأسوار عدداً من الأيام ، وقد حاول حاكم صقلية التقدم في اتجاه ثغرة فتحت في السور من ناحية البر ، ولماوصل جنود العدو تحت السور قابلهم الأتراك الذين خرجوا من القلعة بهجوم صاعق وأفنوهم عن آخرهم.

تحطمت معنويات النصارى لدرجة جعلتهم يفكرون في رفع الحصار وزادت عزائم القراصنة ضراوة.وفي هذه الآونة وصل إلى القلعةقرصانان أوفدهما درغوت سباحة ببعض التعليمات ولينقلوا الأخبار إليه . وافادا بأن درغوت سينزل قليلاً من الجنود للبر يخفيهم في الغابة المجاورة ليباغت النصارى بهجوم يشنه عليهم يوم عيد القديس يوحنا .

انقضى شهر منذ بدأ الحصار والعدو يتدارك مؤونته من القبائل المجاورة ، كما وردته أطعمة من صقلية . وكان بين الأعداء مولاي الحسن أمير تونس السابق الذي سملت عيناه من قبل ابنه حميده ، كما أن المدعو عارف جمع كمية من الأطعمة أحضرها مع ٢٥٠٠ من مقاتلي العرب .

يقال إن مولاي الحسن توفي في هذه الفترة ودفن جثمانه في القيروان،

إلا أن « هامر » و « غرامون » يكتبان أن الحسن تنصر وترهب في ايطاليا ومات هناك .

كان درغوت ، تنفيذاً لوعده ، قدأنزل للبر قوة تتألف من ٨٠٠ مسلح و ٢٠٠ فارس و ٥٠٠٠ مقاتل من أهل البلاد . وقد داخل الشك بعض الأهلين الموالين للنصارى من تقدم محافظي القلعة في اتجاه الغابة وأخبروا العدو بريبتهم . أخذ قائد النصارى كل فرسان مالطـة مع فرق قوية من الجنود وعساكر حلق الوادمع قائدهم فارغاس وتقدم في اتجـاه الغابة . انتظر درغوت الى أن دخلوا في نطاق نيرانه وباغتهم بنيران حامية ، وحـدث قتال دام انهزم على أثره العدو .

مات فارغاس ومعظم الذين كانوا تحت قيادته ونجا حاكم صقلية بكل صعوبة وعاد الى معسكره ، وأثناء هذا القتال خرج الربان عيسى من القلعة بقليل من الجنود وهاجم دون غارسيا وكبده خسائر فادحة . ساءت حالة الأعداء ومدافعهم تضرب أسوار القلعة بلا انقطاع والثغرات التي فتحتها قنابلهم في الجدران كانت صغيرة ، ودار على الألسنة علناً خبر رفع الحصار .

في هذه الآونة جاء أحد الخونة من أهل البلدة الى معسكر الأعـداء وأخبرهم أن جدران السور التي من جانب البحر غير متينة وأنها ليست محفورة من جانب الحامية كما يجب . فقام المهاجمون بوضع مدافع على مركبتين مسطحتين من أسفلهما وساقوهمـا أمام الجهة المذكورة ثم فتحت مدافع هاتين المسطحتين نيراناً حامية لمدة ساعات فسببت فتح ثغرة في السور . وفي ٢٨ أغستوس نصب اثنان وعشرون مدفعاً من العيار الثقيل على بعد

٢٠٠ خطوة من سور القلعة وقذفت هذه المدافع على أقوى برجـين ٤٨٠٠ قذيفة . إن هذه الحفنة من أبطال الأتراك لم تستطع تخصيص قوة كافيـة للدفاع عن المنطقة الضعيفة الكائنة بجانب البحر . ولما تم فتح فجوات عريضة في الجدران شن الأسبانيون في العاشر من (سبتمبر) هجوماً قوياً من هذا الجانب ، ولقد تمكن أبطال الترك من الفتك بكثير من المغيرين في مداخل الفجوات بالسيوف والفؤوس والرصاص ، إلا أن الأعداء لكثرتهم لم يفنوا بالقتل ، وبالرغم من أن العدو رفع أعلامه على الأسوار فإن الاتراك الذين لجاوا الى البيوت كانوا يقاتلون عن كل شبر ، ولم يتمكن العدو من السيطرة التامة على التحصينات إلا بعد مرور ست ساعات .

وقع الربان البطل عيسى في الأسر وهو جريح ، وأخذ النصارى من خونة المهدية سبعة آلاف أسير تقاسموهم فيما بينهم. وكان الرئيس درغوت قد وقع أسير أمير صقلية فافتدى به ابنه من الأسر ومن ثم انسحب أسطول العدو بعد أن ترك في المهدية حامية للدفاع عنها[1] وبهذه الصورة أزيلت أمارة درغوت من المهدية وجوارها .

---

(١) يقول فوزي قورت أوغلي في كتابه عن درغوت باشا ص ٣٧٥ : « أن الحكومة التركية لم تكن غير عابئة بسقوط المهدية إذ كتبت لشارل الخامس أنه باحتلاله للمهدية قد يجاوز شروط المعاهدة أثناء قيام حالة السلم ، وأجاب شارل الخامس بأن لا دخل أبداً للقراصنة في المعاهدات المعقودة بين الملوك وان الرئيس درغوت لم يكن تحت حماية السلطان ولم أفعل أي شيء غير مهاجمته » ، فانتظر السلطان سليمان سنوح الفرصة لإلزام شارل الخامس بوجهة نظره .

يقول « فوربيجه » إن السلطان عزل حسن باشا أمير أمراء الجزائر بسبب إحجامه عن مساعدة درغوت . ربما كان ذلك الإحجام بسبب الغيرة وعدم الوفاق فيما بين درغوت وأمـــير أمراء الجزائر ، إذ لا بد أن بلغ علم الجزائريين بالهجمات الإسبانية التي دامت أربعة اشهر (من شهر مايو حتى العاشر من سبتمبر) وان احجامهم عن إمداد درغوت وجمـــاعته موجب للانتقاد .

ان لدرغوت خلال عهود قرصنته وقعتين أُخريين دخلتا في التاريخ فإذا كتبناهما قد أتممنا معلوماتنا عنه :

في سنة ٩٥٥ هـ نزل درغوت في خليج نابولي واحتل حصن « كاستلا ماري » وأخذ غنائم وافرة من الحصن ومن مجاوريه ، وبعد مدة وجيزة استولى على مركب لفرسان مالطة كانت تحمل الى طرابلس سبعين ألف دوقة[١] .

مجيء درغوت إلى استانبول وذهابه للمغرب

لما عاد الرئيس درغوت الى المياه العثمانية بعد أن فقد المهدية تلاقى مع الأسطول العثماني الذي كان تحت قيادة سنان باشا وتبادل الأسطولان التحية بإطلاق المدافع من سفن الطرفين ، ولما شاهد سنان باشا ما عليـــه مراكب درغوت من تنظيم وسرعة في اطلاق المدافع فكر في ربط درغوت بخدمة الدولة والاستفادة من قوته واجتناب مضاره وحبب إليه ورغبه في

(١) « هامر » الكتاب ٣٣ ص ١١٢ .

الذهاب الى استانبول وخدمة السلطان ، فقبل درغوت هـــذا الاقتراح وتوجه الى استانبول بثماني سفن .

استقبل السلطان سليمان هذا الربان الممتاز قبولاً حسناً وعهد إليـــه بحاكمية لواء قارلي ايلي[1] وكافا كلاً من رفقائه أولوج علي وغازي مصطفى وحسن كله ومحمد رئيس وسنجقدار رئيس ودلي جعفر وقره قاضي بمرتب يتراوح بين ٧٠ ـ ٨٠ آقجه وتعيينه رباناً لإحدى سفن المنائر[2] .

كان الرئيس درغوت قد فقد المهدية على أقرب موعد في سبتمبر ، وفي أكتوبر جاء الى استانبول ، وبما أن مواعيـــد أسفار البحر تكون قد انقضت فإن احتمال خروج درغوت بعد هـــذا الموعد للبحر ضعيف ، وفي السنة التالية أي في سنة ٩٥٨ هـ حوول الاستيلاء على طرابلس .

تقول تحفة الكبار أنه : بينما كان الرئيس درغوت حاكم قارلي ايلي في أحد الأيام في البحر صادف سفينة بندقية ، ولما كانت التقاليد تقضي السفينة البندقية أن تخفض قلوعها قليلاً وذلك تعظيماً لكبار الربابنة ، وتقدم لهم الهدايا ، فإن ربان سفينة البندقية أعتزازاً بقوة سفينته ومؤاتاة الريح لها لم يؤدّ هذا الواجب زاعماً أن درغوت لم يكن من كبار الربابنة ، فغضب درغوت من هذا التصرف وأصدر أمره لسفنـه الثلاث فأطلقت مدافعها على سفينة البندقية ، وبما أن أحد الشجعان الذي له مقامـــه بين

---

(١) إن قارلي ايلي هي متصرفتي آكارنانيا وآئيتوليا في بلاد اليونان .
(٢) بجوي وتحفة الكبار .

رفاق درغوت استشهد حينذاك أعمل رفاقه سيوفهم في كل من بالسفينة وأضرموا فيها النار .

شكا سفير البندقية هذا الحادث إلى الصدر الأعظم رستم باشا ، وبما أن رستم باشا كان يكره درغوت لاعتباره منافساً لأخيه سنان باشا في الصيت والشهرة بعث له مندوباً يستدعيه إلى استانبول . اكتشف درغوت نوايا رستم باشا السيئة وتوجه بسفنه إلى المغرب حيث قضى مدة عامين عاصياً [١] .

«لما تقرر فتح طرابلس الغرب رؤي لزوم الاستفادة من خبرة درغوت بتلك السواحل فأرسلت له نسخة من القرآن الكريم وسيف مذهب مع كتاب الأمان واستُدعي للحضور فجاء واشترك مع سنان باشا في عملية « فتح طرابلس » . لم يدرج هذا الحادث في البجوي ، كما أن من الصعب إدخاله بين حوادث اوكتوبر ١٥٥٠ ويوليه ١٥٥١ .

---

(١) يقول «هامر» إنه ذهب إلى مراكش . والمعرّب يظن أن « هامر » ربما يعني بها كلمة ماروك الفرنسية التي يطلقونها على المغرب ، كما أن الأتراك يطلقون على المغرب اسم فاس . ع . أ

- ٢ -

احتلال طرابلس الغرب

إن أقدم أسماء مدينة طرابلس الغرب هو «اوثيا» ، وكانت فيها لبدة وصبراتة المجاورتان تدعى تريبوليس ، أي أنها تؤلف ثلاث مدن .

منذ عام ٩٣٧ هـ ـ ١٥٣٠ م كانت تحت حكم فرسان مالطة ، وهي محاطة بسور وعدد من الأبراج والنواظير ، ميناؤها مستور عن الرياح الغربية بصف من الصخور ، وتزدان بيوتها البيضاء ذات الطبقات والشرفات الجميلة ، وبالقرب من الميناء قوس للنصر أقيم تكريماً « لماركو آوريليو ».

ان فرسان القديس يوحنا المالكين لطرابلس الغرب كانوا متحكمين في الطريق البحري الذي يربط بين شرق البحر الأبيض وغربه وبقاء هذا الوضع المهدد لمواصلات استانبول بتونس والجزائر والمغرب وعلاقة هؤلاء بالحرمين الشريفين كان بالغ الضرر . لذا فإن السلطان سليمان جواباً على دعوى شارل الخامس الذي كان يعتبر أبطال المهدية والجزائر قراصنة ، فقد قرر ـ رغبة منه في الثأر للمهدية ـ بان يامر بمهاجمة المراكز التي تحت

أيدي القراصنة الحقيقيين وأعداء المسلمين فرسان مالطة واحتلال طرابلس. وقد كان للربان درغوت والقوة التي تحت إدارته واللاجئة للسلطان فضل مهم ومؤثر في هذا القرار[1].

لا شك في أن لاشتراك ذئب البحر درغوت في هـــذه العملية أكبر الفوائد.

بعث السلطان لدرغوت سيفاً مرصعاً ونسخة من القرآن الكريم ودعاه للتأهب واعداً إياه بامارة أمراء طرابلس بعد فتحها. فتلقى الربان درغوت، الذي أوقف عمره للجهاد، هذه الدعوة ببالغ السرور.

أبحر الأسطول العثماني المؤلف من مائة وعشرين سفينة يعاضدهـــا خمسون مركباً لدرغوت فمر بصقلية وأنزل في بلدة أوغوستا بعض الجنود واحتلوها ونهبوها في يومين ومنها توجه الى مالطة التي وصلها يوم ٢٨ يوليه

---

(١) يقول السيد فوزي قورت أوغلي: « ان درغوت بعد أن فقد المهدية بعث عريضة مع أحد مراكبه يلتمس قبول التجائه للسلطان فقبل طلبه وأمر بالإنتظار في أغريبوز، وهناك تلاقى مع سنان باشا وتبادلا التحيـــة بإطلاق المدافع فأثنى سنان باشا على النظام السائد في سفن درغوت وعلى السرعة في إطلاق النار ثم ذهبا معاً إلى بره وزه، ومن هناك أبحر كامل الأسطول وسفن القرصنة واحتلوا طرابلس الغرب، ولما عاد درغوت للأستانة منح لواء قارلي ايلي وأغرق سفينة البندقية أثناء وجوده في بره وزه حاضرة قارلي ايلي. إن سفير البندقية اشتكاه، إلا أنه رؤي الاكتفاء بالمبررات التي أوضحهـــا درغوت وأقفل البحث في المسألة ».

سنة ١٥٥١ وأنزل عليها العساكر . ولما كان المقصود لفت الأنظار إلى مالطه ومنع العدو من إرسال المدد الى طرابلس وليس الاستيلاء على مالطه، وبعد صدام قليل نقل الجنود للمراكب وذهب الأسطول الى خليج «سان باولو» الصغير الكائن في الشمال الغربي من الجزيرة وأرسى فيه .

زحف العساكر المنزلون للبر على المدينة القديمة التي كانت حاضرة الجزيرة فهاجموها ونهبوها ودمروها ، كما أحرقوا أربع قرى أخرى ، ثم انتقل الأسطول إلى جزيرة غوزا فتغلب على جيشها وأسر قائده الذي كان قد رفض الاستسلام وتصدى للقتال ثم نقل الأسرى للمراكب بعد أن دمرت الجزيرة برمتها .

هنا راج خبر مفاده أن آندريا دوريا متوجه الى طرابلس بجيش لجب وأسطول كبير ، وبما أن مالطة لقنت درساً فيه الكفاية فقد يمم الأسطول صوب طرابلس .

وصل سنان باشا بأسطوله إلى تاجوراء فألقى المراسي أمامها وأنزل عليها الجنود ، ثم كتب رسالة الى غاسيار دوويليه قائد حامية قلعة طرابلس يدعوه للاستسلام ، فرفض دوويليه الاستسلام . عندئذ تولى سنان باشا قيادة الستة آلاف جندي والأربعين مدفعاً التي أنزلها للبر وطوق المدينة . وبينما كان حماة القلعة من فرسان مالطة يدافعون بشدة كان دارمون الرسول الفرنسي ماراً بمالطة في طريقه الى استانبول فعلم بحملة طرابلس

ورجاه كبير حكام (الأساقفة) مالطة بأن يتوسط لتخليص طرابلس . ذهب الرسول الى طرابلس وقابل سنان باشا ؛ إلا أن الهدايا التي قدمها للباشا وطلاقة لسانه لم تجديا نفعاً واعتذر له الباشا بانه لا يستطيع مخالفة أمر السلطان ولم يوفق الرسول في وساطته .

كان حماة طرابلس من الفرسان المشهورين يدافعون بكل بسالة ، إلا أن هذه الشجاعة التي كانوا يتحلون بها لم تجد أمام إصرار وعزم الأتراك على الإنتصار .

فتحت نيران مدافع البر والبحر في سور القلعة فجوة كبيرة[1] فحاول القائد أن يبني جداراً من وراء الثغرة ، إلا أن المحافظين الذين تيقنوا من عجزهم عن المقـــاومة قرروا الاستسلام بالرغم من نصـائح القائد وتهديداته . بعث المحافظون إلى سنان باشا رجلاً يبلغه عزمهم على الاستسلام شريطة أن لا تمس أموال وأرواح الأهالي بأذى ، وأن يسمح لهم بالخروج والسفر الى مالطة أو الى صقلية وأن تهيأ لهم السفن اللازمة لذلك. استدعى سنان باشا قائدهم ، وفي ١٤ أغستوس حضر دوويليه لمعسكر سنان باشا الذي عنفه واستبقاه عنده . ويوم ١٥ أغستوس فتحت أبواب

---

(١) يقول السيد فوزي فورت في كتابه عن درغوت باشا أن : «وأثناء الحصار قدم جندي فرنسي هارباً من القلعة وأشار بضرب برجي سان تيه نو وسان تابار بدلاً من ضرب برج سان جان الذي يضرب منذ بدء الحصار لأن جداري هذين البرجين تتكون من الحجارة فقط فأخذ برأيه وخلال بضع ساعات فتحت ثغرة هناك» .

المدينة وسلم المحافظون أسلحتهم وأسروا جميعاً في ١٥ أغسطوس ١٥٥١م ـ شعبان ٩٥٨ هـ .

أبلغت الاستانة بهذا النصر ، إلا أن السلطان بتحريض من الصدر الأعظم رستم باشا لم يفـ بوعده لدرغوت وأعطى أمارة طرابلس لحاكم تاجوراء مراد آغا .

تكدر درغوت كثيراً من الظلم الذي لحق به وقال إن إرادة السلطان نفذت باحتلال طرابلس، وبذلك أصبح حر التصرف ثم أقلع بسفنه ورفقائه في اتجاه المغرب وتبعته سفن الأسطول العثماني ، فافهمهم بوجوب انفصالهم عنه ، ولكنهم ـ ربابنة السفن وسنان باشا ـ ألحوا عليه وبذلوا جهودهم لديه ورغّبوه للذهاب الى استانبول، وأخيراً لم يستطع مقاومة إصرارهم فنزل عند طلبهم وحضر مع سنان باشا الى استانبول فأسندت له إمارة لواء قارلي ايلي ، ولكل من رفاقه قيادة سفينة في الأسطول [١] .

---

(١) بما أن الحوادث التي مرت بدرغوت من سنة ٩٥٨ م حتى ٩٦٣ م ومساعداته لفرنسا لا علاقة لها بأفريقيا الشمالية فإننا ضربنا صفحاً عن ذكرها هنا .

وما يجب علينا إثباته هو أنه : لما كان هذا الربان البطل أليق من يتولى باشارية القباطنة ـ أي وزيراً للأسطول ولما وراء البحار ـ فقد أمر السلطان بأن يسند إليه هذا المقام ، إلا أن رستم باشا دس لدى السلطان كاذباً أن درغوت قال : « أنا كونت نفسي في الخارج » وأنه لا يريد خدمة المقامي » جعلت السلطان يسحب أمر تعيين درغوت في منصب القبطان باشا مع إمارة أمراء الجزائر واكتفى بمنحه أمارة لواء قارلي ايلي . ويقول « هامر » : بينما السلطان في أحد الأيام خارج من قصره التمس درغوت من السلطان البر بوعده وذكر له خدماته . إلا أن درغوت لم يتولّ أمارة أمراء طرابلس إلا بعد وفاة مراد باشا.

إمارة أمراء الخادم مراد باشا

منذ سنة ٩٢٦ هـ ومراد باشا مقيم في تاجوراء والياً للدولة العثمانية على طرابلس الغرب ، ولما كانت قواته قليلة فقد سعى لتحسين علاقاته مع جيرانه من القبائل المجاورة والعربان ، وقد حبب نفسه إلى الأهالي بلين جانبه وحسن سيرته ، كما انه شيد مباني كثيرة في تاجوراء وبذل جهوده لحمايتهم من جور النصارى .

إن سنان باشا بعد الاستيلاء على طرابلس وضع في القلعة حامية من الإنكشاريين وعين قادة وموظفين لبعض الجهات وأصلح شؤون الإدارة. أقام مراد باشا في قصر الحكومة ثم رجع الى استانبول جد مراد باشا في حدود إدراكه لتنظيم إدارة البلاد وإعمارها ، ولم يثر أي حادث مدة حكمه للبلاد إلى أن توفي في عام ٩٦٣ هـ .

إمارة أمراء درغوت

بعد أن توفي مراد باشا أسندت إمارة الأمراء إلى درغوت باشا بطريقة غير معروفة بالضبط. ربما كانت كما ترويه التواريخ أنها أسندت الى درغوت باشا بعد ان توفي مراد ، وبعد ان التمس درغوت من السلطان أن يبر له بوعده او وجهت إليه لعدم رغبة اي شخص في تولي إدارة هذه الأيالة العديمة الدخل [١] .

---

(١) سجل الشؤون الهام بالديوان الهمايوني رقم ١ ص ٢٢ و ٤١ و ٤٦ تولي درغوت باشا لأمارة أمراء طرابلس في ٨ ربيع الأول ٩٦٣ هـ .

حضر درغوت باشا في سنة ٩٦٣هـ لأمارة أمراء طرابلس وبذل جهده لإعمار وتحصين هذه البلاد التي أحبها كثيراً حتى لا تقع ثانية في أيدي الأعداء وجلب معه المزيد من الانكشاريين لمضاعفة قوة الحامية وجاهد لترسيخ العدالة والطمأنينة في البلاد .

خرج على رأس اسطول للبحر فضرب بعض السواحل الأوروبية ومراكب النصارى ثم عاد للبلاد بغنائم وافرة رفه بها عن السكان . ولا يفوتنا ان نقول بأن جهات سوسه والقيروان والمنستير التي كانت بيد درغوت ألحقت بطرابلس بعد احتلالها [١] .

وفي هذه الآونة كان نسيبه حسن باشا ابن خير الدين باشا أمير الأمراء الجزائر.

بعد الاستيلاء على طرابلس أراد الإسبانيون تسليم المهدية لفرسان مالطة ، إلا أن الفرسان رفضوا ذلك بسبب إدراكهم لعجزهم عن الاحتفاظ بها . فقام الإسبان بنقل أسلحتها ، وبعد ان دمروا التحصينات اخلوها ورحلوا عنها وهذه أيضاً ألحقت بطرابلس .

ربطت فزان في عهد مراد باشا بالحكم العثماني وفرضت عليها ضريبة [٢] .

---

(١) سجل الشؤون الهامة للديوان الهمايوني رقم ٣٦ ص ٧٧ ذكر أن :
بعد الأستيلاء على تونس ألحق بها سوسه والقيروان والمنستير ، ومن ثم لما عين الياس أميراً لأمراء طرابلس احتل الأوطان المذكورة.. في ٢٢ ذي الحجة ٩٨٦هـ.
لم نعثر على أية معلومات بخصوص الياس المذكور هنا .

(٢) سجل الشؤون الهامة للديوان الهمايوني رقم ٢٣ ص ٣١٦ : لما كانت الولاية عامرة في عهود مراد باشا ودرغوت باشا وعلي باشا كانت تؤخذ من فزان ضريبة مقطوعة مقدارها ١١٤٠ مثقالاً في ٢٥ شوال ٩٨١ هـ .

بعث درغوت قوات كافية لكافة أنحاء طرابلس حققت له طاعة قبائلها وكانت القرصنة في أوج مجدها والغنائم تنهال على البلاد من كافة الجهات . وكانت هذه الغنائم تكفي لسد نفقات الإنكشاريين ولتحصين المدينة وتجميلها ، وكان الأهالي يعيشون في رغد وطمأنينة ، وقد شيد درغوت مسجداً جميلاً سُمي باسمه.

معركة جربه

كان الأسطول العثماني بعد ١٥٥١ م يخرج للبحر بقيادة سنان باشا وعقب وفاته في سنة ٩٦١ هـ ١٥٥٤ م كان يخرج بقيادة بياله باشا الذي عين قبطان باشا مكان المتوفي سنان باشا ، وكان يرافقه في غزواته درغوت ويشنان الغارات على بعض السواحل الأوروبية.

أصاب فرسان مالطة الذعر لما أدركوا بأن حملات العثمانيين من بعد طرابلس سوف تتوجه إليهم ، وبدأوا يستغيثون ويستنجدون بالدول النصرانية .

كان أعيان العرب ،الذين تأثرت مصالحهم الخاصة بالعدل والطمأنينة واليسر الذي وفرهم درغوت ، كانت قلوب هؤلاء مع النصارى.

(١) غرمونت .

منذ سنتين والبابا بيوس الرابع يبذل جهوده في تحريض الدول النصرانية لتأليف جيش صليبي ضد الأتراك ، وقد لقي هذا التحريض استجابة ، وقامت ايطاليا كافة واسبانيا وصقلية بالتحضير في جميع موانئها.

(٢) غرامونت .

كان التخطيط المقرر كما يلي :

سيتم احتلال طرابلس ويترك فيها أسطولا مالطة وصقلية ، هذه القوات ستمنع السفن الحربية العثمانية من العبور إلى غربي حوض البحر الأبيض ، وبهذا لا تستطيع الجزائر أن تتلقى النجدة من الوطن الأم وتعتمد على قواتها الخاصة ، ثم تهاجم الجزائر ويتم إخراج الترك من افريقيا الشمالية .

لقد تمكن الإسبانيون من استمالة حاكم المغرب إلى جانبهم وتقرر أن يقوم باحتلال ولايات الجزائر الغربية ،أما تونس فإنها كانت تابعة لاسبانيا.

اشترك في هذا القرار حكومات اسبانيا وجنوه والبابا ومالطة وغيرهم. حتى فرنسا التي كانت تدعي صداقة العثمانيين ، والبندقية التي كانت متعهدة بالمحافظة على السلم معها اشتركتا في هذا القرار .

كان الأسطول الذي سيرافق الحملة الصليبية يتألف من ٧٩ سفينة حربية ، وعدد العساكر ينوف عن الأثنى عشر ألف محارب وقد أسندت قيادة الأسطول إلى الدوق دي مدينا بيللي .

كان من الممكن الإستفادة من تجاربه وخبرته ، إلا أنه أصبح طاعناً في السن ، ولايمكن إسناد القيادة إليه بسبب مرضه . تولى قيادة أسطول جنوه جانتينو دوريا نسيب آندريا دوريا وتجمع الأسطول في مسينا .

لما تأكد أمير أمراء الجزائر من هــذه الأخبار بادر بإرسالها إلى استانبول[1] .

حرك هذا النبأ مخاوف كبيرة في استانبول، لأن أمور الدولة كانت في فوضى وحادث الأمراء شغل الدولة في الداخل والخارج والقحط يسود البلاد واستانبول في شبه مجاعة والروس بدأوا لأول مرة بالزحف على بحر أزوف والبحر الأسود ، والبرتغــاليون دخلوا خليج البصرة والبحر الأحمر ، وبدأت سفائنهم تتجول أمام السواحل العثمانية وعصابات صغيرة

---

(١) من قيودات سجل الديوان الهمايوني . جاء في الصحيفة ٨٥ من العدد الثاني من مجلد التاريخ العثماني ما يلي : يؤمر أمير أمراء الجزائر بأنه :

ورد على سدتنا العلية جواباً على استفسارنا عن أحوال الكفار الخاسرين بأن لاسبانيا المقهورة في مسينا تسعين سفينة والمنتظر ورود أربعين سفينة من فرنسا وهم في انتظارنا ، وان أمير مسينا نصب قائداً على مجموعة هذه السفن ، وإن الغرض على ذلك أربعة من مشايخ العرب اثنان من جربه واثنان من طرابلس ، وقلت انهم قرروا مهاجمة درغوت وانك ستحشد العساكر . والآن بناءً على معروضاتك فقد صدرت الأوامر الكريمة إلى علي ربان رودس السابق وإلى قورت أوغلي أحمد ربانها الحالي بأن يسرعا في الوصول إليكم والاجتماع بكم وإلى ربان مصر بالمحافظة على مضيق رودس وأن تؤخذ التدابير من سدتنا الكريمة لتجهيز بعض السفن وإيفادها إليكم ، وآمرك بأن تكتب لنا تخبرنا بالتدابير التي اتخذها وبالأنباء التي بلغتك عن أعمال الأعداء الخاسرين وأفكارهم الفاسدة وأن تكون مجداً وشجاعاً في حراستك وعلى بصيرة وحذر حتى لا يصاب، لا سمح الله ، أسطولي الهمايوني بأي ضرر أو نكبة . هذا ، وكما ذكرتم يجب التمسك بطرابلس إذا قصدوها . في ١٥ شوال ٩٦٦ هـ .

من القراصنة في بحر الأدرياتيك ، وفي بحر ايجه ، في قازداغ ومنتشاوتكه تقوم بالاعتداء على المسلمين والنصارى من رعايا الدولة العثمانية .

وعلاوة على ذلك فقد كانوا يتسللون إلى السواحل البندقية والجنوية محاولين بأعمالهم جلب المتاعب للدولة . وكان البنادقة واقفين على جانب في انتظار اكتشاف الحوادث .

لقد كان عزم الجيش الصليبي القيام بغارة على طرابلس ـ والحالة كما ذكرنا ـ كانت من المسائل التي أقلقت بال السلطان ووزرائه وجعلتهم يضربون أخماساً في أسداس ، وبناءً على المعلومات التي بعثها أمير أمراء الجزائر فقد صدرت في الحال أوامر متتابعة لأمير البحر بياله باشا بان يستكمل احتياجاته . ولما كانت رودس في منطقة خطرة فقد أمر شجاع أمير بحر الإسكندرية بالقدوم إلى رودس وأخذ بعض المراكب من أسطول رودس لمضاعفة قواته وحراسة تلك الجهات ، وصدر الأمر إلى علي بك حاكم قوجه ايلي وإلى قورت أوغلي أحمد بك بأن يلتحقوا ببيالة بك[1] .

الأسطول سيجتمع في المياه الغربية من جزيرة موره ، وسيأخذ جنود السواحل التي أسفل من أولونيا ، ويتدارك أيضاً مواد التموين. وفي هذه الآونة كان القحط في طرابلس، ولما بلغهم أن درغوت بك بحاجة للأطعمة كتب إلى قاضي إينه بختي ليعطيهم الأطعمة إذا طلبوها منه[2] .

---

(١) مجلة مجمع التاريخ العثماني العدد ٢ ص ٨٦ و ٨٧ ومن قيودات سجل الشؤون الهامة للديوان الهمايوني رقم ٢ و ٣ و ٤ .

(٢) سجل الشئون الهامة للديوان الهمايوني رقم ٣ ص ١٠٠ في ٢٢ ذي القعدة ٩٦٦ هـ.

كتب منشور لكافة السواحل بمنع تصدير الحبوب للخارج ، كما أبلغوهم بمصادرة سفن البندقيين والفرنسيين المحملة بمواد التموين، وأنذروا بمعاقبة المقصرين في تنفيذ التعليمات[1] .

أخذ الأسطول ما أمكنه من العساكر والميرة وسافر إلى مياه موره ، وكان شهر أغستوس قد حل ، وكان قد تأكد لديهم استحالة استكمال احتياجاتهم قبل حلول سبتمبر آخر موعد للسفر في البحار ، ولما بلغهم أن العدو سيقلع في ١٥ أغستوس من مسينا ليهاجم طرابلس فإن القبطان باشا بعث يستفسر من استانبول عما إذا كان يؤمر بالعودة إلى استانبول أم لا . فتلقى جواباً مبهماً[2] ، ولما كرر السؤال تلقى الجواب بالرجوع[3] ولما رجع الأسطول بقي درغوت معتمداً على قواته . قضى الأسطول شتاء عام ٩٦٦ في استانبول لاستكمال احتياجاته وتجهز جيداً .

غزا قراصنة البحر في هذه الفترة جزيرة كريت[4] ونهبوا في مياه كورفو مركبين للبندقية ، وهذه الأعمال بالطبع ستفتح هوة في العلاقات بين الدولة العثمانية وبين البندقية .

---

(١) سجل الشئون الهامة للديوان الهمايوني رقم ٣ ص ١٠٠ في ٢٢ ذي القعدة ٩٦٦ .

(٢) سجل الشئون الهامة للديوان الهمايوني رقم٣ص١٠٠ في ٢٢ذي العقدة٩٦٦

(٣) مجلة مجمع التاريخ العثماني العدد ٢ ص ٩٠ الوثيقة رقم ١١ من سجل الشئون الهامة للديوان الهمايوني .

(٤) صفوت بك ، مجلة مجمع التاريخ العثماني رقم ٢ص٩١الوثيقة١٥من سجل الشئون الهامة للديوان الهمايوني .

كان أسطول العـــدو متجمعاً من أربع أو خمس دول ، وكان الايطاليون والاسبانيون لا يطيقون بعضهم البعض ، أي لا يتحابون ، والجنويون يانفون من الدخول تحت قيادة الإسبانيين ونشب النزاع بينهم[1] .

عزم القواد على الإبحار ، إلا أن رياحاً هبت وأخرتهم ، وقد أقلعوا خمس مرات ، وهبت رياح شديدة خمس مرات ردتهم على أعقابهم للاحتماء في الميناء. وأخيراً أقلع الأسطول في يناير ١٥٦٠م عدا عن ثمانية مراكب تابعة لفلورنسة وجنوه وموناكو وصقلية تأخرت لأنها لم تستكمل تجهيزاتها ، وفيما بعد خرجت كل بمفردها للالتحاق بالأسطول ، وفي الطريق وقع بعضها في يد درغوت .

٥ يؤمر أمير أمراء الجزائر بأن :

بعثت رسالة بالوصول في ١٤ ذي القعدة إلى المكان المسمى حالومج[2] وأبلغنا أنه لاقاك هناك حاكم لواء وقوجه ايلي قدوة الأمراء الكرام علي بك دام عزه ومعه تسعة مراكب وانك لما وصلت في ٢٤ منه للمكان المسمى سيبون[3] حضر الرئيسان يونس وعلي اللذان كنتُ بعثتهما للتجسس

---

(١) مجلة مجمع التاريخ العثماني رقم ٢ ص ٩٠ الوثيقة رقم ١٠ من قيودات سجل الشئون الهامة للديوان الهمايوني .

(٢) إن «حالومج أوغالومج» هو رأس يدعى اليوم غليموس يقع في الغرب الشمالي من ساحل موره وبالتمام في الضفة المقابلة لزانطة .

(٣) إن سيبون هي الجزيرة المعروفة اليوم باسم سابيانجه تقع قبالة رأس موتون أحد الرؤوس الثلاثة من موره .

وأفاداك أن أسطول الكفار الحقيرين الموسوم بالهزائم تشتت إذ أن جنوده لما نزلوا للبر في مسينا حـــدث بين الايطاليين والاسبانيين عراك بسبب الإحن القديمة بينهما ووضعوا في بعضهما البعض السيوف ، وحدثت مقتلة هائلة قتل فيها ما يقارب ٦٠٠٠ من الكفرة وآمرك فيما بعد أن تقتفي أثر الكفار الحقيرين وتتجسس على أحوالهم وتصرفاتهم وآرائهم الفـاسدة وتخيلاتهم الـكاسدة ، وتعرفنا بالحقيقـة عن تشتت أسطولهم وأن تكون على بصيرة وأن تحترز من خدع العدو وحيله وتتجنب الغفلة عن بلوغ الأضرار للأسطول الهمايوني وسكان السواحل » . في ٩ ذي الحجة ٩٦٦هـ

وصل أسطول الصليبيين إلى مالطة وانتظر هناك أكثر من شهر قدوم ستة مراكب كبيرة محملة بالأطعمة وباحتياطي الذخيرة الحربية ،وبما أنها تأخرت عن الحضور أبحر الأسطول في جو حسن وريح مواتية متجهاً إلى الضفة الإفريقية . كانت المراكب غاصة بالعساكر ونتيجة لبقائهم طول هذه المدة في السفن فقد تفشت فيهم الحمى والدوسنطاريا والاسكوربيت وقذف في اليم ألفا جثة من موتاهم . لذا فإن حاكم صقلية وغيره من أمراء الحملة لم يستصوبوا مهاجمة طرابلس التي يدافع عنها درغوت بجيش هزيل حطمت قوى أفراده المشاق والأمراض واقترحوا مبدئياً الإستيـلاء على جربه وأخذ قسط من الراحة هناك وتنظيم القطعات ، إلا أن كبير حكام مالطة رفض هـــذه الفكرة وأصر على الذهاب إلى طرابلس وإلا فإنه سيسحب رجاله ويعود من حيث أتى الأمر الذي اضطر حاكم صقليـــة وجماعته على الموافقة . ولما وصلوا أمام طرابلس فقدوا مركبين بسبب

الأنواء الشديدة ، وفي الحقيقة لم تبقَ للجنود قدرة على النزول للبر ولذا تابعوا سفرهم إلى جربه . إن جربه يفصلها عن خليج قابس مضيق رفيع ضحل وهي منذ أمد بعيد معدودة من تونس هواؤها لطيف وأرضها خصبة تنبت الحبوب والفواكه والنخيل ، كما أنها من الأماكن الرئيسية لصيد الإسفنج . كان درغوت في سابق الأعوام قد بوغت وحوصر في هذه الجزيرة وأفلت من الحصار بأعجوبة ثم أجبر الاسبانيون شيخ الجزيرة بأن يتبع مالطة ، إلا أن درغوت جاءها فيما بعد واحتلها وطرد الشيخ الذي قبل أن يكون تابعاً للاسبان ووضع فيها حامية صغيرة .

كان مشائخ هذه الجزيرة من بين الذين استدعوا الأعداء للقدوم إلى بلادهم ، لذا فإن الأسطول الصليبي جاء لهذه الجزيرة وكأنه قادم لبلاده .

في ١٢ فبراير بدأ الأسطول في إنزال العساكر ، وكان لدرغوت في الجزيرة ستمائة مسلح ومائتا جندي وبعض القوات المحلية . انسحب هؤلاء للقلعة وأخذوا في مناوشة العدو وإزعاجه بغارات مفاجئة كانوا يشنونها عليه . انقضى شهر على هذه الحالة وصحة أفراد الجيوش النصرانية أخذت في التحسن والإبلال من الأمراض التي كانت متفشية بينهم ، ولما تشمموا رائحة العافية ، قاموا في اليوم الثامن من شهر مارس بهجوم شديد استمر أربعة أيام دافع فيها حماة القلعة ببطولة ، إلا أن البسالة لم تجد أمام الكثرة في العدد والعدة وسقطت القلعة في يد الأعداء ، قام النصارى بترميم القلعة وأضافوا للتحصينات الموجودة أربعة أبراج .

بينما العدو مشغول بمثل هذه التوافه كان الرئيس درغوت قد أوفد

مساعده أولوج علي[1] إلى الاستانة لاطلاعها على الحالة[2] .

كان الدوق دي مديناسيلي يعرف أن من عادة الأتراك أن لا يخرجوا للبحر قبل أواخر مايو وبني تقديراته على هذا الأساس[3] . لقد تمت ترميمات وإصلاحات القلعة في شهرين من الزمان وزاد الاسبان على التحصينات القديمة أربعة إبراج أسموها : سردا ، وكونزاغو ، وسان جوان ، وآندريا دوريا.

(هامر الكتاب رقم ٣٣ ص ٣١٢)

بينما الدوق دي مدينا زيللي يتهيأ لترك حامية هنا والعودة من حيث أتى بلغه أن الأتراك شوهدوا أمام جزيرة غوزو المجاورة لمالطة[4] .

لقد أصاب الأعداء ذعر شديد لا يوصف ، وبالنتيجة حلت بين صفوفه فوضى عظيمة .

أما في استانبول فكانت الاحتياجات قد استكملت خلال الشتاء وكتب إلى كافة الأرجاء ، ولحاكم تونس أيضاً ، بأن يقدموا العون إلى

---

(١) يقول أوغست أن كلمة أولوج معناها المهتدي .

(٢) غرامونت .

(٣) منذ القديم كانت التقاويم تشير إلى أن أسفار البحر تبدأ في عيد الخضر يوم ٦ مايو وتنتهي في ٧ نوفمبر من العام وكانوا يتمسكون بهذه التقاليد ولا أحد يميل إلى قضاء فصل الشتاء في أحد موانيء البحر الأبيض واستئناف النشاط منها لما يحل موسم الخروج للبحر . ورغماً من أن هذه العادة سببت لضياع فرص كثيرة وأحياناً لحدوث أضرار خطيرة فإنها بقيت مرعية ولم تبدل .

(٤) مجلة مجمع التاريخ العثماني رقم ١ ص ٢٤ .

درغوت[1] وكتب أيضاً لدرغوت بأن المدد بالعساكر سيأتيه فوراً وأمر القضاة والحكام الذين على شواطىء البحر الأبيض بأن يقدموا المساعدات اللازمة إلى الربان سعيد حامل الخطابات المرسلة إليهم[2].

تقرر سفر الأسطول في نيروز (في ٦ مايو) سنة ٩٦٧ هـ وكتب إلى حكام أغريبوز وقارلي ايلي وميديللي وآولونيا وقوجه ايلي بأن يلتحقوا مع جنودهم بالأسطول، كما أن حاكم لواء فريسي بجنوده حاملي البطاقات سيلتحقون أيضاً بالأسطول[3].

كتب القبطان بيالة باشا للحكام يعين لهم المواقع التي سيركب منهـا عساكر كل لواء للمراكب وأعطيت لبيالة باشا علامة همايونية تنبيء تعيينه قائداً عاماً للجيش[4].

---

(١) سجل الشؤون الهامة للديوان الهمايوني رقم ٣ ص ٢٢٣ . هنا رسالة مطولة باللغة وهي نص تركي لأخرى بالعربية مؤرخة في ١٦ ربيع الأول ٩٦٧ كتبت إلى أمير تونس المسلم وهو من بني حفص تستنهض همه وتحرك فيه الروح الإسلامية وتحثه على جمع قوة وإيفادها لمعاونة درغوت . «غ. أ»

(٢) سجل الشؤون الهامة للديوان الهمايوني رقم ٣ في ١٦ رجب ٩٦٧ .

(٣) من قيودات سجلات الشؤون الهامة للديوان الهمايوني «مجلة مجمع التاريخ العثماني رقم ٢ ص ٩٥» .

(٤) سجل الشؤون الهامة للديوان الهمايوني رقم ٣ ص ٣٢٨ .
العلامة السلطانية المعطاة إلى بيالة باشا بخصوص تعيينه قائداً مؤرخة في ١٦ رجب ٩٦٧ .

يؤمر أمير أمراء الجزائر بيالة باشا أن :

« بعد الإتكال التام على الله تعالى وعلى العناية السامية لذلك الواهب المطلق ومتوسلاً بالمعجزات الكثيرة البركات لصاحب الرسالة : لقد صممنا على إخراج أسطولنا الهمايوني للبحر في هذا النيروز المبارك للغزو في سبيل الله وتحويل الكفار إلى قرار الجحيم ، وسيكون إن شاء الله مبدأه مباركاً وميموناً ومنتهاه مقروناً بالفتح والنصر .. الخ .. وهذه رسالة مطولة بتاريخ سلخ ربيع الآخر ٩٦٧ هـ تقرر توجيه القيادة العامة للحملة التي ستبعث لنجدة درغوت باشا تسند إلى بيالة باشا وتعليمات بأسماء الأمراء وطبقات الجند من الجهات التي ستبعث المحاربين التامّي التجهيزات بالزرود والجواش مع آلات الحرب والقتال والزاد الوافر وأن يحدد لهم التواريخ والأماكن التي سيؤخذون منها للمراكب وأن يكتب للأمراء بذلك وينبيء بتاريخ وصول الرسائل إليهم ، كما وجهت أوامر سامية إليهم في هذا الشان وأن يتأكد من أن المرشحين للحرب مستوفون للتجهيزات وأن لا يقبل عذر المقصرين ، وأن يكون هو أيضاً على أهبة ليقلع في الجيش الذي يصدر فيه الأمر إليه بذلك » .

في اليوم الثامن من شهر رجب أقلع الأسطول المكوّن من ١٢٠ سفينة وقد وردت إلى جزيرة الغنم « سبالمستوري » من درغوت باشا أنبـــاء عن العدو .

كان درغوت قد كلف قلج علي بالخروج للبحر في عدد من الكادرغات (نوع من المراكب الحربية) لجمع الأخبار عن العدو وإعلام عاصمة استانبول

بها ، وهؤلاء صادفوا في عرض البحر سفينة حربية معطوبة فتبـــادلوا إطلاق القنابل،وبعد أن تمكنوا ــ بمؤازرة بعض السفن التي التحقت بهم ــ من غنم هـــذه السفينة التي تأخرت بسبب عطبهـــا من اللحاق بأسطولها . بلغوا موتون وأرسلوا السفينة مع الأسرى الذين أخذوا منها إلى استانبول .

قام الأسطول بإركاب عساكر الألوية للسفن من الأماكن المعينةلهم ، وفي غرة شعبان وصل إلى موتون والتحق حاكم رودس قورت أوغلي أحمد بك وحاكم لواء ميديللي مصطفى بك مع سفنهما بالأسطول بمظاهر البهجة .
« تحفة الكبار »

أخذ الأسطول جنود موتون وغادرها في الخامس من شعبان وفي ١٢ منه وصل إلى مالطه[(١)]

حكم الى الريان بيالة باشا بأن :

« بعثت رسالة ببلوغك مع الأسطول الى موتون في اليوم الخامس من

---

(١) جاء في تحفة الكبار أن الأسطول توجه إلى مضائق قرقنه وقضى ليلة فيها ؛ وهذا لم يذكر في الحكم الذي سيدرج أدناه ، وبحساب تحفة الكبـار أن الأسطول وصل إلى مالطة في التاسع من شعبان بينما الأمر يفيد أنه في ١٢ شعبان. وذكرت تحفة الكبار أن الأسطول ألقى مراسيه على بعد اثني عشر ميـــلا من جزيرة جربه ، إلا أن الأنباء الواردة في الأمر تعد أوثق .

ومن قيودات سجل الشؤون الهامة الديوان الهمايوني « مجلة مجمع التاريخ العثماني العدد ٣ ص ٩٩ » .

شعبان ، وفي اليوم الثاني عشر وصلت الى مالطة وعلمت من الكفرة الذين وقعوا في قبضتك بأن الكفـــار مقيمون في جربه وبدون أن تتوقف توجهت الى جربه وألقيت المراسي على بعد ثلاثة أميال من قلعة جربه ، ولدى التشاور تقرر التقدم على العدو وقت السحر وإن الخبر بلغ للكفار وعلى غير انتظار صودفت سفن الأعداء التي خرجت للتجسس على الأسطول الهمايوني وإن البعض من الكفار الذين سيقاتلون العساكر الإسلاميـــة يقدمون وبعضهم يفرون وان القتال في البحر استمر ثلاثـة أيام وثلاث ليال ، وفي اليوم الرابع تجمعت المراكب ولم تصب أي من السفن المنصورة بضرر أو عطب وأنـكم استوليتم على عشرين مركباً للعدو وأحرق أحدها بالنار ، كما شبت النار في بعضها وغرق البعض الآخر أثناء القتال وغنم بعضها وشنت الغارة على ستة وعشرين منها فهربت إحدى عشرة سفينة لتدخل في حماية القلعة وبعضها هرب ونجا . وفي العشرين منه تلاقى درغوت ومراكبه بالأسطول وتشاوروا في ما يحطم أشقياء الكفار المحصورين ، وقد نصبت المدافع وأقيمت المتاريس لضربهم ، كما أفدتنا أن القلعة المذكورة متينة البنيان ومحاطة بأبراج على غاية من القوة ويحتاج تسخيرهـــا إلى أمد طويل .

ولما أنت موصوف به من الخلال الحميدة والآراء السديدة ووطنيتك المجبولة بالشجاعة ،فالمأمول منك أن تدير هذه العملية إن شاء الله وتنجزها على أحسن وجه . بيض الله وجهك .

وأمرت : (وفي تتمة هذه الرسالة المطولة يذكر له فيها أنه بعث خلعة

له وبعض السيوف ليوزعها على درغوت وعلى الأمراء وأن يعملوا أولاً وأخيراً بالتشاور فيما بينهم وأن يتفقوا قلباً وقالباً وأن يأخذ بما تقتضيه ظروف المكان والزمان وأن يبذل جهوده لفتح القلعة وتطهير البلاد من عبدة الأصنام ومعاندي أهل الإسلام وأن يكون يقظاً حذراً وأن لا يغفل فيسبب -والعياذ بالله- ما قد يعود بالضرر للأسطول الهمايوني والجيش المسلمين وأن يكتب ليفيده بما يهم عرضه في ٢٩ رمضان ٩٦٧ هـ).

وهذا نص الرسالة المذكور في ص ٢٠١ أنها كتبت إلى درغوت :

من قيودات سجل الشؤون الهامة للديوان الهمايوني « مجلة مجمع التاريخ العثماني العدد ٢ ص ٩٣ »

يؤمر أمير أمراء طرابلس الغرب بأن :

« بعثت رسالة لسدتي الكريمة تفيد أن مراكب العدو المقرونة بالخسران تجمعت بعد عودة أسطولنا بغية الهجوم على تلك الولاية . ولما كانت ولاية طرابلس مثل باقي ممالكي المحروسة ورعاياها وبراياها مثل شعوب بقية ممالكي فإن قلبي لم يخلُ من المراحم والعواطف تجاه تلك الديار الجليلة الاعتبار . ولما كان حفظها وحراستها من اعتداء أعداء الدين ودفع الأذى والضرر قبل الوصول إليها هو من أهم الواجبات فقد جهزنا مراكب شبيهة بالكواكب وسقناها بأدوات القتال وبالعساكر لمنازلة الأعداء وبعثناها سراعاً إليكم وإن شاء الله الأعز ستصلكم قريباً .

إنك مملوكي البطل الذي بذلت المساعي المشكورة بصدق وإخلاص في

خدمة الشؤون المرتبطة بديواني الهمايوني وإنك لم تذهب بعــد لملاقاة أسطولنا المنصور الرامي الكفرة الملعونين في قرار الجحيم ، وقد كتبنا رسائل كريمة إلى مشائخ عربان ولايتكم وإلى علمائها وأعيانها لينـاصروكم ويظاهروكم عندما يهاجم العــدو تلك الولاية . وآمر ، لما تصلك رسالتي ويبلغك أن الكفار المتصفين بالذل وعاقبتهم الدمار قرروا مهاجمة ذاك الجانب ، أن تبادر بما هو مركز في طينتك من الورع وبحسن التدبير إلى توحيــد جهودك مع قبائل العرب ومشائخها ومع غيرهم من سكان البلاد ولتكونوا متفقين قلباً وقالباً ، وبلغهم الأوامر الكريمــة واسع لاستمالتهم إلى جانبك واحرس ليلاً ونهاراً الأماكن الساحلية من أن يصلها أذى الكفار اللاعين وضرهم وتوسل بالمساعي الحميدة وفق تعاليم الدين لتقوية أواصر الجمهور بدولتي الهمايونية وتبييض وجهك بصالح الأعمال، وكن يقظاً شجاعاً ، واحذر من حدوث ، والعياذ بالله ، ما يعرض ناموس وهيبة الدولة لأي ضرر ، وخبرني بما يهم عرضه ولتصحبك عناية الله ، وليبؤ أعداء الدين والدولة دائماً بالقهر والهزيمة وأن لا يفـــارق النصر أولياء الملك والأمة . في ٥ ربيع الأول ٩٦٧ هـ ».

هذا الكتاب أرسل مع قورت كتخدا .

أرسلت مع هذا الكتاب مناشير لمشائخ وعلماء طرابلس الغرب وهم : مشائخ طرابلس والحــاميد ورياح وناورغاء والمقــارحة ومسلاته وتاجوراء وجربة والجواري وورفلة ومصراته وجنزور. لقد أرسلت لكل منهم أوامر كريمة خاصة به مصحوبة بخلعة سلطانية مزيداً في تكريمه .

أرسى الأسطول العثماني على جانب من جزيرة غوزو وأنزل الجنود للبر فأخذوا منها غنائم كثيرة وأسرى ، ولما علم من الأسرى أن العـــدو موجود في جربة ومعه أسطول من ٨٥ سفينة منها ٤٩ كادرغه و٣٦ قطعة أخرى وإنه يجهل موعد قدوم الأسطول العثماني .

أبحر الأسطول العثماني في الحال إلى جزيرة جربة ، وقد أعيدت إلى درغوت السفينة التي أتت منه لتعلمه بإبحار الأسطول إلى جربة . وصل الأسطول بعد يومين وليلتين إلى ضحال قرقنة فالقى مراسيه هناك ، وفي اليوم التالي رفع المراسي وتوجه . وفي ليلة ١٥ شعبان وهي ليلة الغفران المباركة ألقى مراسيه على مسافة ثلاثة أميال من تحصينات جربة ، وبما أن زورقا كان المالطيون بعثوه قد أنذرهم بقدوم الأسطول العثماني فإن الأسطول الصليبي وجد على أهبة القتال ولما أسفر الصبح وقبل أن يخرجوا من مدخل ميناء جربة شاهدوا الأسطول الرهيب رابضاً أمامهم .

حاول الدوق دي مدينا سيللي الخروج لعرض البحر خوفاً من التضييق عليه في الساحل، إلا أن رعب الترك سبّب سوء تنفيذ هذا التدبير الصائب، وفي صباح يوم ١٥ شعبان ٩٦٧هـ ـ ١٤مايو ١٥٦٠م اصطف اسطول العدو في شكل نصف دائرة ، وكان هذا الأسطول مؤلفاً من سفن حربية واخرى للنقل تابعة لدول اسبانيا والبـــابا وجنوه وفلورنسا ومالطة وصقلية ونابولي وموناكو، واصطف الأسطول العثماني ايضاً على نظام حربي مماثل في نصف دائرة .

كان على القلب بيالة باشا ويقود الجناح الأيمن قورت أوغلي احمد بك

حاكم رودس ويقود الجناح الأيسر مصطفى بك حاكم ميديللي وتقدموا على هذا الترتيب للاقتراب من أسطول العـــدو . فظهرت بعد قليل على أسطول العدو علائم الهزيمة. وبإشارة من بيالة باشا تقدمت السفن العثمانية التي تشكل خط الحرب بسرعة للاشتباك في الحرب من قريب، كما أن قائد أسطول العدو بادر إلى تقسيم أسطوله الى فرقتين بغية تخليص جزء منه من الأقل من الفناء فبعثه ليدخل في حمى مدفعية القلعة وأقلعت الفرقة الثانية طالبة السلامة في الهروب .

قام بيالة باشا بمطاردة الذين يقاتلون للهروب ، وبعث القائدين أحمد ومصطفى في أثر السفن التي تحاول الأحتماء بنيران القلعة .

كان الدوق دي مدينا سيللي وجواني دوريا من بين الذين يحاولون الإفلات ، وقد نشبت معركة ضارية بين بيالة وبين فريق جواني دوريا وغطى دخان البارود صفحة البحر وتلاصقت السفن ببعضها وقامت على ظهورها مذابح استعملت فيها أسلحة من شتى الأنواع .

كان البعض من مراكبهم قد احترق وبعضها غرق وبعضها ارتمى على الساحل فتحطم والبعض وقع في الأسر . ولم يكن فريق القائدين أحمد ومصطفى دون فريق بيالة باشا أو أقل منه عزماً وشجاعة ، وكان فريق العدو الذي وجه للاحتماء بمدافع القلعة بقيادة أمراء من الصليبيين من أمثال أمير بحر نابولي وأبنائه وابن دوريا وأمير صقليـــة ، وقد ضايقهم احمد ومصطفى واجبراهم على مغادرة السفن واللجوء إلى القلعة .

عدا عن مراكب العدو التي احترقت أو غرقت فإن ٢٠ كادرغة و ٢٧ قطعة

جنحت إلى البر وسبعة أخرى سيقت في اتجاه البحر لتجنح ووقعت كل هذه المراكب غنيمة في يد العثمانيين . دامت هذه المعركة ثلاثة أيام وثلاث ليال ، ولم يطق الصليبيون صولة أبطال الترك فانهزموا ، ولكن الذين نجوا منهم يكادون يعدون على الأصابع .

كان آلاف من الأسرى والمراكب الجانحـــة متراصين على شواطىء جربة في حالة محزنة ، وقد أصبح ذلك الجيش والأسطول الذي أبحر قبل ثلاثة شهور بمظاهر العظمة والطنطنة لا شيء . أما الأسطول العثماني فلم يصب بأي ضرر .

في ٢٠ شعبان حضر درغوت باشا ، الذي لم يشترك في هذه المعمعة ، إلا أنها لا تزال اعمال كثيرة في انتظار التنفيذ . كانت التحصينات التي اقامها الدوق دي مدينا سيللي بالغة القوة ، ويظهر ان اكتساحها سيكون صعباً . إن الدوق دي مدينا سيللي وجواني دوريا ولّيا هاربين وبقي الدوق الوارودي ساندي احد القادة المبرزين من الاسبان على رأس قوة كبيرة في التحصينات .

تباحث بيالة باشا مع درغوت باشا في الحركات الحربية المقبلة وانزل للبر العساكر الذين كانوا على ظهر مراكب اسطولي بيالة ودرغوت فحفروا متاريس وقواعد حول القلعة ووزعوا عليها العساكر ورتبوهم ونصبوا المدافع في القواعد المناسبة ، ومنذ اليوم الثالث من رمضان بوشر في التضييق على العدو ، كما ان الأسطول أحاط بجانب البحر .

لم يسفر الهجوم الذي قام به العدو تلك الليلة إلا عن فقده لكثير من القتلى والجرحى والأسرى . وكان العدو قد حفر متراساً عميقاً أمـــام الخندق الذي يحيط بالقلعة ووضع في هذا الخط الأمامي ثلاثة آلاف مقاتل كما أنه وضع ثمانمائة جندي في الاستحكامات التي أقامها في الجهة المجاورة للدفاع عن البئر التي تزود المحاصرين بحاجتهم من المـــاء . باشر أشاوس العثمانيين في مضايقة حامية البئر ومن يأتي للورود منها ، الأمر الذي دفع « الدون الوار » ولشن غارة بخمسة آلاف من جنوده على متـــاريس العثمانيين للتخفيف من مضايقاتهم في هذه الناحية . وعلى الأثر قام العثمانيون بهجوم مقابل ، واستمر التطاحن مدة ساعتين عجز العدو بعدهـــا عن المقاومة وولى هارباً في اتجاه القلعة . ولم يقف المهاجمون عند ذلك بل تتبعوه ضاربين ، قاتلين ، آسرين واحتلوا متاريس العدو الأمامية ، بينما قامت مفرزة أخرى بالاستيلاء على تحصينات البئر ثم نصب ١٥ مدفعاً في المتاريس ، وبوشر في قصف القلعة من قرب .

لتعطيل هذه المدافع وتخريبها قام ثلاثة آلاف فدائي مختـــارين(١) من الصليبيين المعتـــدين بأنفسهم يرتدون الدروع المزرودة بهجوم شديد استبسلوا فيه وأبدوا شجاعة فائقة وتقدموا إلى مقربة من المدافع ، ودار قتال مرير مدة ساعتين أبرز فيـــه الأتراك بطولة أعظم وعزماً أصدق من أعدائهم وقذفوهم لخارج المتاريس بعد أن فتكوا بثمانمائة أو تسعمائة منهم وطاردوا الباقين حتى ابواب القلعة .

إن الإحدى عشرة سفينة التي لجأت الى حمى القلعـــة كانت تقصف

---

(١) تقول تحفة الكبار أنهم من الألمان والطليان .

متاريس العثمانيين وتسبب بعض القتلى والجرحى ، لذا فقد أصبح من الواجب التخلص منها قبل الهجوم على القلعة ، إلا أن هناك موانع كثيرة تحول دون التمكن من ضربها بمدافع العثمانيين من البر ، كما أن بينها وبين سفن الأسطول مسافة طويلة من المياه الضحلة تبعدها عن التأثر بضربه . وأخيراً تقرر سوق بعض الجنود على فرقاطات وزوارق بقيادة ربابنة أكفاء للهجوم على هذه الكادرغات من البحر وإرسال جنود خيالة من البر لمساعدتهم في تدميرها .

بوشر في تنفيذ هذه الخطة بمساندة نيران حامية من المدفعية والبنادق ، وتقدم الفرسان بسرعة وغابوا في دخان البارود ، كما أن الأسطول الخفيف رغم النيران الشديدة التي كانت تطلق عليه من القلعة ومن الكادرغات فقد تمكن من الوصول إلى مسافة ربع ميل منها ، إلا أن هذا الأسطول صادف عائقاً لم يتمكن من اجتيازه فتوقف .

كان العدو قد حسب حساباً لمثل هذه الحالة واستعد لمجابهتها ، فدق أوتاداً حول السفن وعلى مسافة ربع ميل منها شدها بسلاسل إلى صوار وعرى ثابتة جعل منها حائلاً متيناً .

بذل المهاجمون اقصى جهودهم لتخطي الحواجز إلى أن علت شمس الضحى وتكبدوا خسائر فادحة دون الوصول إلى نتيجة إيجابية واضطروا للتقهقر .

بعد هذا الحادث قاموا بحفر متاريس من الجانبين إلى أن أوصلوها

للبحر ونصبوا فيها مدافع تستطيع تغطية سفن الأعداء بنيرانها .

لما قامت المدفعية بقصف تلك المراكب قتل معظم من فيها وألقى البعض بأنفسهم في اليم طالبين النجاة .

دمرت السفن بالمدافع وغطست في الماء حتى حوافيها ، وتخلص العثمانيون من أضرارها .

اعتباراً من أول شوال بوشر في حفر المتاريس ، وقد تبودلت المتاريس عشرين مرة ، كانت الحرب سجالاً ، وكان العدو يشن غاراته بسرايا لا تقل عن الألف مقاتل وتصد هجماته .

لما وصلت المتاريس الى مقربة من خندق التحصينات بوشر في ردمه ثم أقيم عليه خمس قباب من الخشب وضع فيها بعض الجنود الذين أخذوا يمطرون داخل القلعة بقذائفهم .

أضحى العدو في حالة لا يستطيع فيها رؤية ما حوله . وكان جنوده يقاسون من المرض والجوع والعطش، وبدأ العشرات منهم يرمون بأنفسهم خارج السور مفضلين الأسر على حياة اليأس والشدة التي يقاسونها . ثم انقضت ثمانون يوماً والحصار قائم .

أخيراً في صباح يوم ٧ ذي القعدة قام الدون الفارو مع ألف من الجنود المختارين بهجوم صاعق . لقد تمكن العدو بهذا الهجوم اليائس أن يقذف عساكر العثمانيين إلى خارج معاقلهم ، إلا أن هؤلاء قاموا بهجوم مضاد وردوا العدو على أعقابه ، ثم قام العدو بهجوم ثانٍ وثالث ، وهكذا فإن الجانب المغلوب كان كل مرة يلم شمله ويجدد الحملة . وقد تكرر استيلاء

العدو على الخنادق واسترداد الآخرين لها ، إلا أن النصر الأخير كان من نصيب العثمانيين فانسحب العدو للقلعة وعساكر الترك في أعقابه يقتلون ويأسرون الى أن بلغوا باب القلعة واغتصبوه . ولما أسقط في يد دون الفارو رمى نفسه على المراكب الغارقة فركب بعض العثمانيين فرقاطات وزوارق أخذتهم للسفن التي لاذ بها القائد وأخذوه أسيراً ، ولما كانت المراكب مدمرة أخذوا ما تحتويه وأضرموا فيها النيران .

إن عساكر العدو الذين شاهدوا ما بلغت إليه الحالة أدركوا استحالة الخلاص وكانوا على وشك طلب الأمان بينما كانت الكتائب العثمانية تكتسح القلعة عنوة فقتلت البعض وأسرت الباقي . إن قوات العدو التي كانت محاصرة في القلعة تنوف عن العشرة آلاف منها ٨٨٠٠ جندي من القوات البرية والباقون هم بحارة السفن اللاجئة . كان الأسرى أربعة آلاف وقد قتل الباقون في المعارك الطاحنة . وكانت خسائر أسطول الصليبيين فادحة جداً وكان عدد جنود البحر القتلى يقرب من الثلاثين ألفاً [1] .

---

(١) الحروب البحرية العثمانية «هامر» الكتاب رقم ٣٣ ص٣١٣ يقول أن :
كان عدد حامية الحصون المقامة في جربة تتألف من :

١٨ فصيلة إسبانية تتألف الواحدة من ١٢٠٠ — ٢١٦٠٠ جندي
٩ فصائل إيطالية « « « ٨٠٠ — ٧٢٠٠ «
١ سرية واحدة ألمانية « « « ٢٠٠ — ٢٠٠ «

المجموع ٢٩٫٠٠٠ جندي

والأسطول ٣٦ مركباً و ٤٧ كادرغه و ٤ قاليون منها ١١ مركباً و ٢٨ كادرغه وكاليون واحد .

كان هذا النصر بالنسبة إلى درغوت بمثابة انتقام للمهدية . ولما سمع الشيخ آندريا بهذا الخبر صاح قائلاً : « أواه خذوني للكنيسة » وذهب يبحث عن عزائه في العبادة ، وفي ٢٥ نوفمبر ١٦٥٠ م مات كمداً .

كانت خاتمة هذه الحملة الصليبية ما يقرب من ٤٠٠٠٠ قتيل وضياع أحسن السفن ووقوع عدد كبير من الضباط في الأسر - غرامونت - .

حاول الفرنسيون تخليص هؤلاء الضباط من الأسر وذلك لوجود عدد من طبقة الفرسان الفرنسيين بينهم ، إلا أن الديوان الهمايوني أصر على رفض تسليمهم ، وكتب السلطان رسالة بتاريخ ١٥ صفر سنة ٩٦٨ إلى ملك فرنسا يبرر فيها رفضه إطلاق سراح من كان يقـــاتل المسلمين في صفوف أعدائهم، ويقول غرامونت أنهم فيمابعد وفقوا لفك الأسرى .

أقام بيالة باشا ثلاثة أو أربعة أيام أخرى في جربة وفي ١٥ ذي القعدة توجه إلى طرابلس للمساعدة في إدخال بعض القبائل المتمردة تحت الطاعة، وبعد أن أدى مهمته توجه في العشرين من الشهر إلى الرومللي (وهي الضفة الأوروبية من أراضي الدولة) وفي الثالث من ذي الحجة وصل إلى بره وزه [١] . وبعد هزيمة العدو في جربة كان بيالة باشا قد حصل على ٤٥ سفينة من مراكب العدو فرمم وجهز خمساً وعشرين منها ، ولما كانت بحارة الأسطول الكبير الذين اشتركوا في الحرب محتاجين لأخذ قسط من الراحة ، وأمام احتمال مهاجمة العدو لبعض نواحي المملكة عندما يدخل

---

(١) تحفة الكبار .

الأسطول الكبير لأحواض الإصلاح والترميم فقد رأى من المنـــاسب أن يؤخر قسماً من الأسطول مؤلفاً من خمس وعشرين قطعة بقيادة علي بك حاكم قوجه ايلي لتولي شؤون الحراسة وقد حصل على أمر بالموافقـــة . وفي السادس من محرم ٩٨٦ دخل الأسطول لأحواض الترسانة في استانبول[١] .

لما عاد الأسطول منتصراً إلى استانبول قوبل بإطلاق المدافع وبمظاهر السرور وهتـافات الجماهير المحتشدة بالآلاف على طول الشواطيء في البر وبالزوارق في البحر ، وكان في جملة من يقف بجانب القمرة (الحجرة) لسفينة باشا الأسطول دون ألوارو والأميرال جيفالا وأمثالهم من ذوي المناصب الرفيعة من أسرى الصليبيين ، كما أن ٤٧ سفينة بدون سوار وبلا سكانات جاءت الى استانبول منكسة أعلامها الأصلية ورافعة العلم العثماني ، وفي اليوم التالي سيق الأسرى البالغ عددهم مع كبارهم ٤٠٠٠ وهم مرتدون ملابسهم العسكرية سيقوا مجتمعين للحضرة السلطانية .

كان في عداد الحاضرين يومذاك سفير ملك النمسا فرديناند وقد أخذه العجب عندما لم يشاهد على وجه السلطان ما ينبيء عن السرور بمنـاسبة هذا النصر العظيم . وبعد الانتهاء من هذا الغرض الرسمي ارتدى بيالة باشا وغيره من القواد الخلع السنية وحظوا بالرضاء السلطاني .

امتعض الاسبانيون والجنويون من هذه الهزيمة وباشروا في التأهب للجولة التالية ، إلا أنهم لم يهاجموا أي ناحية من المملكة .

---

(١) تحفة الكبار .

عاد درغوت إلى طرابلس بعد أن شارك في موكب النصر وثابر في نشاطاته .

اشتكى أهالي القيروان إلى درغوت من ظلم حاكمهم محمد الطيب المعيّن من قبله ، فذهب درغوت على رأس شرذمة من العساكر إلى القيروان وأعدم أبا الطيب ثم عين خلفاً له حيدر باشا حاكماً للقيروان وأقفل راجعاً .

في نيروز سنة ٩٧٢ هـ تلقى درغوت من استانبول أمراً ليلتحق مع أسطوله للخدمة بقيادة القبطان باشا[١] لقد تقررت حرب مالطه .

في أواخر شعبان سنة ٩٧٢ هـ خرج الأسطول للبحر ، وفي ١٤ شوال وصل إلى نافارين ثم غادرها، وفي اليوم الرابع من السفر ألقى مراسيه غربي مالطة ، وفي ٢١ شوال أنزل الجنود وبدأ حصار مالطة .

في اليوم السابع من حصار مالطة حضر درغوت باشا في اثني عشر مركباً . وقد حاول لفت أنظارهم إلى أنهم بدأوا الحصار من مركز غير مناسب ، إلا أنه لم يفلح في إقناعهم ، وأثناء القتال كان يقود الفريق المهاجم لبرج سان ميشيل (في ١٦ يونيو[٢] _ غرامونت _) .

---

(١) سجل الشؤون الهامة للديوان الهمايوني رقم ٦ ص ٢٦٣ في ٢٩ جمادى الأولى سنة ٩٧٢ هـ .

(٢) يقول غرامونت أن درغوت جرح يوم ١٦ وتوفي يوم ٢٣ من يونيو بينما في تحفة الكبار لم يذكر التاريخ ، ويقول أنه عاش أربعة أيام بعد جرحه وتوفي في اليوم الخامس ، وأنا أرجح رواية غرامونت .

أصابت رأس درغوت شظية قنبلة انفجرت على أحد الصخور فجرحته وانبثق الدم من فمه ومن أنفه فعاش بعدها عدة أيام وهو فاقد الوعي ثم توفي في ٢٣ يونيو يوم الإستيلاء على البرج المذكور .

نقل جثمان درغوت بحراسة خمس من سفنه إلى طرابلس ووري في التراب بالقرب من البحر في حديقة المسجد الذي شيده وأصبح ضريحه مزاراً للناس .

كان الولاة والقواد الذين يعيّنون على طرابلس تنحر لهم الذبائح عندما يمرون بضريح درغوت ويتوسلون ببركات سيدي درغوت ، وكثيراً ما يصلي العرسان في مسجد درغوت تبركاً به . لم يشيد له ضريح يتناسب مع عظمته ، وفي الواقع لم يعرف قدره حتى في حياته .

كان الأعداء قد أطلقوا اسم رأس درغوت على الرأس الذي استشهد عنده في مالطة .

بعد وفاة درغوت صدر أمر بأن لا تصادر الثروة التي خلفها والتي كان قد كسبها بحد سيفه وأن تعطى لعائلته [1] وكتب أمراً بأن لا يمانع

---

(١) سجل الشؤون المهـامة للديوان الهمايوني رقم ٥ ص ٤٨١ في ٥ رمضان ٩٧٣ .

خازنه من السفر إلى استانبول بأمواله وأشيائه[1] .

لا حاجة بنا لتعداد مناقب درغوت والإشادة بها إذ أن أعماله تنبىء عن قدره ومكانته .

إن غرامونت يصف درغوت بأنه « كان قائداً نادر المثال ويملك مزايا إنسانية لا توجد عادة في القراصنة . » .

---

(١) سجل الشؤون الهامة للديوان الهمايوني رقم ٥ ص ٢١٣ في ٢٧ ربيع الآخر ٩٧٣ .

- ٣ -

دور امارة الأمراء بعد درغوت

بعد استشهاد درغوت في سنة ٩٧٢ هـ ـ ١٥٦٤ م عين محمد باشا لإمارة أمراء طرابلس. وفي عهده تمرد أهل تاجوراء « ٩٧٥هـ ـ ١٥٦٧م »

حل مكانه قلنج علي باشا. فساق على التواجــير ، الذين تواطأ وامع الأعداء، سبعة قاليطات وكادرغات من البحر وزحف عليهم من البر بألف ومائة فارس وشتت العصاة الذين اعترضوا سبيله ، وبعد ثلاثة أيام احتل تاجوراء وأدخل سكانها تحت الطاعة[1] .

ذاع في هذه الآونة أن العدو يحرض الأهــالي على الفتنة وان بعض النصارى يأتون في زي مسلمين وعلويين ليتجسسوا على البلاد ويزودوا

---

(١) سجل الشؤون الهامة للديوان الهمايوني رقم ٥ ص ٩٥ .

حكم إلى أمير أمراء طرابلس بأن :

« أخبرتنا بوصولك للولاية المذكورة ، وان البلدة المسماة تاجوراء كانت ثائرة في عهد امير الأمراء السابق محمد بك دام إقباله، وبعد وصولك، لما وجدتهم يعاندون في التمرد بالهجوم على عساكر المسلمين ، زحفت عليهم واستوليت بعناية الله على حصنهم وألزمتهم بالطاعة . لقـــد بعثت لك سيفاً وخلعتين ، ولتكن أفعالك مشكورة في حفظ وحراسة البلاد » . في ١٦ ربيع الأول ٩٧٥ هـ .

الأعداء بأخبارها ، لذلك صدر أمر من استانبول بأن لا يسمح لأحد من الإفرنج أو من جماعة العلويين بدخول البلاد وأن يكون يقظاً[1] .

إن رغبة النصارى في طرد الترك وإخراجهم من أفريقيا الشمالية والحلول مكانهم لم تفتر ، ورد خبر تجمع حوالي ٩٧ كادرغة في ميناء قرطاجنة الاسباني وعلم أن هذه السفن ستذهب إلى نابولي لتجتمع هناك بستين كادرغة بغية الهجوم على العثمانيين ولذا فقد رؤي أنه من الضروري صدور الأمر بخروج الأسطول العثماني إلى البحر الأبيض في ١٥٠ كادرغة[2] .

(١) سجل الشؤون الهامة للديوان الهمايوني رقم ٥ ص٢٤٩ في ٩ شوال ٩٧٣هـ.

(٢) سجل الشؤون الهامة للديوان الهمايوني رقم٥ ص ٢٣٦ .

حكم إلى علي باشا أمير أمراء طرابلس :

« أخبرت أن الكفار الخاسرين جمعوا في المكان المسمى قرطاجنة ٩٧ قطعة كادرغة ، وبعد شحنها بالجنود ستنتقل إلى نابولي ببلاد الإفرنج لتأخذ منها ستين كادرغة ، وقد تآمروا على توحيد الجهود والتأهب لمهاجمة أحد البلدان الغربية ، وعليه فقد أصدرت أمري بتجهيز مائة وخمسين كادرغة لتخرج مع حلول الربيع إن شاء الله . وأنت أبذل جهودك القيمة حتى لا يمس الكفرة الخاسرون المملكة والرعايا بأي أذى ، وابعث الجواسيس المهرة ليأتوك بالأخبار الوثيقة عن أحوال الكفار وعن غاياتهم الفاسدة وعن أسطولهم وتخبرني على الدوام بما يردك من أنباء وقد أرسل هذا الخطاب مع الربان محيي الدين الذي أتانا بأخبارك » . في ٦ رجب ٩٧٥ هـ .

لقد نظم قلنج علي باشا أمور طرابلس ، إلا أن مدة عمله كانت قصيرة وذهب إلى إمارة امراء الجزائر [1] وحل مكانه يحيى بك حاكم لواء رودس .

لا توجد أية معلومات عن اعمال يحيى باشا ولا عن نهايته .

في عام ٩٧٥ هـ كان أسطول النصارى المتحالفين راسياً باجمعه في نابولي ، وتاكد انهم سيهاجمون الاتراك في افريقيا الشمالية .

لقد أدرك قلنج علي باشا أن تعبئة الدفاع عن طرابلس والجزائر توجب الاستيلاء على تونس الكائنة بين القطرين والتي يتخذها اسطول العدو نقطة استناد وقاعدة انطلاق على العثمانيين ، فقام قلنج علي باحتلالها في سنة

---

(١) سجل الشؤون الهامة للديوان الهمايوني رقم ٥ ص ٤٧٨ .

يؤمر أمير أمراء الجزائر :

« بما أن علي دام إقباله أمير أمراء طرابلس نقل لإمارة أمراء الجزائر ، وبما أن وصوله العاجل من الأهمية بمكان ... » في ٢ محرم ٩٧٦ هـ .

يؤمر أمير أمراء الجزائر :

« بما أنه من الضروري التحاق حاكم لواء رودس يحيى المنقول إلى إمارة طرابلس بوظيفته للقيام بمهام البلاد والدفاع عنها فإني أمرت بأن تبعثه للولاية المذكورة بالسفينة التي كان يمتطيها من المركبين المرافقين لها بما فيه كفارة » .

٢ محرم ٩٧٦

(المقصود من كلمة كفارة في آخر الرسالة أعلاه المجدفين الذين كانوا حسب المفهوم من أسرى النصارى الذين من عادة تلك العصور كانوا يستخدمون في عملية التجديف الشاقة) . المعرّب : ع . أ .

٩٧٧ هـ ـ ١٥٦٩ م .

إن سوسه والقيروان كانتا تحت الحكم العثماني وكان حكم امير تونس الحفصي لا يتخطى المنطقة الواقعة بين تونس وبنزرت ، وبعد احتلال هذه المنطقة بقيت قلعة حلق الواد بيد الاسبان .

وكانت قوات علي باشا لا تكفي وحدها لتسخير هذه القلعة وتطهير البلاد من الاحتلال الاسباني ، لذا فإنه كتب إلى استانبول يطلب مده بالقوات اللازمة لذلك ، وبما أن الأسطول الصليبي الذي كان يتهيأ منذ سنوات للثأر لهزيمته في حرب جربه قد توجه إلى الشمال فإن قلنج علي باشا تلقى أمراً بالقدوم الى استانبول .

بعد حرب البحر التي انتصر فيها الأسطول الصليبي على الأسطول العثماني في حرب اينه نجتي صار قلنج علي باشا قبطان باشا والاسبانيون عادوا فاحتلوا تونس .

كتب مراراً لأمير امراء طرابلس بان يستكمل تجهيز قواته ويتهيأ للاشتراك في الحرب ، مع الجيش والأسطول ، التي سيخرج لها في عام ٩٨٢ هـ .

وفي ٢ ذي القعدة سنة ٩٧٨ هـ اصبح جعفر باشا اميراً لأمراء طرابلس من بعد يحيى باشا . ولما كانت قفصه وجوارها خارجة عن نطاق نفوذ العثمانيين كان المناوئون العصاة يهربون إليها ويتجمعون فيها ، ومنها كانوا يشنون الغارات على المجاورين لهم من اتباع الدولة

ويحرضونهم على العصيان ، فارسل جعفر باشا حملة احتلت قفصة وطبقت عليها الحقوق والالتزامات الحكومية [١] .

كان جعفر باشا يسعى لضم المناطق الغنية مثل القيروان وسوسه والمستير إلى طرابلس الغرب القليلة الموارد بحجة انها حررت من قبل حكام طرابلس قبل تحرير تونس . إلا ان هذه الجهات كانت منذ القديم من ملحقات تونس ، وبعد تحرير تونس ، كان من الطبيعي إلحاقها بها ، لذا فقد اجريت مخابرات في هذا الصدد واوفد برتو باشا مأموراً للتأكد من رغبة الأهالي [٢] .

ومع هذا فإن صفاقس وجربة وقابس بقيت تابعة لطرابلس [٣] .

ارتكب جعفر باشا خلال المدة التي قضاها في ماموريته كثيراً من المظالم واغتصب أموالاً وفيرة ، كما أفسد نظام الإنكشاريين بالدس والفتنة في تعيين الآغاوات ونوابهم فعزل لهذا السبب في غرة شوال ٩٧٩ هـ . وجرى تكليف أمير الأمراء الجديد وقاضيي طرابلس وجربة للتحقيق في هـــذه المسألة وإرجاع الأموال المغتصبة إلى أربابها [٤] .

---

(١) سجل الشؤون الهامة للديوان الهمايوني رقم ١٠ ص ٦٢ .

(٢) سجل الشؤون الهامة للديوان الهمايوني رقم ١٦ ص ٣٦٢ ورقم ١٧ ص ٣ و ٥ .

(٣) و (٤) حكم إلى أمير أمراء طرابلس وإلى قاضيي طرابلس وجربة :

« بلغني أن بعض القواد حرضوا أمير أمراء طرابلس السابق « جعفر »=

وفي ٢٤ شوال سنة ٩٧٩ هـ ثبت ان في ذمة جعفر باشا ستين ألف ليرة حقاً للفقراء ، إلا أن أمير الأمراء الجديد مصطفى باشا أخفى امر السلطان ولم يتخذ أي إجراء بهذا الصدد .[1]

قرر بيالة باشا بأنه عند خروجـه للبحر في سنة ٩٨١هـ ومروره على طرابلس سوف يحقق في هذه القضية ، إلا أنه خرج للبحر في تلك السنة وعاد دون الوصول للمياه الأفريقية ولم يفعل شيئاً .

= فظلم واعتدى على الشخصين المدعوين الحجاجي وسيدي علي الشريف من أعيان البلاد وصادر أموالهما ، كما أن القواد المدعوين عيسى قائد جربة وعلي قائد صفاقس وحسن قائد قابس وسنان قائد الجبل الأبيض يغتصبون أموال المسلمين بدون حق ، وأن أمير الأمراء المشار إليـه لم يتبع الطريق القويم في تعيين آغاوات الإنكشاريين ونوابهم ، واختلت شؤون مماليكي المذكورين . وبما أني غير راض عن ظلم رعاياي فيجب إرجاع ما اغتصبه أمير الأمراء والقواد لأربابه والاهتمام بتنظيم شؤون عساكري ، وأمرت أن :

تحققوا – عملاً بنصوص الشرع – فيما أخذه أمير الأمراء السابق بغير حق من الحجاجي ومن سيدي علي الشريف ، وإذا ثبت لديكم ذلك تعيدونه إليهما ، وأن يعين آغاوات ونواب الإنكشاريين وفقاً للأصول المرعية من بينهم وأن لا يحشر إليهم أحد من غير طبقتهم ، وأن يراعى ترتيب وتنظيم العساكر الموجودين هناك ، وأن لا يغتصب الأمراء والقواد حقوق أحد وتفيدونا بالطريقة التي عالجتم بها الأمور » . في ٢٤ شوال ٩٧٩ هـ .

(١) سجل الشئون الهامة للديوان الهمايوني رقم ١ ص ٩٧ .

تأهب مصطفى باشا لما خرج الأسطول في سنتي ٩٨٠ و ٩٨١هـ للبحر الأبيض وتدارك وجلب من جهات إينــه بختي وبره وزه مستلزمات المدافع .

اشترك مصطفى باشا بعساكر طرابلس في حملة تحرير تونس وبذل جهوداً طيبةوقد رمم المسجد الكائن في طرابلس وسك النقودباسم سلاطين آل عثمان[1] وعمل على تحسين حـــالة الأهالي وتوفي عام ٩٨٢ هـ .

في سنة ٩٨٢ هـ استولى على تونس وتولى حكمها حيدر باشا .

بعـــد أن توفي مصطفى باشا أديرت تونس وطرابلس معاً من قبل حيدر باشا حتى سنة ٩٨٥ هـ . وفي ١٨ ربيــع الأول ٩٨٥ هـ انفصلتا إلى أيالتين وأوفـــد التشاقرجي حسن باشا من الديوان السامي معيناً لإمارة

---

(١) سجل الشئون الهامة للديوان الهمايوني رقم ٢٢ ص٤٥ و ٤٦ .

يؤمر أمير أمراء طرابلس :

« أخبرتني أنك ، عملاً بأمري الكريم الصادر إليك سابقاً بشأن سك النقود، قد باشرت بسك العملة وفي تقييم سعر النقود القديمة وقطع الفاسد منها ، ورفعها من التداول . انتبه لأن تكون النقود من الفضة الثمينة ، ولتسك من فئتين ، وأن تعمل بموجب أمري السابق فلا تضرب نقوداً من الفضة الرخيصة والرديئة » .

في ٢١ محرم ٩٨١ هـ .

أمراء طرابلس وبقي حيدر باشا أميراً لأمراء تونس فقط [1] ، إلا أن التشاقرجي حسن باشا لم يستطع إدارة هذا العمل .

في سنة ٩٨٦ هـ رفعت إلى استانبول شكاوى كثيرة في حق حيدر باشا نقل بسببها من تونس إلى طرابلس .

وكان نقل شخص، ظهرت مساوئه وعدم كفاءته في الأدارة من مركز إلى آخر ، لايمكن أن يكون عاملاً مؤثراً في إصلاح نفسه ولا في تحسين طراز إدارته .

بينما كان القواد وحكام الألوية في الجزائر يعينون من العنصر التركي فقد ظهر التسامح في طرابلس بتعيين قواد من الوطنيين ، إلا أن هؤلاء لم يكونوا موالين للدولة ، ويظهر فيما بعد وجوب تأديبهم .

---

(١) سجل الشئون الهامة للديوان الهمايوني رقم ٣١ ص ٢٠٧ .

نتقل عن تاريخ تونس صورة من المرسوم الخاص بهذا التعيين

يؤمر أمير أمراء تونس حيدر باشا :

« فصلت الآن إمارة أمراء طرابلس الغرب ووجهت في ١٨ ربيع الأول سنة ٩٨٥ هـ إلى تشاقرجي باشا المقام السامي الذي هو حسن باشا دام إقباله ، وتقرر أن تبقى إمارة أمراء تونس لك بنفس التخصيصات المذكورة في مرسوم تعيينك لها في السابق ، وعليك أن لا تغمض طرفك عن حراسة طرابلس الغرب والمحافظة عليها إلى أن يصل الموما إليه لذلك الجانب » .

في ١٨ ربيع الأول سنة ٩٨٥ هـ .

نصب على فزان عـــامل يدعى المنتصر ، وتوفي سنة ٩٨٥ هـ وأعلن إبنه الأكبر ناصر استقلاله في مرزق . ولما رفض دفع الأتاوة أرسلت لتأديبه حملة فقتلت زوجته خوده وجمع ناصر وإخوته أمتعتهم وأموالهم وهربوا إلى منطقة كاشنة في السودان ، وألقى أهل مرزق يد الطاعة ولم يبدوا اعتراضاً ، ثم نصب هناك حاكم تركي يدعى مامي وأبقى في معيته قليلاً من الجنود وعادت الحملة ـ المنهل العذب ـ كان حكام ألوية طرابلس الغرب يسببون خسارة للخزينة باستيلائهم على واردات المناطق بالإضافة لمرتباتهم ، ولمعالجة هذه الحالة فقد قرر الدفتردار (مدير مالية الولاية) أن تورد للخزينة حاصلات القرى والدساكر والمـــدن ، وأن يدفع لأرباب المراسيم مستحقاتهم بالعملة المتداولة [1] .

سعى حيدر باشا لضم سوسه والمستير والقيروان إلى طرابلس وقد وفق في مسعاه وضمهم إليه . وكانت طرابلس أيضاً في عهـــد حيدر باشا مسرحاً لأنواع المساوىء .

---

(١) سجل الشؤون الهامة للديوان الهمايوني رقم ٣٦ ص ٧٦ .

يؤمر حيدر أمير أمراء طرابلس والدفتردار محمد بأن :

« لما عرضتم عليّ التماسكم في أن يصرف لكل حاكم لواء استحقاقه المحدد في المرسوم الذي يحمله بالعملة الدارجة في تلك البلاد لقاء سند بالوصول فقد أمرت بأن : تضم لخزانة الدولة التي تجبى من القرى والنواحي والأوطان المسجلة في مراسيم أمراء طرابلس وأن تدفع لهم مخصصاتهم المدرجة في مراسيمهم من خزينة طرابلس الغرب بالعملة الدارجة نقداً » .

إن طرابلس الغرب بالنسبة إلى تونس والجزائر بلاد فقيرة والأماكن المسكونة منها هي الواحات والسفوح الشمالية للجبال والوديان؛ والأراضي التي تزرع وتحصد قليلة ، وكانت القواعد التي وضعتها الحكومة هناك لجباية الضرائب هي نفس تلك التي في الولايات الأخرى ، إذ يخرج الجنود مرتين في العام للجباية . وهؤلاء الجنود كانوا عالة على الأهالي ويظلمونهم ولذا فإن الأهالي لا يدفعون الضرائب إلا مكرهين .

كان الجنود الذين يبعثون للقبائل يسوقون أنعامها ويستولون على أموالها وأمتعتها ثم يفرضون على الأهالي المطيعين مشتراها جبراً وبأسعار مرتفعة جداً ويقبضون أثمانها لجيوبهم خاصة . وكان الشعب يسلب بهذه الطريقة والأمراء يستوفون لحسابهم الخاص أموال الرعية تحت شعار : « حق سيوفنا » ولا يُبقون لخزينة الدولة أي شيء ، بينما كانت الدولة تدفع للجنود الذين يوفدون للجباية طعامهم وسلاحهم وعتادهم . ثم جاء في عهد حيدر باشا أمر مفاده أن الماشية والأشياء التي تصادر ممن يأبون دفع الضرائب تباع بالأسعار الدارجة ثم يدفع ثلثها لأمير الأمراء والعساكر وثلثاها لخزينة الدولة [1] .

(١) سجل الشؤون الهامة للديوان الهمايوني رقم ٣٩ ص ٢١٦ .

يؤمر أمير أمراء طرابلس بأن :

« أخبرتنا أن بعض رعايا ولاية الغرب وعربان البادية أبوا وتعللوا في دفع الضرائب وأن الحكام ساقوا عليهم جنوداً مزودين بكافة احتياجاتهم فأغاروا =

حدث في سنة ٩٨٧ هـ قحط شديد في الإيالة تعذر بسببه تحصيل الضرائب والأعشار وأصاب الحكومة ضيق كبير[١] .

استدعيَ حيدر باشا إلى استانبول في سنة ٩٨٨ هـ ونقلت وظيفته لإمارة أمراء كفه ، إلا أنه اهتدى إلى طريقة مكنته من نقل ماموريته من كفه إلى طرابلس الغرب ، ثم سعى لكي لا يدفع حلوان بشارة إمارة كفه وان يدفع حلوان عن بشارة إمارة أمراء طرابلس فقط ، إلا انه لم يوفق والزم بدفع الحلوانين[٢] .

= عليهم ثم عادوا بما أخذوا من أمتعة وأنعام فباعوها للأهالي قسراً بخمسة وعشرين ذهبة قبضوها لأنفسهم ولم يعطوا منها للخزينة أي شيء قائلين : « إننا أخذناها بسيوفنا » . لقد التمست إصدار أمري السامي بأن تباع الغنائم التي تؤخذ في مثل هذه الحالات بالأسعار الرائجة في الأسواق ويعطى منها سهم للأمراء والجنود وسهمان للخزينة الأميرية . وعند وصول هذا الأمر إليكم وفي حالة تزويد العساكر بحاجياتهم من قبل الحكومة يعطى ثلث الغنائم الحاصلة للأمراء والجنود ويؤخذ وفق القانون ثلثاها للميري » .

في ١ محرم ٩٨٨ هـ .

(١) سجل الشؤون الهامة الديوان الهمايوني رقم ٤٣ ص ٢٣١ .

(٢) سجل الشؤون الهامة للديوان الهمايوني رقم ٤٢ ص ٢٣٩ .

يؤمر القبطان باشا أمير أمراء الجزائر بأن :

«أنيطت إمارة أمراء طرابلس بأمير أمرائها الحالي حيدر ، وبما أن وصوله إلى ذلك الجانب من الأهمية بمكان فعندما يصلكم الموما إليه خصصوا له من الترسانة العامرة خمس سفن وابعثوه الى طرابلس الغرب برفقة مراد بك =

لقد تجدد البحث في موضوع القـــيروان وسوسه وقفصه بأية ولاية سترتبط فكتب حيدر باشا الى استانبول بأن هذه المدن كانت محالة من قبل تونس على القواد المدعوين علي ومحمد ومراد بمبلغ سبعين ألف ذهبية في كل عام ، وفي المدة الأخيرة تسلط عليها مائة وخمسون إنكشارياً من تونس وصاروا يجبون الواردات لجيوبهم ولا يعطون للخزينة أي شيء لذا فقد أقنعهم بالموافقة على إلحاقها بطرابلس [1] .

ان هذه البلدان صدر الأمر بإلحاقها بطرابلس في سنة ٩٨٦ هـ ، إلا أن تدخُّل الإنكشاريين في تنفيذ هذا الأمر حال دون ذلك الإجراء .

حلت الفوضى الإدارية في الأماكن المتنازع عليها بين تونس وطرابلس ولم يعد أحد يعمل بجد وإخلاص لما بين يديه أو لمن هو مرتبط به .

كتب حاكم لواء قفصة الى استانبول بأن شخصاً يدعى مولاي أحمد

=حاكم لواء كوجا ايلي » .　　　　في ٢٧ صفر ٩٨٩ هـ .

سجل الشؤون الهامة للديوان الهمايوني رقم ٤٢ ص ٢٥٥ .

حكم إلى أمير أمراء طرابلس الغرب حيدر باشا بأن :

« عين شهاب الدين لتبشيرك بإسناد إدارة إمارة كفه إليك ، وفيما بعد لما أسندت إليك إمارة أمراء طرابلس الغرب كلف المشار إليه بأن يبشرك بها . لقد كلف بتبشيرك في المرتين ، ويقال إنك ستسافر دون أن تدفع له حلوانه فعليك أن تدفع له مستحقه قبل أن تسافر » .

في ١٢ ربيع الأول ٩٨٩ هـ .

(١) سجل الشؤون الهامة للديوان الهمايوني رقم ٤٦ ص ١٧٦ . في ٦ شوال ٩٩٢.

جاء من بلاد الإفرنج وجمع حوله عشرين ألفاً من العربان ومن الأهالي المجاورين للبـــلاد ، وقد كتب يستنجد من طرابلس وتونس فلم يُجب طلبه ، ولذا فإنه يلتمس النظر في التنكيل بهؤلاء العصاة [1] .

كان أهالي طرابلس الغرب يطرون استانبول بشكاواهم من الظلم الذي يقاسونه وينتظرون من أمير أمراء الديوان الهمايوني منع هذه المساوىء [2] .

بما أن الأسطول سيرسل في ربيع سنة ٩٩١ هـ فقد أرسلت تعليمات إلى أمير امراء طرابلس بجمع المعلومات الصحيحة عن حالة الأعداء بواسطة الجواسيس وأن يحرص في الحفاظ بمنطقته [3] .

---

(١) سجل الشؤون الهامة للديوان الهمايوني رقم ٤٧ ص ١٨٧ .

يؤمر أمير أمراء طرابلس بأن :

كتب عامل قفصة بأنه قبل إسناد إدارة هذا اللواء إليـه سحبت تشكيلة الإنكشاريين التي كانت تحرس أبواب القلعة وجلب أمير تونس الشخص المدعو مولاي أحمد من بلاد الكفرة وأسكنه في القلعة ثم غاب وجلب عشرين ألفاً من العربان القاطنين حوالى قفصة لمعاونته ، وانه قد انتهى من تجنيـــد العساكر وزحف على الوطن المسمى منزلة التابع لقفصة فلم يتمكن من دخوله ، وان العربان جميعاً في حالة تمرد ، وانه لم يتلقّ المدد من تونس وطرابلس بسبب إهمالهم وتكاسلهم ويطلب التنكيل بالعصاة .

لذا فقد أمرت بما يلي : حين وصول هذه الرسالة إليك تعجلوا بإرسال العساكر وحملة البنادق إلى ذلك الجانب . في ١٦ جمادى الثاني سنة ٩٩٠ هـ .

(٢) سجل الشؤون الهامة للديوان الهمايوني رقم ٤٧ ص ١٧٤ .

(٣) سجل الشؤون الهامة للديوان الهمايوني رقم ٤٤ ص١٤٥ . في ٢٣ محرم ٩٩١هـ.

لقد عمل حيدر باشا من سنة ٩٨٩ الى ٩٩٢ هـ أميراً لأمراء طرابلس ثم نقل الى غيرها وعين في مكانه محمد باشا الصاقزلي .

ان تعيين محمـــد الصاقزلي أميراً لأمراء الجزائر في عام ٩٩٣ هـ ثابت بقيودات الديوان الهمايوني .

ان المؤرخ « هامر » في كتابه رقم ٣٣ ص ١٣٥ يبحث عن رمضان باشا والي طرابلس ويقول : انه لما قتل رمضان باشا والي طرابلس في ثورة للإنكشارية أبحرت زوجته الى استانبول ناقلة ثروته البالغة ٨٠٠٠٠٠ دوقه و ٤٠٠ مملوك مسيحي وأربعين فتاة ، ولما توقف مركبها أمام زانطة احتفوا بها وقدموا لها الهدايا ثم استأنفت رحلتها فاعترض سبيل مركبها أمو أميرال أسطول البندقية في عرض بحر كفالونيا وقتلوا ٢٥٠ جندياً تركياً كانوا في السفينة وذبحوا ابن رمضان باشا على صدر أمه وبعد الاعتداء على البنات قطعت نهودهن وألقي بهن في البحر .

لما بلغ خبر هذه المظالم الوحشية الى استانبول حاق الخطر بحياة سفير البندقية ، ولو لم تحمه بافه (وهي السلطانة صفية البندقية الأصل) لفتحت أبواب سجن يدي قلة للسفير المذكور .

أوفد حسن شاوش للبندقية يحمل كتاباً شديد اللهجة يطلب فيـــه الترضية عن هذا الحادث . وخوفاً من حدوث حرب طاحنة اجتمع مجلس شيوخ البندقية ونفذ كل طلبات السلطان . قطع رأس أمو وأعيـــد الى

قاضي بره وزه مركب زوجة رمضان باشا مع كل الأموال و ٤٠٠ رقيق بدلاً من الـ٤٠٠ نصراني الذين أطلق سراحهم ، ويقول ان هـذه الرواية تستند على وثائق عديدة ويحدد لها تاريخ ١٥٨٤م الذي تقابله سنة ٩٩٢هـ.

يفهم من هذه الرواية أنه قدم رمضان باشا لإمارة الأمراء بعد حيدر باشا ومن بعده محمد باشا الصاقزلي . ذهب إنكشاريو الجزائر إلى إستانبول واشتكوا من باشاهم (أي من أمير امرائهم) فعين الديوان الهمايوني امير امراء طرابلس للجزائر وبعثه موصياً رؤساء السرايا بان يأخذوه ويوصلوه سالماً مرفهاً للجزائر [1] .

لا توجد قيودات بخصوص الرجل الذي عين أميراً لأمراء طرابلس بعد محمد باشا ، ولا بد أن يكون قد أرسل أميراً للأمراء وربما جاءهـا محمد باشا الذي تبين أنه في سنة ٩٩٥ هـ كان معزولاً . ولم ينفك الأنكشاريون عن الإساءة للأهالي وكان السلطان يأمر بان لا تؤذى رعاياه [2] .

---

(١) سجل الشؤون الهامة للديوان الهمايوني رقم ٥٨ ص ٧٤ .

يؤمر رؤساء سرايا الإنكشاريين القادمون من الجزائر بأن :

« بما أنه قد أسندت إمارة أمراء الجزائر إلى محمد أمير أمراء طرابلس الحالي ... في ٢٠ جمادى الآخر سنة ٩٩٣ هـ » .

(٢) سجل الشؤون الهامة للديوان الهمايوني رقم ٥٨ ص ٢٢٥ في ١٧ شوال ٩٩٣ .

رغماً عن الأمر الذي صدر للانكشاريين بالكف عن إرسال المحافظين للدساكر والقرى وإقلاق راحة الأهالي فإن الإنكشاريين كانوا يعملون على هواهم الأمر الذي حدا بالأهالي للكتابة إلى استانبول يعرضون بأنهم سيجلون تاركين الديار والوطن فيما إذا لم يرفع عنهم هذا الضيم ، وكتب لأمير الأمراء بمنعه[1] .

ان لوائي قفصة وصفاقس ألحقا في المدة الأخيرة بتونس ، ولما كان النصيب الأكبر من مخصصات عساكر طرابلس يؤخذ من هذه الجهات فإن أمير الأمراء أعلم الديوان الهمايوني بأن إلحاقهما بتونس سيسبب عسراً مالياً ، وسيؤدي لإفساد جماعة المماليك . ووفق لاستعادتهما الى

---

(١) سجل الشؤون الهامة للديوان الهمايوني رقم ٦٢ ص ١٤١ .

يؤمر أمير أمراء طرابلس بأن :

« منذ فتح البلاد لم تقم طائفة المماليك بإرسال المحافظين للأهالي ، وكانت الشكاوى التي ترفع لأمير الأمراء يحكم فيه بوجه الشرع ، والآن قامت جماعة المماليك بإرسال المحافظين من قبلهم إلى الأهالي فيسومونهم أنواع الظلم . وقد أخبرني مساعد محيي باشا أمير الأمراء السابق بأن الأهالي بأجمعهم قرروا الجلاء عن أوطانهم إذا لم يرفع عنهم هذا الظلم . ولذا إرفعوا عنهم الظلم وعاملوهم كما في السابق » . في غرة محرم ٩٩٦ هـ .

طرابلس [1] .

فيما سلف كان آغاوات الإنكشاريين يستبدلون مرة في العـام ، وبما أنهم الآن أصبحوا يستبدلون مرة في كل شهر فإن هذه العملية تلحق ضرراً بالخزينة وبالتالي للاعتداء على الأهلين ولظلمهم فقد عرض الوالي المسألة على الاستانة وحصل على حكم بالعمل كالسابق ، أي الرجوع الى استبدال آغاوات الإنكشاريين مرة في كل عام [2] .

لسبب ما بينما صدر في ١١ صفر ٩٩٦ هـ أمر بصرف النظر عن إلحـاق صفاقس بتونس ، ففي ٢١ شوال سنة ٩٩٦ هـ ورد أمر لإلحاقهـا ثانية بتونس [3] .

إن طغيان الإنكشاريين بلغ إلى أقصى حد وأصبحوا يستولون حتى على بيت المال ولا يأبهون بأمر الأمراء [4] .

(١ و ٢) سجل الشؤون الهامة للديوان الهمايوني رقم ٦٢ ص ١٤٩ في ١١ صفر ٩٩٦ هـ .

(٣) سجل الشؤون الهامة للديوان الهمايوني رقم ٦٤ ص ١١٦ . في ٢١ شوال ٩٩٦ هـ .

(٤) سجل الشؤون الهامة للديوان الهمايوني رقم ٦٢ ص ١٢٧ .

يؤمر أمير أمراء طرابلس :

« منذ فتح طرابلس حتى عهد حيدر باشا كان بيت المال تحت إدارة أمير الأمراء ، إلا أن مساعد محيي باشا أمير الأمراء السابق أخبرنا أن جماعة المماليك عينوا شخصاً من قبلهم ليستولي على بيت المال ، وقد تم له الاستيلاء عليه ... » . ذي الحجة ٩٩٥ هـ .

كانت بين أمير أمراء تونس وبين محمد باشا أمير أمراء طرابلس السابق قضية شرعية ، ولما رؤي أنه من المحتمل تدخل الإنكشاريين فيها كتب إلى استانبول بشأنها فورد أمر لزعيم الإنكشاريين مفاده : «لتنظر قضيتهم على منهج الشرع وينفذ الحق ولا يتدخل فيها الإنكشاريون ورؤساء السرايا »[1] .

وبالإضافة الى المساوىء التي يرتكبونها في البلاد فإنهم صاروا يأخذون المجرمين المحكومين بالتجديف وغيره من الأعمال الشاقة في قادرغات الحكومة ، صاروا يأخذونهم عنوة ويطلقون سراحهم ، وأصبح الزعماء لا يأبهون بامراء أمرائهم ويتدخلون في أعمال أمراء أمرائهم[2] .

بينما كانت أيالات الجزائر وتونس وطرابلس في مركز يقتضيهم التعاون

---

(١) سجل الشؤون الهامة للديوان الهمايوني رقم ٦٢ ص ١٢٦ .

(٢) سجل الشؤون الهامة للديوان الهمايوني رقم ٦٢ ص ١٢٧ .

« لم يشترك في السابق أمراء أمراء طرابلس والجزائر في الأسفار الخارجية وكل منهم كان يخرج للبحر بعساكره ، وفي نفس الوقت يحافظ على بلاده ويحرسها من الأعداء . وقد أخبرتنا أن أمير أمراء تونس الحالي حسين باشا يسعى للحصول على أمر للأيالتين المذكورتين ليمدوه بالعساكر عندما يحتاج إليهم . ولما كان خلو البلاد من الجند يعرضها للخطر فقد أمرت بأن : « بما أن طرابلس ليست كغيرها من البلدان فيجب على أمير أمرائها وحكام ألويتها أن يبقوا في حراسة البلاد ، ولا يذهبوا لأي مكان آخر عملاً بالقاعدة المعمول بها في السابق » . في ١١ صفر ٩٩٦ هـ .

في شتى الصور فإن أمير أمراء طرابلس لم يلبّ طلب أمير أمراء تونس بنجدته في بعض الحالات الطارئة التي تقتضي مساعدته وكتب إلى استانبول بأن ثمة محاذير محتملة تحول دون ذهاب العساكر وبقاء البلاد خالية من حماتها . وحصل على أمر بأن لا يبعث أحداً للخارج . ويظهر أن لفتوة الإنكشاريين يداً في الموضوع .

كانت مساوىء الإنكشاريين في الجزائر وتونس وطرابلس مماثلة لبعضها إلا أن عنفها يزيد أو ينقص وفقاً لهيبة الباشاوات الذين يرأسونهم . فبالإضافة للمساوىء التي يرتكبونها في المدن فإن العساكر الذين يبعثونهم كمحافظين للدساكر والقرى المجاورة لا يتورعون عن ارتكاب أنواع المخازي . وكانوا يأخذون أموال الأغنياء بالظلم والتعذيب وزعماء الإنكشاريين يسلبون الخزينة بمطالبة الزيادة في مرتباتهم من كل أمير للأمراء يحل بالبلاد . إنهم عموماً ، من أمير الأمراء الى الجندي العادي ، يشتركون سواسية في المساوىء ولم يعد الأهالي يحتملون هذه الحالة .

ظهر في هذه الآونة بتاجوراء شخص اسمه يحيى ابن يحيى سويدان يدّعي أنه المهدي المنتظر فالتف من حوله الشعب الملتاع الفؤاد . ولما أدرك الإنكشاريون عجزهم عن الوقوف ضد هذا الإجماع ، أقنعوا الوجوه والأعيان بوجوب مؤازرتهم وكتبوا تقريراً بالحالة الراهنة وبعثوه إلى استانبول[1] .

---

(١) سجل الشؤون العامة للديوان الهمايوني رقم ٦٤ ص ١٧٧ و١٧٨و١٧٩=

إن يحيي بعد أن أثار أهل طرابلس أسند القيادة إلى معتمد من أتباعه وذهب إلى جربه لإثارتها . لم يوفق الإنكشاريون في المعارك التي خاضوها ضد الثوار فانهزموا والتجأوا إلى قلعة طرابلس ، إلا أن الأهالي تعقبوهم وتقدموا فطوقوا أسوار المدينة .

= و ١٨٠ . أمر همايوني إلى أمير الأمراء بطرابلس وإلى مشائخ الولاية وإلى الزعماء وإلى المماليك وإلى أمير أمراء تونس بالعربية والتركية .

إن أمير أمراء طرابلس وجماعة المماليك والأعيان بعثوا لنا تقريراً يقولون فيه إن رجلاً يسمى يحيى بن يحيى ادعى أنه المهدي وجمع حوله من كان على هواه من الأشقياء ثم هو سافر إلى جربة وقام خليفته بالقتال وفي المعركة التي نشبت بينه وبين مماليكي قتلوا من شيعته أكثر من ألف ، إلا أنهم لم يستطيعوا التغلب عليهم ولا زالوا يبثون الفوضى . إن موسم البحر انقضى وسوف نبعث الجنود في الربيع وقد أمرنا بنجدتكم من تونس ، ويجب على العساكر والمشائخ الذين في طرابلس أن يبذلوا جهودهم لتشتيت العصاة . في ١٥ ذي القعدة ٩٩٦ هـ .

وقيل في الأمر المكتوب لتونس ما مفاده : إذا أتاه رسول أو كتاب بطلب النجدة فليسافر أمير الأمراء بالذات أو يبعث من ينوب عنه .

إن نفحة المسكية تسرد الوقائع كالآتي : قتل يحيى في سنة ٩٩٦هـ-١٥٨٨م بيد أحد أتباعه المنافس له وحل مكانه المرابط المسمى نيال (إبريل ١٥٨٩) . وكان الأتراك قد التجأوا للأسوار ، ولما دخل العصاة للمدينة اعتصم الترك بالحصن الداخلي ، وكان العصاة قد حصلوا على الأسلحة والذخيرة من المدعو « هوغو دي لوبنس دي ورداللس » رئيس الطريقة المالطية وطلبوا منه المساعدة وكانوا ينتظرون المزيد من المدد . =

قيل في الرد على التقرير المرسل الى استـــانبول إن موسم البحر قد انقضى ويوصي المشائخ والإنكشاريين بمدافعـــة المتمردين وطلب المدد من تونس .

ان السلطان مع إجابته هذه للطرابلسيين كان يستفسر رأي القبطان باشا في هذا الشأن ، وهل يبعث بعدد من المراكب للتعمية والتظاهر أو يرى من الأوفق ان لا يهتم لذلك ويترك الأمر للربيع [1] .

لم يقم قبطان البحر حسن باشا خلال هذا الشتاء بأي مجهود وبقيت طرابلس في شتاء ٩٩٦ هـ وحدهـــا ، ولم يستفد المتمردون أي شيء من محـــاصرتهم للمدينة ، وذلك بسبب الشقاق الذي ظهر بينهم . في عام

=خلال هذه الفترة حضر الأسطول وكان المهدي قد جند الأهالي وجمع الضرائب وضعضع الأتراك كثيراً ورد الهجمات التي خرجوا عليه بها من الحصن وذاع صيته بقتله ١٨٠٠ منهم في يوم واحد فقط ، كل هذا ولم ينسَ التمتع بملاذه إذ أنه ملأ حريمه بأجمل البنات لأعرق العائلات نسباً وكان رجلاً فظاً ، أراق الدماء أنهاراً وعاد يعمل بعكس ما وعد به من رفع ظلم الترك ونشر العدل .

(١) سجل الشؤون الهامة للديوان الهمايوني رقم ٣٤ ص ١٧٦ .

يؤمر القبطان باشا بأنه :

بعث أمير أمراء طرابلس وقاضيها والأعيان وغيرهم من الأهالي ، بعثوا تقريراً إلى محمد الذي حضر بالكاليطة يذكرون فيه أن بعض العصاة ثاروا تحت شعارات المهدي وقاتلوا عساكرنا هناك ، ومع أنه قتل منهم أكثر من ألف فلم يقض بعد=

٩٩٧ هـ توجه قبطان البحر حسن باشا بخمسين كادرغة وبعـــدد كاف من الجنود إلى طرابلس الغرب وعين جعفر باشا قائداً عاماً على هؤلاء [١] .

اشترك في هذه الحملة حكام ألوية انطاكية وصاقز واينه وسلانيك وميديللي مع جنودهم . كا أن جنوداً حضروا عن طريق البر من تونس ٠

=على فسادهم، ونظراً إلى خطورة الموقف فقد كتبت تعليمات مستعجلة إرسلت إليهم مع محمد الذي جاء بالتقرير المذكور أعلاه . ولكن ما هو رأيك ؟ . إنك مطلع على أحوال تلك الولاية . وبما أن فصل الأسفار البحرية قد انقضى فإذا لم نتأهب منذ الآن فهل نحتاج فيما بعد إلى عمليات واسعة بسبب استشراء فساد الدعي المذكور ؟. وإذا بعثت مركباً أو اثنين أو ثلاثة ألا يذاع هناك انه قد ورد العسكر والمدد ويسبب في بث الذعر والجبن في اتباع المتمرد ويرتدوا بعناية الله تعالى على أعقابهم ؟ . أو ترى من المناسب أن نستبعد هذه الفكرة ، ولصعوبة البحر تبحث على الضفة القريبة مكاناً تشتي فيه السفن ، ولما يصبح الإبحار ممكناً ترسلهـــا . وقد أمرت ، حين استلامك لهذه الرسالة ، بأن تفكر ملياً فيما يجب عمله وأن تتجنب القيام بأي إجراء قد يسبب ،والعياذ بالله ، إلى ما يعرض شرف السلطنة للضرر وتبذل جهدك لسلوك الطريق القويم ، واكتب لي تخبرني برأيك في الصدد . في ١٥ ذي القعدة ٩٩٦ هـ .

(١) في تحفة الكبار ص ٩٩ أن :في سنة ٩٩٦ هـ ذي الحجة ثار يحيى وهاجم القلعة بعدة آلاف من المحاربين وتمكن في ربيع الآخر من ٩٩٧ هـ من قتل أحمد باشا أمير امراء الجزائر ، وفي ٩٩٨ هـ وصل إلى هناك فقتله وخلص البلاد من شره وأحضر رأسه إلى استانبول .

إلا أن الأوامر الملكية تبين أن حسن باشا ذهب في سنة ٩٩٧ هـ ولم يحضر معه رأس القتيل .

لما وصل الأسطول إلى طرابلس بقيـــادة القبطان باشا أنزل الجنود الذين جلبهم وشاركوا في حرب أعوان المهدي وتمكنوا من التغلب عليهم وتشتيتهم ثم طاردوهم في اتجاه الصحراء . لقد حاول المهدي الصمود في وجوههم ، إلا أنه فشل وتغلغل في بطن الصحارى . قُتـــل في تاجوراء مائتان من أعوان المهدي ـ نفحة المسكية ـ

أجرى التحقيق في أسباب قيام هذه الثورة وعلم أنها حدثت بسبب الظلم والتعديات الشديدة من الحكام وجماعة المماليك ـ الإنكشاريين ـ على الرعية . وأرسل العساكر لمطاردة الثوار .

حصل ارتباك للقبطان باشا لما بلغه خبر وجود أسطول للعدو ولم يعرف وجهته ومقاصده ، ولما كان فصل الشتاء على الأبواب فقد قرر أن يبعث في مقدمته السفن القديمة والثقيلة التي كانت في عـــداد الأسطول ، وكتب الى استانبول يستأذن للأسطول بان يشتي بدورته الضاربة في مكان مناسب . وكان السلطان قد فوض القبطان بوقاية الأهالي من الظلم وأن ينفذ الحكم في الظلمة من الإنكشاريين .

فصل أمير الأمراء محمد باشا الذي تسبب في هذه الثورة وعين مكانه استانكويلي أحمد باشا أمير أمراء الجزائر سنة ٩٩٧هـ (١) . تحقق لدى القبطان

(١) سجل الشؤون الهامة للديوان الهمايوني رقم ٦٦ ص ٩ .

حكم للقبطان باشا أنه :

« بلغنا انك خضت بأسطولي غمار البحر وواتك الريح فتمكنت من الوصول =

باشا أن ظلم أمير الأمراء محمد باشا سبب الثورة والتفاف الأهالي حول المهدي وانتصاره ، حتى أن بعض الأعيان كانوا على وشك مغادرة البلاد بسبب الجور ، وقد ثبت شرعاً أن محمد باشا كان يأخذ من الأغنياء نقوداً بالسجن والتعذيب تحت اسم قروض[1] .

وعلم أنه اغتصب ١٦ ألف ذهبه من أحمد آغا أمين الترسانة و٣٦ ألف ذهبه من عين يدعى الحاج جعفر و ١٠ آلاف من الترجمان محمد وأولاده

=إلى طرابلس ، ولما علم المفسد الذي احتل البلاد،المدعى أنه المهدي لما بلغه نبأ قدوم العساكر المنصورة ولى هارباً وإن سبب استيلاء المفسد المذكور على البلاد هو الظلم والاعتداء البالغين من الحاكم ومن جماعة المماليك للأهالي ، وأنك بعثت العساكر لمطاردة المهدي والقبض عليه بعناية الله ، وإنه بلغك نبأ عن وجود أسطول للعدو ، إلا أنك لم تستعلم بعد عن عدده وعن وجهته ، وإنك رأيت من المناسب فرز السفن القديمة والثقيلة وإرسالها في مقدمتك قبل حلول الشتاء وإذا صدرت لك الموافقة السلطانية ستبحث عن مكان مناسب لإشتاء الأسطول.وكل ما يتعلق بتلك الجهات وبالعساكر والأسطول،بلغ كله لأعتاب عرشنا وعليه فقد أمرت بأن :

« حين وصول هذا الأمر إليك أن تكون على بصيرة وأن تسعى للحصول على المماليك اللازمين لتلك الجهات وقد أسندت إمارة أمراء طرابلس لأحمد بك أمير امراء الجزائر فتستقدمه عاجلاً وتوصيه بأن لا يؤذي الرعايا » .

في ٤ ذي القعدة ٩٩٧ هـ

(١) سجل الشؤون الهامة للديوان الهمايوني رقم ٦٦ ص ١٠ .
في ٤ ذي الحجة ٩٩٧ هـ .

واغتصب أموالاً وفيرة من كثير غير هؤلاء من المسلمين .

لما تبين أن هذه الفوضى بلغت، بما فيها حالة الإنكشاريين من السوء درجة بحيث لا يمكن إصلاحها بسهولة فقد قرر القبطان باشا استبـــدال الإنكشاريين كلهم بغيرهم وطلب من استانبول إيفاد ٣٠٠ انكشاري ومدفعي، و ١٠٠ من قاذفي القنابل ومصلحي المراكب و ٢٠٠ من المزردين و ٤٥٠ آخرين من الصنوف المختلفة . فووفق من الديوان الهمايوني على كل هذا ، وكتب السلطان للقبطان باشا بجلب الجنود الذين فسد نظامهم إلى استانبول وأن يبقى هناك بالمناوبة العـــدد الكافي من العساكر المرسلين ويوصوا بأن لا يظلموا السكان ويدفعوا ثمن ما يشترونه بالسعر الدارج في البلاد[1] .

---

(١) سجل الشؤون الهامة للديوان الهمايوني رقم ٦٦ ص ١١ .
في ٤ ذي الحجة ٩٩٧ هـ .
حكم إلى القبطان باشا بأن :

كتبت لنا بأن أتباع الأهالي لدعوة المهدي كانت بسبب ظلم الحاكم والإنكشاريين وانك ستخرج كافة الإنكشاريين من الخدمة في البلاد وطلبت إيفاد ٣٠٠ إنكشاري ومدفعي آخرين من استانبول ومائة من قاذفي القنـــابل ومصلحي السفن ومايلي مزردو ٤٥٠ من الصنوف الأخرى المناسبة للسكان ، فإني أمرت بأن تتبصر في هذا الأمر وتركب كافة المماليك (الإنكشاريين) في السفن وتحضرهم وأن تنظر في تعويض كل منهم حسب مقامه والخدمات التي أداها على تلك الحدود وأن تبقى في مكانهم ، كما أوفدت بطريق المناوبة عساكر من الإنكشاريين والمدفعيين وغيرهم من الصنوف الأخرى وتوصي الذين هناك بأن لا يظلموا الأهالي وأن يدفعوا ثمن ما يشترون بالسعر الدارج . ٤ ذي الحجة ٩٩٧ هـ .

حل فصل الشتاء ولم يقبض بعد على زعيم العصاة ، وبما أنه انسحب واياهم للداخل فلم يقض بعد على الفتنة . وبما أن موسم البحر قد انقضى فإن القبطان باشا عزم على الرجوع الى استانبول وقـدم الأستانكويـلي أحمد باشا من الجزائر وتسلم الإدارة في ولاية طرابلس وقد أوصي أميري أمراء تونس وطرابلس بأن يسعيا بالجنود الذين تحت أمرهما للقضاء على الثورة [1] .

عاد الأسطول ، وطرابلس كانت شبه محصورة ، ولذا كان يتوجب على العساكر الذين سيفدون من تونس أن يجلبوا معهم مؤونتهم وكتب لأمير أمراء مصر بإمداد طرابلس ، ومن هناك أيضاً بعث درويش باشا مقداراً من الجنود بقيادة ابنه محمد باشا [2] .

تقدم الأستانكويلي أحمد باشا بجنوده وبالقوات التونسية والمصرية فهاجم الثوار وفرق جموعهم إلا أنه استشهد سنة ٩٩٨ هـ [3] .

لم يأتِ الأسطول في صيف ٩٩٨هـ إلى طرابلس ولا أرسل لها أمير للأمراء بديلاً لمحمد باشا الذي ورد أمر بعزله وإرساله مكبلاً وسجيناً إلى

---

(١) سجل الشؤون الهامة للديوان الهمايوني رقم ٦٦ ص ١١ في ٤ ذي الحجة ٩٩٧.

(٢) سجل الشؤون الهامة للديوان الهمايوني رقم ٦٨ ص ١٦ .

(٣) ان مصطفى أفندي السلانيكلي يذكر أن استشهاد أحمد باشا وقع كما يلي في الصحيفة ٢٦٦ :

« هاجم اللعين المذكور احمد باشا وبينما كان احمد باشا متهيئاً في جمع من خيرة أعوانه وقعت النار على مخزن البارود فانفجر واستشهد هو وأتباعه » .

أما غرامونت فيقول أنه قتل بطعنة رمح .

استانبول . فقد بقي هـــذا الشخص في مركزه وسعى كثيراً لكي تُنسى مساوئه السالفة وأحرز انتصارات عديدة في حروبه مع الثوار ،إلا أن البارود والأطعمة قد نفدتا فطلب من استانبول أن تبعث له حاجته منها، فكتب من استانبول إلى أمير أمراء مصر ليبعث له أربعمائة أو خمسمائة حصان ونقوداً المصروف مع ٣٠٠ قنطار من البـــارود الموجود في الاسكندرية ومقداراً كافياً من القمح [١] .

انقضى هذا العام والثورة لا تزال قائمة ، وقد استمرت الحرب في سنة ٩٩٩ التالية ، وجنود مصر عادوا لبلادهم وكانت ترد الأوامر لمحمد باشا ولأمير أمراء تونس حسين باشا بطرد الثوار [٢] .

في ٢٢ ربيع الأول سنة ١٠٠٠ كتب محمد باشا الى استانبول يعلم بإبادة العصاة تماماً وان الرعايا مستريحون .

لقد أمكن تسكين الثورة التي نشبت بسبب طغيان الإنكشاريين وأطماع الباشاوات بعد إراقة الدماء مـدة اربع سنوات ، وكان القحط الذي حل في طرابلس قد أوجب ارسال الأطعمة من البلدان المجـاورة في تونس للاستعانة بها في التموين [٣] .

---

(١) سجل الشؤون الهامة للديوان الهمايوني رقم ٦٧ ص ٩٨ .

(٢) سجل الشؤون الهامة للديوان الهمايوني رقم ٦٩ ص ١٨ .

(٣) سجل الشؤون الهامة للديوان الهمايوني رقم ٦٩ ص ١٥٣ في أوائل جمادى الثاني سنة ١٠٠٠ .

تشتت المتمردون ، وبما أن من المحتمل أن يظهروا ثانية للميدان فقد كتب لأمير أمراء تونس بأن يعجل لتقديم المساعدة في مثل هـــذه الحالات[1] .

توترت العلاقات في المدة الأخيرة بين يحيى المتمهدي وبين شيخ قبيلة المحاميد بن نور ، وفي أحد الأيام قبض بن نور على يحيى وسلمه للانكشاريين فاعدم حالاً وأرسل رأسه الى استانبول[2] .

وتقديراً للخدمة التي أداها بن نور فقد تقرر استقبال شيخ اولاد نوير بطلقة مدفع تحية له كلما زار طرابلس وان يلبسه الوالي خلعــة . وبقي هذا القرار معمولاً به حتى الأزمان الأخيرة . إذ أنه في اليوم الثاني عشر

---

(١) سجل الشؤون الهامة للديوان الهمايوني رقم ٦٩ ص ١٥٣ .

(٢) لا يعرف بالضبط كيف وبأي صورة قضي على يحيى . إن تاريخ ابن غلبون والمنهل العذب تسجلان أنه حدث شقاق بين يحيى وبين شيخ المحاميد وعلى أثره قبض الشيخ على يحيى وسلمه للانكشاريين فقطع رأسه في الحال وأرسل إلى استانبول.

أما مصطفى أفندي السلانيكلي فيقول : « بعد أن استشهد أحمد باشا زحف الجنود على الثوار وهاجموهم فغلبوهم وقبضوا على زعيمهم حابس فسلخوا جلده وبعثوه بقاليطة الى استانبول . وكانت ملابس يحيى الخارجية تعرض على الناس لمدة أيام كثيرة في صحن جامع السلطان بايزيد مرشوقة على خـــازوق في نفس المكان الذي كان يضرب فيه الرمل ، ويذكرون أن محمد باشا ابن أويس باشا عين في أواخر عام ٩٩٨ والياً لطرابلس ، إلا أن القضاء تمامـــاً على الثورة في التاريخ المذكور أعلاه مؤكد بقيود سجل مهام الديوان الهمايوني رقم ٦٩ ص ١٣١ .

من ربيع أول كل عام يحضر شيخ بني نوير المحمودي ، وفي معيته جمع من أفراد قبيلته يدقون الطبول ، يحضرون لمقام الولاية بصورة رسمية فيلبس الخلعة وينفح العطايا[1] .

قول أوغلية طرابلس

كان الأبناء المولودون من زواج الإنكشاريين بالبنـــات الوطنيات يسمون القول أوغلية أسوة بالجزائر . لقد كثر هؤلاء على مر الزمان ، وكانت لهم حتى سنة ١٣١٨ هـ تشكيلات خاصة ويقيمون في نواحي المنشية والساحل والعلاونة والرقيعات والعزيزية (ورشفانة) وتدار شؤونهم بمعرفة باشاغا . وإن الشرطـــة والدرك كانوا يشرفون على أمن المدينة داخل السور ، وأما خارجه فتابع لأشراف (اوغليه).

وكان القاضي يوكل للباشاغا استدعاء الأشخاص الذين خارج السور ، وهـــذه الباشاوية التي كانت تضم ٥٠ او ٦٠ ألفاً من (القول اوغليين) ألغيت في سنة ١٣١٧ ـ ١٣١٨ من قبل الوالي حافظ باشا . وشكلت في بادىء الأمر النواحي الأربع ومن ثم شكل قضاء العزيزية[2] .

قام (القول اوغليون) ببعض الانتفاضات بسبب إلغاء امتيازاتهم في

---

(١) تاريخ طرابلس الغرب لحسن صافي بك ص ٤٤ وتاريخ ابن غلبون والمنهل العذب .

(٢) تاريخ طرابلس الغرب لحسن صافي ص ٤٣ .

السنين الأخيرة ، إذ شهروا الأسلحة في وجه الهيأة التي خرجت لتحرير النفوس والأملاك فساق الوالي حافظ باشا وقائد الجيش رجب باشا العساكر إلى سوق الجمعة وهدأت الحـــالة بعدد من القتلى وأبعد إثنـــا عشر شخصاً من أهل الساحل إلى بنغازي ، وبعد ذلك نفذت معاملات الحكومة بتمامها وأصبحت أوامر الحكومة ونواهيهـــا مقبولة ونافذة في داخل السور وخارجه .

كان (القول اوغليون)من سكان المدينةوما يجاورها شجعاناً بواسل وفرساناً مهرة . وفي عهد نامق باشا تمت تشكيلات آلايات الحميدية ، وكانوا يستدعون لحمـــل السلاح لبضعة أشهر من كل عام ويعلمون تدريبات المشاة والفروسية .

القرصنة في طرابلس الغرب

إن البحارة الطرابلسيين تعوّدوا على القرصنة مثل التونسيين والجزائريين ويقدمون بها أي بما يدخل أيديهم من أموال الغنائم فوائد كبيرة لحكومة البلاد ولاقتصادها . إلا أنهم لا يتحرشون بالدول المعاهدة وذلك بسبب اتصالهم بالحدود مع مصر أو لقربهم من البلاد العثمانيـــة ، وكان نفوذ الدولة على طرابلس وأهلها أقوى منه في الأيالتين الغربيتين .

كانت سفن دول أوروبا الغربية تمر على مسافة قريبـــة من أسوار طرابلس. كاأن السفن التي تسلم من قراصنة الجزائر وتونس وتقع في أيدي

القراصنة الطرابلسيين كانت قليلة . ومع هذا فقد كان للقراصنة الطرابلسيين قوة لها وزنها ، وكانوا يحصلون على مغانم بقدر الاهتمام الذي يولونه أمراء الأمراء لتقويتها وحسن إدارتها وتوجيهها ، وكان أسطول طرابلس دائماً يلبي أوامر الالتحاق بالأسطول العثماني ويفيد بقدر قوته .

- ٤ -

بعد القرن العاشر

يغلب الظن بأن محمد باشا أمير أمراء طرابلس السابق أدار شؤون الولاية مدة بعد تهدئة ثورة يحيى . وبالخدمات التي أداها في هـــذا الشأن نسيت مساوئه السابقة وسكت عن بقائه في وظيفته ، وذلك لأنه لم يتلق أمراً بالذهاب إلى استانبول وأيضاً فإن توجيه أمر له بتاريخ ١٤ذي الحجة سنة ٩٩٩ بأنه حل على أحسن صورة عقدة الإنكشاريين التي كانت في عهده ، يرينا أنه أسدل الستار على كل مساوئه السابقة[1] . يخاطب محمد باشا في أمر أرسل بتاريخ ٢٢ جمادى الثـــاني سنة ١٠٠٠ إلى طرابلس وتونس ، وكان محمد باشا قد أبلغ تخليص الإيالة من العصاة .

في سنة ١٠٠٣ صار محيي باشا أميراً لأمراء طرابلس ومنها خرج بأسطول طرابلس واجتمع في أياماوري بالأسطول الهمايوني الأمر الذي بسببه انتقد اعيان طرابلس سفره ورأوه خطراً لاحتمال قيام ثورة في البلاد أثناء غيابه ، وفي عريضة رفعها قاضي طرابلس للسلطان وصف

---

(١) سجل الشؤون الهامة المديوان الهمايوني رقم ٦٨ ص ١٦ .

في ١٤ جمادى الأولى ٩٩٩ .

يكتب مصطفى أفندي السلانيكلي في تاريخه : أن محمد باشا ابن أويس باشا عين في سنة ٩٩٨ أميراً لأمراء طرابلس وربما كان محمد باشا هذا ابناً لأويس باشا.

محيي باشا منذ قدومه بأنه : «لم يخالف الشرع والقانون بالاعتداء على أي شخص وظلمه وأنه يتوخى العدالة في تصرفاته وسكان الولاية راضون عنه»[1].

في هذه الفترة كانت جزيرة جربة تابعة لإيالة طرابلس ، وكانت تعتبر لواءً ، لها حاكم يدعى محمد ، ومحمد هذا منذ سنتين لم يدفع ضرائب وكان بالقاليطة التي استحضرها يهاجم سواحل قرقنه وسفاقس وينهب أموال الرعايا العثمانيين[2] . سعى محيي باشا لإزالته ، إلا أن المساوىء لم تنته بذلك . لقد ذهب قدماء الإنكشاريين ، ولكن الذين وفدوا حديثاً ساروا على طريقتهم . فقد كانوا – دون الرجوع إلى أمير الأمراء للحصول على أمر منه – يبعثون للدساكر والقرى فرقاً تتألف الواحدة من ٢٠ إلى ٣٠ شخصاً تحت اسم المحافظين على نفقة الأهالي ويسلبونهم تحت شتى المسميات وكان القواد ومن في معيتهم يظلمون السكان وكانت تساق العساكر على القبائل التي ترفض الإذعـــان لمطالبهم فتغتصب مواشيهم ومنقولاتهم ثم تباع للأهالي قسراً باضعاف قيمتها الدارجة ، وكانوا يتفننون في أشكال الظلم والأذى مما اضطر السكان لمغادرة البلاد فراراً من ظلمهم[3] .

(١) سجل الشؤون الهامة للديوان الهمايوني رقم ٧٢ ص٥٨ في ٢٤صفر١٠٠٣ .

(٢) سجل الشؤون الهامة للديوان الهمايوني رقم ٧٢ ص ٢٤ . في سلخ ربيع الآخر ١٠٠٣ هـ .

(٣) سجل الشؤون الهامة للديوان الهمايوني رقم ٧٢ ص ١٤٠ و ٢٤٧ ورقم ٧٣ ص ٤٩١ .

كان الأهالي والمفتي يكتبون إلى استانبول بهذه الأعمال الشائنة ويأتي من استانبول النهي عنها ويوفد شخص للتحقيق وتأتي الأوامر منذرة بإنزال العقوبات في الفاعلين ، ولكن لا أحد يأبه لها .

في سنة ١٠٠٣ عين محيي باشا أو « محمد باشا » قائداً عاماً للاسطول الذي خرج للبحر وبما أن فصل الشتاء حل وانتهى موسم اسفار البحار واستجابة لصراخ أهل طرابلس صدر إليه الأمر بان يسلم قيادة الأسطول إلى مراد بك حاكم لواء مناستر ويعجل بالرجوع إلى طرابلس [1] .

---

(١) سجل الشؤون الهامة للديوان الهمايوني رقم ٧٣ ص ٤٤٧ .

حكم إلى محيي باشا أمير أمراء طرابلس :

« مكافأة لك على بسالتك وإحاطتك بأحوال مياهنا الإقليمية فقد منحت رتبة الوزارة وعينت نائباً لقبطان البحر خليل باشا ومفوض إليك استخدام الإنكشاريين والمزردين والمدفعيين والزعماء وأرباب التجار وجملة العساكر المنصورين الذين يضمهم الأسطول في الوجوه التي تراها مناسبة للمحافظة على السواحل البحرية وما يجاورها من ممالكي المحروسة وتتخذ الاحتياطات اللازمة لمنعها من تعديات مراكب الكفار الخاسرين وغيرهم ». في شوال ١٠٠٣ هـ .

سجل الشؤون الهامة للديوان الهمايوني رقم ٧٨ ص ٤٩٨ .

حكم إلى أمير أمراء طرابلس محمد باشا المعين قائداً عاماً لأسطولي الهمايوني

« سلم الأسطول بدون توان إلى مراد بك حاكم لواء ميز ستراء دام عزه وعجل بالوصول لإمارة الأمراء ولا تتوانَ في حراسة البلاد والراية والمحافظة عليهما ولا تتأخر في إعلامنا بأهم الشؤون ». في ٢ ذي الحجة ١٠٠٣ هـ .

ان مدة المائة والعشرين سنــــة (من ١٠٠٣ إلى ١١٢٣) هي احلك أدوار الفوضى التي مرت بطرابلس لا يوجد في سجل الشؤون الهامـة للديوان الهمايوني ما له علاقة بهذه الفترة سوى أمر أو اثنين فقط ، كما أن المعلومات التي يحتويها كتابيْ التاريخ اللذين تحت أيدينـــا يناقض بعضها البعض .

ان ما ورد في المنهل العـذب ـ وهو أكثرها تفصيلاً ـ لا يطابق ما سجل في ملفات الديوان الهمايوني أي بالنسبة إليه غــــير صحيح ، ومن الطبيعي أن نرتاب فيما كتبه هذا التاريخ عن الفـترات التي لا توجد لها تسجيلات في الديوان ومع ذلك فأن هذا المؤلف يعطينا معلومات أكثر عن الدايات والباشاوات والوقائع التي حدثت خلال هذه الفترة .

لقد نقلنا لهذا الكتاب ما يتوافق مع ما جاء في تواريخ ابن غلبون والسجل العثماني وغيرهما من القيودات وأخذنا مضطرين ما لم نجــــده في غيره من المؤلفات .

لقد جاء في هذه الفترة من استانبول أمراء للأمراء وجدوا في الحكم مع الدايات وأحياناً بقي الدايات وحدهم في الأدارة وأحياناً تسند الباشاوية للدايات ، ثم انقضى عهد حكم الباشاوات والدايات وكان قـد حكم الأياله بعد محي باشا إلى أحمد باشا القرمانلي خمسة وعشرين داياً .

- ٥ -

عهد الدايات

ان أول داي لطرابلس يدعى صفر داي .

ان انكشاري إقليم طرابلس حالوا دون اضطلاع الوالي الذي جاء بعد محي باشا بممارسة الحكم . وفي ١٠١٢هـ ـ ١٦٠٣م نصبوا على رأس الحكومة صفر داي .

كان صفر داي قوي الشكيمة . قتل كبـار المناوئين له وأرعب الأنكشاريين وقومهم واكتسب ثناء الشعب بهذه الأجراءات .

في سنة ١٠١٥هـ ـ ١٦٢٦م ثار أهل تاجوراء واسندوا الحكم إلى رجل يدعى أويس فوافقتهم قبيلة بني رقيعة (الرقيعات) وجاؤوا فنصبوا خيامهم حول تاجوراء، ساق الداي عليهم قواته لتسكين ثائرتهم وطوقهم وطالت المسألة بسبب استماتة المحصورين في الدفاع إلا أنه حدث شقاق بين أهل تاجوراء والرقيعات أدى إلى أن قض الرقيعيون خيامهم وإلى انسحابهم من ميدان القتال. ولما بقي أهل تاجوراء وحدهم أدخلوا تحت الطاعة بالهجوم الذي شن عليهم وعاد الجند إلى طرابلس بغنائم وفيرة .

قامت فزان أيضاً تطالب بالاستقلال فأُرسلت لها قوة اصطدمت مع القوات التي تعد عشرة آلاف في مكان يدعى بكسير[1] تقهقر الأنكشاريون في أول صدام إلا أنهم تجمعوا ثانية في المؤخـرة وتقدموا فهاجموا جيش الناصر وتغلبوا عليه . قتل الناصر وتشتت جيشه وفر أخوه الطاهر للسودان بعياله ثم دخلت مرزق الطاعة ونصب حسن النعال قائد أعلى فزان وبعد أن ترتب معه قليلاً من الجنود عاد الباقون .

في سنة ١٠٢٢ ـ ١٦١٣ نقض أهل فزان الطاعـــة ونصبوا عليهم الطاهر بن المنتصر كما أن أهل تاجوراء تمردوا أيضـاً . كان من الواجب أن يعاقبوا بضربـة شديدة فزحف صفر داي أولاً على تاجوراء فهزم العصاة وخرب البلدة واضرم فيها النيران ثم عاد بكل أنعامهم وأموالهم .

اتفق الأهالي وحساد صفر داي من جماعـــة الأنكشاريين فشكوه للأستانة[2] وفي ٢ جمادى الآخرة من سنة ١٠٢٣هـ ـ ١٦١٤م جاء قبطان البحر خليل باشا إلى طرابلس .

خامر صفر داي الشك والفزع من الشكوى في حقه ومن قـدوم الأسطول فحاول منع الأسطول من دخول الميناء إلا أن القبطـان باشا لاينه في الخطاب وغمر الداي بالوعود التي بذلها له واستدعاه لزيارتـه في سفينة القيادة ولما بات على ظهرها ألقي القبض عليه وأثقل بالحديد .

---

(١) تقع بكسير فيما بين أم البط والرملة وعلى مسافة يوم من قرية الزيغن .

(٢) تاريخ ابن غلبون والمنهل العذب .

قام أقارب الداي وأعوانه بإغلاق أبواب القلعة وحاولوا الدفاع إلا أن بعض المشائخ تدخلوا بين الطرفين فأُعطي الأمان لصفر داي ثم نزل عساكر الأسطول للبر .

جيء بصفر داي للديوان واستفسر منه عن صحة الشكاوي التي في حقـــه وبعد فترة استحضرت قوائم بالأموال والمراكب التي اغتصبها فصودرت كلها للدولة ، ثم نصب القبطان باشا سرادقاً خارج القلعـــة وحضر العلماء والأعيان والأهالي فادعوا على الداي بالاغتصاب والقتل ، وبحث في هذه التهم وثبتت وسجلت عليه تهمتا أنه قاتـــل ومغتصب وتبين وجوب التخلص منه فصدرت فتوى شرعية بإعدامه وشنق على باب القلعة . وفي العاشر من جمادى الآخر عاد الأسطول إلى استانبول . ان هذه الاجراءات اخافت الأنكشاريين نوعاً ما والداي الذي انتخبوه مجدداً سار على منهج العدالة إلا أن الأنكشاريين قتلوه أيضاً .

في سنة ١٠٢٦ ـ ١٦١٧ قـــدم من استانبول لإمارة الأمراء شخص يدعى شريف باشا ادار شؤونها حتى سنة ١٠٣٥هـ ـ ١٦٢٥م وفي سنـــة ١٠٣٥هـ ثار الأنكشاريون وحاصروا الباشا في قصر الحكومة ثم قبضوا عليه وبعثوه إلى استانبول ونصبوا مكانه المدعو رمضان داياً عليهم .

كان رمضان داي رجلاً خاملاً وكان هناك رجل من أهل صاقز يدعى محمد المهتدي ، اتفق محمد مع رمضـان وكلفه بالاستقالة فاستقال وحل محمد مكانه داياً .

كان محمد داي رجلاً فطنـاً لبيباً وكان يرى أن الفوضى والحروب خربت البـلاد وأطاحت بها للهاوية ويجب تدارك المال لإعمار البلاد ، وبما أن القرصنـة في طرابلس لا تجلب لها المكاسب الكبيرة التي يحصل عليها التونسيون والجزائريون فكان الواجب يقضي أن تعمر البلاد بايدي أهلها .

طرح رسماً جمركياً على المواد والمؤن التي تدخل للمدينـة وتخرج منها وضريبة خفيفة قدرهـا بيضة واحدة عن كل نخلة أو شجرة زيتون في العام ثم استبدلت بعشرين بارة ، وبهذه الطريقـة فرضت الضرائب لأول مرة على أهالي طرابلس الغرب — ابن غلبون —

وقد أدرك استحالةَ الدفاع عن البلاد وحراستها والمحافظة على الأمن بالأنكشاريين وحدهم فجند خيالة من أهل البلاد ووضع قواعد وأنظمة غطى بها على أدوار الفوضى بطرابلس وقد أُصيب بوعكة خفيفة ومات مسموماً من قبل طبيب أجنبي كان يعمل في معيته (١٠٤٠هـ — ١٦٣٠م) ودفن بمقبرة درغوت باشا . — ابن غلبون —

عمر محمد البلاد وأجرى فيها اصلاحات وأراح الأهـــالي ورجع الباب العالي فعين أميراً للأمراء وأصبح محمد باشا [١] .

حل مكانه دايـــاً أحد أقاربه المسمى عثمان الصاقزلي . ألغى عثمان

---

(١) لا يُعرف متى أعطيت الباشاوية إلى محمد داي والمنهل العذب يؤرخ وفاته في سنة ١٠٥٩ إلا أن تاريخ ابن غلبون مرجح عليه .

داي الضريبـة المطروحة من قبل محمد باشا ومنع القضـــاة من استيفاء الـ ٤٧ في الألف التي كانوا يأخذونها من التركات باسم (بيترمة ـ أي تتمة) ورفع عريضة لمقام السلطان ذكر فيها أن الولاية أسندت إليه بالاتفاق مع الشعب وبانتخاب العساكر ويسترحم المصادقة على توظيفه .

صودق على توليتـــه بشروط اعمار البلاد وتجديد القلاع وزيادة عدد السفن .

راعى عثمان باشا هذه الشروط وفي مدة قصـــيرة بنى في مصانع طرابلس ٢٤ مركباً وسلحها ثم أخرجهـا للبحر ونالت شهرة في حروب البحار. إلا أنه حاد عن جادة العدل وظلم الناس[١] في سنة ١٠٤٣ ـ ١٦٣٣ ثار أهالي تاورغاء بقيادة جبر ابن موسى وفي أواخر السنة هاجم الجبل الأخضر وأوجله رجل من مصر يدعى أحمد ابن عبد الهادي فسار إليهم عثمان وتغلب عليهم وألجاهم للفرار .

في سنة ١٠٤٤ ـ ١٦٣٤ بعث سكان وادي الآجال وفداً يشكون من تسلط الطاهر بن المنتصر عليهم ، فبعث عثمان باشا قوة مع الوفد أجلت الطاهر للسودان ثم عادت بعد أن خلفت في مرزق قليـــلاً من الجنود تحت أمر القائد أحمد بن هويدي الحرماني .

في سنة ١٠٤٦ ـ ١٦٣٦ جاء محمد بن جهيم ـ وهو ابن أخ الطاهر ـ وحاصر مرزق فبعث أحمد بن هويدي يستنجد عثمان باشا الذي وجه

---

(١) المنهل العذب

إليه المدد ولما اقتربت النجدة من مرزق انسحب محمد بن جهيم منصرفاً ومن ثم بعث بواسطة الشيخ علي الحضيري إلى عثمان باشا يخبره بانه إذا أسندت له العمالة على مرزق فإنه يعد بأن يكون كامثاله من العمال موظفاً مطيعاً للدولة العثمانية فعين عاملاً لمرزق للتخلص من معاناة مشاكل هذه المنطقة النائية [1] .

بدأ عثمان باشا عمله سالكاً سبل العدالة فالغى الضرائب القليلة التي فرضها محمد باشا ، ولما قويت شوكته أصبح ظالماً ، فزاد الضرائب وضيق على الأهالي ، ثم تدخل في الشؤون التجارية وحصر لنفسه شراء جميع أصناف البضائع من الخارج وبيعها للتجار بأرباح باهظة فتضرر التجار والأهالي من هذه العملية .

وضع من عمالة الأقضية بالمزايدة وكان يحيلها على من يدفع السعر الأعلى ويعينه عاملاً على القضاء الذي رست عليه عمالته دون الالتفات للكفاءة والمقدرة . وكان العمال شأن الملتزمين الذين ترسو عليهم الأقضية ـ يسلبون الجهات التي يتولون عليها .

ثم ضاعف حجم الكيلة ، فكان يكيل المحاصيل بالكيلة المحلية الصغيرة ويستوفي الأعشار بالكيلة الكبيرة التي صنعها ، وكان يشتري الأراضي التي تعجبه من صاحبها ويدفع له ثمنها بحضور المحكمة وبعد اتمام عملية الفراغ ويخرج من المحكمة يسترد من البائع نقوده جبراً وكان

(١) المنهل العذب

يقدر قيمة الغنائم وغيرهـــا من البضائع التي يحصل عليها ويجبر التجار على مشتراها باضعاف أسعارها الدارجة .

مشى على منهجه القواد والعمال وأمعنوا في سلب الأهالي ولما كان ظلم عثمان ينحصر في الأهـــالي فان الأنكشاريين لم يحركوا ساكناً من جهته وهم أيضاً كانوا يعملون بكل ما أوتوا من حيل ومن قوة لتنمية مكاسبهم .

في سنة ١٠٨٢ ـ ١٦٧١ غزا عثمان في البحر وغنموا أربعة مراكب محملة ببضائع ثمينة .

حاول الباشا أن يستأثر بالغنائم ويحرم العساكر من نصيبهم فثار من جراء ذلك الأنكشاريون وتحصنوا في القلعة وفي غرة محرم ١٠٨٣ـ١٦٧٢ نشب قتال بين الباشا وأعوانه من جهة وبين العساكر دام ثمانية أيام ولما أدرك الباشا عجزه عن التغلب عليهم تناول السم ومات .

لبى عثمان باشا أثناء حكمه دعوة السلطان للإشتراك في الحـــرب وبعث أسطول طرابلس .

في سنـــة ١٠٥٤ ـ ١٦٤٤ استدعى رئيسا (زعيما) طرابلس وتونس وبعد التي واللتيا وصلت ثماني قطع بحرية لهاتين الأيالتين إلى صاقز ملتحقة بالأسطول الكبير،وبعدأن منح الرؤساء الخلع شاركوا في حرب كريت [1] .

---

(١) تحفة الكبار

في ٢٥ ذي الحجـــة ١٠٧٨ ـ ١٦٦٧ التحقت ست سفن طرابلسية بالقائد العام في خانيه و كلفوا بالقبض على القرصان جورجيو[١] .

كانت هذه السفن تبحث عن العدو في ميــاه كساندرة وسلانيك واغريبوز ؛ وقد غادروا يوندة وبينما هم بالقرب من رأس زيتـون أمام ميديللي بلغهم أن جورجيو يتمخطر بثلاث سفن له .

قصدوه وبادروه بالقتــال . كانت إحدى سفن جورجيو كبيرة وذات ثلاثة فوانيس من صنع البندقيـــة أحاطت السفن الطرابلسية بالسفينة الكبيرة ثم لحق بهم القبطان باشا وهاجم سفينـــة جورجيو ؛ استمر القتال حتى المساء على ظهر سفينة جورجيو وقد قتل جورجيو وأدركهم الليل إلا أن القتال لم يتوقف ودام حتى الصباح ؛ وعند السحر استولوا على السفينة وأسروا ١١٨ محارباً نصرانياً الباقين على قيد الحياة وفكوا قيـود ١٣٤ مسلحاً كانوا مقيدين بالسلاسل في السفينة ؛ وأسروا أيضاً ١٥٠ من قليون البندقية . لما كانت السفينـة قد تمزقت بقنابل المدافع فقد نقلت مدافعها وذخائرها وغير ذلك من الآلات ثم غرقت[٢] .

ان لعثمان باشا في طرابلس مبرات وأوقاف كثيرة وله مسجد ومدرسة .

---

(١) جورجيو فيتالي

(٢) تاريخ السلاحدار ص ٤٨٠.

عثمان داي

نصب الأنكشاريون عثمان داي مكان عثمان باشا واختاروا علي قبطان كاهية (نائباً) له. كان عثمان داي فاضلاً ومتديناً ولما عاد مصرلي أوغلي إبراهيم الذي كان غائباً في غزوة بحرية اعترض على هذا الإنتخاب فخلعوا عثمان داي وقتلوه (١٠٨٣ ـ ١٦٧٢) .

بالي جاوشن

انتخبوا بالي شاوسن داياً ومصطفى بهلوان كاهية له ١٠٨٣ـ١٦٧٢ .

بعث الداي الجديد العمال والموظفين لأنحاء البلاد ووطد الأمن والسكينة وألزم العساكر بالطاعـــة إلا أن اجراءات بالي جاوشن الأصلاحية توقفت في منتصف الطريق بسبب هجوم مراد بك ابن حموده باشا داي تونس على طرابلس ، فخرج بالي جاوشن بالموجود من جنوده لمقابلة مراد بك في حـرب لا يد له في بواعثها إلا أن أنكشاريي طرابلس أصيبوا بخسائر فادحة في الأرواح وانسحبوا فالتجاوا للقلعـة . فلحق بهم مراد بك وحاصر القلعة .

خرج له العلماء والأشراف والأعيـان ورجوه الكف عن القتال وحقن دماء المسلمين فقبل مراد بك شفاعتهم وعاد إلى تونس .

بعد أن اجتاز بالي جاوشن هذا الخطر وجد مركزه متيناً ونقض الصلح الذي عقده عثمان داي مع الأنكليز وجهز خمسة مراكب أرسلها

تغزو في البحر بقيادة مصطفى الكبير الأستانكويلي ومصرلي أوغلي إبراهيم وقره طاغلي أحمد قبطان إلا أن المنية أدركته قبل أن يشهد عودتهم (٢٢ صفر ١٠٦٦ ـ ١٦٧٥) . المنهل العذب

مصطفى بهلوان

صار مصطفى بهلوان داياً مكان المتوفي بالي شاوسن وسليمان التوقاتلي كاهية له . ولما عاد الأسطول في هذه الآونة غانماً سفينة حربية نصرانية لم يعجب الرؤساء مصطفى بهلوان الذي لم يكن لهم رأي في انتخابه واجتمع المجلس وحدثت مظاهرات وفي النتيجة خلعوا مصطفى بهلوان ونفوه إلى جربة .

مصرلي أوغلي إبراهيم

اختاروا مصرلي أوغلي إبراهيم دايـــاً والروم أيليلي عبد الفتاح كاهيــة له .

بقي مصطفى بهلوان داياً لمدة خمسة عشر يوماً وابن غلبون يقول إنهـا عشرة أيام فقط ، والسجل العثماني يذكران مصطفى بهلوان صار داياً في ١٠٨٣ بينما ابن غلبون والمنهل العذب متفقان على سنة ١٠٨٦ كان المصرلي أوغلي شجاعاً عاجلاً شديد الوطأة على المشاغبين . نشر الأمن في البلاد ورمم القلاع وجدد برج الشعاب وقوى الأسطول .

استأنف قراصنة طرابلس نشاطهم فاظهروا بأسهم وذاع صيتهم . استولوا على ثلاثة مراكب للانكليز فساقوها إلى قرب حدود المياه المصرية حيث باعوا البضائع التي كانت تحملها . بينما إبراهيم مصرلي أوغلي دائب في تحسين إدارة البلاد كان الأستانكويلي دائباً على التحريض ضده . وكان إبراهيم داي لا يستحسن تصرفات الإنكشاريين المنافيـــة للدين مما سبب في اغضابهم ، وكانوا يعادونه ويعايرونه بوصفهم إياه بانه فـــج ومتزمت . ولما أدرك أنهم يومـــاً ما سيغتالونه سافر بالأسطول إلى الإسكندرية ومنها إلى استانبول حيث قابل الصدر الأعظم وصدرت التوصية بتعيينه أميراً لأمراء طرابلس الغرب .

بعثه السلطان وبعث محمد حفصي باشا الذي عين لإمارة أمراء تونس بتاريخ ١٠ جمـــادي الأول ١٠٨٧ في أسطول يتألف من تسعة مراكب برفقة القيوجي باشا محمد آغا .

في ٨ ذي القعدة حضر إلى استانبول وفد من طرابلس يتألف من ثلاثين شخصاً ومن قبل كان أهل طرابلس قد رفعوا عريضة يعربون عن رفضهم لقبول المصرلي أوغلي إبراهيم المعين لإمارة الأمراء بسبب ظلمه واعتداءاته لما كان والياً على البلاد وأنهم لا يثقون فيه كما أن تونس رفضت قبول محمد الحفصي . وفي المداولة التي أُجريت في قصر الصدر الأعظم تقرر ملاطفة سكان هذه البلدان القصيـــة ، فقبلت التماسات أعيان طرابلس وأُعيدوا إلى طرابلس[١] .

(١) تاريخ راشد ج ١ ص ٣٣١.

اينه بوليلي إبراهيم تشلبي

لما ذاع نبأ هروب إبراهيم مصرلي أوغلي داي اجتمع العساكر ونصبوا إبراهيم تشلبي داياً واندرونلي أحمد كاهية له ولما عاد الأسطول الذي كان مسافراً للأسكندرية اعترض رؤساؤه على استعجال الإنكشاريين في الإنتخاب الذي أجروه أثناء غيابهم وأثبتوا بذلك قوة نفوذهم ثم عزلوا الذي قضى ثلاثة أيام داياً .

بويوك مصطفى (مصطفى الكبير) الأستانكويلي[1]

كل المؤامرات نتجت عن طمع بويوك مصطفى الأستانكويلي في أن يكون داياً. وكانوا قد عرضوها عليه فاجتنبها مبدئياً ورفض قبولها ، وكان يقصد بهذا الرفض المصطنع أن يوافقوه على بعض الشروط ثم قبل أن يصير داياً بشرط تأديب المشاغبين واستخلاص حقوق الضعفاء الذين لا سند لهم وأن يكون حراً في تصرفاته وأن لا يتدخل أحد في أعماله .

كان شجاعاً قوي الشكيمة وبحاراً محنكاً .

سار بالبلاد كما وعد في الطريق المستقيم وتوفي في غرة صفر سنة ١٠٨٨ ــ ١٦٧٨ من الوباء .

---

(١) استانكوي اسم جزيرة تقع إلى الشمال من جزيرة رودس مقابل السواحل الغربية لآسيا الصغرى التي يسميها الأتراك اناضولي وكان العرب يسمونها بلاد الروم .

عثمان داي

كان وكيل الخرج عثمان داي ، الذي نصبوه مكان مصطفى ، رجلاً مسناً وقد توفي في سلخ ربيع الأول من عام ١٠٨٩ ـ ١٦٧٨ .

دميرجي آق محمد داي (محمد الأبيض الحداد)

يدعى أيضاً محمد تيمور . جاء الأنادوليلي آق محمد مكان عثمان داي ونصب أوزون أحمد كاهية له .

في هذه الفترة أحدثت قيادة الجند وذاع صيتها .

كان حسين آبازة متولياً القيادة المذكورة في عهد محمد داي وأمانة الخزينة إلى محمود آغا .

إن آق محمد الذي كان يتظاهر بالحلم والطيبة كشف عن طباعه الأصلية عندما صار داياً وآنس من نفسه القوة وانقلب ظالماً مغتصباً .

ثارت البلاد ضد تصرفاته واتفق على عزله الكاهية وأمين الخزينة وخليل بك الأرناؤوطي ومحمد الدباغ والربان علي وكان مصطفى بهلوان قد هرب من منفاه في جربة وجاء فاجتمع بأشياعه وتقدموا في بعض الجهات من الجبل الغربي حيث اجتمعوا بعربان المحاميد الذين رفعوا راية العصيان ولحق بهم أهالي غريان ثائرين وعلى رأس هذه الجموع القائد الذي عينه الداي .

ساق آق محمد عليهم جيشاً بقيادة حسين آبازة إلا أن الجنود بدلاً من الذهاب لقتال المتمردين انقلبوا على الداي وخلعوه من منصبه ١٠٩٣ ـ ١٦٨٢ .

في عهد آق محمد باغت الأسطول الفرنسي مراكب الأسطول الطرابلسي وألحق به أضراراً كان لها صدى كبير في البلاد وذلك أنه :

بينما كانت ثماني سفن طرابلسية راسية بأمن وسلام في ميناء صاقز ظهرت فجاة ثمانية مراكب فرنسية تتقدم في اتجاه الميناء فانذر الربابنة الطرابلسيون محافظ القلعة بأن الفرنسيين يقصدونهم إلا أن مدافع القلعة بقيت ساكتة لأنها بدون حوامل ولا يملك المحافظ ما يساعد به .

ضربت السفن الفرنسية بمدافعها مراكب الأسطول الطرابلسي الراسية في هذا الميناء العثماني وقتلت ١١٠ وجرحت ٨٠٠ شخص من العساكر والأهالي ، ولما ذهب القنصل الفرنسي وقابل قائد الأسطول المغير مستفسراً عن السبب ، أجابه بانه يطالب باستسلام الأسطول الطرابلسي .

كتب قاضي صاقز بالمسالة للآستانة التي أوفدت بوزوقلي مصطفى باشا لإيجاد حل للمسألة فطالب الفرنسيون بتسليمهم مراكب طرابلس ووعدوا بالتعويض عن الخسائر التي أوقعوها . فكتب مصطفى باشا بنتيجة تحقيقاته للآستانة وفتح باب التفاوض .

عندما طالت القضية كتب أيضاً إلى فرنسا بشأن هذه المسالة وأخيراً انتهت المفاوضات بتبادل الهدايا واعتـــذار فرنسا وتلقى الأسطول الفرنسي التعليمات من حكومته كما أن مصطفى باشا صالح بين الطرفين المتنازعين وتبادلوا الأساري ثم انسحب الفرنسيون بعد أن دفعوا بعض التعويضات وبقيت المراكب الطرابلسية لإصلاح الأعطاب التي لحقت بها وقد أرسلت لها الأخشاب والصواري والحبال والقلوع اللازمة للترميم وبعد الإنتهاء من الإصلاح اقلعت [١] .

حسين آبازة داي

نصب حسين آبازة داياً مكان آق محمد وعين مراد بك قائداً للجيش وسعى للرفع من مكانة مراد . لقد كان حسين داي فاتر العزم والرأي .

أمسك النجيب ابن محمد بن جهيم عن دفع الاتاوة فتوجه مراد بك الأرناؤوطي (الألباني) بعدد كافٍ من الجنود إلى فزان عن طريق الجديد ـ ودان ـ دليم وخرج النجيب لاستقباله وطلب العفو فأعطاه مراد بك الأمان ودخلا معاً إلى مرزق ، ولما حل مراد في البلدة نقض العهد واستولى على خزانة العامل وجمع أمتعة التجار ونقودهم ثم عاد منتصراً . وبعد عودته أمر بالقبض على الداي ونفاه إلى جربة وفيما بعد جيء بالمدعو عبدالله أحد أمراء جند الجزائر ونودي به داياً في ١٥ جمادى الآخر ١٠٩٣ ـ ١٦٨٢ .

---

(١) تاريخ محمد آغا ص ٧٤٤ .

عبدالله داي

كان الاسم فقط لعبدالله داي وكل القوة بيد مراد بك. وكان الجنود مشمئزين جداً من استبداد مراد ولما تبين لهم أن لا نفوذ للداي على هذا الشخص ثاروا عليه وطردوه ثم نصبوا الحاج عبدالله الأزميرلي داياً .

الحاج عبدالله داي الأزميرلي

وهذا الداي أيضاً لم يستطع التخلص من نفوذ مراد بك . وكان الأسبان يراقبون الفوضى السائدة في طرابلس ومطلعين على الضعف الطارىء بسببها وحددوا الموعد المناسب للإستيلاء عليها ، فبعثوا في آخر جمادى الثاني من عام ١٠٩٣ ــ ١٦٨٢ أسطولاً حاصرها وضربها بالقنابل .

كانت مشاغبات الإنكشاريين وعدم كفاءة الدايات وعجزهم قد أدت لإهمال وسائل الدفاع وبقيت القلاع والتحصينات مدمرة وبدون محافظين فاستولى الرعب والدهشة على قلوب الأهالي من جراء هذه المفاجأة ، وعقد الداي مجلساً دعا إليه الأعيان والأمراء واستوضحهم عن آرائهم ، فأشار عليه بعضهم بالدفاع وبعضهم رأوا وجوب التشاور مع مراد بك.

كان من رأي مراد بك ترك المدينة والإنسحاب إلى الهاني لكونه أصلح مكان للدفاع ، ومع هذا فقد كان يغري الأعيان وأشراف البلاد على التفاهم والمصالحة وبعد المذاكرة والتشاور تقرر قبول شروط

الأسبان . بعث الأسبانيون قنصلاً إلى طرابلس ووقعت مع اسبانيـــا معاهدة تسمح للأسباني أن يدخل أي مكان وهو لابس حذاءه وإذا حدث بين الوطني والأسباني ما يقتضي المرافعة فلا يتحاكمون أمـــام المحاكم الوطنية بل في القنصلية الأسبانية[1] .

على أثر هذا الحادث نحي الحاج عبدالله داي من منصبه في ١٠٩٤ – ١٦٨٣ ونصب مكانه :

الترزي ابراهيم داي

خلال سنه ١٠٩٣ عمل حسن آبازة[2] وروم ايليلي عبـــدالله والحاج عبدالله الأزمرلي كل من هؤلاء الثلاثة داياً ونحي من منصبه . إن الأستانة التي تجهـل تبديل الإنكشاريين لعدد من الدايات في العام الواحد بعثت المدعو خليل باشا الأرناؤوطي أميراً للأمراء .

لما جاء خليل باشا إلى طرابلس دهش لما رأى الحكم في أيدٍ أخرى ، كما أن الإنكشاريين لم يقدموا على رفض أمير الأمراء الموفد وإثارة خلافٍ مع الحكومة ورضوا بأن يشغل مقام أمير الأمراء شريطة أن لا يتدخل في شؤون الإدارة .

---

(١) ابن غلبون يذكر أن تعيين قنصل أسباني في طرابلس وعقد معاهـدة من مادتين معهم كانت في عهد خليل باشا .

(٢) ان المنهل العذب يسميه حسين آبازة بينما ابن غلبون يسميه حسن آبازة وقد أخذ بالاسم الذي كتبه ابن غلبون لأقدميته .

عين لقيادة الجيش محمد آغا صقال دليسي [1] وحسين القلايجي (أي القزدار) كاهية لإبراهيم وكان مراد قد تمرد وانسحب إلى تاجوراء .

ساق إبراهيم داي العساكر على مراد بقيادة محمد آغا وعاضد عربان المحاميد العساكر في القتال الذي نشب مع مراد وأعوانـــه فقتل مراد وتفرق أعوانه وأدار شؤون الحكومة خليل باشا وإبراهيم داي معاً وفي ذي الحجـة من عام ١٠٩٨ ـ ١٦٨٦ ثار الإنكشاريون وانتخبوا الإمام محمد داياً [2] .

ان ضرب الفرنسيين لمدينة طرابلس من البحر بالقنابل كان أهم حادث وقع في عهد إبراهيم داي في سنة ١٠٩٧ ـ ١٦٨٥ جـــاء أسطول فرنسي بقيادة المارشال دستره إلى طرابلس وضربها بالقنابل جزاء على اعتداءات الطرابلسيين المتكررة على الفرنسيين ثم انصرف [3] .

امير الأمراء محمد باشا

وفي هذه الأثناء حضر محمد باشا المعين من قبل الأستانة أميراً للأمراء بدلاً من خليل باشا .

---

(١) صقال دليسي تعني مجنون اللحى وربما أعطي هذا اللقب بسبب اعتنائه في اكبار لحيته .

(٢) المنهل العذب .

(٣) فوربيك .

كان محمد باشا ذا عزم وصلابـــة وقد أصلح القلاع ومكنها وبذل مجهوده للزيادة من عدد سفن الأسطول وشيد الجامع الذي داخل السور وأنشا سوق الترك وكان هذا السوق أحسن أسواق طرابلس وقد توفي عام ١١١٨ ودفن بالقرب من المسجد الذي شيده .

الداي الامام محمد شائب العين

كان محمد باشا يحث الداي الإمام محمد القره طاغلي شائب العين على سلوك طريق العدالة وأشار عليه بفسخ المعاهـــدة المعقودة مع الأسبان والتي تعطي للقنصل الأسباني حق حكم البلاد ، فبعث الأسبانيون إلى طرابلس ١٥ سفينة حربية لاسترداد الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها .

ان الإنكشاريين ، الذين كانت البلاد لا تتسع لعنجهيتهم في أيام السلم ، التزموا جانب الأسبان واقترحوا ـ بالإضافة إلى قبول شروط المعاهدة ـ بأن تقدم لهم بعض الهدايا تطييباً لخواطرهم إلا أن محمد باشا كان معارضاً لهذه الفكرة وجلب إلى صفه بعض المتنفذين من أهل البلاد بالمال ووقف في وجه تهديدات الأسطول الذي غادر البلاد بدون أن يعمل أي شيء إلا أنه اعاد الكرة فرجع بعد مـــدة غير طويلة واستولى على مركبين للمسلمين وفي هذه المرة لم يثمر نفوذ محمد باشا في اقناع الأهالي والعساكر ووقعت المعاهدة جبراً وتبودل الأسرى بين الطرفين وتقرر دفع ماية وخمسين ريالاً عن كل أسير اضافي .

في سنة ١١٠١ ـ ١٦٨٩ حضر اسماعيل باشا أمير أمراء الجزائر

السابق وحل مكان محمد باشا [1] . وكما جرى في الأعوام السابقة فقد صدر الأمر إلى رباطات الغرب بأن يلتحقوا بالأسطول الملكي ووردت كسوة لأمير الأمراء وخلع للداي ولآغا الإنكشاريين وسبعة آلاف ذهبة لتوزع على الغزاة . جهز الباشا خمسة مراكب لتغزو فغزت وعادت بمركب غنمته وتوسعت أعمال القرصنة منذ ذلك الحين .

لما اعتدى شعبان أمير أمراء الجزائر على تونس في عام ١١٠٥ التزم الطرابلسيون جانبه وقدموا له المدد العسكري . كتب التونسيون شكوى للسلطان من هذا الاعتداء ويصفون أعمال وأضرار الطرابلسيين والجزائريين بأنها كانت أشد مما كان يعمله أعداء الدين بهم،فوجه السلطان فرمانات إلى الرباطات بالتصالح وأن يوفدوا وكلاء عنهم لبحث خلافاتهم

---

(١) سجل الشؤون الهامة للديوان الهمايوني رقم ٩٩ ص ٣٥ .

يؤمر أمير أمراء طرابلس اسماعيل دام اقباله وداييها محمد داي وآغا الإنكشاريين وكتخدائـه وضباط المماليك وشيوخهم أنه : عملاً بالمراسيم الصادرة عن مقامي في كل عام وتقديراً للخدمات المشكورة التي سبق أن قدمها أسطولكم المشحون بالرجال الأبطال وآلات وأدوات الحرب والقتال في سبيل الدين المبين فإن الشموس الباهرة لعواطفي العلية السلطانية وجهت إليك وإلى آغا الإنكشاريين زيد قدره وإلى غيرهم من الرؤساء بالخلع الفاخرة السنية من العطايا الجليلة الكسروانية وبسبعة آلاف ذهبة لغيرهم من الغزاة الذين سينتخبون للحملة المزمع اخراجها ، فتهيأوا للإلتحاق بأسطولي الملكي .

في أوائل جمادي الآخر ١١٠١

بمقتضى الشريعة وأن يحضروا بسفنهم لتخليص جزيرة صاقـــز من أيدي العدو .

امير الأمراء محمد باشا الدستاري

وفي ١٨ جمادى الآخرة ١١٠٦ عين الدستاري محمد باشا أمـــيراً لأمراء طرابلس وإلى إمارة أمراء الجزائر عين عمر باشا المفصول من الموصل ، وأوفدا مع التوصية بالتوفيق بين الرباطات[١] .

تمرد الناصر عامل فزان

في سنة ١١٠٦ تمرد الناصر عامل فزان فارسلت إليه العساكر بقيادة يوسف بك الذي فرق شمل جوعه وأخذه أسيراً وعاد به إلى طرابلس وعين رجلاً يدعى محمد عاملاً بفزان .

ثورة اهل فزان واعلان تميم بن جهيم اميراً على بلادهم

في سنة ١١٠٧ ثار الفزانيون ثانيـة ونصبوا أميراً عليهم المدعو تميم ابن جهيم ، فتوجهت إليـــه العساكر وألجاوه إلى الفرار إلا أنه صار يتجول في أنحاء البلاد ويقلق راحة الأهالي والحكومة. لما رؤي أن الناصر كان أوسع نفوذاً وأكثر أعواناً تقرر الإفراج عنه من السجن وأوفد عاملاً

---

(١) تاريخ راشد مجلد ٢ ص ٢٩٠ .

على فزان شرط أن يكون مطيعاً للدولة . وقد سادت السكينـــة على تلك الربوع .

خلال هذا العـــام التحق بالأسطول العثماني خمسة مراكب من طرابلس وأبلغت الأستانة بان الجزائريين تصادفوا مع ثلاثة مراكب للبندقية وبعد قتال قصير استولوا عليها [١] .

ثورة منصور بن خليفة

في سنة ١١٠٨ سار في أنحاء سرت رجل يدعى منصور بن خليفـــة وجمع حوله كثيراً من الناس فتصادم معـه يوسف بك في المكان المسمى أم الجن بين تاورغاء والهيشة إلا أنه لم يوفق في التنكيل بالعصاة ومع ذلك فإن منصور لم يستطع التمركز هناك وانسحب إلى برقة فكتب محمد داي أمراً إلى محمد بن حموده عامل برقة بالقبض على منصور .

زحف عامل برقة بمحاربي قبيلتي البراغثـة وأولاد علي على منصور وأجبره للهروب ثانية إلى سرت ، ولما تفرقت معظم القوات التي معـه جمع شرذمة من قطاع الطرق وباشر أعمال السلب والنهب .

قيام عبدالله بن عبد النبي الحاجي

في عام ١١١١ جمع المدعو عبدالله بن عبد النبي الملقب بالحاجي لفيفاً

---

(١) تاريخ راشد مجلد ٢ ص ٣٥٨ .

من الأوباش وأغار بهم على قرى زلتين وتاجوراء فنهبوها وقــد شتت شملهم من قبل العساكر المبعوثة لمطاردتهم .

في عام ١١١٢ خرجت حملة بقيادة خليل بك لتوطيد الأمن في المناطق الغربية ولما بلغت قرية شكشوك الكائنة بجبل نفوسة ظهر بين قوادها الخلاف فعادوا إلى طرابلس وعزلوا الداي محمد باشا ونصبوا داياً مكانه عثمان الدرغوتلي صاحب مقهى بسوق الترك في ١٢ ربيع أول ١١١٢ .

عثمان داي الدرغوتلي

نزعت صفة الداي عن محمد باشا إلا أنه بقي في البلاد كأمير للأمراء إلا أن عثمان لم يقبل إشراك أحد معه في الحكم ونفى محمد باشا ونسيبـــه خليل بك إلى خارج الإيالة فانسحب هذان إلى تونس .

بالرغم من استقلال عثمان داي بالحكم فإنه لم يستطع أن يعمل شيئاً مفيداً ولا أن يدير شؤون الإنكشاريين. وبعد ثلاثة شهور وعشرين يوماً قذف به ونصب الحاج مصطفى الكليبوليلي داياً .

الحاج مصطفى الكليبوليلي

كان مصطفى داي شديداً وظالماً. وفي سنة ١١١٢ شق أهالي غريان عصا الطاعة إلا أن العساكر المرسلة إليهم بقيادة المدعو السيد بن المنتصر الزموري أطفأت نار فتنتهم وحصل خليل بك على عدد على السفن وجاء

بها إلى الزعفران فالتف من حولــــه الناس الذين نقموا على ظلم الداي وزحفوا على طرابلس فدخلوها وألقوا القبض على الحاج مصطفى وبعثوه إلى تاجوراء وكتبوا إلى عـامل تاجوراء بأن يقتله ساعة وصوله وبهـذه الصورة نصب خليل بك دايا في سنة ١١١٤ .

خليل باشا

قضى خليل باشا على ثورة أهل غريان [١] .

ولما أحضر حموه محمد باشا من تونس حاول الإنكشاريون لهذا السبب أن يقوموا بثورة إلا أنه تغلب عليهم وأرعبهم ثم قــــام بعبء تسكين البلاد وبعث الروح في معمل سك النقود وألزم الموظفين بارتداء الملابس الرسمية والمزركشة وبعث النشاط في الترسانة إذ قام بإنشاء السفن وإحياء القرصنة من جديد .

لقد كان محباً للصدق ويقف عند كلمته وكان عالماً وفاضلاً ومحبــــاً لمجالس العلم كما شيد المسجد الكبير في المنشية .

طلب مراد بك والي تونس مساعدته في مهاجمة الجزائر فبعث خليل باشا قوة من الطرابلسيين زحفـوا متحدين على قسنطينة إلا أنهم هزموا وعادوا يوم ١٧ ربيع الآخر ١١١٥ إلى الكاف ومنها إلى طرابلس .

---

(١) المنهل العذب .

إبراهيم شريف باشا امير امراء تونس يهاجم طرابلس

في سنة ١١١٦ قام أمير أمراء تونس إبراهيم شريف باشا بالزحف على طرابلس بسبب الصداقة التي كانت من قبل بين مراد بك وخليل باشا وبسبب اغتصاب خليل باشا للهدايا المبعوثة من مصر انتصر شريف باشا على خليل باشا وتقدم فحاصر طرابلس . بعث خليل باشا كاهيته حسن ابن علي لعقد الصلح لقاء تعويضات يدفعها لـه إلا أن شريف باشا رفض المصالحة وأصر على وجوب الاستسلام وفي هذه الآونة ظهر الوباء بـــين الجنود التونسيين واضطروا للإنسحاب ١١١٦ ــ ١٧٠٤ .

في سنة ١١٢١ قام عبدالله بن عبدالله الملقب بالحاجي بقطع الطرق وسلب القوافل ، وفي أواسط شعبان من السنـة المذكورة بعث خليل بكل القوات التي تحت يديه لتتبعه وإلقاء القبض عليـــه وقد استغل ابراهيم الأركليلي فرصة خلو المدينة من حماتها فجمع شرذمة من المتشردين وثار بهم على خليل باشا ونشب بين ابراهيم الأركليلي وأعوانه من جهة وبين خليل باشا ومن وجد من أعوانه قتال دام أسبوعاً اسفر عن انهزام فريق خليل باشا وتوجـــه هو عن طريق سرت إلى مصر ومنها إلى الأستانة[1] .

ان مساعدة خليل باشا لمراد بك في سنة ١١١١ بحرب الجزائـــر ورجوعه مهزوماً قضت على شعبيته وأصبح غير مرغوب فيه .

---

(١) تاريخ راشد مجلد ٢ ص ٥٢٨ .

الأستانة تبعث بكر جاوشن للتوفيق بين الطرفين المتنازعين

لما وصل المبعوثون الموفدون للأستانة بالمراكب التونسية وأبلغوا الدولة تعاون خليل بك مع مراد بك في الهجوم على الجزائر أوفدت الأستانة مع السفن التونسية بكر جاوشن حاملاً التفويض السلطاني للتوفيق بين الأطراف المتنازعة وفي هذه الأثناء وصل أيضاً خليل باشا إلى تونس إلا أن التونسيين رفضوا قبوله خوفاً من أن يسبب إثارة فتنة بينهم وبين الطرابلسيين وأجبروه على الذهاب إلى مصر .

وفي سنة ١١١٣ جددت الرباطات الجزائرية والتونسية والطرابلسية علاقات الصداقة بينهم .

إبراهيم داي الأركليلي

نصب المدعو قره محمد قائداً للجند وهذا أطفأ احد مواقد الفساد بقتل عبدالله بن عبد النبي إلا أن الداي استجلب سخط الناس على شخصه لقتله ونفيه لأقارب خليل باشا واتيانه بأنواع الظلم في حقهم كما أنه لم يتعاشر مع قره محمد الذي عينه للقيادة ونفاه للمغرب إلا أن قره محمد هرب إلى تاجوراء ، وفي رجب عام ١١٢٢ جمع حوله بعض الأشخاص وحاول القيام بثورة فبعث له إبراهيم داي جنوداً بقيادة محمد بك الجن ألجأه للفرار ومن ثم آنس محمد بك الجن من نفسه القوة وشق عصا الطاعة على إبراهيم داي فطوقه بقصر الحكومة وضايقه وبعد خمسة

وعشرين يوماً وفي ليلة العيد قبض عليه ونفاه إلى الإسكندرية . لقد كانت القوات المحاربة تحت أمرة محمد بك الجن ، ولما كان يعرف مصير الدايات رأى أن يمسك بيده زمام قيادة القوات المسلحة وأن يأتي بداي اسماً فنصب في شوال ١١٢٢ اسماعيل خوجة أمام جامع الخروبة داياً .

الداي اسماعيل خوجة

ثقل على الإنكشاريين تغلب محمد بك فثاروا عليه وقتلوه ثم عزلوا اسماعيل خوجه من منصبه وولوا على البلاد بدلاً منه المدعو الحاج مصطفى داياً .

الحاج مصطفي داي

في هذه الآونة تمرد أحمد بك في تاجوراء فشتت شمله من قبل العساكر التي أرسلت لقتاله وانهزم إلى غريان . لم يحظ الحاج مصطفى برضا الإنكشاريين فقتلوه وانتخبوا في جمادى الأول من عام ١١٢٣ كاتب المجلس أبو مويس محمود بك .

الداي محود بك ابو مويس

كان محمود بك يرى في أحمد بك القرمانلي حجر عثرة في سبيل استقلاله بالحكم .

كان أحمد بك أحد أمراء الإنكشاريين وكان لبيباً وفطيناً وحسن الأخلاق مما حبب الناس في شخصه. لم ير محمود من المناسب لأول وهلة

إزالة أحمد بك من الوجود فبعثه بمهمة إلى غريان وكتب في الرسالة التي بعثها بيد أحمد بك إلى عامل غريان بأن يقتله حالما يتسلم منه الرسالة إلا أن أحمد بك الذي كان يشتبه في نوايا محمود بك فتح الرسالة ولما اطلع على مضمونها عاد في الحال إلى طرابلس وأطلع مؤيديه على الأمر وأراهم الرسالة ثم جمع كثيراً من الأعوان وهاجم بهم قصر الحكومة وأطاحوا بمحمود بك في اليوم الخامس والعشرين من نصبه داياً . وفي ١٣ جمادى نودي بأحمد بك داياً .

اسرة القرمانليين في طرابلس

في ١٣ جمادى الآخر من سنة ١١٢٣ ـ ١٧١٢ يوم الثلاثاء أعلن أحمد بك والياً بانتخاب الجند، لما تسلم أحمد بك زمام الحكم كتب رسالة للعمال ينبئهم بمباشرته في ادارة البلاد ويأمرهم بالتزام العدل والمحافظة على الحقوق العامة على منهج الشريعة وتشكيل هيئة علمية تتولى الإستماع للمرافعات والقيام بالتحقيقات الشرعية .

حضر إلى طرابلس في هذه الآونة خليل باشا ـ نسيب الوالي الأسبق محمد باشا الذي هرب إلى مصر ـ وذلك بعد أن حصل على إمارة أمرائها إلا أن القرمانلي أمر بقتل رقيبه العتيد ، ولما بلغ الخبر للآستانة أوفدت قبطان البحر محمد باشا الملقب جانم خوجة للتحقيق في هذه القضية فاستدعى المحقق لسفينة القيادة البعض من أهل المدينة للاستفسار عن معلوماتهم ثم اعادهم ، وبمجرد تماس أقدام هؤلاء للبر أمر أحمد بك بنفيهم

أو اعدامهم . ولما لم يجسر أحـد فيما بعد على الاتصال بالأسطول عاد محمد باشا للأستانة بدون أن يلم باي شيء عن هذه المسالة.

في سنة ١١٢٥ ـ ١٧٢٣ ثار في مصلاتة أحد رؤساء الجنود المسمى حسين بك فزحف عليه أحمد بك بالذات وقضى على الثـــورة وأضرم النيران في بيوت الذين اشتركوا في هـــذه الثورة واستولى على أموالهم ومواشيهم .

في سنة ١١٢٧ ـ ١٧١٥ تمكن المدعو علي بن عبدالله عبيداني المغربي الأصل والمقيم في طرابلس من اقنـــاع بعض أهالي الجبل بانه المهدي المنتظر وخلال مـدة قصيرة تمكن من جمع كثير من المريدين فعاجله أحمد بك بالزحف عليه وأزال هذه الغائلة .

كتب أحمد بك للأستانة معلناً ولاءه وملتمساً تعيينه أمير الأمراء طرابلس فجاءه مرسوم التعيين كما مكن مركزه بالإنتصارات التي احرزها.ثم عمل على تنمية ثروته ونشر صيته . ولقد كلف اركان الإمارة بالموافقة على اضافـة الأتاوة الواردة من فزان إلى مخصصات الإمارة . ساق عساكر وفيرة تحت قيادة أخيه الحاج شعبـان بك وبإدارة ابراهيم الترياكي وعلى أدهم ساقهم لضم جهات بنغازي ودرنة إلى حكمه ، وذهبت هذه القوة إلى درنة وطوعوا تلك الجهات إلا أن الحاج شعبان بك أغضب الأمراء فعزلوه وأعلنـــوا إبراهيم قائداً عليهم ولما خيل للرؤساء أنهم وفقوا في هذه العملية فكروا في نصب إبراهيم بك والياً وقد أقنعهم المنجم المسمى عبد الرحمن بتوافق تصوراتهم مع طوالع النجوم .

خرجوا عائدين إلى طرابلس ومعهم رجـــال القبائل التي طوعوها والذين اقنعوهم ودفعوهم ممن كان في طريقهم من العربان فقابلهم أحمـد بك واصغوا للقتال ، ولما كان بعض الجنود قد اكرهوا على العصيان فـإنهم أول ما نشب القتال غادروا صفوف الأمـراء إلى صفوف أحمد بك الأمر الذي سبب انتصار أحمد بك على الأمراء وانهزامهم .

بعد أن قضى أحمد باشا على هذه الفتنة تنكر للعدالة والشريعـــة وبدأ يظلم الناس .

ان الكثيرين من العلماء والفضلاء وحتى المؤرخ ابن غلبون الذي كال له المديح في تاريخه تعرضوا لسيف نقمته ، ومع هذا فإن أحمــــد باشا لم يستطع الإستقلال الكامـــل في تصرفاته حيث كان الإنكشاريون رفاق الرباط يقيدون بعض تصرفاته .

ان احمد باشا لم يكتف بإمارة أمـراء الإيالة بل كان يدعو لنفسه في مراسلاته وخطب المساجد بإمـارة المؤمنين . وقد استعمل احفاده طيلة حكم الأسرة القرمانلية نفس الألقاب . شيد احمد باشا مسجداً جميلاً مكان المسجد الذي انشاه عمـرو بن العاص عندما فتح طرابلس . ولما توفي سنة ١١٥٨ ـ ١٧٤٥ دفن في صحن هذا المسجد .

محمد باشا

في اليوم الذي توفي فيه احمد باشا انتخب ابنه محمد باشا ليحل مكان أبيه والياً للبلاد .

لقد كان محمد باشا قديراً وحكيماً ولم يطمع مثـــل أبيه في توسيع حدود الإيالة بل اكتفى بتوطيد الأمن واحلال السكينة في البلاد . لقـد بذل اهتمامه بالقرصنة وكان البحارة الطرابلسيون المشهورون بالشجاعة المتناهية قد أرعبوا أعداءهم في حروب البحار.

أدركت دول أجنبية عديدة استحالة تجول مراكبها التجارية في عرض البحار ما لم يعقدوا اتفاقيـــات مع حكومة طرابلس فبادروا لعقد اتفاقيات معها .

في سنة ١١٦٤ ـ ١٧٥٠ عقدت اتفاقية مع الدولة الإنكليزية . في هذه الإتفاقية التي تتالف من ثمانٍ وعشرين مادة :

١ ـ تستطيع السفن الحكومية الإنكليزية أن تنقل الأطعمـــة إلى مينوركة وإلى بورت ماهو .

٢ ـ إذا صادف القراصنة سفينة انكليزية يتحققون من جـــوازات السفر التي تحملها وإذا كانت صحيحة يعاملونها معاملة الأصدقاء .

٣ ـ عند قدوم سفينة انكليزية إلى طرابلس يحجز الأرقاء إلى ما بعد مغادرتهم لها ومن يلجأ من الأرقاء إلى سفينة انكليزية لا يطالب باسترجاعه.

٤ ـ إذا جاء أسطول انكليزي زائراً يطلق ٢٧ مدفعاً تحية له ويقابل الأسطول الإنكليزي التحية بالمثل .

٥ ـ لما كانت الدولة الإنكليزية أول من عقـد اتفاقية مع هذا الرباط

فإن للقنصل الإنكليزي في الاستقبالات الرسمية حق التقدم على غــيره من القنا صل .

٦ ـ يفضل الرعايا الإنكليز على غيرهم من الأجانب .

٧ ـ للقنصل الإنكليزي حرية التجول في الأماكن التي يقصدها .

٨ ـ لا تستوفى الرسوم الجمركية من مستوردات التجار الإنكليز من مدافع وبنادق وسيوف وحراب وبارود وقنابل ورصاص ورش وبارود وحديد وحبال وغيرها من لوازم انشاء السفن .

٩ ـ الرعايا الإنكليز يحاكمون من قبل قنصلهم ، وإذا استوجبت المحاكمة بين مسلم وأحد الرعايا الإنكليز فتجرى أمام الباشا .

١٠ ـ تلزم طرابلس الحياد في حالة حدوث قتال بين رباطي الجزائر وتونس وغير ذلك من الإمتيازات التجارية والحقوقية ووقعت هــذه الإتفاقية وتبودلت في ٢٩ شوال سنة ١١٦٤ .

ان محمد باشا الذي استقل في عقد مثل هذه المعاهدة مع الدولــة الإنكليزية بينما هو والٍ لإيالة تابعة للدولة العثمانيــة كان من المحتمل أن يفعل أكثر منها لولا ان المنيــة داهمته وتوفي في سنة ١١٦٧ ـ ١٧٥٣ وانتخب مكانه ابنه علي باشا الذي كان في حياة أبيه يحمل لقب القائد عام.

علي باشا

كان علي باشا قد أرضى الناس بدرايتــه وبحسن إدارته . ثابر على

القرصنة وحروب البحار واشترط على الدول الـتي تطلب ربط علاقات مع طرابلس أن تدفع اتاوة .

راعى المعاهدة المعقودة من قبل أبيـه مع الدولة الإنكليزية وعقد مع جمهورية البندقية معاهدة بتاريخ ١١٧٧ ـ ١٧٦٣ تتألف من ٢٣ مادة كانت من موادها الرئيسية :

ان لا تتناوش سفن الطرفـين وأن تستوفى رسوم قدرها ٣٪ عن عن البضائع التي يوردها البندقيون إلى طرابلس أو يشحنونها منها واصلاح السفن الطرابلسية في أحواض الجمهـورية المذكورة أو لدى أصدقائها في البلاد الأخرى وما يغنمه الجزائريون والتونسيون من البنادقة لا يسمح ببيعه في طرابلس وأن يعاد الرقيق الذي يلجـأ إلى مراكب البنادقة ولا يؤخذ أسرى من البندقيين .

لا يحاكم البندقيون أمـام الوالي بل لا بد من إحالتهم للقنصل وأن السفن الطرابلسية لا تهاجم ولا تتدخل في شؤون السفن المعادية داخل المياه التي على بعد ثلاثين ميلاً عبر حدود السانتا ماريا .

عقدت هذه المعاهدة من قبل علي باشا داي والأمراء وشيوخ الرباط من جهة ومن قبل ياكيم ناني قائـد عام أسطول البندقية وقنصلها الكونت زريب بالوديك وصودق عليها ووقعت في أوائل جمادى الآخر ١١٧٧ .

والذي يلفت النظر في هذه التواقيع التي تحت بنود هذه المعاهدة أن

علي باشا أسند لابنه لقب آغا الإنكشاريين وولاية العهد بينما كان والده محمد باشا قد أسند لابنه لقب القائد العام وعلي باشا تقدم خطوة إلى الأمام فأسس ولاية العهد .

ان أركان الولاية الذين وقعوا على المعاهدة كانوا : الوالي وآغا الإنكشاريين وكاهية الوالي ومدير الخزينة والمحاسب العام للإيالة وشيخ البلد وقائد جيش الإيالة .

لقد روعيت أحكام هذه المعاهدة مدة سنتين فقط، وقد غنم القراصنة الطرابلسيون مركبين بندقيين فأخفوا أحدهما في جزيرة صاقز وأخفوا الثاني في ميناء آخر ، ولما علم قنصل البندقية بهذه المسألة طلب استرجاع هذين المركبين إلا أن القراصنة ادعوا أن هذه العملية حدثت قبل عقد الإتفاقية ولم يوافقوا على الارجاع .

كان علي باشا يرغب في ارجاع المركبين إلا أنه لم يوفق في ذلك، وقبل أن تحل هذه المسألة هاجمت احدى السفن مراكب راسية في أحد موانيء البندقية وأثيرت بذلك حادثة جديدة .

لقد وُصف طلب البندقيين من ربان السفينة الطرابلسية المهاجمة بالكف عن مثل هذه الأعمال بالعجز وضاعفوا من اعتداءاتهم الأمر الذي دفع سفن البندقيــة لمهاجمة السفينة الطرابلسية وقتلوا ربانها وبعض بحارتها وصادروها .

لما بلغ هذا الخبر طرابلس التزم الإنكشاريون جانب السلم وقام أمير البحر ياكيم ناني والكونت زريب بعقد اتفاقية جديدة .

ان هذه الإتفاقية تؤيد الإتفاقية السابقة وتقضي بأن تعاد الأموال والأسارى الذين أخذوا في المنازعات الأخيرة من الطرفين وأن تعطى مركباً مماثلاً للمركب الذي أغرق وأن تعطى حمولة مركب معين من ملح زواره بالإضافة إلى العشرة آلاف كيلة ملح المعطاة سابقاً للقنصل وترجع السفينتان المعتقلتان في صاقز وغيرها لأربابها ، وأن يعاقب الربابنة الذين تسببوا في الحوادث المخالفة لأحكام الإتفاقية بمعرفة القنصل وأن تدفع ٢٠٠ بنديكة ، وهي عملة ذهبية ، كغرامة .

ان قبول هذه الإتفاقية المهينة تشير إلى مدى الهوة التي تدحرجت إليها حكومة طرابلس . في هذه الآونة قررت الدولة العثمانية إعلان الحرب ضد روسيا وحليفتها النمسا وصدر الأمر لمراكب الرباطات بالتوجه إلى تريستة وآليقورنة لمهاجمة سفنهم التجارية وطلب من طرابلس أن تبعث ثلاثة من مراكبها [١] .

أن علي باشا الذي أظهر نشاطاً ملحوظاً في بداية حكمه أهمل شؤون الدولة كلما تقدم به العمر ولم تبقَ له القدرة على تنفيذ الأنظمة الموضوعة للتنسقيات العسكرية والمحافظة عليها .

---

(١) سجل الديوان الهمايوني للشؤون الهامة رقم ١٨٩ ص ٣٠ في أواخر ربيع الآخر عام ١٢٠٣ .

قَلَّت موارد الرباط والقرصنة بسبب الإتفاقيات والمعاهدات المعقودة ولم تدفع مرتبات الجنود ولم تصرف لهم تمويناتهم وأحجم الشبان عن الإنتساب لتشكيلات الرباط وذهب كل فرد يبحث عن أسباب معيشته في غير الجندية ولم يبق في سلكها غير الشيوخ والمرضى . وإدارة الحكومة كانت بيد لفيف من الخاملين وعجز الحكومة جعل الناس تفكر في المحافظة على أموالها ونفوسها فاجتمع البعض من أرباب الحمية المشفقين من هذا الإنهار وفكروا في تخليص البلاد من داهية الإنقراض التي تهددها فوجدوا ان الأمل الوحيد هو في الدخالة على الدولة العثمانية وفي الحال كتبوا بذلك للأستانة .

بلغ نبأ هذه الرسالة إلى أولاد علي باشا وفكر يوسف بك ابنه الصغير في الإستيلاء على الحكم قبل أن يخرج من يد أسرته فكتب رسالة إلى خليفة بن عون شيخ أولاد نوير المحاميد أقوى قبائل البلاد يذكر له فيها حالة البلاد المتدهورة وان الأجانب يطمعون في الإستيلاء عليها بسبب عجز والده وانه إذا ساعده في تسلم الحكم وعده بانه لا يخرج عن توجيهاته وأن ينفذ آراءه وتوصياته فقبل الشيخ بذلك وأبلغه أن يسرع في الإلتحاق بالقبيلة . كانت ثمة اعمال يجب عليه انجازها قبل الإلتحاق بالقبيلة . فإن اخويه حسن بك الذي كان أكبرهم وأخاه الوسطي أحمد بك كانا حجر عثرة في سبيل استيلائه على الحكم لذا كان يتوجب عليه إزالتهما من طريقه ويوسف لم ير حاجة لانتحال المعاذير والفرص فذهب في الحال لبيت أخيه الأكبر .

كان حسن بك جالساً إلى جانب أمه وأول ما دخـــل يوسف عليهما صال على أخيه حسن بسيفه . وأمـام هذا الهجوم المفاجيء هرب حسن واختبأ في دولاب فدخلت أمهما بينهما وحاولت تسكين العـراك إلا أن يوسف قطع يدي أمه الممدودتين للحيلولة بينهمابسيفه ثم قتل أخاه برصاص غدارته . ولما لم تبق بعد فرصة لقتل أحمد بك أسرع حالاً إلى بني نوير .

استدعى الشيخ خليفة بعض مشائخ القبائل فاستعرضوا حالة البلاد وقرروا فيما بينهم تنصيب يوسف بك مكان أبيـــه إلا أنه للدخول إلى طرابلس يجب الحصول على موافقة سكان المنشية والساحل وقد أمكن إزالة هذه العقبة ووافق هؤلاء أيضاً على رأي الأولين .

في يوم الجمعة ١٣ ذي القعدة من سنة ١٢٠٧ نصبت في المنشية خيـام الثورة ضد طرابلس وطلب من علي باشا أن يتنازل عن الولاية لإبنـــه الأصغر يوسف بك .

إمتعض الأب الشيخ وتـــألم من تكليفهم إياه بالتنحي عن مركزه إلى مجرم قتل أمه وأخاه لأجل اغتصابه وافادهم بأنه إذا قرر النزول عن الحكم فإنه سيتنازل عنه لابنه الأوسط أحمد بك لا إلى يوسف .

بدأ يوسف بك القتال ضد أبيـه وقد انضم إليه البعض من محافظي المدينة الذين قدروا أنه الجانب الأقوى وكانت حامية المدينة مكونة من الشيوخ والعجزة .

هجم يوسف بك في الحال على المدينة وكان يتحرق ويزداد اواره للإستيلاء على مركز أبيه إلا أن أعوانه كانوا غير راضين عن هذه القساوة وكانوا يكتفون بمضايقة الباشا بغارات صغيرة كانوا يشنونها بين الحين والآخر . ولم يجسر يوسف بك على اغضاب أعوانه وهكذا مرت ثمانية وثلاثون يوماً على هذه الحالة .

كانت مراجعة بعض أرباب الحمية من أعيان البلاد للحكومة العثمانية لإنقاذهم من الفوضى والتدهور يصادف سنة ١٢٠٧ زمان سلطنة سليم الثالث . وقد تلقى السلطان طلبات أعيان طرابلس بقبول حسن وبعث علي باشا الجزائري في تسع سفن معيناً إياه والياً للايالة ، وبينما كان يوسف بك يضايق أباه أرسى الأسطول العثماني في ميناء طرابلس بتاريخ ٢١ ذي الحجة ١٢٠٧ بعث علي باشا الجزائري يخبر علي باشا القرمانلي بانه جاء إلى طرابلس معيناً والياً لها وهو سينزل إلى المدينة .

حدث هرج عندما ذاع هذا الخبر فنشبت الحرب وفتحت الأبواب . عقد مجلس وبحث في الاجراء الواجب اتخاذه . كان من رأي يوسف بك وأعوانه معارضة علي باشا الجزائري واغراق السفن إلا أن علي باشا القرمانلي رفض هذا الرأي حاسباً للقوة العثمانية حسابها وخاف العاقبة السيئة وقرر النزوح إلى تونس بجميع أفراد الأسرة .

كان الوالي علي باشا القادم أخاً لوالي الجزائر بينما كان حموده باشا باي تونس معادياً للجزائريين ولذا كان من المؤكد أن يحسن استقبال

القرمانليين ويعاونهم وأصبـــح من الممكن أن يساعدهم في المستقبل لاسترجاع مراكزهم . وغادر علي باشا القرمانلي طرابلس وهو مؤمن بهذه الفكرة .

هبط علي باشا للبر وباشر أعماله فاطاعته كل القبائل ما عدا قبيلة بني نوير ، وقد كسب علي باشا الجزائري بدرايته وفطانته محبـــة الناس ونسوا القرمانليين[1] .

بذل الوالي الجديد مساعيه الكبيرة لتنسيق العساكر واطعامهم ولما تاخر ورود الأرز اعطاهم البرغل وبذلك أخذ لقب (برغل) .

استقبل القرمانليون في تونس من قبل واليها حموده باشا بحفاوة بالغة، ومنذ وصولهم باشروا العمل هناك وفي طرابلس بواسطة اعوانهم وتقرب رجالهم الذين في طرابلس من الوالي الجديد وتزلفوا إليه ثم زعموا لديه أن جربه كانت في السابق تابعة لطرابلس إلا أن رخاوة علي باشا القرمانلي أطمعت والي تونس لاغتصابهـا وبما أن هذه الجزيرة تعد هرياً لطرابلس فإن استرجاعها سيعود على الإيالة بالفوائد الكبيرة وبذلك تمكنوا من اقناع الباشا باسترداد الجزيرة .

بعث علي باشا عدداً من السفن وقليلاً من العساكر فاحتلوا الجزيرة

---

(١) تاريخ ابن غلبون

التي لا توجد بها حامية . وأقام فيها بعض المحافظين[1] .

تكدر حموده باشا للغاية من هـــذا الحادث واعطى جيشاً لعلي باشا القرمانلي وولديه وبعثهما لاسترداد جربه أولاً ثم الزحف لاسترجاع طرابلس .

كان يوسف يبعث رسائل إلى قبائل طرابلس وملحقاتهـــا مليئة بالوعود والمبالغات ومما ذكر فيها انه زحف على طرابلس بجيشين من البر ومن البحر بعدد وفير من السفن الحربية للأخذ بالثار من الغاصب واسترداد البلاد منه وانه سيكافىء الذين يظاهرونه ويؤيدونه .

تناقلت الألسن هـــذه الشائعات وبولغ فيها بما يصور للسامع ان القرمانليين قادمون في جيوش تضيق بهم البسيطة وأخذ الرعب بمجامع القلوب الضعيفة فأخذوا يبعثون إليهم الرسائل يعربون لهم عـــن مبلغ

---

(١) تاريخ ابن غلبون يسجل وقوع احتلال جربه واسترجاعهـــا وزحف الجيش التونـــي على طرابلس بهذه الصورة ، إلا أنه جاء في سجل شؤون الديوان الهمايوني الهامـــة المستعجلة رقم ٢٠٠ ص ٥١ بأن علي باشا الجزائري كتب للاستانة يخبرهم بأن الطرابلسيين يعاونون علي باشا القرمانلي وبالإضافـــة إلى العربان الذين جمعهم يوسف بك وأحمد بك ولدي علي باشا فإن الرباط التونسي يقدم لهم التعزيزات ولم ينفكوا بين الفينة والفينة من القدوم إلى طرابلس وشن الغارات عليها ، كما يسجل أن السلطان وجه أوامر إلى أمراء امارات الجزائـــر وتونس وطرابلس ورباطاتهم يوصيهم بالتعايش السلمي واجتناب مثل هـــذه الحوادث .

سرورهم واغتباطهم بقدمهم ولو حضروا وحـــدهم بدون أن يرافقهم جيش لاستقبلوا بكل حفاوة وتقدير .

كان علي باشا برغل يكتب للآستانـة عن أعمال القرمانليين في تونس وعن تحريضهم للأهالي ويرجو مده بالعساكر والعتاد. فبعثت له الحكومة العثمانية كمية من البارود ووجهت أوامر إلى جهات مغلة وأزمير بتجنيد المحاربين وكتبت تأكيداً إلى باي تونس تنصحه بان لا يقدم معونـــة للقرمانليين . ذكر حموده باشا في عريضته الجوابية انه لم يفكر يوماً في مد يد المعونة إلى علي باشا وانه وأسرته اباً عن جد منذ مئة عام ولاة تونس لم يعملوا ولن يعمل هو ما ينافي الرضا السامي ، ولما جاء والي طرابلس السابق إلى تونس مع ثلاثة من اتباعه الذين كانوا فقراء ومن خدام الدولة العلية خصص لهم من قبل الرباط ما يكفيهم من التموين وذكر ان ولدي علي باشا منذ زمن بعيد منشقان عن أبيهم ويحاربانه .

أما علي باشا الجزائري والي طرابلس فكتب أن باي تونس بعث إلى عربان طرابلس رسائل مكتوبة باللغة العربية يقول لهم فيها ان معتمد علي باشا القرمانلي سيغادر تونس مستصحباً القبائل والمهات الوفـــيرة قاصداً المنشية ليساعدوا يوسف بك ويبايعـــوه ويقاتلوا والي طرابلس الجزائري. ظهر للسلطان هذا التباين في الرسالتين فكتب إلى والي تونس :

ان عدم اهتمام علي باشا القرمانلي بتنظيم وتقدم الرباط وميوله إلى

---

(١) سجل الديوان الهمايوني الهامة رقم ٢٠٠ ص ٢١٥ .

الدعة وإلى مصالحة الخاصة أدت إلى بقاء القلعة دامرة وجنودها مشتتين وعرض سمعة الرباط للهزء والسخرية ، بينما الرباطات الأخرى تشترك بسفنها في الحروب التي يخوضها الأسطول الملكي فإن ولاية طرابلس لم تراع تلك العادة الدارجة وانها بعد ان ماطلت مدة من الزمن اخطرت بارسال سفينتين صغيرتين من طراز البركندي ولما كان ذيوع نبا إحجام تونس عن ارسال المدد لوالي طرابلس يضر بالمذكور فإنــــه يأمر بك تونس بأن يجتنب اذاعـــة هذا النبأ حتى ولو ان تونس لم تبعث التعزيز [1] .

رغماً من كل هذه الأوامر فإن علي باشا القرمانلي استمر في الزحف على طرابلس وقد وافاه الأهالي والقبائل الذين كسبهم إلى جانبـه إلى المكان المسمى (البيبان) على الحدود التونسية لاستقباله وكتبوا مضبطه ـ بما فيهم الشيخ خليفة ـ تبحث عن ظلم علي باشا الجزائري وغدره طالبين الولاية للأسرة القرمانلية وبعثوهـا إلى حموده باشا لترسل إلى

---

(١) سجل شؤون الديوان الهمايوني المهمة رقم ٢٠٠ ص١٧٤ وتاريخ ١٢٠٨

هذا الأمر يبين صراحة انه لم يحدث أي شيء في جربه ولو تم شيء كذلك لكان سبباً قوياً يتذرع به حموده باشا للدفاع عن نفسه إذ يتكلم عن الاعتداء المزعوم شاكياً للسلطان كما يظهر من هذا المرسوم ان جيش طرابلس لم يستول على جربه ولم يهاجمها. ان العساكر الذين ارفقوا بالعريان كانوا بين الفينة والفينة يهاجمون طرابلس وجلبوا الأهالي إلى جانبهم وبعد أن أخذوا أهبتهم هاجموا المدينة .

الأستانة. تقدم الجيش التونسي مصحوباً بالقبائل التي صادفها في طريقه إلى أن وصل للمكان المسمى « بجبوده » على مسافة ساعة ونصف من طرابلس.

أخذ الوالي علي باشا الجزائري ١٢ مدفعاً مع قليل من الجنود وخرج لمقابلة الجيش التونسي خارج السور ولما لم يجد من أهالي المنشية والساحل من يعاونه اضطر للإنسحاب إلى داخل السور.

كان الوالي وهو يحضر ويرتب شؤون الدفاع براً جهز ثلاثة مراكب للدفاع بحراً ثم شحن امتعته في هذه السفن وغادر البلاد دون أن يخبر أحد.

ولاية احمد بك ابن علي باشا القرمانلي

لما ذاع خبر مغادرة علي باشا الجزائري للبلاد كتب الأعيان عريضة يلتمسون فيها ـ حفظاً للمدينة من عبث الجنود ـ أن لا يُسمح لغير أفراد أسرة القرمانلي والقائد ومايتي جندي بدخولها.

وافق يوسف بك على هذا الطلب ولكي لا ينقم عليه الجنود تبرع لهم من جيبه الخاص بستين ألف فرنك هبة منه. وعملاً بالرغبة العامة دخل للمدينة أفراد الأسرة القرمانلية والقائد التونسي مع مايتي جندي وتوجهوا إلى قصر الحكومة وبناء على رفض علي باشا للولاية فقد انتخب بإجماع الآراء أحمد بك والياً ويوسف بك قائداً للجيش وولياً للعهد.

ان يوسف بك كان يطمع منذ زمن في الولاية وارتكب في سبيلها أبشع الجنايات ورمى بنفسه في المهالك .

أقام الجيش التونسي في طرابلس قرابة شهرين فحضر جميع المشائخ وقدموا فروض الطاعة ، وخيم الأمن والهدوء على كافة أرجاء البلاد .

لقد أحصيت مصاريف قدوم الجيش التونسي إلى طرابلس وتقرر أن يُدفع لهماية ألف محبوب مصري فجُمع من أهالي المنشية والساحل عشرون ألف محبوب وأُعطيت لهم وأعطوا لقاء البقية سنداً ثم انسحب الجيش التونسي عائداً إلى بلاده .

كان أحمد بك والياً إلا أن القبائل الكائنة خارج المدينة كانت تعرف يوسف بك من قبل والكل يراجعونه في شؤونهم وكان هو القائم بالولاية المعنوية .

كان يوسف بك قد رتب من قبل كيفية إزالة أحمد بك من الميدان . استدعى المشائخ الموالين له وقال لهم ان أحمد بك أعطى لباي تونس سنداً بماية وأربعين ألف ليرة على أن يجمعها من الناس وان الناس لا يستطيعون دفع هذا المبلغ وسوف يتعرضون إلى ظلم الوالي وبهذا ركز في أذهانهم وجوب التخلص من أحمد بك فاجابوه بأنهم على استعداد لتنفيذ أوامره .

كان من عادة أسرة القرمانليين منذ القديم زيارة الأضرحة في النصف الأول من شهر شعبان كل عام. وفي هذه السنة بينما كان أحمد بك متوجهاً

إلى تاجوراء لزيارة أضرحتها ويوسف بك في رفقته .

تخلف يوسف بك في الطـــريق وعاد مسرعاً للمدينـة وأغلق أبواب السور وأطلق مدفعين إشارة العصيان .

أدرك أحمـد بك المسألة وانه لا يقوى على افتكاك الولاية فسافر مع اتباعه إلى مصراته ومنها سافر بحـــراً إلى مالطة بعد أن قضى ثمانية أشهر والياً .

ولاية يوسف بك ابن علي باشا

أخيراً بلغ يوسف إلى ما كان يصبو إليه وصار والياً عام ١٢٠٩ . استكتب الأهالي عريضة أرفقهـا بهدايا وفيرة قدمها بواسطة أمير البحار حسين باشا إلى السلطان وحصل على رتبة مير ميران أمير الأمراء وأصبح يوسف باشا . وفي عام ١٢١١ استحصل على مرسوم بابقائه في امـــارة الأمراء[١] . ولما كانت المادة السادســـة عشرة من المعاهدة المعقودة بين

---

(١) سجل الديوان الهمايوني للشؤون الهامة رقم ٢٠٣ ص ١٧٥ .

يؤمر أمير أمرائي الكرام أمير أمراء طرابلس الغرب يوسف باشا دام اقباله ابن علي باشا وردت العريضة المرفوعة إلى عتبـــاتي العلية ومقر العدالة الملكية المفيدة بأنك تبذل الجهود الصادقة لإعمار رباطي المنصور وضبط وربط أمور إيالة طرابلس الغرب الموجهـــة لعهدة واهتمام لياقتك كما وردت لركابي الملكي المستطاب الهدايا المرسلة عن طريق أمير البحر وزيري حسين باشا دام اجـلاله لابراز وإظهار صدقك وعبوديتك لمقامي السامي ، وبتوجيهاتي السلطانية =

الدانيمارك والدولة العلية تلزم الرباطات بمراعاة بنودها فقد بحث هذا الأمر من قبل أولي الأمر وكتب بتاريـــخ أواسط شوال عام ١٢١١ إلى يوسف باشا ليعقد معاهدة مع الدولة المذكورة[1] .

كان يوسف باشا قد التزم جانب الإنكليز وصادق على المعاهدة المبرمة

=الصادرة في اليوم الرابع من شوال المبارك من هذه السنة فقد تقرر ابقاء الإيالة المذكورة كما كانت في عهدة فطنتك وسيرت إلى طرفكم قطعة واحدة من نوع فرقتين للقرصنة مجهزة بثمانية وعشرين مدفعاً مع غيرها من الذخـــيرة واللوازم المدرجة في السجل . لقد أصدرت هذا الأمر الكريم لتعمل على تحسين حـــال سكان الإيالة وتجدد القلاع وتستكمل حاجتك من الذخائر وتبذل المستطاع في تنظيم الرباط وتقويته وتجدد تشكيلات الضباط والعساكر الذين اختلت نظمهم الأصلية وتدنت كفاءتهم وان تسوّي الشؤون اللازمــة على مثال الجزائر وتونس وان تكثر من مراكب القرصنة وتوفر القوارب الحربية وأن تعمـــل بمقتضى الأوامر العلية المبعوثة لسلفك سنة ١٢٠٦ فلا تعترض أبداً سبل مراكب روسيا والنمسا . مرسل إليك مع ... فيأواسط شوال ١٢١١

(١) يؤمر يوسف باشا ابن علي باشا أمير أمراء طرابلس .

منذ زمن ورباطات الجزائر طليقة كما أنهم يتصرفون باختيارهم في شؤون الحرب والصلح مع النصارى وبما أن الدول الأوروبية المتصافية مع دولتيالعلية الدائمة القرار أبدت ميلاً ورغبة في عقد الصلح معها وان من البديهي ان الدولة 'تسر إذ ترى الأوجاقات (الرباطات) يقبلون أيضـاً بعقد المصالحات مع تلك الدول ، والحالة هذه فإن القائم بالأعمال الدانيمركي الموجـــود بالأستانة قدم عريضة يرجو إعادة الصلح والسلام المنعقد أساساً بـين أوجاق طرابلس الغرب وبين الدانيمارك . شوال ١٢١١

معهم في سنة ١١٦٤ أراد الإكثار من الوسائط الحربية أسوة باجداده وزاد من عدد سفن القرصنة وقوى الحصون واقتصد من الغنائم التي حصل عليها في الضربات المتفرقة وانشا أسطولا من اربع سفن صغيرة. لما رأى يوسف باشا ان لديه أسطوله وجنده ومدافعه وبنادقه حاول اجراء تشكيلات الدولة المستقلة فاتخذ قريبه الحاج محمد شلابي بيت المال وزيراً له وأسس درجات مثل قبطان وريالة وبطرونة وأسس وظائف مثل مامور الخارجية والرئيس، نصب في حجرته في الولاية مقعداً مرتفعاً جلس عليه وألزم الداخلين لمقابلته بتقبيل الأرض وأن يبقى الوزير ومامور الخارجية واقفين عند مقابلته لقناصل الأجانب وصار يتخذ مثل هذه الأطوار الملوكية، ولما كانت مظاهر العظمة تحتاج إلى المال فبدأ يزيد الضرائب ثم أصدر أمراً للقراصنة بمناوشة المراكب التجارية أملاً في ربط الدول الأوروبية بدفع الإتاوات وأخيراً عقد عروضاً مع الأجانب بشروط ثقيلة وبهذه الطريقة سجن الأهالي وعادى الأجانب وعرض مالية البلاد لضرر وضيق شديدين.

قبض القراصنة على سفينة دوبرونيكية كانت مسافرة من سلانيك إلى فرنسا وأحضروها إلى طرابلس فافرج عنها يوسف باشا بناء على وساطة قنصل فرنسا إلا انه أنذر جمهورية دوبرونيك بأنها إذا لم تتعهد بدفع ثمانية آلاف قرش اسود دوبرنيكي وحمولة سفينة من الخشب في كل عام فسوف تصادر مراكبها التي تصادف في البحار.

قام الدوبرونيكيون في الحال بالشكوى للديوان الملكي بالأستانة الذي

أمر يوسف بـان لا تمس سفنهم . إلا أن يوسف باشا لم يابه لذلك وكتب للجمهورية المذكورة ينذرها بأنها اعتباراً من عـام ١٢١٢ ـ ١٧٩٧ إذا لم تدفع النقود والأخشاب سيباشر في مصادرة سفنها. بعدمرور خمسة شهور من ذلك سعى وكيل دوبرنيك ثانية لدى الديوان في الأستانـــة وتضرع فأعطى أمراً ثانياً لأمير أمراء طرابلس في هـذا الشأن[١] ثم أبلغ يوسف باشا قنصـل السويد بأنه إذا لم يدفعماية ألف فرنك مقدماً وثمانية آلاف فرنك في العام فسوف لا يسمح لـه بالبقاء في طرابلس ولما رفض قنصل السويد حتى التكليف أطلق يوسف باشا العنان للقراصنة فصادروا سبعة مراكب تجارية سويدية .

في عام ١٢١٣ ـ ١٧٩٨ كان نابوليون بونابرت في مصر[٢] فراجعـــه السويديون شاكين من يوسف باشا فأوفـد نابوليون موظفاً للتوسط بين الطرفين واتفقا على أن تبقى السفن السبع لطرابلس ويطلـق مقابلها سراح ١٢٠ أسيراً وأن تدفع السويدكما في السابق ثمانية آلاف فرنك في العام وتدفع لمرة واحدة ثمانين ألف فرنك . كان القراصنـــة الطرابلسيون يتحرشون أيضاً بالمراكب الأميركيـة مما اضطر هؤلاء لطلب الصلح إلا

---

(١) سجل الديوان الهمايوني للشؤون العامة رقم ٢٠٤ ص ٤٩ في أوائل ذي القعدة ١٢١٢ .

(٢) الموسوعة الكبرى تسجل ان طرابلس قذفت في عام ١٢١٣ — ١٧٩٨ بالمدافع من قبل الحبر الاعظم إلا أنني لم أعثر على التفصيلات .

أن الباشا كان يطالب بمبلغ كبير من المال الأمـــر الذي دفع الأمريكيين للإلتجاء إلى طلب حسن باشا والي الجزائر وتدخل قنصل هولاندة وحسن باشا بالصلح بين الطرفـين على أن تدفع أمريكا ٢٥٠ ألف فرنك عن تلك السنة(١) وفي العام التالي التمس ابن حسن باشا إنقاص هذا المبلغ ، ولما كان جواب يوسف باشا ذا فائدة كبرى فإني انقله عيناً فيما يلي :

« ان في النبأ الذي تلقيته من الأستانـــة ما يفيد أن البليسيان التي انشقت عن النمسا تأسست فيها جمهورية قررت تقديم إتاوة سنوية للدولة العلية إلا إنني لم أتلق المعلومات الصحيحـة عن المبلغ الذي سيدفعونه إلى رباطات طرابلس وتونس والجزائر وهل أجريت مباحثات في هذا الشأن، لأن النصارى محتالون تصرنا الله جميعاً وبما اننا في آخر الزمان فإن النصارى أصبحوا لا يثبتون على وعد ، وفيما يتعلق بالقرار المتخذ مع السويـــد فبالرغم من المهل التي اعطيناها لها فانها لم تدفع بعد أي شيء وعلمت ان سفيرها في الأستانة يقوم ببعض الألاعيب لإضاعـة حق الرباط غير أني أفكر في ضرب السويديين بعناية الله سلفاً لتشفية صدري قبل أن ينفذوا مآربهم ، كذلك الأميريكيون أبدوا شيئاً من الإبـــاء فأعطيت لقنصلهم جوابي القطعي باني على استعداد لتمزيق شملهم أيضاً ، وكل الأمم ادركت مبلغ قوتنا الحربية وبقي الأمريكيون فقط ، وسيكون ديناً في عنقي تعريفهم في هذه المرة بحدودهم. ولما كانت ظواهر التماسات سيادتكم تحول

---

(٣) ابن غلبون .

دون بلوغ أملي فإني اتمنى من أخوتكم الصادقـــة صرف النظر عن هذه الفكرة .

إنهم في عهد والدكم الكريم المغفور له حسين باشا اعلنوا بواسطة القنصل الهولاندي عـن موافقتهم لدفع ٢٥٠ ألف فرنك وكنت حينذاك غير راض إلا أنني فيما بعد نزولاً عند رغبة والدكم وافقت على ذلك العرض ومع ذلك فإنهم يماطلون ولم يدفعوا بعـد ولا بارة واحدة ، أرجـو ألا تتكرموا لإسعاف التماسهم بمطالبتي انقاص المبلغ المطلوب . ان انكلترة هي ملجأ ومستند الإمريكيين الأساسي ، والملحوظ أنهم بهذه الواسطة سيمدون بساط الرجاء للصلح إلا أنني سوف ارفض تـدخل الإنكليز في هذه المسألة مع قبولي تكليف الصلح إذا تم بواسطتكم الكريمة وأرجـو أن اتلقى جواب رسالتي بطريقة سرية » .

ان يوسف باشا ـ كما ذكر في رسالته ـ لم يقترب أبداً من المصالحـة وقد فسرت مساعي القنصل بالضعف وأصدر الباشا أوامـــره بضرب المراكب الأمريكية .

في سنة ١٢١٧ ـ ١٨٠٢ وقف أسطول امريكي أمام طرابلس وفتح نيرانه بينما لم تستطع السفن الصغيرة الراسية في الميناء إظهار رؤوسهـــا وقوبل من القلعة فقط .

انقضت عشرون يوماً في تبادل اطلاق نيران المدافع وتضايقت المدينة كثيراً من جراء ذلك وفي هذه الآونـة اقتربت احدى السفن الأمريكية

كثيراً من المياه الساحلية فأصيبت بقنبلة تسببت في تعطيلها وجنوحها إلى البر فأسرت بمن فيها ثم اقلعت السفن الأمريكية وذهبت إلى مالطة .

في سنة (١٢١٨ ـ ١٨٠٣) قتل أهل قضاء غريان الكائنة على بعد ٢٤ ساعة من طرابلس جابي الضرائب ورفعوا راية العصيان. بعث لهم يوسف باشا بعض العساكر بقيادة الحاج أحمد آغا ، استمر القتال بين الطرفين مدة واحد وعشرين يوماً وفي النهاية ألقي القبض على الشيخ عبد الوافي رأس الفساد فأعدم وأطفئت نار الثورة وغرم الأهالي المزيد من المال باسم المصروفات الحربية .

أخذ الأسطول الأميريكي أحمد بك القرمانلي المقيم في مالطة وأنزله درنة لإثارة فتنة ضد أخيه يوسف باشا. استقبله أهالي درنة ببالغ السرور ووزع أحمد بك الهدايا على الأهالي بمساعدة الأمريكيين وجلب إليه القبائل المجاورة لدرنة والتحق به الكثير من الناس .

أصيب يوسف باشا بالهلع وندم لجلبه لنفسه المصائب من اجل مبلغ قليل من المال إلا انه لم يجد مندوحة من الكفاح فبعث ابنه الكبير محمد بك على رأس قوة إلى جهات بنغازي وأوصاه أن ينتهز الفرص الهينة للتخلص من عمه .

اكتفى الأسطول الأميريكي بمحاصرة جهات درنة وطرابلس ولم يلجأ إلى القتال .

مضت ثلاثة اعوام والحالة على ما هي عليه ، وكان يوسف باشا خلالها يبحث عن واسطة للتفاهم مع الأمريكيين وأخيراً توسط والي الجزائر والقنصل الإنكليزي في طرابلس ووقعت في ٦ ربيع الأول ١٢٢٠ـ٤ يونيو ١٨٠٥ معاهدة من عشرين مادة من شروطها :

أن يعامل الأمريكيون معاملة الأمم المفضلة وأن يطلق الأمريكيون ماية أسير طرابلسي ويطلق الطرابلسيون ٣٠٠ أسير اميريكي وأن يدفع هؤلاء ستماية ألف فرنك مقابل المايتين أسير الزائدين وأن يخرج أحمد بك من درنة وأفراد عائلته من طرابلس وأن تتعاون مراكب الطرفين وأن يحترم قناصل الطرفين وأن يقيم الأميريكيون قنصلاً في طرابلس اسوة بغيرها من الدول وأن يُحيّا الأسطول الأميريكي عند زيارته طرابلس بإطلاق واحد وعشرين مدفعاً.

عملاً بهذه المعاهدة أخذ الأميريكيون معهم أفراد عائلة أحمد بك من طرابلس إلى درنة وهناك احتالوا على أحمد بك فاستدرجوه إلى ركوب إحدى سفنهم ونقلوهم جملة وأنزلوهم في مصر.

أسرع محمد بك الذي كان في بنغازي في الذهاب إلى درنة وطوع الأهالي خلال ثلاثة أو أربعة أيام ثم عاد بعدها .

كان احمد ابن سيف النصر شيخ قبائل سرت الكائنة على بعد ثمانية أو تسعة أيام من طرابلس قد تعرض لبعض المراكب الأجنبية التي تاتي إلى السواحل مخالفاً بذلك الأوامر التي أعطيت له. وفي عام ١٢٢١ زحف محمد

بك بقوة كبيرة من الفرسان على سرت فقتل الشيخ وطوع بقية القبائل .

كان أحمد بك قد وقع سنداً للتونسيين بمبلغ ماية وأربعين ألف ليرة فلم يعترف يوسف باشا بهذا السند بحجة انه لم يوقعه .

كانت واحة غدامس في السابق تابعة إلى طرابلس إلا انها منذ خمس سنوات انفصلت عن طرابلس واصبحت تدفع التكاليف الأميريـــة إلى تونس . قرر يوسف باشا استعادة ارتباط هذه الواحة الكبيرة لتوسيع رقعة ملكه وزيادة وارداته فبعث ابنه علي بك في سنة ١٢٢٥ إلى غدامس ولما كانت الجدران المحاطة بها دامرة وأهلها لا طاقة لهم على الدفاع كان من الطبيعي ان يستسلموا إلا أن الأهالي خافوا من أن ينهبهم الجنود فالتجأوا للحصن وأغلقوا دونهم الأبواب وبقوا ثلاثة أيام على تلك الحالة وفي اليوم الرابع خرج لفيف من العلماء واعيان البلاد فقابلوا علي بك وأفهموه انهم سيقدمون له مطلوبه ورجوه بأن لا يسمح لجنوده بالنهب وسفك الدماء .

كان علي بك راضياً بهذا الطلب من كل قلبه ، فأخذ منهم للباشا ضعف ما يعادل الضرائب المدفوعة إلى تونس عن خمسة سنين البالغة ٢٠٠٠٠ مثقال من الذهب و١٢٠٠٠٠ محبوب ذهبي عن مصاريف الجيش ثم قفل عائداً إلى طرابلس بعد أن ترك في البلدة المأمورين الإداريين .

لما تباطأ السويديون في دفع مبلغ الـ ٨٠٠٠ فرنك التي تعهدوا بدفعها سنوياً الغى يوسف باشا المعاهدة السابقة وطلب ٦٠٠٠٠٠ فرنك مقدماً

و ۸۰۰۰ فرنك تدفع سنوياً بانتظام وانذر القنصل بأن يتهيأوا للحرب في حالة رفضهم للدفع .

احتـــار القنصل السويدي من ذلك وذهب في الحال إلى القنصل الإنكليزي وارينغتون راجياً وساطته . حضر في هذه الآونة مبعوث من قبل الحكومة السويدية حاملاً معه بعض الهدايا وتدخل المبعوث المذكور مع القنصل الإنكليزي في الوساطة وعزل أولاً القنصل السويدي ثم توصلوا إلى حل تدفع السويد بموجبه ۷۷۰۰۰ فرنك الاحتفاظ بحالة الصلح مع يوسف باشا. قال الباشا في الرسالة التي بعثها للحكومة السويدية ان الهدية وصلته وانه تسلم الـ ۷۷۰۰۰ فرنك ولما كان قنصلها في طرابلس بعيد الخير قريب الشر فإن الشخص الذي حضر بالهدية عزله وعين الرجل الأريب الواقف على احوال البلاد اندريا كوستاي وكيلاً بدله ويرجو تعيينـــه بالأصالة .

في ۲ رجب ۱۲۲۷

كانت فزان قد دخلت في يد العثمانيين مع الإستيلاء على طرابلس وثابت بقيودات الديوان الهمايوني انها كانت في عام ۹۸۵ ـ ۱۵۲۷ تحت ادارة حاكم لواء يدعى محمد بك إلا انها فيما بعد أعطيت لأسرة من السودان تديرها لقاء هدايا وضرائب قليلة كانت تقدمها وكان أهـل فزان يسمون الشخص الذي يحكمهم من أفراد هذه الأسرة بالسلطان ، وفي عهد يوسف باشا كان يحكمهم المدعو السلطان الشيخ محمد وهذا الشخص لسبب ما قطع الرابطة الضئيلة التي كانت له بطرابلس ولم يدفع الهدية والضريبة .

بعث يوسف باشا المدعو محمد المكني على رأس قوة من الفرسان وأوصاه بأن يضربهم ضربة لا ينسوا آلامها زمناً طويلاً وذلك بسبب بعد الشقة وصعوبة الحركات العسكرية فيها .

كان محمد المكني قد ذهب في السابق إلى فزان للجباية ورأى وفرة الضرائب التي يجمعها السلطان السوداني وضآلة الحصة التي كان يبعثها للباشا فقرر السعي للحصول على هذا المنصب واعلم الباشا بهذه المسألة وانه إذا عينه متصرفاً لفزان وعد بزيادة الضريبة خمسة آلاف قرش التي تدفع الآن سيرفعها إلى خمسة عشر ألف قرش وان امساك سلطان فزان عن دفع الإتاوة المعتادة خلق الحجة إلى ارسال محمد المكني المرتبط بهذا الوعد[1]

لما وصل محمد المكني إلى قضاء ودان استباح دماء وأموال أهلها ثم قتل السلطان الشيخ محمد وبلغ من الفظاعة بحيث أمر بذبح أطفال السلطان الرضع في سبيل التعرف على المخابيء السرية لأموال السلطان وبهذه الصورة استولى على فزان (١٢٢٩ ــ ١٨١٣) .

كانت المنطقة المسماة بالجبل الغربي من طرابلس الغرب منقسمة إلى أربعة اقضية تحتوي على الكثير من القرى والقبائل إلا ان نفوذ الحكومة لم يكن سارياً رأساً على هذه الجهات بل كانت تدار بواسطة مشائخ قبيلة بني نوير .

---

(١) رحلة ليون ص ٦ ف.ر. هرفر .

منذ عام أو عامين ونالوت ترفض الاعتراف بشيخ بني نوير ولم تدفع الضرائب ، ولما كان هذا القضاء مترامي الأطراف فإن شيخ بني نوير لم ير ان لديه القوة الكافية للتنكيل باهله فطلب الشيخ أبي القاسم شيخ بني نوير والإبن الأكبر للشيخ خليفة طلب من يوسف باشا أن يعاونه على تامين اطاعة أهالي نالوت .

بعث يوسف باشا جيشاً لجباً بقيادة ولديه علي وأحمد وانضم إليه رجال القبائل التي في طريقه إلى نالوت (عام ١٢٣٠) .

نيران المدفع المرفق بالجيش ارعبت أهالي نالوت وبعد خسارة عدد كبير من القتلى في المعارك التي استمرت خمسة عشر يوماً بين الطرفين أذعن أهالي نالوت للطاعة ، وزيادة على ديونهم عن ضرائب السنتين التي دفعوها كاملة فقد سلموا ٢٠٠ عبد لقاء المصاريف الحربية وعاد الجيش إلى طرابلس .

ان علي وأحمد بك شاهدا الجبل الغربي بهذه المناسبة واخبرا اباهم بخصبه وغناه واطمعوا يوسف باشا بعدم جواز ترك هذه القطعة الجميلة لبني نوير .

كان خليفة شيخ بني نوير متصرفاً للجبل الغربي ولما توفي خلف ولدين هما أبو القاسم وغومه وخلفه في المشيخة ابنه الأكبر أبو القاسم .

كان غومه صغير السن فإذا قتل أبو القاسم الذي لم يكن ذا نفوذ

كابيه فإن الجبل بكاملة سيدخل في يد الوالي . فكر يوسف باشا سنوات طويلة في وسيلة لذلك وأخيراً في عام ١٢٣٦ استدعى الشيخ أبي القاسم إلى طرابلس وأظهر لـه بالغ الحب والصداقة وأغرقه بالهدايا وخصص له بيتاً لنزوله وفي احدى الليـــالي بعث من اغتال الشيخ وهو نائم ثم أظهر أسفه وحزنه على الشيخ ولتحميل التبعة على الغير ألقى القبض على شخصين من أهل الجبل يعملون في مهنـة الخبز وأعدمهم بدون استجواب . ولما كان التدخل فوراً في شؤون الجبل سيكشف للملأ دوافع وأهداف الإغتيال فقد تركها مدة من الزمان على ما هي عليه .

كان قنصل الإنكليز في طرابلس وسيط التفاهم مع حكومتهـــا ولما طلب التوسكانيون في هذه المرة عقد الصلح وقعت بوساطته اتفاقية في أواسط رجب من سنة ١٢٣٦ تتالف من اثنتي عشرة مادة .

امتنع السارديتيون عن دفع الجعل السنوي اسوة بالإنكليز والفرنسيين فغضب يوسف باشا من ذلك إلا أن القنصل الإنكليزي توسط بين الطرفين وتقرر أن تلغى الاتاوة وأن يدفع السارديتيون ٤٠٠٠ فرنك كلما عزموا على إبدال قنصل بآخر غيره فرضي يوسف باشا بهذا نزولاً عنـــد خاطر القنصل الإنكليزي إلا انه كان يبحث عن حجـــة لالغاء الاتفاقية . دفع السارديتيون مرتين عند تبديل القنصل إلا أن القنصل الذي حضر مؤخراً لم يدفع نقوداً كما انه تنكر للاتفاقية .

أصدر يوسف باشا أمره للقراصنة بضرب سفنهم فقبضوا على ثلاث

منها . في سنة ١٢٤١ ـ ١٨٢٥ جاءت أمام طرابلس ستة مراكب حربية ساردينية وطلبوا استرجاع سفنهم وتجديد الاتفاقية . حمل هذا الطلب السلمي على جبنهم فرفض وقام الساردينيون بضرب المدينة واستمروا سبعة أيام في الضرب وفي اليوم الثامن حاولوا انزال العساكر إلى البر فحرقوا مركبين طرابلسيين ونزلوا إلى باب البحر أمام الجرك والتحموا مع الطرابلسيين في القتال صدراً لصدر فخسر الطرفان الكثير من القتلى واضطر المعتدون للانسحاب إلى سفنهم .

وفي اليوم التالي توسط وارينغتون بين الطرفين وصالحهم بشرط أن لا تؤخذ فيما بعد من الساردينيين إتاوة سنوية ويكتفي بأن يدفعوا في هذه المره سبعة آلاف فرنك[1] .

لما قطعت الدول الأوروبية دفع الأتاوات ولم تعد القرصنة تأتي بفائدة ولم تبقَ لحكومة طرابلس موارد أخرى فكر يوسف باشا في احتلال الجبل الغربي كمورد له بعد أن دس لاغتيال شيخ بني نوير وترك تلك الأنحاء كما هي في انتظار الزمن المناسب لاحتلالها .

ولما حلَّ الأجل سنة ١٢٤٢ .أعدَّ بقيادة ولديه جيشاً قوياً لاحتلال الجبل الغربي إلا أن بني نوير اتحدوا مع جيرانهم في الدفاع عن ترابهم ووقف الطرفان مدة ثلاثة شهور وجهاً لوجه بدون أن يقتتلوا ومن ثم

---

(١) ابن غلبون .

حاصرت القبائل جيش القرمانليين وسدت عليه منافذ الانسحاب فاوفد يوسف باشا البعض من ذوي المكانة في الجبل من مشايـــخ قبيلة أولاد بو سيف فعقدوا اتفاقية بين الطرفين يبقى الجبـل بموجبها كما في السـابق تحت ادارة بني نوير وان يتولى المشيخة غومة مكان أخيـــه أبو القاسم ويعامل ويراعى مثل آبائه وأجداده وعاد الجيش إلى طرابلس .

حدثت منازعات بين اثنين من الإقطاعيين من ترهونة الكائنة على بعد يومين من طرابلس عكرت صفاء الأمن فبعث الباشا وزيره محمد بيت المال بقوة اعادت السكينة إلى نصابها .

إن تخلص ساردينيا من دفع الأتاوة دفع حكومة نابولي لأن تحتذي بها ، وفي ١٠ صفـر ١٢٤٤ ـ ١٨٢٨ جاءت مراكب نابوليتانيا من احجام مختلفة وأخذت تتهادى أمام طرابلس .

فكر يوسف باشا في المشاكل التي سوف تعترضـه بخروج الأتاوات هكذا واحدة بعد الأخرى من يده وقرر أن يكافح ضد النابوليتانيـين حتى النهاية فحشد العساكر ونصب المدافع على طول الساحل حتى سوق الثلاثاء وكلف احدى السفن الطرابلسية بالحراسة وبما أن هذه الترتيبات لم تبق لدى قنصل نابولي أي شك في ان الحرب ستشتعل أوارها ركب زورقاً أقله للأسطول. وفي ١٤ من الشهر بدأ اطلاق النار عن بُعد استمر ثلاثة أيام إلا أنه لبُعد المسافة لم تحدث أضرار لدى الطرفين وفي النهاية اقلعت وسافرت المراكب النابوليتانية ومن ثم عقدت معاهدة مضيقـــة

تقرر بموجبها ان يطلق النابوليتانيون سراح الأسرى الذين تحت ايديهم بدون مقابل وان يدفعوا لحكومة طرابلس غرامة حربية قدرها ٣٣٠٠٠ فرنك وان تدفع كل عام مبلغاً معيناً كهدية لا كاتاوة .

لما كان أهالي قضاء ورفلة ينازعون قبائل سرت حوول تأديبهم فاظهروا التمرد مما دعا إلى ارسال بعض الجنود في عام ١٢٤٥ ـ ١٨٢٩ بقيادة علي بك وإبراهيم بك وبعد قتال دام ثلاثة ايام تدخل مشائخ آل يوسف بين الطرفين بالوساطة فأوقف القتال وأذعنوا للطاعة بدون أن يدفعوا غرامة.

ان يوسف باشا الذي اهتم في مبدأ توليه برفع مستوى قواته البرية والبحرية وتنميتها واصلاح القلاع ، اهملها في أواخر عمره حتى تدنت القوة البحرية في سنة ١٢٤٢ وتنازلت إلى عدد قليل من السفن البائدة .

لو أجريت اصلاحات وتم الاهتمام والسعي لإعمار الأقسام الساحلية والداخلية من البلاد تحت ادارة منتظمة لدرت واردات كثيرة تلافي ما انقطع من دخول القرصنة، إلا أن الوالي كان يجهل الإدارة. ومن مظاهر جنونه انه قسم البلاد على أبنائه وكأنها مزرعة خاصة فأعطى :

قضاء غريان لابنه الأكبر علي بك

قضاء مصراتـه لابنه مصطفى بك

قضـاء الخمس لابنه عثمان بك

قضاء ورفـلة لابنه عمر بك

قضاء زليتن لابنه إبراهيم بك

وأعطى قضاء درنة لملوكه مصطفى بك

لم يذهب هؤلاء الأمراء للأقضية بل بعثوا وكلاء عنهم يضايقون أفراد الشعب ويعملون لاغتصاب ما بأيديهم ، ومع انتقال واردات الأقضية المذكورة للأمراء فإن الحكومة عجزت عن جباية الضرائب والتكاليف الأخرى من بقية الأقضية .

كان يوسف باشا يجهد فكره لإيجاد مخرج من هذه الأزمات ويطرق كل تدبير ، وفي هذا المجال اتخذ قراراً خاطئاً بسك نقود مغشوشة بالنحاس وأصبحت العملة في مهب الرياح بين الهبوط والصعود ولم تسفر إلا عن خسارة التجار والأهالي .ثم قام الباشا بعقد قروض فاحشة بأرباح فاحشة من الرعايا الأجانب واستمرأ هذه العملية ، ثم زاد به الحال فلم يحجم عن الإستقراض بفائدة قدرها ١٠٠٪ غير مفكر في حلول موعد التسديد . والأجانب عندما لمسوا عظم الفائدة التي تدرها عليهم هذه العمليات اقرضوا الباشا ، وهم مغمورون بالسرور ، كلما يطلب من النقود . ولما رأى الباشا سهولة الحصول على الأموال التي يطلبها لقاء سند عادي استسلم للهو والمجون .

ولما حلت آجال الدفع ولم يجد الدائنون الأجانب ما يقبضونه ارتبكوا وباشروا في الإلحاح على الباشا ومضايقته لتسديد مطالبهم . وقد راجع القنصل الفرنسي شفاهاً يطالب تسديد ديون رعايا دولته وتبادلا

خلال ذلك كلمات شديدة، على أثرها ركب القنصل سفينة وغادر المدينة .

وبما أن طرابلس لا تملك قوة تقارع بها فرنسا فقد ارتبك الباشا وفي سنة ١٢٤٦ـ١٨٣٠ جاءت سبعة مراكب فرنسية بقيادة الأميرال روزاميل وبعث قائد الأسطول المذكور رسالة إلى يوسف باشا طلب رده خـــلال ٤٨ ساعة .

ُقرىء الخطاب في المجلس العام المنعقد وعهـــد إلى الحاج محمد شلبي بالتفاوض مع الأميرال .

أجريت المفاوضة وقبل ما يطلبه الجانب الإفرنسي ووقعت إتفاقية كانت موادها باختصار كما يلي :

١ ـ الإعتذار للقنصل الفرنسي عن الأحوال المؤسفة التي اضطرتـه للإنسحاب من مقر عمله وتكتب رسالة إلى ملك فرنسا في هذا الشأن وتقدم الترضية للقنصل الفرنسي بواسطة أحد أبنائه أو اصهاره .

٢ ـ الكف كلياً عن القرصنة .

٣ ـ إلغاء استرقاق الرعايا الأجانب بتاتاً ويدفع من خزينة الباشا ثمن الرقيق الموجود حالياً لأربابهم ويطلق سراحهم ويعامل أسارى الحرب كما يعاملهم الأوروبيون .

٤ ـ لا تزاد القوات البحرية الطرابلسية عما هي عليه الآن وتذّيل

في المعاهدة القوات الموجود حالياً .

٥ ـ تقدم المساعدات اللازمة للمراكب الأجنبية التي تقع على السواحل الطرابلسية ويعان ركابها، وإذا تحقق من أن المهاجمين والناهبين للسفن التي تتحطم بعيداً عن سواحل طرابلس ليسوا من رعـــايا الوالي وانهم من الشراذم التي تضر بالبلاد أيضاً فلا يُسأل الوالي عن هذه الحالات .

٦ ـ يستطيع الأجانب إقامة قناصل في كل جهات طرابلس وتلغى القاعدة التي تؤخذ بها الهدايا وغيرها عند تعيينهم أو حــين التوقيع على معاهدة معهم .

٧ ـ إلغاء سياسة الإحتكار كلياً وأن يكون للتجار الأجانب حرية التجارة مع دفع الرسوم المقررة وأن تستفيد دولة فرنسا من كل التسهيلات والإمتيازات الممنوحة في السابق والتي ستمنح مستقبلاً لأي دولة أجنبية.

٨ ـ وبما انه تقرر دفع ٨٠٠٠٠٠ فرنك مقابل مصاريف الجيش الذي ساقته فرنسا على طرابلس فإن نصف هذا المبلغ يدفـــع في ١٦ اغستوس ويدفع النصف التالي في ديسمبر .

٩ ـ تبقي وتصدق سواء المواد التي تحويها البنود الواردة في المعاهدات المعقودة بين الدولة العثمانيـــة وبين الدولة الفرنسية وسواء الإتفاقات المبرمة بين فرنسا وبين طرابلس والتي لم تعدل بهذه المعاهدة .

١٠ ـ تنشر مواد هذه المعاهدة في اليوم الثاني عشر من الشهر الحالي

بمدينة طرابلس وفي ١٧ و٢٢ منه في الإيالات وفي الشهور القريبة وفي ١٢ سبتمبر المقبل ستنشر في اقصى طرابلس بالمراسم المعتادة. نظمت هـذه المعاهدة في نسختين وتبودلت في سفينة الأميرال.

في اليوم العاشر من عام ١٢٤٦هـ ــ ١٨٣٠م

أعطيت بموجب احكام المعاهـدة رسائل إلى ملك فرنسا. وبكل صعوبة استقرض من أعيان الأجانب(٤٠٠) ألف فرنك ودفعت. كتبت المعاهدة على ألواح وعلقت في الأسواق ليطلع عليها الناس. ثم سـافر الأسطول الفرنسي.

تضايق يوسف باشا كثيراً من هذه المعاهدة التي اقضت مضجعه. وكان القنصل الفرنسي فظاً لا يطاق. وفيما كان الباشا يفكر في وسيلة لطلب تبديله بلغه نبأ ارتقاء لويس فيليب لعرش فرنسا فاتخذ هذه المناسبة وسيلة لتقديم ذلك الطلب. أوفد الحاج محمد شلبي إلى باريس حامـلا رسالة تبريك بالجلوس على العرش والرجاء بتبديل القنصل.

وفق الحاج محمد شلبي في بعثته وعين شخصاً آخر للقنصلية بدلاً من الأول وحضر إلى طرابلس وبفطنته وكياسته حبب نفسه إلى الباشـا أكثر من غيره وأحل النفوذ الفرنسي مكان النفوذ الإنكليزي.

بتدبير وتشويق وضع القنصل الفرنسي نظاماً جمركياً يتألف من ١٤

فصلاً بدلاً من تسيير الجمارك بلا نظام ولا أصول . كان هذا النظـــام خليطــاً يجمع الرسوم البلدية والرسوم الجمركية ، وقد شكلت لجنة من المسلمين والأجانب لتنفيذه .

لما وجهت في هذه المرة من السلطـــان إلى يوسف باشا إمارة أمراء الروملي كتب الباشا رسالة شكر مطولة إلى أمـير البحر خسرو باشا مؤرخة في ٣ شعبان ١٢٤٧ .

ان وارينغتون القنصل الإنكليزي الذي قـــدم في السابق خدمات جليلة للباشا وساعـــده في أمور كثيرة لم يهضم ميل الباشا أخيراً إلى الفرنسيين ونسيانه له فبدأ يطالب بتسديد الديون المتاخرة لرعايا دولته وزاد في الإلحاح . كان الباشا واقعاً في مشاكل سيئة جـــداً بسبب فقدان المال .

قام جنديان ألبانيان باحتقار ابن القنصل الأمر الذي اغضب القنصل فامر الباشا بالقبض على المسببين للحادث وألقاهما في السجن إلا أن اثنين من رفاق السجينين قالا لابنــة القنصل كلاماً غير لائق لأن اخاها سبب حبس مواطنيهما فزاد غضب القنصل وارينغتون وأنزل علم بلاده .

ارتبك يوسف باشا لما بلغه هذا الخـبر فكتب رسالة للقنصل تحتوي على عبارات الذل والمسكنة وبعث القنصل الهولاندي يوسطـــه ليسعى لتغطية المسالة .

ذكر الباشا في تلك الرسالة انه لم يعقد معاهدة ضارة بانكلترة وانـه مستعد لإرســـال موظف إلى ملك الانكليز وانه يعترف بالديون التي للرعايا الإنكليز ، إلا أن الأزمة الحاضرة التي نجمت بسبب ديون الرعايا الفرنسيين وخصوصاً الصعوبات القائمة والظاهرة للعيان أخرت تسديد بقايا الديون في مواعيدها المحددة وانه يلتمس امهاله لتسديد ديون الرعايا الإنكليز وإعفاءه من المصاريف الحربية التي قد تضم إليها فيما إذا اشتكى إلى ملك الإنكليز وجلب الأسطول ويسترحم عفو ذنبـــه ورفع العلم للدلالة على ذلك[1] وقد أرفق بالرسالة سنداً يتعهد فيه بـدفع ديون رعايا الإنكليز القديمـــة والحديثة وذلك عملاً بالإتفاقية المبرمة في القنصلية وسيبعث إلى المنفى الجنود الذين تسببوا في الإساءة إلى ابن وبنت القنصل وستدفع ماية ألف فرنك ثمناً للبضائع التي نهبها من السفن المالطيـــة من لا يقدرون العواقب من أهـــل الإيالة ويتعهد بأنه يستخدم في شؤون المخابرات رجالاً من ذوي الصدق والأمانة (١٢٤٨ ـ ١٨٣٢) .

بالرغم من كل ذلك فقد أعلن القنصل استحالة الصلح وطـــالب بتسديد ديون الرعايا الإنكليز خلال ٤٨ ساعة ،ولما تأخر دفعها خلال هذه المهلة القصيرة غضب القنصل وسافر إلى مالطة .

تفاقم الأمر ووقع يوسف باشا في مشكلة لم يجد لها حـلاً فدعا زعماء البلاد إلى اجتماع للتفكير في الخروج من المازق فقرروا جمع الأموال من

---

(١) ابن غلبون .

الأهالي والأعيان واليهود وتسديد الديون .

جمع قرابة الأربعة آلاف فرنك من سكان المدينة إلا أن أهل المنشية لم يبدوا استعداداً للدفع ولم يحضروا إلى سوق المدينة . ولما أدرك الباشا أن هذا التدبير سوف لا ياتي بأية نتيجـــة صرف النظر عنه وكتب إلى أهالي المنشية يدعوهم إلى التردد على أسواق المدينـة حسب المعتاد إلا أنهم ظنوا أن في الأمر حيلة ولم ياتوا لسوق المدينة ، ثم اجتمع أعيـــانهم ومشائخهم وذهبوا إلى محمد بك وأحمد بك حفيديه وافادوهما بأنه لم تبقَ لهم ثقة في الوالي وطالبوا بتنحيته وإقامة محمد بك والياً مكانه .

رضي محمد بك بهذا التكليف وأقسموا اليمين على عدم النكوص عن هذه الإتفاقية وأقاموا الولائم . وفي الأسبوع التالي تأهبوا للقتال .

لما بلغ يوسف باشا هذا الخبر فكر في وضع ابنه الأكبر مكانه مؤقتاً إلى أن يقضي على هذا الخلاف إلا أنه لم ينفذ هذه الفكرة العابرة وساق ألف محارب لتشتيت أهل المنشية إلا أن القوة التي ساقهـا عجزت عن التغلب على قوة الثوار الكبيرة المتجمعة خارج السور وعادوا للمدينة .

أوصدت أبواب السور ووزع السلاح والبارود على الأهالي واتخذت أهبة الدفاع .

اتخـــذ محمد بك قصر يوسف باشا الكائن في المنشية دائرة للحكومة وعين مديرين لقضائي المنشية والساحل . لما رأى يوسف تفاقم الأمـــر

واتساع نطاق الثورة يوماً فيوماً بعد أن كان يأمل بالقضاء في أقرب أجل. بدأ يتحدث كل يوم بحضور جلسائه من العلماء عن شيخوخته وانه أودع الولاية إلى ابنه علي بك وهم تلقوا ما سمعوه منه بالرضا والسرور ظناً منهم أن ذلك سيكون سبباً لتسكين الثورة وإعادة الحياة إلى مجراها العادي .

أقسم علي بك اليمين بحضور العلماء والأعيان الذين تجمعوا في المجلس على أن يعمل بصدق وإخلاص وأُطلقت المدافع من القلعة إيذاناً بتنصيبه والياً ، إلا أن ذلك زاد من حدة أهل المنشية فجددوا بيعتهم إلى محمد بك وأطلقوا المدافع إعلاناً لها .

انقسم سكان الولاية إلى شطرين وتصرمت شؤونهم . بعث يوسف باشا رسالة إلى أمير البحر خليل باشا راجياً أن يوجه الولاية لابنه علي بك وذكر في الرسالة أنه بينما كان يرتب الجنود النظاميين بكل عدل وانصاف على أساس النظام الحديث الذي يصر السلطان على التمسك به ثار العربان وساق عليهم العساكر بقيادة ولديه فلم تثمر النصائح التي بذلاها ونصب الثائرون أحد احفاده والياً. واشتد أوار الثورة وزاد الخلاف بسبب قبول هذا الحفيد لذلك المنصب بدافع من حب الجاه ، ورغبة منه في حقن الدماء فقد تنازل لابنه علي بك عن شؤون الولاية بموافقة كافة العلماء والأعيان والأهالي وان الفتنة على وشك الزوال بفعل جهود الموما إليه وفطنته .

لما تسلم علي بك الولاية أمر في ٢١ ربيع الآخر ١٢٤٨ بضرب

مساكن المنشية والساحل بالقنابـل وبعث للمنشية قوة من العساكر والضبطية حاربتهم واصابت منهم ٧٧ قتيلاً و١١٢ جريحاً .

نقصت كميات البـارود في هذه الآونة إلا أنهم عثروا على ٥٠٠ برميل بارود في أحد أركان قصر الحكومة فكان ذلك أكبر عون لعلي بك . يوم الجمعة خرجت للمرة الثانية قوة عسكرية فتقاتل الطرفان وتكبدا خسائر فادحة إلا أن أربعة مدافع تعطلت وكانت الغلبة في جانب العساكر .

بناء على مراجعة يوسف باشا واسترحامه السابق فقـد ورد في مطلع شهر ربيع الآخر مرسوم الولاية إلى علي بك وأعلن باطلاق المدافع .

كان الحاج محمد شلبي وزير يوسف باشا قد ذهب إلى بنغازي لجباية الضرائب ، وبعد وصوله إليها بمـــدة قصيرة بلغه نبأ العصيان واعتزال سيده وتسلم علي بك للولاية . كانت العلاقـة بينه وبين علي بك سيئة ولم يجرؤ لذلك على القدوم إلى طرابلس بل سافر من هناك إلى مالطة ومنهـا بدأ في امداد الطرف المعارض بالمدافع والبارود . وفي ٢٣ رجب رست خلف المنشية ثلاثـــة مراكب محملة بالبارود والقنابل ومدافع الهاون وغيرها من الأسلحة النارية وهو معها .

بعث عـلي بك سفينتين طرابلسيتين للاستيلاء على تلك المراكب إلا أنها قبل أن تصلها كانت المراكب المالطية قد أفرغت حمولتها كما أن ما يقرب من ثلاثمائة مقاتل كانوا يحمون تلك المراكب بإطلاق المدافع من البر

ولم تتمكن السفينتان الطرابلسيتان إلا من أخذ سفينة مالطية واحـــدة كانت فارغة وصحبوها معهم، هذا وإن مدافع القبائـــل أصابت إحدى السفينتين الطرابلسيتين فاعطبتها .

إن الذخيرة التي وردت من مالطة ضاعفت قوات القبائل وأخذوا يقذفون المدينة بـ ٢٠ ـ ٣٠ قنبلة في كل يوم . في ٢٨ محرم أخرج علي بك عدداً وافراً من العساكر وحدثت معركة شديدة .

في ١٢ جمادى الأول ١٣٥٠ حضر إلى طرابلس القيوجي باشا شاكر أفندي حاملاً معه مرسوم ابقاء علي بك في وظيفته مع السيف المهدى إليه من قبل السلطان . حيته القلعة بإطلاق ٣٣ طلقة مدفع ونزل إلى البر كما أن قنصل فرنسا قدم إلى علي بك رسالة تبريك بوظيفته .

بناء على رجاء علي باشا ركب شاكر أفندي زورقاً أخـذه إلى سوق الثلاثاء حيث جمع زعماء القبائل ونصحهم بلزوم التصالح بدل هذا القتال الذي لا فائدة منه والذي سبب ترك الناس لأعمالهم والتطاحن فيما بينهم أمداً طويلاً . إلا أن هذه النصائح لم تجـدِ نفعاً وقال له الأهالي إنهم مستعدون لبذل أرواحهم فداء للسلطنة العلية ولكنهم لا يقبلون أبـداً بقاء الأسرة القرمانلية في الحكم وقدموا سراً إلى شاكر أفنـدي عريضة بهذا المعنى ، وتوجه شاكر أفندي إلى الأستانة في آخر جمادى الأولى .

عاد إلى طرابلس وارينغتون القنصل الذي كان قد غادر طرابلس

غاضباً إلى مالطة وحضر معه أفراد معيته على سفينتين حربيتـــين انكليزيتين وهو يحمل رسالتين قدمهما إلى علي باشا، كانت إحدى الرسالتين تفيد تعيينه والأخرى للتبريك بتنصيب الوالي الجديـد وطالب بإطلاق تسع طلقات تحية لهاتين الرسالتين. أطلقت المدافع في الحال وألقى القنصل كلمة أبدى فيها أسفه لغيابه عن هـــذه البلاد مدة سنتين أوجبتها بعض الظروف ولما غادر قصر الوالي أطلقت سبع طلقات ولما رفـع العلم على مبنى القنصلية أطلقت له ثلاث طلقات وأجابت السفن الإنكليزية نفس العدد من المدافع .

في الخامس من ذي الحجـــة قدمت من أزمير سفينة فرنسية ومن بعدها أخرى إنكليزية وذكر من كان على ظهر السفينتين ان الحكومة العثمانية ستبعث إلى طرابلس أسطولاً ضخماً لتطويع أهلهـــا وسوف لا ينتج عن هذا القتال الطويل إلا ضياع الإستقلال، وأشار قائدا السفينتين بتقسيم البلاد إلى شطرين فيحكم عـلي بك نصفها ويحكم النصف الثاني محمد بك وبذلا مجهـــودات كبيرة في هذا الشأن إلا أن الطرفين لم يقبلا بهذه الفكرة .

في هذه البرهة حضر شاكر أفندي للمرة الثانية إلى طرابلس حاملاً ابقاء علي باشا في منصبه وزف إليه البشرى بأن الدولة العلية ستمده بجزء من الأسطول وببعض العساكر .

كان سكان المدينة قد ملوا الحياة من جراء دوام الحصار مدة سنتين وأحد

عشر شهراً وأصبحوا بعـــد هذه البشرى ينتظرون قدوم الأسطول بفارغ الصبر .

إسقاط القرمانليين وتأسيس الولاية

في يوم ٢٦ محرم من عام ١٢٥١ حضرت إلى طرابلس ٢٢ سفينة كبيرة وصغيرة ومعها الفريق مصطفى نجيب باشا [١] .

حيت القلعة الإسطول بإطلاق المدافع وذهب الوالي مع بعض الأعيان لسفينة القائد وحيت السفن الوالي بإطلاق المدافع .

ألقى نجيب باشا كلمة عن قدومه بانه من أجل الصلح بين الطرفين. وفي الثامن والعشرين من الشهر أنزل من السفن ٦٠٠٠ جندي مع المدافـــع والذخائر فاقاموا في الفنادق وفي اليوم التالي وزعوا على الحصون .

ولما كانت الحاجة لا تدعو لدفـــاع السكان عن القلعة فقد طلب

(١)ان تاريخ ابن غلبون يسجل قدوم الأسطول في السادس من محرم ونزول العساكر للبر في الثامن والعشرين منه وهذا يعني ان القائد والعساكر قضوا ٢٢ يوماً على ظهور سفنهم في انتظـــار النزول للبر . إلا أني استبعد انتظارهم كل هذه المدة على ظهور المراكب وأوافق على أن تاريخ قدوم الأسطول كان في ٢٦ محرم ، لأن تاريخي ٢٨ و٢٩ يتعاقبان الواحد تلو الآخـــر وبما أن ابن غلبون يقول إن العساكر نزلوا للبر يوم ٢٨ وبعد يومين توزعوا على القلاع وإذا كان نجيب باشا خرج للبر يوم ٢٩ فإن العساكر يجب أن يكونوا موزعين على الحصون قبل هذا التاريخ .

القائد من علي باشا أن يعلن منع الأهـــالي من حمل السلاح وأعلن المنع على الجمهور .

لم يهبط نجيب باشا للبر بل كان يُصدر أوامره من سفينته. ولما كانت مهمته تصفية الجو وانـه لم يتخذ بعد أي إجراء في هذا الشأن فقد تشاور علي باشا مع بعض المقربين إليـه وقرروا دعوة نجيب باشا للقيام بالعمل الموكول إليه .

شكل علي بك فرقة من الجنود الموجودين . وفي ٢٩ من محرم ذهب للسفينة في صحبة ٣٢ من أقربائه ومن المتنفذين في حكومته . ترك نجيب باشا هؤلاء على ظهر السفينة وأمر بإطلاق المدافع ثم هبط إلى البر وذهب رأساً إلى بيت الباشاوات حيث يقيم شاكر أفنـدي فجمع المفتي والأعيان وأعلن لهم بأن ولاية طرابلس عهدت إليـه من طرف السلطان وأمر في الحال بفتح أبواب المدينة وأن لا يمنع أحد من الخروج منها والدخول إليها،ثم ذهب في موكب إلى قصر الحكومة وأمر بقراءة مرسوم التعيين.

بدأ أهل المنشية في الإنصراف إلى أعمالهم وانصرف الناس إلى التزاور. ولما بلغ محمد بك نبأ اعتقال عمه علي باشا في السفينة خاف من أن يـــأتي دوره فانتحر بغدارته وهرب أخوه أحمد إلى مالطة .

في اليوم الخامس من شهر صفر اجتمعت هيئة مؤلفـة من خمسة أشخاص من مشائخ طرابلس والمنشية ومن قاضي البلد الشيخ أحمد أفندي

التوغار ومن شيخ البلد رئيس البلدية وتقرر أن تنظر في القضايا العادية أمام هذه الهيئة وأن تجري المحاكمات في الدعاوي الكبرى بحضور الوالي وصار بيت الباشاوات محكمة ، ولما كان الأهالي يجهلون نقود الأستانة فقد وزعت عليهم وبدأ الناس يتداولونها . ولما ساد الهدوء والسكينة البلاد غادرها الأسطول إلى الأستانة حاملاً أسرة القرمانلي .

كتب نجيب باشا الرسائل إلى كافة الأنحاء ظناً منه أنه سيأخذ في يده زمام إدارة البلاد بسهولة إلا أنه رأى أن مراسلاته لم تأت بالنتيجة المنتظرة. حضر إلى طرابلس من مشائخ القبائل الكبرى شيخا قبيلتي المحاميد وبني نوير فأطلقت أربعة مدافع على مقدم غومه وأهدى المرانيص للمشائخ . كانت هذه اللفتة الودية ستؤدي إلى اطمئنان باقي شيوخ القبائل وقدومهم لولا أن نجيب باشا قلب ظهر المجن إلى غومه وألقاه في السجن ومنع إطلاق المدافع . تقدم الكثير من المتنفذين يلتمسون من الوالي الإفراج عن غومه إلا أنهم لم يجدوا لديه أذناً صاغية .

عُقد في جامع درغوت باشا مجلس متسع لإجراء التصالح بين أهل المنشية والساحل من جهة وبين أهل طرابلس بسبب الحرب الداخلية التي كانت بين الطرفين ، ونظمت ووقعت بينهم إتفاقية يهدر بموجبها ديات قتلى الحرب الماضية وأن يتمسك كل طرف بما دخل في يده من أموال ومواش عدا العقارات وأن تبقى الضرائب كما كانت في زمن يوسف باشا.

اتخذ قضاء طرابلس مركزاً لجماعة المولويين وأسندت في عام ١٢٥١

إلى أحمد نظيف أفندي السهاقوفلي . ولما قلّ النفوذ في هذه البرهـــة أمر نجيب باشا بسك نقود من مختلف الفئات في مصنع سك النقود .

في ١٤ جمادى الأول ١٢٥١ يوم الثلاثاء حضر الفريق محمد رائف باشا معيناً والياً لإيالة طرابلس ومحافظاً لقلاعها .

هناك روايات تقول إن أسباب الاستعجال في تنحيته بهذه السرعة كانت سكه للنقود بدون أن يستاذن من الأستانة ويوقع الرسائل باسم متصرف الإيالة واستكتابه للأهالي عريضة لصالحه. وقد أبطل رائف باشا معمل سك النقود فور وصوله وأطلق سراح الشيخ غومه ولم يستصوب إقامة محمد بك حفيد يوسف باشا واخواته في تاجوراء فبعث يستقدمهم إلى طرابلس .

لما رفضت السيدات القدوم إلى طرابلس وحاول أهل تاجوراء الوقوف دونهن ساق على أهل تاجوراء قوة من العساكر والأهالي المسلحين ونشبت بين الطرفين في الرابع من شوال معركة حامية قتل فيها خلق كثير ونهب جل أموال التواجير وأذعنوا قسراً للطاعة ثم عاد الجيش إلى طرابلس .

كان رائف باشا حـــاد المزاج جداً وقد غلب عليه الغيظ ضد التواجير وحاول أن يطبق عليهم معاملة الأسارى إلا أنه عدل بعد ذلك عن هذا الإجراء بسبب النصيحة التي تلقاها من إحدى الجهات .

ان إيالة طرابلس تعتبر من وجهة النظر الرسمية مطيعة تماماً للدولة

إلا أنها في الحقيقة واقعة في قبضة المشائخ والمتغلبين والأعيان إذ أن هؤلاء كانوا يدفعون نـذراً قليلاً من الضرائب للبك والباشا ويسلبون الأهالي كافة ويستغلونهم لصالحهم .

انقضت الإدارية الداخلية في عهد القرمانلية على هذه الطريقـــة وأستعيدت البلاد من القرمانليين وأعلمت الأستانة بان عبـارة « الأهالي مطيعون للحكومة » ما هي إلا كلمة تقال وان طرابلس يجب فتحها من جديد وإن نجيب باشا ورائف باشا اشتغلا لهذه الغاية .

في ١٩ محرم ١٢٥٢ أرسل إلى أمير البحر طاهر باشا هذا الأمر :

« إن الـولاة الذين كانوا في طرابلس شغلهم التمتع بالملذات وأضروا بفقراء الشعب ولذا فقد أرسل الفريق رائف باشا لتصفية أولئك الظلمة وتمكن من ارجاع السكينة في بنغازي وغيرها من الدواخل إلا أن الإيالة واسعة ولما كان غرضي السلطاني تأمين الاستقرار التام في كافة الأنحاء، ونظراً إلى اطلاعك على الأحـــوال فإن إرادتي اقتضت تعيينك لتلك الجهات ممنوحاً الإستقلال الكامـل في العمل ولك أن تستخدم العساكر النظاميــــين الذين زود بهم فريق البحر نامق باشا من الأسطول وسفني الملكية حسب الحاجة للسوق والإنزال براً وبحراً ومكافأة المطيعيـــين للسلطنة والتنكيل بالمخالفين وأن تسعى لتحسين حالة الإيالة » .

يوم الأربعاء ١٧ من ربيع الأول ١٢٥٢ حضر طاهر باشا إلى طرابلس

مع اثني عشر مركباً وأنزل العساكر إلى البر ونصبت خيـــامهم في سوق الثلاثاء .

بعث طاهر باشا رسائل إلى كافة مشائخ البلاد يدعوهم للقدوم وتقديم الطاعة أو فليتأهبوا للقتال !

ان سجن الشيخ غومه الذي كان أول من جـاء سابقاً لتقديم الطاعة ورسائل طاهر باشا التي كانت تنفث النــــيران سببت احجام المشائخ والزعماء عن القدوم .

انتظر طاهر باشا ثلاثة عشر يومـاً في المعسكر وفي ٢١ ربيع الأول أركب في السفن ألفي مسلح من أهالي المنشية والساحـــل وورشفانه مع العساكر النظاميين وأنزلهم في ميناء أبي شعيفة بمصراته وقد ورد طابوران من الجنود مدداً من تونس .

قاتل بتلك القوة مدة (٢٨) يوماً وبعد وقوع خسائر فادحـــة في الجانبين انهزم عثمان الأدغم زعيم مصراته ودخل الأهالي تحت الطاعـــة فعين الموظفون وأذعنت الأقضية التي مروا بها دون قتال وعاد الجيش إلى طرابلس .

بعد أن استراح الجيش ١٥ أو ٢٠ يوماً توجـــه إلى ترهونة وكانت ترهونة قد انقسمت إلى فريقـين أحدهما أطاع في الحال والفريق الثاني انسحب في اتجاه غريان بعد قتال يوم واحد وكان عثمان آغا الأدغم الذي هرب من مصراته معهم .

استدرج عثمان آغا الأدغم وابنه وثلاثة مشائخ آخرين فقبض عليهم ونقلوا إلى طرابلس حيث زج بهم في السجن وعاد الجيش ثانية .

لما كانت هذه الحركات قائمة وقعت في يدي طاهر باشا رسائل بالعربية موجهة إلى مشائخ العربان من اللواء حسين باشا والأمير الآي دورسون بك المصريين اللذين يجيدان اللغة العربية يدعوانهم إلى صفهما ضده ، ولما علم حسين بافتضاح أمره ركب في الحال سفينة هرب عليها للأستانة وأمر طاهر باشا بالقاء القبض على دورسون بك وبعثه مصفداً للأستانة .

زحف طاهر باشا يوم ٣ ذي القعدة (١٢٥٢) بقوات لجبة على غريان التي لم يتم تطويعها بعد ان كان غومه قد سبقه إلى غريان واتفق مع العصاة على المقاومة .

خاض طاهر باشا ٢٨ معركة مع العصاة إلا أنه لم يوفق في الإنتصار عليهم بل مكنهم من غنم مدفع واحد وذخيرة كثيرة . في هذه البرهة ، والقتال دائر ، ورد مرسوم بتوجه ولاية طرابلس إلى طاهر باشا على أن تكون كل الولاية تابعة له مكافأة على خدماته السابقة .

أوقف طاهر باشا الهجومات الفاشلة ودخل في شبه هدنة مع المتمردين ولما بلغ سمع الأستانة هذا الفشل عين وأوفد جسمه لي حسين باشا والياً[1] .

---

(١) سجل شؤون الديوان الهمايوني الهامة رقم ٢٥٢ ص ٤٤ في أوائل ذي الحجة ١٢٥٢ .

قدم حسن باشا إلى طرابلس في أواخر محرم ١٢٥٣ .

وبما أنه كتب إلى طاهر باشا أن يدير الأمور إلى حين قدوم الوالي الجديد، فلم يرَ من الموافق أن يترك الأمور فوضى ويعود، بل عقد الصلح بشرط أن يعيد غومه الأسلحة والذخيرة التي استولى عليها وأن يعين المملوك حسين آغا مديراً لغريان ثم عاد إلى طرابلس .

لما جاء حسن باشا آثر الراحة وصار يدير الأمور على الورق كأنه عين والياً على إيالة منظمة الشؤون . استغلت قبائل الدواخل رخاوة الوالي والجهات التي أدخلت تحت الطاعة عادت إلى حالتها السابقة واختلت شؤون الأمن ، وبقي نفوذ والي طرابلس منحصراً في المنشية والساحل وتاجوراء فقط . تظاهر الوالي بعزمه القيام بحركات عسكرية فيحشد الجنود ثم يسرحهم قبل أن يستوي على الطريق ، ولما عرفت عنه هذه المناورات لم يعد أحد يهتم بتصريحاته ولم تدفع للعساكر مرتبات عشرة شهور وعادت الحالة إلى ما كانت عليه في عهد الإنكشاريين ، وفي هذه الآونة استبدل الوالي بغيره وسر الناس لذلك .

في أواسط جمادى الآخرة ١٢٥٤ جاء إلى طرابلس علي عشقر باشا وفي معيته لواء الفرسان حليم والميرالآي دورسون بك الذي أرسل في السابق مكبلاً جاء في هذه المرة مترقياً فصار دورسون باشا وأرسل حليم باشا إلى قائمقامية بنغازي .

بدأ الوالي الجديد في ترميم الحصون والمساجد وبقدر ما كان الوالي

السابق فاتر الهمة فإن الوالي العتيـــد كان موسوساً كثير الشكوك والأوهام ، كان يشك في شخصين يتكلمان بصوت منخفض .

بينما كان بعض أعيان طرابلس ينعمون بمأدبة بريئة في أحد البساتين ذهب شخص يدعى الحاج آغا يدس عليهم عند الباشا بأنهم يكوّنون جمعية سرية وانهم يتحدثون في حقه بكلام كثير ، فامر الوالي بالقبض على الحاج محمد شلبي وعلى محمد آغا التركي وعلى مفتي المالكيـة عبد السلام أفندي ونفاهم إلى الأستانة .

في عام ١٢٥٥ جاء الخبر أن الشيخ عبد الجليل المتسلط على أقضيـة فزان منذ عهد يوسف باشا دمر وأشعل النيران في أقضية تاورغاء وزليتن وساحل الأحامد والخمس ومسلاته وأنه قادم رأساً إلى طرابلس .

تقابل الجنود النظاميون وخيالة العرب مع قوات المتمردين أمـام مسلاته وبعد معركة دامت ثماني ساعات انهزم عبـد الجليل إلى فزان تاركاً كل ذخائره وحتى زوجته. والعساكر ادخلوا، تحت الطاعة، أقضية الخمس والساحل وزليتن وتاورغاء وورفلة بدون قتال .

كوفىء الوالي في التاسع من ربيـــع الآخر ١٢٥٦ على هذا النصر بالوسام المرصع وسيف، ودورسون بك كوفىء بالترفيع إلى رتبـــة فريق والضباط بالترقية درجة .

في هذه الآونة قام غومه شيخ بني نوير ببعض التحرشات وجاء إلى

الهيرة الكائن على بعد اثنتي عشرة ساعة من طرابلس،فساق عليه العساكر فاشتبكوا معه في قتال استمر لمدة ست ساعات عادوا بعدها إلى طرابلس مغلوبين واستولى غومه على أقضية الزاوية والعجيلات .

جرى استفزاز بعض الأهالي لرد عادية غومه والتخلص منه فقاموا يقاومونه إلا أنهم فشلوا أمام الكثرة من أعوانه مما اضطرهم إلى أن يبعثوا للوالي يطلبون امدادهم .

بعث الوالي إلى الزاوية بعض العساكر بقيادة أحمد باشا وعلى أثر قدومهم انسحب غومه إلى الجبل فقتل الذين كانوا يناصرونه وغنمت أموالهم : وبعد ثلاثة أو أربعة أيام توجه أحمد باشا إلى ترهونة فقتل الكثيرين من العصاة ونهب أموالهم ثم عاد إلى طرابلس .

شقت قبيلة الرقيعات القريبة من طرابلس عصا الطاعة وكانت قوة المتمردين قليلة فلما أجريت حركات حربية صغيرة ولى العصاة هاربين واستُولي على أموالهم ومواشيهم .

لما ظهرت أمارات التمرد في بنغازي أقبل حليم باشا وأرسل إليها دورسون باشا . كانت القلاقل لا تزال مستمرة في جهات غريان بسبب وعورة جبالها ومعابرها وأصبح الواجب يقضي بأن تطوع هذه الجهات لصالح الأمن والسكينة في المناطق الأخرى فأرسل الذي كان يدرب تحت قيادة أحمد باشا إلى غريان وكان قد انضم إليهم الشيخ غومة

برجاله وبعد أن التحم الجيش مع الثوار في أربع أو خمس معارك استولى على غريان وكان قد تكبد الكثير من الضحايا. هرب غومه وأعدم السبعون شيخاً الذين قبض عليهم وأرسلوا إلى طرابلس . عين من جديد مديراً للقضاء وأبقى معه قليل من الجنود ثم عاد الجيش إلى طرابلس .

ان عبد الجليل الذي هرب إلى فزان كان يحاول ضم سوكنة وهون وودان تحت حكمه إلا أن الأهالي كانوا يرفضون ذلك لأنه قتل الكثير من الناس في المعارك التي نشبت هناك وقبض على ثلاثين من مشائخ ودان فذبحهم ذبح النعـــاج ونهب المواشي وقطع أشجار النخيل والزيتون وأتلف مزروعاتهم .

بعث المظلومون إلي الولاية يستغيثون إلا أنـه بسبب بعد الشقّة لم يجد أي شيء غير الأسف .

جاء عبد الجليل من هناك الى سرت ، فأمر الوالي مـــدير قضاء مصراته بان يزحف على المذكور بالعساكر والقبائل التي تظاهر الحكومة. فجمع مدير مصراته قواته وزحف على المكان المسمى (القارة) باراضي سرت . وفي ٢١ ربيع الأول ١٢٥٨ تصادم مع العصاة عدة مرات لمدة شهر ثم حوصر العصاة واستولى على الآبار المجاورة وبعد قتال شديد استمر أسبوعا أسر عبد الجليل وأخوه سيف النصر والحاج أحمد شيخ ترهونة ومصطفى الأدغم ومحمد كاتب عبد الجليل . ولما ظهرت براءة الكاتب أطلق سراحه وأعدم عبد الجليل وأخوه والحاج أحمد ومصطفى الأدغم

وطيف برأس عبد الجليل في أزقة المدينة وهو موضوع على صينية.

أنعم على حسن بك مدير مصراته برتبة ميرالاي مكافأة على انتصاره وزينت المدينة بالأنوار وأطلقت المدافع ابتهاجاً بهذا الانتصار. أقيل بعد ذلك عشقر باشا وجاء محمد أمين باشا والياً في ٦ جمادى الآخرة ١٢٥٨ وعزمي بك للدفتردارية. وكان عزمي بك قد أتى مع الوالي تحت اسم مامور تحقيق. إن الولاة الذين جاؤوا وذهبوا شغلهم حتى الان تطويع البلاد ولم يجدوا مجالاً للترتيب والتنظيم ولقد أخروا إلى الوقت المناسب تطبيق التنظيمات الخيرية بسبب بعض المحاذير.

جاء محمد أمين باشا لتطبيق التنظيمات الخيرية ولتاسيس الأجهزة الإدارية، فانشأ الأقضية والألوية والمديريات والمجالس وبعث بكر بك إلى فزان قائمقاماً وعين للأقضية بكفالات قوية مديرين محليين وأعضاء. أمر بمسك السجلات الضرورية في كل المراكز والأقضية وبذل جهوده لسن قوانين الضرائب والأعشار وتذاكر المرور وغيرها من التشريعات اللازمة. بينما الوالي السابق أراق دماء غزيرة وسُمي بفاتح طرابلس الحقيقي لأن محمد أمين باشا هو واضع قوانينها.

ان أعضاء المجلس الكبير أقنعوا الوالي بأن الشيخ غومه تعرض للتحقير وانه دفع للتمرد بسبب ابعاده عن خدمة الدولة العثمانية وبما أن الشيخ المذكور كان على جانب من الفطنة والدراية فإنه من الممكن الإستفادة من خدماته بقليل من الإلتفات وكتبوا إلى غومه يكافونه

بالدخالة فرضي غومه بذلك وعرض دخالته وشهد أعضاء المجلس الكبير في غومه بأنه سيخدم الدولة بصدق واخلاص وأن لا يهان طالما هو مطيع وإذا أتى أقل ذنب بخلاف ذلك فسوف يستسلم لمحاكمته .

في أواخر رجب ١٢٥٨ حضر غومـه إلى طرابلس ودخل للمجلس بينما كان أمين باشا والأعضاء مجتمعين فمنح لقب البكوية ودرجة قپوجي باشا وعضوية المجلس الكبير مع مرتب شهري قدره (٣٠٠٠) قرش. سر غومه جداً باللفتة التي حظي بها والتي كان يتوق إلى نوالها من سنين كثيرة، واستدعى عائلته للمدينة . قدم غومـــه خدمات طيبة عدداً من الشهور إلا أنه لسبب ما توترت العلاقات بينه وبين الوالي . دعا أمين باشا الشيخ غومه إلى مادبة أقامها في إحدى الليالي وفي نصف الليل أمر بالقبض عليه وأركبوه في سفينة كانت متاهبة للسفر إلى الأستانة .

ربما كان الباشا قد اضمر هذا العمل منذ استسلام غومه إلا أنه كان ينتظر الفرصة المؤاتية عقب هذا الحادث قامت قبيلة غومه تؤلب الناس وتدعوهم لشق عصا الطاعة .

في أوائل صفر من عام ١٢٥٩ زحف أحمد باشا بجنوده النظاميـــين والمحاربين المدنيـين الذين تحت قيادته ولما بلغوا ككلة تلاطموا مع قوات الثوار المؤلفة من أهل الجبل ومن قبيلة غومه المتفقتين فنشبت بين الطرفين حرب ضروس دامت أربعة أيام وفي اليوم الخامس طوقوا قوات أحمد باشا ولم يستطع أحد لمدة أربع وعشرين ساعة أن يخرج من باب خيمته .

بذل أحمد باشا كثيراً من الهدايا وأدخل الشقاق بين القبائل فوافقوا على المصالحة. ولما حضروا لديه للمفاوضة معه في شأنها أمر بالقبض على السبعين شيخاً الذين جاءوا للمفاوضة وأمر بقطع رؤوسهم ثم تفرق الناس الذين بقوا بدون زعماء يديرون شؤونهم. ثم ذهب أحمد باشا إلى يفرن واحتلها بعد قتال دام يومين، ومن هناك زحف على فساطو فاستولى عليها بعد قتال استمر عدة أيام فعين لها موظفين وأقام بها.

بينما كان أحمد باشا يستوفي مصاريف الجيش بفساطو بلغه أن أهالي قضائي ككلة ويفرن الذين لا مذهب لهم ثاروا لظنهم أن الباشا عين لهم قاضياً سنياً بقصد تبديل مذهبهم وحاصروا الموظفين ومزقوا كتب القاضي. جاء أحمد باشا من فساطو ودخل معهم في معركة قصيرة قتل منهم أكثر منماية شيخ وأجبرهم على الطاعة ثم رفع القاضي عنهم وعاد إلى طرابلس تاركاً المدير فقط.

ان أحمد باشا كان قول اغاسياً في سنة ١٢٥٤ خلال ولاية علي عشقر باشا ومكافأة له على الشجاعة التي أبداها في التحركات العسكرية التي أجريت على مسلاته عام ١٢٥٥ كوفىء برتبة أمير الاي[١] وبما أنه كان، منذ زمن كبير، مقيماً بطرابلس وانه قاد أكثر الحروب فيها فقد زاد نفوذه ومن كانت لهم مصالح لدى الحكومة لا يذهبون إلى الوالي إلا بعد أن يستشيرونه، فصار الأمر وكأنما للبلاد واليان مما سبب بعض الجفاء

---

(١) تاريخ ابن غلبون ص ١٣٤ .

بينهما. ولما كان الوالي حازماً وأريباًفقدالتزم الصمت وتجنب الإحتكاك .

في رمضان ١٢٦١ أثار مدير يفرن الأهالي فسار إليهم أحمد باشا بقوة قاتلتهم أياماً قتل فيها المدير وأذعن الأهـــالي للطاعة وعُين مدير بدلاً من السابق .

حضر إلى الجبل الغربي المدعو ميلود مساعد غومه المنفي إلى الأستانة وأذاع على الناس بان الشيخ غومه سيعود قريباً للجبل فاعلنت يفرن التي تعد مفتاح الجبل عصيانها . فأرسلت قوات بقيادة الميرالاي اسماعيل بك دخلت مع المتمردين في قتال كبدتهم فيـه خسائر فادحة في الأرواح وألزمتهم بالطاعة وفر ميلود .

كتب محمد أمين باشا للآستانة يطالب تبديل أحمـد باشا وعزمي بك إلى الأستانة ان إيالة طرابلس الغرب أدخلت تحت إدارة الدولة العثمانية في عهد محمد أمين باشا .

في ٦ جمادى الأول ١٢٦٣ عين بدلاً منه راغب باشا. وفي محرم ١٢٦٥ عين والياً لها أحمد عزت باشا الذي ترك أمور الدولة في يد الأشرار لاهيـاً في ملذاته .

في عهده بينما كان أحمـد أفندي قائمقام الجبل مسافراً إلى قضاء غريان هاجمه بعض الناس ليلاً في ككلة وقتلوه. أرسل بكر بك قوة نكلت بالمعتدين.

لما جاء راغب باشا إلى طرابلس وجد أن البلاد تنعم ببحبوحة لم يروا لها

مثيلاً عزاها إلى يمن مقدمه وحكم البلاد في استقرار وأمان .في إبان حكمه جاء جنديان إفرنسيان في ملابس مدنية هاربـــين من الجزائر فتقدمـا للمجلس الكبير وأعلنا عن رغبتهما في اعتناق الإسلام فلقنا الدين وأسلما ثم قبلا في الجيش وبعد مرور شهرين ذهب أحدهما للكنيسة وهرب الثاني إلى القنصلية الفرنسية .

قبض عليهما الضباط وسجنوهما.لكن القنصل الذي رفضهما فيالسابق طالب باسترجاعهما، وبما انهما كانا من النصارى المرتـــدين فلم يوافق على اعادتهما إليه .

في رمضان سنة ١٢٦٨ سافـر الوالي إلى بنغازي وفي الثامن من شهر شوال جاءت إلى طرابلس سفينة حربية فرنسية وفي العشرين منه جاءت تسع أخر ورست كل واحدة من هذه السفن قبالة إحدى القلاع وطلبوا أن يسلم إليهم الجنديان الفرنسيان خلال ٢٤ ساعة وتأهب الطرفان للحرب ركب القناصل (عدا الإنكليزي) مراكب أقلتهم إلى مبعدة في البحر إلا أن وكيل الوالي خليل بك لم يقبل الدخول في الحرب تحت مسؤوليتـــه فسلمهم الجنديين .

جاء أحمـــد عزت باشا في ٢٥ شوال إلى طرابلس ولما حاول جمع الإعانات وتسجيل النفوس حدثت بعض القلاقل إلا أنها لم ترق فيها دماء. في هذه الآونة استبدل الوالي بغيره وهدأت الحالة .

في غرة ذي الحجة جاء الوالي الجديد مصطفى نوري باشا وأمـــر

بالقبض على المسببين في التشويش المار ذكره وعزل مدير المنشية[1] واطلع الأهالي بالطرق المناسبة على الكيفية التي ستسجل بها النفوس وتجمع الاعانة فوافق الشعب على ذلك. ولما كان هذا العام فائض البركات فقد أتى التجار من شتى الأقطار لشراء الأطعمة ولأول مرة رؤيت الليرات الإنكليزية والفرنسية في طرابلس[2].

في سنة ١٢٦٩ اعتدى أهالي فساطو بالضرب على موظفي جباية عُشر الزيتون ولما خافوا من مغبة عملهم رفعوا راية العصيان فأرسل لهم كوجوك أحمد باشا على رأس قوة طوعتهم.

في سنة ١٢٧١ جاء غومه إلى المستماتية بتونس الذي نفي في السابق إلى الأستانة وبعث معروضاً للوالي يلتمس تعيينه في وظيفة إلا انه لم يُجب إلى طلبه. ولما عبر إلى تراب إيالة طرابلس انضمت إليه الأهالي وعندما وصل إلى نالوت وكابا ويفرن قوبل من الأهالي هناك بالسرور والطاعة.

تجمع من أولئك الناس جيش كبير حاصر القصر الذي يقيم فيه القائمقام. وكانت هناك قرابة خمسة أو ستماية جندي وستماية فارس عربي وبما

---

(١) يقول الأندروني عطا أفندي في تاريخه إن مصطفى نوري باشا جاء إلى طرابلس وأمر بالقاء القبض على الذين بعثوا مضبطة للأستانة يطلبون إرسال والياً مالكي المذهب وبعثهم بإحدى السفن إلى الآستانة.

(٢) تاريخ ابن غلبون.

أنه لا يمكن مقاومة ذاك الحشد الكبير من المتمردين فقد أرسلت طرابلس قوة صغيرة ما ان وصلت الرومية حتى باغتها غومه بهجوم فشتتها واستولى على المدافع والذخيرة ومن بعد عاد الى القصر واحتله. ثم بعث الى طرابلس العساكر الذين وقعوا في أسره والمدافع والذخيرة التي غنمها بعثها كلها وكرر التماسه السابق إلا أنه لم يجد أذناً صاغية .

لما جاء غومه الى غريان لضم كل الجهات تحت قيادته وافقه الأهالي على ذلك إلا أن عمر آغا محافظ دائرة الحكومة دافع ببطولة خارقة ورغماً من نيران المدافع والبنادق الكثيفة التي صبوها على المدافعين فإنه لم يمكن غومه وجماعته من الإستيلاء على القصر .

انحدر غومه من غريان إلى الزاوية حيث التحق به الأهالي غير أن الأعيان المخلصين للدولة وأعضاء المجلس تجمعوا في أحد البيوت ولم يمكنوه من الوصول إليهم . ومن الزاوية ذهب إلى ورشفانة وجنزور الكائنة على بعد ثلاث ساعات من طرابلس وقيل انه ضمهم إلى صفه وانه متأهب للزحف على طرابلس .

استجابة لطلب سابق فقد أرسل مع الميرلوا عبدالله باشا والميرالاي حسين بك القادمين من الأستانة طابورين من الجنود النظاميين وطابورين من عساكر الرديف وطابور من الجنود المحليين وأربع سرايا من الفرسان وجيشاً من العربان والطرابلسيين سيقوا على غومه .

ان أهل ورشفانة وجنزور لم ينتظروا قدوم غومه بل كانوا قد تقدموا

حتى فرقارس ولما هاجمتهم العساكر انسحبوا إلى جنزور حـوالي المساء وقبل الغروب بساعتين التحق بهم غومـه وقدم لهم مساعدة قيمة إلا أن العساكر لم يبالوا بهذه النجدة واستمروا في هجوماتهم ثلاث ساعات أخرى كبدوا فيها الأعداء خسائر فادحة .

كان ظلام الليل نعمة كبرى للعصاة إذ بفضله قدتمكنوا من الخلاص من سيوف العساكر ورصاصهم . قضى غومه جـزءاً من الليل في جنزور ولما تحقق لديه ان أنظار أهاليها متجهة للهروب انسحب مع أعوانه إلى المكان المسمى بـ (المايه) الكائن على بعد ساعتين من جنزور .

لما توقف غومه في المايه كان عدد أعوانه ينوف عن العشرين ألفاً ولذا رؤي مد العساكر ببعض المحاربين فأُرسلت لهم قـــوة من مسلحي أهالي طرابلس والمنشية والساحل .

هاجم العساكر قرية المايه أيضاً ودام القتال يوماً انتهى بانهزام غومه، وأعوانه متجهين إلى الجبل وذهب الجيش إلى الزاوية وأقام فيها .

في هذه الآونة أُقيل مصطفى نوري باشا وفي ٢٠ صفـر ١٢٧٢ جاء عثمان باشا ليحل مكانه الوالي الجديد، استدعي قاسم باشا الذي كان عنـد غومه وشكل جيشاً من الجنود النظاميين والعربان واصطحب معه المستر هرمن القنصل الإنكليزي الذي لـه إلمام بالحرب الفنية والتحقوا بقوات عبدالله باشا في المكان المسمى بـ (الكدوة) على مسافة إحدى عشرة ساعـة من طرابلس وزحفوا من هناك على الجبل وهاجموا غومة في الروميـة ،

استمر القتال ثماني ساعات تقهقر بعدها غومه وذهب إلى فساطو . بعد يومين بعث الوالي البعض من ذوي المكانة إلى غومه برنوساً ثميناً وحصاناً وفاوضوه على الإنسحاب إلى تونس بشرط أن لا يعود إلى طرابلس . فذهب غومه مع ٧٢ من اتباعه إلى تونس وعاد الجيش إلى طرابلس .

لم يهدأ غومه في تونس وبدأ يشن منها الغارات على أطراف البلاد إلا انه فقد في تلك الغارات أكثر أتباعه وبقي معه عشرون فارساً . عاد بهؤلاء إلى طرابلس واجتاز الحدود إلى غدامس .

لما بلغ الوالي نبأ نقض غومه للإتفاقية زود مساعده مصطفى باشا بقوة بعثها لتعقبه وباغت هؤلاء غومه بينما كان مع عدد وفير من الفرسان مخيمين في الوادي المسمى (دان) .

حدث صدام عنيف قتل فيه غومه بالرصاص في ١٦ رجب ١٢٧٤ ثم حز رأسه وأتي به إلى طرابلس .

بعد أن أزيل من الوسط أكبر مسبب للقلاقل في طرابلس لم تحدث فيما بعد ثورات لها وزنها .

في ١١ صفر ١٢٧٤ يوم الجمعة عين أحمد عزت والياً لطرابلس .

ويوم الجمعة في ١٦ محرم ٢٧٧ عين محمود نديم باشا . لم يحدث في أيام هذين الواليين ما يستحق التسجيل جاء في الأمر الذي أعطي لأحمد عزت

باشا ما يلي : لما كانت طرابلس احدى إيالات الدولة الكبرى فإن النظر في حل وفصل القضايا التي تتكون بين التجار ورعايا الدول الصديقـــة يناط في هذه الإيالة بمحكمة التجارة المختلطة المشكلة بها ، ويجب تشكيل مجلس للبت في قضايا القتل والسرقة وغيرهما من التهم والشكاوي الـتي يرفعها الرعايا الأجانب على رعايا الدولة العلية [١] .

واستبدل في عهد محمود نديم باشا اسم إيالة طرابلس بإسم ولايـــة طرابلس الغرب [٢] .

لم يبقَ بعد ذلك تاريخ خاص بطرابلس بل اشتركت هي أيضاً في مقدرات ولايات الدولة العثمانية إلا أن القوانين العثمانية لم تطبق كلها على طرابلس وبالخاصة قانون التجنيد فإنه لم يعمل به فيها والذي جرى هو تشكيل كتائب الحميدية من القولأوغليين وفي سنة ١٣١٣ طبقت تشكيلات الرديف .

قديماً كانت طرابلس وبنغازي تشكلان إيالة واحدة وفيما بعد قسمت إلى جزءين واتخذت من طرابلس ولاية ومن بنغازي متصرفية مستقلة.

كانت طرابلس مركز فرقة نظامية وجنودها يُبعثون من الآستانة

---

(١) سجل الديوان الهمايوني للشؤون الهامة رقم ٢٥٧ ص ١٠ .

(٢) سجل الديوان الهمايوني للشؤون الهامة رقم ٢٦٢ ص ١٢٦ .

وكان من المقرر أن يستخدم طوابير القول أوغليين في طرابلس فقط[1] وقد أرسل ٤٠ أو ٥٠ ألف بندقية لتوزع عند الحاجة على عساكر الرديف وعلى الأهالي :

المشاة :
- الفرقة الخامسة عشرة النظامية
- الكتيبة الخامسة عشرة للقناصة
- لواء المشاة التاسع: الألاي ٥٧ ، الألاي ٥٨
- لواء المشاة الثلاثين: الألاي ٥٩ ، الألاي ٦٠

الفرسان : الألايين ٣٧ و٣٨

المدفعية:
- الألاي ١٥ مدفعيـــة
- وثلاث سرايا مدفعية قلاع

الوطنيين : مشاة آلايات وطوبير الحميدية

كانت التشكيلات الإدارية في سنة ١٣٢٧ كالآتي :

مركز الولاية : طرابلس الغرب .

---

(١) اصوات الصدور تأليف ممدوح باشا .

الألوية : الخمس والجبل الغربي وفزان .

النواحي المربوطة بمركز الولاية : تاجوراء وجفارة وجنزور .

الأقضية المربوطة بمركز الولاية : النواحي الأربع ومركزها في الهاني .

ونواحيها : المنشية والساحل والعلاونة والرقيعات .

قضاء غريان : النواحي التابعة له ـ ترهونة والزاوية والعزيزية .

قضاء ورفلة : النواحي التابعة له ـ العجيلات ونجاد ومركز في الجوشن .

لواء الخمس : مركزها ـ (لبدة) الخمس .

أقضيتها : مصراتة وزليتن وسرت ومسلاته
ولها ناحيتا الطابية وتاورغاء .

لواء الجبل الغربي : مركزها ـ القصبات .

النواحي المربوطة به : الحوض وككلة ومزده والزنتان ويفرن .

أقضيته ـ غدامس ونالوت وفساطو مركزها في جادو .

لواء فزان ـ مركزه مرزق .

النواحي المربوطة بمركز اللواء ـ سبهة ووادي عتبة وزلة والقطرون والوادي الشرقي والوادي الغربي .

قضاء تبورشادة ومركزه برداي (قائمقامه سقامي أفندي) .

وأقضيته ـ سوكنة والشاطي وغات والنواحي التابعة له جانت وبركت .

متصرفية بنغازي المستقلة

النواحي المربوطة بمركز اللواء ـ البراعصة وسلوق وقمينس وبرسيس .

قضاء درنة ـ النواحي المربوطة به : طبرق والقبة والبومبا والسلوم .

قضاء المرج ـ النواحي المربوطة به : الحاسة والدرسة .

قضاء أوجلة وجالو .

قضاء اجدابيا ـ وله ناحية البريقة .

قضاء الكفرة .

لم تمر بطرابلس في المدة الأخيرة أية هزة داخلية .

كان السلطان عبد الحميد يهتم بانتشار اسمه وخلافته في كافة أقطار الشمال الأفريقي وكان الولاة يوسعون حدود الولاية في اتجاه الصحراء الكبرى ، وبناء على استدعاء تلقاه الوالي مصطفى عاصم باشا من أهالي غات ارسل بعض الجنود ومدفعاً إلى غات وضمت للإدارة العثمانية .

بعد احتلال الفرنسيين للجزائر ادعوا ملكية الصحراء الكبرى وجدّوا في اكتشافها من كل النواحي واحتلوها .

العثمانيون أيضاً رغبوا في تمديـــد حدودهم في اتجاه الجنوب حتى التشاد وفي اليوم الأول من شهر مارس سنة (١٢٩٩ ـ ١٨٨١) أسسوا قضاء تبورشادة على أن تضم قطعتا تيبستي وبورقو وعينوا لها قائمقامــاً اسمه مينو توكي بمرتب شهري قدره مائة قرش (ان كلمة توكي تعني بك في لغـة اليقبو !) وألحقوا به نفر جندرمة واحد اسمه علي .

توفي مينو توكي في عام ١٣٢٥ وعين ميناسيفامي قائمقاماً مكانه[١] .

في سنة ١٣٢٣ أنشىء قصر للحكومـة في برداي مركز القضاء وأقيم فيه الجندرمة .

كانت جانت من توابع غات ومع هذا فإن الفرنسيين ادعوا كونهـا في منطقة نفوذهم واحتلوها .

ان هذه البلدة لم تدخل فعلاً تحت الإدارة العثمانية إلا انها معنى كانت من ملتحقات قضاء غات وكان سكانها يتعاملون مع سوق غات وكان شيخها المسمى عمر يتولى الرياسة بحماية حكومة غات ومساعدتها .

في سنة ١٣٢١ لما استعلم الشيخ عمر عـن قدوم سائح فرنسي رفع علماً عثمانياً على مئذنة المسجد وقال للضـابط الفرنسي السائح ان هذه ناحية عثمانيــة[٢] .

---

(١) قاموس الأعلام .

(٢) التقويم الرسمي لسنة ١٣٢٧ .

بذلت جهود لتوسيع حدود طرابلس الغرب إلا أن الرقعة التي ضمت إليها لم تكن من حيث الإدارة والأعمار مماثلة للبلدان العثمانية ، وقد أصبحت طرابلس في العهد الأخير منفى .

بعد أن تمكن الفرنسيون من احتلال تونس التي كان يطمع فيها الإيطاليون أصبح هؤلاء حريصين على أن لا تفلت طرابلس من أيديهم وكانوا يوطدون مراكزهم في البلاد بمؤسساتهم المالية والإقتصادية .

ان هذه الأطماع كانت معروفة لدى الأستانة وكانت التدابير المقابلة التي اتخذوها وهي لم تتعدّ إرسال بعض الأسلحة وتشكيل طوابير قول أوغلية الحميدية[1] .

في سنة ١٣٢٧ كانت في ولاية طرابلس الغرب ٢٤ مدرسة للذكور ومدرسة اسلامية واحدة للبنات و٩ مدارس لليهود وثلاث مدارس للأولاد ومدرستان للبنات ومدرسة واحدة مختلطة للايطاليين وللافرنسيين ومدرستان للأولاد ومدرستان للبنات .

وفي بنغازي ١٢ مدرسة حكومية و٣٩ مدرسة خصوصية للأولاد ودار واحدة للمعلمين وثلاث مدارس للبنات المسلمات ومدرسة واحدة لليهود ، وللايطاليين مدرسة واحدة للأولاد ومدرسة واحدة للبنات

---

(١) جريدة طنين بتاريخ ٣٠ مارس ١٣٢٥ .

وللفرنسيين مدرسة واحدة للأولاد [١].

بعد اعلان المشروطية (الدستور) أصبحت مطامع الايطاليين في طرابلس معلومة للجميع وقام الوطنيون المخلصون بتقصي آثارها والسعي لتحطيم النفوذ الإيطالي وعرقلة تقدمـــه. أدرك الإيطاليون ان مرور الزمن على هـذه الوتيرة سيربط طرابلس بالوطن الأم برباط لا ينفصم .

ان إيطاليا التي كانت تتصيد الفرص وجدتها في ضعف الفرقـــة العسكرية الموجودة في طرابلس لأن الجنود الذين انتهت مـدة خدمتهم سرحوا ولم يرسل من يحل مكانهم كما ان الوالي الذي أقيل لم يأت بديله.

ان الأسطول الإيطالي المتحكم في الطرق البحرية لم يترك مجـالاً لإمداد طرابلس من الوطن الأم كما ان الدولة الإيطالية كانت متأكدة من حياد فرنسا وانكلترة في تونس ومصر ولذا فإنها سلكت الطرق السياسية واتخذت قراراً باحتلال طرابلس .

في ٢٣ سبتمبر ١٩١١ قدم سفير إيطاليا في الأستانـــة للباب العالي التقرير التالي :

« ان دولتي استخبرت بصورة سرية ان الضباط ورجال جمعيـــة الإتحاد والترقي الجهلة المتعصبون عرضـــوا للخطر الشديد أمن الرعايا الإيطاليين بتحريضهم أهالي طرابلس الغرب وبنغازي ضـــدهم ، ولما

---

(١) أصوات الصدور ص ٦٨ .

أحست بعض الأسر الإيطالية بالخطر الذي يتهددها فقد قررت مغادرة الجهات المذكورة غداً . ان قدوم البواخر العثمانية حالياً وهي تحمل العساكر والمؤن والذخائر إلى طرابلس الغرب وبنغازي يلهب مشاعر التعصب وترى الحكومة الملكية ان الدولة العثمانية لو ارادت لصعب عليها أن تتمكن من تسكين الهيجان البادي ولذا فإنها ترى الخطر يتهدد رعايانا » .

جواباً على هذا التقرير فقد طلب الباب العالي من السفير المذكور ابلاغ حكومته بأنه « لم تحدث في طرابلس ولا حادثة واحدة تعكر صفو الإيطاليين ولا يوجد أي خطر يتهددهم ولا صحة لوجود فورة تعصب والدولة العثمانية قادرة على اقرار الأمن والسكينة في البلاد » .

في ٢٨ سبتمبر ١٩١١ قدم السفير الإيطالي التقرير التالي :

«منذ سنين كثيرة والدولة الإيطالية لم تتوان في أن تلفت أنظار الباب العالي إلى انهاء عهد الفوضى والإهمال التي عليها طرابلس الغرب وبنغازي ووجوب افادتهما من التقدم الذي أحرزته أجزاء أفريقيا الأخرى .

ان مقتضيات التمدن العامة تجعل من هذه الأرجاء القريبة من الشواطىء الإيطالية منطقة نفع حياتية من الدرجة الأولى ، وبالرغم من مظاهرة الدولة الإيطالية للدولة العثمانية في سياساتها المختلفة وبالرغم من الصبر والاعتدال اللذين ابدتهما فإن آراءها ونظرياتها بشأن طرابلس لم

تجد تصويباً وبالإضافة إلى ذلك فإن كل المحاولات الإيطالية في تلك البلاد تعرضت بصورة متوالية إلى معاكسات متعمدة .

ان الدولة العلية التي أظهرت عداءها لكل الجهود الإيطالية المشروعة في انحاء طرابلس الغرب وبنغازي عرضت أخيراً على الحكومة الملكية استعدادها لبحث الاتفاق على منحها كل الامتيازات الاقتصادية التي لا تتنافى مع كرامة الدولة العثمانية ومصالحها ومع العهود المرعية ، إلا أن الحكومة الملكية ليست مستعدة للدخول في مفاوضات أثبتت التجارب السابقة عدم جدواها بالإضافة إلى ما قد تسببه من اختلاف ونزاع .

ان القناصل والموظفين الإيطاليين الذين في طرابلس الغرب وبنغازي يصفون الحالة السائدة هناك بأنها على أعلى درجة من الخطورة بسبب التحريضات العلنية التي يمارسها الضباط وموظفو الحكومة ضد الرعايا الإيطاليين .

ان التحريضات المذكورة ليست ضد الرعايا الإيطاليين فحسب بل انها تشمل كل الرعايا الأجانب وتشكل خطراً قريباً ، وبسبب ما يخامرهم من خوف على أمنهم بدأوا يستقلون البواخر لمغادرة طرابلس إلى أمد غير محدود ، وبينما أخطرت الدولة العثمانية من قبل الحكومة الملكية عن الآثار السيئة التي ستنجم عن ارسال سفن النقل العسكرية ، فإن قدوم هذه السفن إلى طرابلس لم تعطِ أي نتيجة غير تعكير الجو وانها تحمل

الحكومة الملكية واجب اتخـــاذ التدابير الضرورية ضد المخاطر التي قد تنجم عنهـا .

بناء على ذلك فإن الحكومة الملكية صيانة لكرامتها ومنافعها قـــد اضطرت لاتخاذ قرار باحتلال بنغازي بقواتها العسكرية .

هـــذه هي طريقة التسوية الوحيدة التي تستطيـع إيطاليا الوقوف عندها، وعليه فإن الحكومة الملكية تنتظر الأوامر اللازمة من قبل الدولة العثمانية لكي لا يعارض الإحتلال المذكور من قبل الموظفـين العثمانيين الحاليين ، وأن لا يعرقلوا التدابير التي ستتخذ نتيجة هذا الإحتلال، ان الحال والوضع اللذين سينجمان عن هذا يحتاجان في المستقبل إلى عقد اتفاق بين الطرفين لتنظيم تلك القارة .

ان السفارة الإيطالية بالأستانة أمرت بطلب اعطاء الجواب القطعي على هذا الإنذار خلال أربع وعشرين ساعة من تاريخ تبليغها للباب العالي ، وإذا كان الأمر سلباً فإن الحكومة الملكية ستضطر لمباشرة اتخاذ التدابير الكفيلة لتأمين الإحتلال فوراً » .

جاء في المذكرة التي أجاب بها الباب العالي في ٢٩ سبتمبر ١٩١١ وفي ١٦ أيلول سنة ١٣٢٧ .

« ان الإدارة الديموقراطيـــة ليست مسؤولة عن حرمان طرابلس الغرب في العهد السابق من نعم الرقي والتقدم بالدرجـة المرضية وانها لم

تظهر في طرابلس أية خصومة للمشاريع الإيطالية وانها أخيراً عرضت عليكم امتيازات قيّمة في الولاية المذكورة تفتح أمام الاقتصاد الإيطالي آفاقاً واسعة ، وانها لم تقع أي حادثة خطيرة أو ما يوجب القلق للرعايا الإيطاليين والأجانب ، وانها لم تبعث أي باخـــرة في السابق إلا باخرة النقل التي أرسلت قبل المذكرة المؤرخة في ٢٣ سبتمبر ، وان هذه الباخرة التي لم تكن تحمل جنوداً فإنها ستكون باعثة للطمانينة وان الحكومة الملكية إذا لم تصر على احتلال البلاد المذكورة فستجد من الباب العالي نية حسنة لحل المشكلة وسوف نقبل بكل الشروط الإيطالية التي لا تخل بملكية الدولة العثمانية التامة ، وأثناء التفاوض سوف لا يجري في طرابلس وبنغازي أي تعديل خصوصاً فيما له مساس بالشؤون العسكرية » .

إلا أن إيطاليا قررت احتلال طرابلس وبدأت بالخصام . واستكمالاً للاجراءات السياسية قدم الملحق الإيطالي الانذار التالي بالحرب :

طرابيه في ٢٩ سبتمبر ١٩١١

« ان الموقع أدناه القائم بالأعمال الإيطالي تنفيذاً للاوامر التي تلقاها من حكومة متبوعه الأفخم حضرة ملك إيطاليا ، لي الفخر أن أبيــن لذات فخامتكم الأمور التالية :

لقد انتهى الموعد المحدد لنقل التدابير التي رُؤيَ من الواجب اتخاذها قبل أن يرد من الدولة العثمانية جواب مرض للحكومة الملكية .

ان عدم ورود هذا الجواب يؤكد النية التي ظهرت آثارها العديدة

من قبل الموظفين الحكوميين فيا يتعلق بالمحافظـــة على حقوق ومنافع الإيطاليين في طرابلس وبنغازي .

لذا فإن الحكومة الملكية مضطرة للتوسل بالوسائط التي تحت يدها للدفاع عن حقوق ومنافع وشرف وكرامة الحكومة .

ان الحوادث التي ستعقب هذا ـ مع كونها مؤلمة ـ سوف لا تحمل إلا على انها نتيجة حتمية للسياسة المقررة التي انتهجت من قبل الدولة العثمانية ضد إيطاليا .

وبما ان العلاقات والصداقة والسلام بين الحكومتين قد قطعت بهذه الصورة فإن إيطاليا تعتبر نفسها في حالة حرب مع تركيا .

ان الموقع أدناه عملاً بالأمر الذي تلقاه من دولته المتبوعة مـع افادة فخامتكم بأنها ستجهز جوازات سفر القائم بالأعمال العثماني في رومـا فإني أرجو ارسال جواز سفري بدون تاخير . وان الحكومة الملكيـــة كلفت الموقع أدناه إفادتكم بأن الرعايا العثمانيين الموجودين داخـــل المملكة سوف تمدد اقامتهم حتى لا يكون لهم أدنى شك في بقائهم مطمئنين على أرواحهم وعلى اموالهم ومصالحهم » .

ان الدولة الإيطالية منذ زمن بعيد تفكر في توسيـع رقعة بلادهـا وكانت تدعي ان شبه الجزيرة لا تستطيع اعاشة السكان الموجودين وانها مضطرة للبحث عن أراض جديدة ولا زالت تسوق هذا الإدعاء .

لم يكن حينذاك في امكانها اقتطاع الجزء المسكون بالإيطاليين من النمسا ، وكانت تونس هدفاً جميلاً لها إلا ان الفرنسيين سبقوا واحتلوها ، فوجه كريسبي عيون اطماعه إلى طرابلس وأعلن على الشعب الإيطالي استيلاء قدماء الرومان قبل قرون لتلك الأنحاء وان طرابلس وبنغازي ميراثهم الباقي من الأجداد .

ان الهزيمة المنكرة التي مني بها الإيطاليون في عدوة لما حاربوا للإستيلاء على أراضٍ جديدة في الحبشة كان لها مفعول الماء البارد على هممهم في التوسع ، ولما نسيت الهزيمة جددوا اطماعهم وبدأوا يتأهبون حينما كان برينيتي وزيراً للخارجية إلا أن اعتراض الإشتراكيين وعدم الحصول على موافقة الدول سببا في تقرير العمل بسياسة الحلول السلمية بدلاً من الإستيلاء بالقوة . فتأسست شركة برأسمال قدره خمسون مليون فرنك لمشترى الأراضي الواسعة في طرابلس الغرب وبنغازي ولحصر كل أنواع النشاطات والأعمال المفيدة والإمتيازات بالإيطاليين هناك وساهم في الشركة كبار المتنفذين وكبار الرأسماليين إلا أن الشركة لم يكتب لها التوفيق بسبب ممانعة ولاية طرابلس إلا أن بنك روما أخذ على عهدته آمالها (تبناها) .

ان حادث فاشودة واتفاقية هانترلاند ومؤتمر الجزيرة وقضية المغرب كل هذه ركزت أوضاع القسم الشمالي من أفريقيا، ولذا أدرك الإيطاليون وجوب اقدامهم على العمل.

كانت الجرائد الإيطاليـة منذ أغستوس ١٩١١ تعلن بصراحة عن مطامعها بطرابلس . فقد أشير إلى تعويض إيطاليا بطرابلس لقـــاء احتلال فرنسا للمغرب وكانتا، فرنسا وانكلترة، راضيتان بذلك والنمسا ربطت رضاءها ببعض الشروط وفكرت المانيا في مصالحها هناك إلا انها أخيراً صمتت وبهــــذه الصورة تفاهمت دول أوروبا العظمى على منح طرابلس لإيطاليا. أعطى الباب العالي مذكرة لإيطاليا يطلب تفسيراً لما تكتبه صحافتها بشان طرابلس ومن ثم راجع البـــاب العالي وزارات الدول العظمى يستخرج آراءهم في هذه المسألة فأجابوا بأنها لم تبحث فيما بينها هذه المسالة ، إلا أن كل شيء تم وانتهى وكانت الدول تضللنا .

لم يكن في طرابلس والٍ وفي ١٥ أيلول سنة ١٣٢٧ تلقى بكر سامي بك أمراً بالسفر .

أبرق أعيان وزعماء طرابلس إلى الصـدر الأعظم إبراهيم حقي باشا يعلمونه انهم عازمون على رد كل هجوم يقصد به فك ارتباط طرابلس بتركيا وطلبوا ارسال وسائط تحصينات طرابلس المهمـــلة والذخائر الحربية والبحرية وأطعمة لمدة عام واحد والدخول مع الإيطاليــــين في محادثات لمنحهم امتيازات في طرابلس ، وانهم فكروا في المقاطعة إلا أنهم نبذوا هذه الفكرة حتى لا يعرقلوا مساعي الحكومةوانهم سيدافعون عن وطنهم حتى آخر نقطة من دمائهم .

بعث الباب العالي إلى طرابلس السفينة (درنة) حاملة ١٠٠ جندي

و٢٥ ألف بندقية من طراز ماوزر وذخائر حربيـــة أخرى فوصلت الباخرة المذكورة إلى طرابلس وأفرغت حمولتها . مع هذا فإن الوزارة كانت لا تؤمن بأن الحرب ستقع إلا إذا تسلمت الإنذار بالحرب .

كذب حقي باشا في مجلس النــواب شائعات الهجوم على طرابلس ، وكتب في الأمر الذي أرسل إلى طرابلس ما مفاده أن البوارج الإيطالية إذا حاولت انزال الجنود في طرابلس فلينسحبوا قليلاً إلى الداخـــل ليوسعوا خط الدفاع وأن يتجنبوا اراقة الدماء (جريدة طنين في ١٧ أيلول سنة ١٣٢٧) .

استقال الصدر الأعظم حقي باشا في اليوم التالي لإعلان إيطاليا للحرب وأصبح سعيدباشا صدراً أعظم .

أبرق السلطان محمد الخامس إلى ملك انكلترة وإلى امبراطور المانيا بشأن الحوادث القائمـة ، فأفاد السير ادوارد غراي ان ميقات الوساطة قد انتضى وقوبلت وساطة المانيا من قبل إيطاليا بالفتور .

ان كل الصحف الأوروبية نددت بإعتـــداء إيطاليا ، إلا أنه من الطبيعي أن لا يكون لهذه الأصوات مثقال ذرة من التأثير على الوقائع .

بعد أن ضرب الأسطول الإيطالي وخرب القلعة والاستحكامات فإنه بدلالة اليهود المحليين تسلم مدينـة طرابلس من رئيس البلدية حسن باشا القرمانلي يوم ٢٢ أيلول سنة ١٣٢٧ .

ان المدينة الجميلة التي دخلت في حوزتنا عام ٩٥٩ خرجت من أيدينا بعد ٣٦٨ عاماً .

قبل نشوب الحرب باربعـة أيام عين الأميرالاي أركان حرب نشات بك قائداً عاماً لطرابلس ، وفي ١٣ أيلول انسحبت القطعات العسكرية إلى خارج المدينة تاركة فيهـا الجندرمة ومابة عسكري وجنود مدفعية الحصون .

احتل الإيطاليون بقوة الأسطول المدن الساحلية في تواريخ مختلفة .

ان ولاية طرابلس تؤلف منطقتين معزولتين عن بعضهما البعض في عمليات الدفاع وتأسست منطقتا طرابلس وبنغـازي الدفاعيتين تحت قيادة نشأت بك .

كان السلاح والذخائر التي بيد العساكر والمدافعين قليلة جـداً وأصعب من ذلك استحضارها . إذ لا يوجد ثم ارتباط بالوطن الأم .

ان مصر وتونس كانتا على حياد أي انهما تعارضان في عبور العناصر النافعة من أراضيهما كان جل أهالي طرابلس لا يرحبـون بالإحتلال الإيطالي إلا بسبب الخلاف الديني ، لذلك كانت مهمـة الأتراك الذين سيدافعون عن طرابلس صعبة جداً .

لقد سارع الضبـاط الأتراك إلى طرابلس لمجرد تخليص الشرف

والكرامة التركية ، وعدوا الدخول تحت عبء هذه المهمة التي فوق طاقة البشر واجباً .

كان الضباط يسعون إلى دخول طرابلس عن طريق مصر وتونس بمختلف الأسماء والأزياء ، وكانت تبذل المساعي لإرسال الذخائر والمهمات الحربية والنقود إلى طرابلس بكل الوسائط الممكن الانتفاع بها . كانت تهرب عن طريق البحر بعض ما يحتاجه المحاربون من عتاد وسلاح إلا انها كانت بالنسبة للجيش المؤلف من أربعين ألف جندي والحاجيات التي ترسل إليه بالف نوع من الوسائط كانت قليلة لدرجة لم تصدق .

ان حفنة من أبطال عساكر الترك لم يسمحوا للايطاليين المدججين بانواع الأسلحة بأن يجتازوا تحصيناتهم التي أقاموها حول المدينة . كانت دواخل الولاية برمتها في أيدينا .

كانت مساعدات الوطنيين بالمال والتموين أيضاً لا تعطي الفوائد الكبيرة [1] .

ان كل أمور الدفاع كانت بيد الأتراك . ان الغازي مصطفى كمال باشا آتاتورك كان قد باشر عملية تخليص الوطن في طرابلس ، وأول من سعى إلى تخليص قطعة بعيدة من الوطن تعرضت لصولة الأعداء ان

---

(١) ان الوطنيين بذلوا نفوسهم وكل ما يملكون في سبيل الذود عن بلادهم.
المعرب

البطولات التي أبداها هو ورفقاؤه الشجعان الذين في درنة ضد الإيطاليين هي من مفاخر تاريخنا[1]. ان محاولة الإيطاليين للتقدم في وجه كتلة هؤلاء الشجعان كانت تواجه صعوبات جمة. انقضى عام منذ احتلال الإيطاليين لطرابلس ، وبالرغم من حلول شهـــر تشرين أول ١٩١٢ فإنهم كانوا لا يزالون لاصقين بالشواطىء .

لو كانت الدولة العثمانية مشغولة بهذه الحرب فقط لدامت الحالة على ما هي وربما دخلت طوراً في غـــير صالح الإيطاليين ، إلا أن الحلقة الثانية من سلسلة المؤامرات التي حضرتها الدول الأوروبية ذرت قرنها من جديد .

ان دول البلقان التي بدأت في التاهب حين اعلان الحرب الإيطاليـة استكملت تحضيراتهـا وفي ٣ سبتمبر ١٩١٢ أصدرت حكومات بلغاريا وصربيا واليونان والجبل الأسود أوامـــرها بالنفير العام كما أن الحكومة العثمانية أعلنت النفير العـــام في ١ أوكتوبر ١٩١٢ ، وفي ٨ أوكتوبر أعلنت حكومة الجبل الأسود الحرب باعتبارها طليعـــة الدول البلقانية، وفي ١٥ أوكتوبر أعلنتها بلغاريا وفي ١٧ منه دخلت اليونان الحرب.

كان من غير الممكن استمرار الدولة العثمانية في الحرب ، حرب

---

(١) ان الغازي مصطفى كمال وغيره من أمراء وضبـــاط الترك والعرب شاركوا في عمليـــة تخليص الوطن ولكن أبناء البلاد كانوا وقود نار الحرب وضحاياها . المعرب

الكرامة، بطرابلس بينما الخطر يحدق بقطاعاتنا في الأنادولي والروم ايلي.

في ١٨ أوكتوبر ١٩١٢ وقع الصلح بين تركيا وإيطاليا في اوشي القريبة من لوزان بسويسرة.

ان الحكومة العثمانية تظاهرت بالعثور على خطة غريبة تحفظ لها شرفها وكرامتها وهي انها تمنح الإستقلال لطرابلس الغرب وتبقي فيها نائباً للسلطان فقط وبذلك تكون إيطاليا قد استولت على طرابلس .

تركت طرابلس بهذا التدبير الذي لا يمكن اقناع أحد في العالم به غير أعضاء الوزارة ، وبقي بعض الغيورين من الضباط هناك خلال الحرب البلقانية لإدارة تنظيمات الدفاع من قبل الوطنيين ، وفي الخامس من يناير ١٩١٣ أعلن وزير الحربية ناظم باشا ان من يبقى من الضباط والجنود في طرابلس سيتهمون بالتمرد .

استؤنف خلال الحرب العالمية الأولى بمساعدة الألمان في خلق بعض الصعوبات ضد الإيطاليين هناك إلا أنها لم تجدِ نفعاً يذكر[١] .

تقضي المادة (١٢١) من معاهدة (سيور) بأن يتنازل جلالة السلطان نهائياً عن كل الحقوق والإمتيازات التي كان يحتفظ بها على

---

(١) ان هذه العملية حجزت حول ليبيا عشرات الألوف من عساكر الإنكليز والطليان والفرنسيين ومنعتهم من الإشتراك في جبهات أخرى .

طرابلس وبنغازي كما أن تركيا ، عملاً بالمادة (٢٢) من معاهدة لوزان المؤرخة في ٢٤ يوليو سنة ١٩٢٤،اعترفت بالإلغاء المطلق لكل الحقوق والإمتيازات التي حصلت عليها بأية صورة من الصور بموجب معاهدة أوشي وبالوثائق المتعلقة بها في ١٨ أوكتوبر ١٩١٨ .

وهكذا زالت السيادة التركية من أفريقيا الشمالية .

أتراك طرابلس الغرب

ان اقتران العساكر والموظفين الأتراك الذين يذهبون إلى طرابلس الغرب بالنساء الوطنيات أنتج هناك القول أوغليين[1] .

ان المناطق العسكرية وما يجاورها أسكنت بالقول أوغليين ، ومع الأسف ان العدد الصحيح لهؤلاء غير معروف ، إلا أن من الطبيعي أن يبلغ التوالد من ذلك الإقتران في أكثر من ثلاثة قرون ونصف القرن إلى عدد كبير جداً .

ان قول أوغلي طرابلس يتمركزون في نواحي العلاونة والمنشية والساحل والرقيعات وورشفانة والعزيزية وعددهم بين الخمسين والستين ألفاً .

---

(١) ان غالبية القول أوغليين الساحقة من العرب ولا يمتون للعنصر التركي بصلة الدم . (المعرب)

كان القول‌أوغليون يؤلفون تشكيلات خاصـــة وكان على رأسهم شخص معين من قبل الحكومــــة يدعى باسن آغا ، وكان البوليس الرسمي للولاية والجندرمة ينظر فيما هو داخل السور ، والمحافظة على استتباب الأمن والسكينة خارج السور منوط بالقول‌أوغليين ، أي أن هؤلاء كانوا نوعاً من الجندرمة . وقد دامت ترتيبـــاتهم حتى سنة ١٣١٧ ـ ١٣١٨ . وفي سنة ١٣١٨ ألغى الوالي حافظ باشا الباشاغاويـة وأسس قضاء النواحي الأربع وفيما بعد شكل قضاء العزيزية .

حاول القول‌أوغليون معارضة فسخ امتيازاتهم ومعارضة تسجيل الأملاك والنفوس واجـــراءات الطابو ، إلا أن سَوْق بعض الجنود إلى سوق الجمعة بسبب محاولتهم استعمال السلاح ضد الموظفـــين الموفدين للقيـــام بتلك المهمة وسقوط بعض القتلى والجرحى في حوادث استمرت يوماً واحداً قطع بها الطريق عن المعارضين ونفي اثني عشر شخصاً من أعيان الساحل إلى بنغازي وأجريت معاملات النفوس والأملاك والطابو .

ان القول‌أوغليين الذين بمركز الولايـــة وفي جوارها شجعان جريئون وفرسان جيدون .

كانت قد شكلت في عهد نامق باشا كتائب تحت اسم آلايات الحميدية لاستخدامها في طرابلس فقط ، وكان هؤلاء يستدعون لبضعة شهور من كل عام يقضونها في التدريبـات العسكرية ، وكان في أمثال

فزان وبنغازي ودرنة من الأقضية عـدد وفير من القولأوغليين ، وقد التحق الكثيرون من قولأوغلي طرابلس بالكلية الحربيــة وتخرجوا ضباطاً[1] .

انتهى

(١) كانت الدولة العثمانية قد خزنت عدداً وفيراً من الأسلحة ومقداراً من العتاد اللازمة لها في حل الأقضية وخصصت العدد الكافي من الضبـــاط وصف الضباط لتدريب الشباب الوطني القـــادر على حمل السلاح من كل القبائل وذلك بصورة الزامية لأيام محدودة من كل عام أما الذين التحقوا بالكلية الحربيــة وتخرجوا ضباطاً فهم من القولأوغليين ومن غيرهم .

الأتراك العثمانيون

في افريقيا الشمالية

الجزء الثاني

في تونس

أحوال تونس

من سنة ٩٤٢ حتى سنة ٩٨٢ هـ

لا توجد حدود طبيعيـــة بين القطر التونسي وبين الجزائر وطرابلس الغرب .

في الأزمنــة التي كانت فيها تونس بأيدينا كانت على الأكثر في وضع يقرب من حدودها السياسية الحالية .

ان الغازي خير الدين باشا احتل القطر التونسي في (٩٤١ ـ ١٥٣٤) إلا انها وقعت فيما بعد بيد الأسبان الذين أعادوا تعيين مولاي الحسن من الأسر الحفصيــة لإمـارة تونس وكان التونسيون مشمئزين من مولاي الحسن .

ثار ابنه حميدة على أبيه وألجـاه للفرار وأخذ زمام الأمر بيده . ان محاولة مولاي الحسن لاسترجاع العرش من ابنــه انتهت بمأساة إذ وقع في أسر ابنه الذي سمل عيني أبيــه . فر مولاي الحسن وهو على هذه الحالة وشكا أمره إلى شارل الخامس فلم يجد منه التفاتاً وعاش في فقر ومذلـة إلى أن مات .

إن حميدة الذي يعرف أيضـــاً باسم أحمد ، كان مثل أبيه غير محبوب من أحد .

ان اشغال عساكر الأسبان لحلق الواد كان يجرح كبرياء الأهالي .

لما عزم الربان درغوت على الإقلاع لتحطيم أسطول الاسبان الذين كانوا يستعدون للاغارة على طرابلس كانت الدولة العثمانية التي تجهل أحوال هذه الأرجاء قد اخطأت إذ كتبت في ١٦ ربيع الأول ٩٦٧ إلى حميدة الذي كان من رعايا الأسبان وأشدهم عداوة للوطن وللمسلمين من الإسبان ترجوه أن يوحد جهوده مع درغوت في حالة هجوم الأسبان على طرابلس لمساعدته على التنكيل بالأعداء .

في عام ٩٧١ ـ ١٥٦٣ حضر للأستانة وفد تونسي مفوض والتمس من السلطان العثماني الاستيلاء على حلق الواد[١] .

ولإزالة مفعول هذه المراجعة بعث أمير تونس وفداً للأستانة على سفينة من نوع ميزستر تحمل للعاهل العثماني هدايا من ريش النعام والزيت وغير ذلك إلا أن هذه السفينة الحاملة للوفد والهدايا جنحت للبر[٢] .

كانت الجزائر وطرابلس الغرب بيد الأتراك ولذا كان واجباً

---

(١) التاريخ العثماني لهامر .

(٢) سجل الشؤون الهامة للديوان السلطاني رقم ٣ ص ٢٢٣ ورقم ٦ ص ٤٨٣ .

الإستيلاء على تونس المحصورة بين الإقليمين ومدخل مينائها الذي يتخذه الأسبان حصناً ومعسكراً وذلك من أجل سلامة القطرين. وكانت جزيرة جربة ومدن سوسة والمنستير والمهدية والقيروان تتبع لأمـــير أمراء طرابلس . وكان حكم أمير تونس يسري على تونس فقط وما يجاور بنزرت والشعب يمقت الأمـــير . لذا فقد تمكن قلنج علي باشا من اقناع الصدر الأعظم[1] صوقوللي محمد باشا بالحصول على موافقة السلطان للاستيلاء على هذا القطر أيضاً .

لو أخذوا بآراء الربان درغوت وقلنج علي باشا لحاولوا الإستيلاء على تونس قبل مالطة .

كان قلنج علي باشا يقدر جيداً أهمية حلق الواد البالغة ومكانـــة مثلث صقلية ـ مالطة ـ حلق الواد الذي يكون المضيق الفاصل بين شرقي البحر الأبيض وغربيه .

في عام (٩٧٧ ـ ١٥٦٩) علم ان الدون جوان دوتريش يجهز قوات كبيرة وقرر أن يسبق العدو بضربة يحتل بها تونس .

ان الأهالي الذين كانوا يكرهون حميدة،راجعوا قلنج علي باشا داعين إياه للقدوم وكانوا ينتظرون الأتراك لإنقاذهم .

في عام ٩٧٩ حضر قلنج علي باشا جيشاً وبعد أن ترك مامي كورسو

---

(١) ان صدراً أعظم تعني رئيس الوزراء .

نائباً عنه في الجزائر زحف على تونس بقوة مؤلفة من ٥٠٠٠ مسلح و ٦٠٠٠ من القبائليين وتلاطم في بجاية مع جيش حميدة المؤلف من ثلاثين ألف مقاتل وفي أول هجوم انحاز التونسيون إلى صف قلنج علي باشا مما اضطر حميدة للهروب ولما بلغ تونس وجد الأبواب موصدة في وجهه فالتجا للأسبان بحلق الواد .

دخل الجنود إلى تونس في أواخر شوال سنة ٩٧٧ بدون مقاومة وبعد أن أخذ أهل الساحل والداخل تحت الطاعة وفرض عليهم النظام رتب حامية من ٣٠٠٠ جندي برياسة القائد رمضان ثم عاد للجزائر إلا ان حلق الواد كانت باقية في أيدي الأسبان .

كتب قلنج علي باشا بهذا النصر للأستانة وأعلمهم ان تونس ستبقى مهددة ما لم تؤخذ حلق الواد . فطالب بالمدد وهيا أسطول الجزائر لاستخدامه في هذه العملية . إلا انه لما عاد للجزائر وجد انه بالإضافة إلى عدم ورود المدد فإنه استدعي للاستانة من أجل الوقوف في وجه الدون جوان دوتريش . وفي ربيع عام ٩٧٩ ـ ١٥٧١ توجه للأستانة .

ان الأخبار التي تلقتها الأستانة تفيد أن قوات العدو التي تتجمع هدفها الجزائر وتونس [1] إلا ان هذه القوات أغارت على الإسطول العثماني

---

(١) سجل مهام الديوان الهمايوني رقم ١٠ .

يؤمر أمير أمراء طرابلس بأن :

بعثت رسالة تخبرنا ان الكفار عقدوا مؤتمراً كبيراً خابر الكفرة الذين على=

وحدثت ماساة حرب اينانجتي البحرية . ان هزيمة الأسطول العثماني في اينانجتي وانتقال قلنج علي باشا إلى مركز القبطان باشا[1] وانشغالـــه بتحضير أسطول جديد أخرّ الاستيلاء على حلق الواد .

= جوانبه الأربع واتحدوا ، وانه من المحتمل قدومهم إلى تونس وإلى غيرها من القلاع وانه من الضروري استعجال الأسطول في القدوم وان يوسف أحد رجال أولوج علي قدم وأفاد بأنه علم من الدوق دالب ، قبطان صقلية الذي كان أسيراً لديه، ان أسطول الكفار الخاسرين كله آخذ أهبته تحت قيادة اللعين أخو الأمير الأسباني وتقرر إذا لم يذهب لمهاجمة الأسطول السلطاني فلا بد من مهاجمتــه لتونس . وقد أمرت بأن توجه أسطول إلى تلك الناحية . عمر ورمم القلاع التي هي بحاجة للترميم والتعمير واستكمل احتياجاتك ولا تتأخر عن افادتنا بالأنباء الصحيحة .   صفر ٩٧٩ .

سجل مهام الديوان الملكي رقم ١٠ ص ٨ .

يؤمر أمير أمراء الجزائر بأن :

استخبرنا بأن سفن الكفار الأسبان ينوون الذهاب إلى تونس للإغـارة على تلك الجهة . فتجسـوا أخبارهم وكونوا متأهبين .   ٣ صفر ٩٧٩.

سجل مهام الديوان الملكي رقم ١٠ ص ١٩ .

يؤمر القبطان علي باشا بأن :

حكام دوبرنيك يخبرون ان الأسبان على وشك الهجوم على الجزائر وتونس فمن ضمن الشؤون الهامة أخذ الأهبة للأمر .   ٣ صفر ٩٧٩.

(١) يقصد بالقبطان باشا وزير البحرية وأعطي أيضـاً لهذا الوزير اسم أمير أمراء الجزائر .

كانت تونس هادئة وأمورها منظمـــة وقد منحت الحرية للزوايا والمدارس التونسية وأمر القائد رمضان بأن لا يتعرض أحـــد لهذه المؤسسات [١] .

كان اشراف وأعيان تونس قد بعثوا عريضة للأستانة يثنون فيها على خدمات القائد رمضان المشكورة في تونس ويلتمسون تعيينه أميراً للأمراء بها .

لا شك بأن للقائد رمضان يد في هذه العريضة .

في المنشور الذي بعثه السلطان إلى علماء وصُلاحّ وسادة تونس وفي الأمر الصادر إلى القائد رمضان والي علي باشا يذكر أن تونس ألحقت بالجزائر وعين علي باشا أميراً للأمراء والقائـــد رمضان نائباً عنه في تونس [٢] .

---

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ١٠ ص ١٨١ . ٢٩شوال ٩٧٩.

(٢) سجل مهام الديوان الملكي رقم ١٨ ص ٣٤. في ٢ شوال ٩٧٩.

للقائد رمضان بتعيينه نائباً لعلي باشا .

سجل مهام الديوان الملكي رقم ١٢ ص ٥٧١ في ذي القعدة ٩٧٩ .

يؤمر آغـا الإنكشاريين في الجزائر والكاهية ورؤساء السرايا والعرفاء والإنكشاريون بأنه لما وجهت إمارة البحر إلى أمير أمراء الجزائر السابق قلنج علي باشا بالإضافـة إلى إمارة أمراء الجزائر فقد فوضت للمشار إليه ولاية إيالة تونس .

في هذه الآونة برزت للميـــدان قضية وهي مسألة تابعية تونس ودساكرها. وبما ان القيروان وسوسة والمنستير احتلت من قبل الطرابلسيين فانها كانت تابعة لتلك الجهة وبعد احتـــلال تونس ربطت بها . ولما بلغ التونسيين ان أمير أمراء طرابلس يطلب ربط تونس به قام أمير أمراء الجزائر وأعيان تونس بمراجعة الأستانة يلتمسون بقاء ارتباط تونس والقيروان بالجزائر واسعف طلبهم .

سجل مهام الديوان الملكي رقم ١٧ ص ٣ في سلخ محرم ٩٧٩

يؤمر أعيان تونس بان :

ان القيروان وغيرها من النواحي ألحقت بتونس كما كانت .

يؤمر أمير أمراء طرابلس جعفر بان :

بما أن أعيان وعلماء القيروان وتونس بعثوا رسالة يرفضون البقاء تابعين إلى طرابلس فإنهم أبقوا تابعين لمكتب الجزائر. في سلخ محرم ٩٧٩

واعلمت إمارة الجزائر بالأمر[1] إلا أن جعفر باشا يصر بأن أهالي

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ١٠ ص ٨ في ٣ صفر ٩٧٩ .

يؤمر أمير أمراء الجزائر بأن :

ابعث رسالة عن القيروان وغيرها من توابعها التي ألحقت بتونس لتلحق كما كانت بتونس وتضبط ان القيروان وسواها ألحقت بتونس .

سوسة والمنستير يلتمسون البقاء تابعين إلى طرابلس لبعد تونس عنهم فتحول إلى برتو باشا الموجود مع الأسطول فتحـــول له أمر التحقيق في رغبة السكان الالتحاق بتونس أو بطرابلس[١] .

ان جهل الوضع الجغرافي لهذين القطرين يضطر لإجراء التحقيق في مسائل بسيطـــة كهذه . في عام ٩٨٠ تقرر سوق العساكر لرد هجوم الأعداء على تونس وبـدأ الاستعداد لذلك . كتب لأمراء أمراء طرابلس وتونس والجزائر بالتأهب وسوق العساكر الجزائريين لحدود تونس . وقد كتب إلى قلنج علي باشا بأن ينظر في طلب التونسيـــين ارسال الجنود لبلادهم[٢] .

---

(١) سجل الديوان الملكي رقم ١٦ صحيفة ٣٦٢ .

يؤمر الوزير برتو باشا أن :

كان قد صدر أمر بالحاق سوسة والمنستير بتونس لأنها كانت تابعة لتونس وأمير أمراء طرابلس جعفر كتب بأن الأهالي يقولون إن تونس بعيدة عنـا ونطلب البقاء تابعين إلى طرابلس . حقق فيما اذا كانوا يرغبون في البقاء تابعين إلى طرابلس وافادتنا .

(٢) سجل مهام الديوان الملكي رقم ١ ص ٢٢١ (خلاصة) .

يؤمر أمير أمراء الجزائر بأن :

ان الأسطول الملكي والعساكر سيتوجهون هذه السنة إلى تلك الأنحاء لأجل الغزو والجهاد لقد كتب أمر الى طرابلس الغرب أيضاً وعرّف بأن يلاقيكم =

بما أن الأسطول الملكي أرسل مع العساكر الإسلامية فقد صدرت الأوامر في ربيع الأول ٩٨١ يوليو ١٥٧٣ للقضاة في الولايات لتتلى صورة الأنعام المباركة في الجوامع والمساجد وترفع الدعوات للمسلمين بالنصر والفتح[١] ولما كان من المحتمل أن يهاجم العدو الجزائر فقد صدرت التعليمات بأن تزال من حول القلعة كل المباني والبساتين التي يمكن أن يتخذها العدو متاريس له[٢] وقد أوصى أمير أمراء الجزائر وتونس بالتأهب للقتال[٣] .

ان الأسطول كان بقيادة قلنج علي باشا والجيش تحت قيادة الوزير

= بالعساكر الذين في معيته . حضّر منذ الآن كادرغتك والسفن الأخرى وحملها بمقدار كاف من الجنود والذخائر والأسلحة وعين لكل منها قائداً قديراً وبعد أن تقيم في المدن وحواليها محافظين بوسائل الدفاع عنها سافر براً بجميع قواتك وازحفا معاً، أنت وأمير أمراء طرابلس، على تونس وانتظروا أسطولي الملكي .

(أرسلت إلى طرابلس الغرب نسخة بنفس المعنى) في ٢٢ ذي الحجة ٩٨٠ .

يؤمر القائد رمضان المحافظ لولاية تونس (خلاصة) .

ان الأسطول الملكي سيبعث إلى تونس حضر الذخائر والمؤن إلى أن يحضر الجنود إلى تلك الجهة في ٢ ذي الحجة ٩٨٠ .

(١) مجلة كلية الآداب غلاف العدد ١ و٢ في ربيع الأول ٩٨١ عن قيودات سجل مهام الديوان الملكي .

(٢) مجلة كلية الآداب غلاف العدد١ و٢ في ٥ ربيع الأول ٩٨١ عن قيودات سجل مهام الديوان الملكي .

(٣) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٢٢ ص٢١٢ في ٢ ربيع الأول سنة ٩٨١ .

بيالة باشا ولما وصل الأسطول إلى رأس البنفسج (في الجنـوب الشرقي من مورة) أرسلت سفن حربية خفيفة لاستقصاء أخبار العدو وأوفد أحمد بك حاكم صيفاجق لجلب الأخبـــار من الجزائر . تفيد المعلومات التي جاء بها أحمد بك ان أحمد باشا أمير أمراء الجزائر لم يتحـــرك في اتجاه الحدود التونسية بسبب انشغاله بتهدئة الثورة التي قام بها شيخ قبيلة بني العباس[1] استسقيت أخبار شفوية بأن للعدو قرابة مائة سفينة خفيفـة في مسينا وأن دون جوان سيأخذ خمسين مركباً أخرى من نابولي ويصبح مجموعها مائة وخمسون كادرغة ستهاجم تونس . ان حكام دوبرنيك أيضاً كتبوا للسلطان بأن العدو لم يستطع جمع أكثر من مائة وخمسين سفينة وكتب بهذا إلى بيالة باشا[2] .قيل لبيالة باشا بأنه تاخر في القيام بالزحف على القلعة التي أمر بمهاجمتها وبمـا أن الأسطول الضخم إذا توغل في البحر يصعب

(١) أرسل بتاريخ ذي الحجة كتاب باللغة العربية إلى سليمان قائد الجيش وقاضي تونس وسيدي أبو الطيب الحضارة .

سجل مهام الديوان الملكي رقم ٢٦٧ إلى أمير أمراء الجزائر والعلماء والأعيان: بما أن الأسطول سيرسل فتهيأوا .

سجل مهام الديوان الملكي رقم ١٩ ص١٢٣ .

يؤمر القبطان :

ان أهالي تونس بعثوا رسالة يبينون فيها أحوال البلاد ويطلبون ارسال مقدار من العساكر تدارك العدد المناسب من الجنود وأنت عائد وأبعثهم .

(٢) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٢٢ ص ٢١٢ .

يؤمر حيدر باشا أمير أمراء تونس بأن :

عليه الرجوع للوراء فقد أشير عليه بأن يتذاكر مع القبطان باشا لسلوك الطريق الأصلح وإذا تبين لهما انه لا ينتظر من العدو الهجوم أثناء وجود الأسطول واحتمال مهاجمتهم لبعض الجهات بعد عودة الأسطول الى مشتاه تتخذ الترتيبات اللازمة لذلك .

ان هذه المعلومات كتبت للجزائر وتونس أيضاً وأخطروا بوجوب تأهبهما كما وجهت أوامر إلى رئيس بني العباس وإلى حاكم كوكو وإلى مدن القيروان ليقدموا العون لأمراء الأمراء [1] .

= لما استقصيت الأخبار الشفوية عن أحوال الكفار الخاسرين الحاضرة وبعثت للأسطول ولسدتي العلية بأن أمير بحر المساة أسبانيا الملعونة متهيئاً بماية وخمسين سفينة للهجوم على تونس حينما يتوجه أسطولي الداخل فقد أرسل أمري الكريم إلى أمير أمراء جزائر الغرب أحمد باشا دام اقباله بأن يتأهب بجنود دار الجهاد الجزائري ويكون على أتم اتفاق واتحاد معك وإذا تبين احتمال هجوم الكفار الخاسرين على احدى الجهات عليك أن تبدي كل اهتمامك لدفعهم ورفعهم ، وأمرت بأنك لما تصل لا تغفل أنك مع المشار إليه عليك أن تتهيأ لتكون مع جنود أمارة الأمارة تحت الطلب ، وتراقب بلاد العدو بحيث إذا جاء الملاعين وهاجموا احدى الجهات تزحفون متفقين مع المشار إليه وتبذلون جهودكم لدفعهم ورفعهم وان تحذروا والعياذ بالله من سوء التدبير الذي قد يمكن الأعداء من الاضرار بأي مكان وأن لا تهمل عرض الأخبار التي تقف عليها وشرحها بالتفصيل في ١٢ ربيع الآخر ٩٨١ .

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٢٣ ص ٢٩١ لمشائخ القيروان وللشيخ محمد ابن القيرواني وللشيخ محمد ابن عمرو الرقم ٣ ص ٢٩٢ لحاكم كوكو وإلى عباس بك في ٢٢ شوال ٩٨١ .

كان الأسطول الذي بمعية بيالة باشا يتألف من ٢٠٨ سفينة خفيفة و١٢ ماعونة سافرت في اليوم الثاني من شهر صفر عام ٩٨١ وهي مملوءة بالعساكر . وصلوا إلى سواحل آولونيا فلم يروا للعدو أثراً . ذهب بيالة باشا وقلنج علي باشا إلى ضفة بوليا فاحتلوا عدداً من الحصون ، وبعد أن نهبوها وبينما كانوا يتحفزون للهجوم على سواحل البندقية،وردتهم رسالة من الأستانة مفادها أن الصلح عقد مع البندقية ولذا لا تمس البلاد التابعة للبندقية بأذى وأن تدمر الأماكن التي تحت حكم الأسبانيين وكان في النية الذهاب إلى سواحل صقلية ونابولي إلا أن رياحاً شديدة عكسية هبت، فسببت غرق عدد من السفن مما دعا للعودة بسبب انتهاء فصل البحار ، وفي رجب دخل الأسطول للترسانة [١] .

كانت قد أجريت تحقيقات عن خضر باشا سلف أمير أمراء طرابلس مصطفى باشا وتبين انه اغتصب ستين ألف دينار من أموال الفقراء فكتب لمصطفى باشا بأن يستوفي هذا المبلغ ويعيده إلى أربابه إلا أنه لم يفعل أي شيء في هذا الشان وألقى الأمر تحت الحصير .

لقد فوض بيالة باشا أن يبحث عن هذا الأمر عندما يمر الأسطول بتلك الجهة وينفذ ما جاء فيه وبما أن الأسطول لم يتمكن من الذهاب إلى هناك فقد بقي خضر باشا بلا جزاء [٢] .

---

(١) تحفة الكبار ص ٩٦ و٩٧ .

(٢) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٢٣ ص ٩٧ .

ركب الدون جوان دوتريش غرور شديد بسبب النصر الذي أحرزه في وقعة (اينابختي) .

أصدر فيليب الثاني ملك اسبانيا أمراً إلى الدون جوان دوتريش بأن يستولي على تونس وبعد أن ينصب عليها أميراً من بني حفص يهدم حصن حلق الواد ويسد بأنقاضها مدخل تونس ثم يعود . وبهذا كان الإسبانيون يتركون للوطنيين تنفيذ أغراضهم في دفع الأتراك وطردهم من أفريقيا الشمالية ويكتفون بتخريب نقاط استنادهم .

ان تحريض حميدة أمير تونس السابق وبعض مشائخها ورؤساء بني عباس والمغاربة ومبالغة الأسبان في قوتهم أقنعت فيليب الثاني بصواب رأيه [١] .

تحرك دون جوان من ميناء فادينيونا الكائن بصقلية في جمادى الأولى ٩٨١ ــ ٧ سبتمبر ١٥٧٣ [٢] .

كان في معيته ١٠٧ مراكب تحميل و٣١ سفينة حربية [٣] و١٣٠٠٠ جندي إيطالي و٩٠٠٠ أسباني و٥٠٠٠ الماني و٣٠٠٠ فارس خفيف [٤] .

---

(١) غرامونت وهامر في تاريخه العثماني بأن هذا الإصطدام حدث في أكتوبر .

(٢) غرامونت .

(٣) هامر التاريخ العثماني .

(٤) فوربيجه .

نزل الجيش للبر في حلق الواد واحتل تونس بلا مقاومة . إذ كان الأتراك قد انسحبوا للقيروان في انتظار وصول المدد وتطور الأحوال.

كان الأسبان يملكون حلق الواد وحصناً آخر مشيداً على جزيرة في وسط البحيرة يدعى (شكلى) أو (سان جان) . طمع دون جوان في تأسيس دولة تتناسب مع صيته مخالفاً بذلك أمر مليكه وكان البابا يشجعه على هذه الفكرة[1] لذا فأن دون جوان بدلاً من اخلاء تونس شيد فيما بين حلق الواد والمدينة حصناً على طراز ثكنات بستة أبراج وبما أنه كان قد شعر برغبة حمودة ، الأمير السابق ، في الإستقلال عين أخاه مولاي محمد الموجود في مسينا باسم أمـــير أسباني وخديوياً لتونس . إلا أن الملك لم يوافق على ذلك وبعث له أمراً مشدداً بالعودة فترك غـابر يوسر بللينو قائداً مكانه وأبقى له ٤٠٠٠ أسباني و٤٠٠٠ إيطالي ومائة فارس كما أودع قيادة حلق الواد في يد بورتو غاريرا ثم أخذ باقي الجنود والأسطول وعاد. كان قد استولى على بنزرت وحصنها وترك فيها بعض الجنود .

ان رمضان باشا قائد تونس ونائب قلنج علي باشا كان في ٢ ذي الحجة ٩٨٠ ـ محافظاً لتونس[2] إلا أن حيدر باشا عـــين لإمارة أمرائها في ١٥ محرم ٩٨١[3] .

---

(١) أونيفرس – الجزائر تونس وطرابلس الغرب .

(٢) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٢١ ص ٣٢٢ .

يؤمر القائد رمضان الموجود بمحافظة ولاية تونس ٢٤ ذي الحجة ٩٨٠.

(٣) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٢١ ص ٣٢٣ .

لما اعتدى العدو على تونس بقوات كبيرة انسحب حيــــدر باشا إلى القيروان وأخبر الأستانة بما جرى ولما عرض مجيء الشيخ علي والتحاقـه به في ٣٠٠٠ فارس عندما هاجمه دون جوان وان رمضان باشا أبـــدى شجاعة باهرة[1] أرسلت للشيخ علي خلعة سنية. وفي ١٥ ذي الحجة ٩٨١

---

(١) سجل مهام الديوان الهمايوني رقم ٢٤ ص ٥٩ . كتبت فيما يلي عيناً :
يؤمر أمير أمراء تونس أن :

بعثت رسالة ذكرت فيها خبر استيلاء الكفار الخاسرين على تونس وأطرافها وان الشيخ علي الذي كان من أعوان المرحوم خير الدين باشا جاء في ما يقرب من الثلاثة آلاف فارس وكانت له معك رفقة مشكورة كما انك أخبرتنـــا بأحوال الجزائر وبطولة رمضان باشا وكل ما كتبته بلغ علمنا السامي وتقديراً لعمله الرائــــع فقد تصدقنا على رمضان باشا بأمارة أمراء الجزائر كما كتبنا رسالة ترغيب وأحسنا إليه بخلعة فاخرة من خلعنا الملكية فبعثناها إليك .

لقد جهزنا بعناية الله ٣٠٠ من المراكب الشبيهة بالكواكب مشحونة بالعساكر المؤمنين والجنود الموحدين لفتح حصن حلق الواد وعينت للقيادة سنان باشا وان قبطاني وعبيد بابي والإنكشاريين وأرباب التيمار وحملة البنادق المتطوعـــين سيتوجهون في أوائل محرم ٩٨٢ وعندما يصلك المشار إليــــه تزحف وإياه وأميري أمراء الجزائر وطرابلس على (بينورت) أو على تونس فتأمرون بمحاصرتها وتبذلون كل الجهود الممكنة لتسخير القلعة ولما يصلكم بعنـــاية الله الأسطول تسعى إلى بلوغ ما يبيض الوجــــه وتبعث أمري الكريم للشيخ علي وتوصل إليه خلعتي الملكية مع ابداء السرور . إن شاء الله لا تضيع الجهـــود وسنصل إلى النتيجة المرجوة بالوسائل الكثيرة وبقي عليك أن تبذل مساعيك في ارسال العساكر وتحضير المؤن ولا تقصر في العمل لنصرة الاسلام .

في ١٥ ذي الحجة ٩٨١

عين رمضان باشا أميراً لأمراء الجزائر[1]. ولما بلغ للأستانة نبأ احتـــلال تونس صدر الأمر لكل الجهات بتحضير الجنود والذخيرة والمؤن.

في شتاء عام ٩٨١ عمل الوزير الأعظم محمد باشا لتحضير لوازم الجيش الذي سيرسل لاسترجاع تونس إذ جهز الذخيرة والأطعمة والعساكر المستعدين مع ٢٨٣ سفينة من احجام مختلفة و١٥ ماعونة ونبه مؤكداً على المكلفين بالخدمة من الأناضولي والروم ايلي بالاشتراك في السفر بحراً بأن يكونوا متهيئين أكيداً في٢٧ ذي الحجة لركوب سفنهم في الأيام المحددة لهم[2]. كتب للقضاة بتحضير الجدفين اللازمين للأسطول وأنذر من لا يحضر من الجدفين بالفصل من مناصبهم على أن لا يسند إليهم في المستقبل أي عمل.

في ٧ ذي الحجة ٩٨١.

نصب الربان محي رئيساً على الربابنة المتطوعين وكتب بأن يقدموا المساعدات النقدية كمكافآت تقديرية للأبطال في الغزو للربابنة المتطوعين الذين يستطيعون انشاء سفن خفيفـة[3]. حضر في الربيع ٤٨٠٠٠ مجدف ووزعوا على السفن كما استقل السفن عساكر الأناضولي وقرمان ومرعش

---

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٢٤ ص ٧٢.

(٢) من سجل مهام الديوان الملكي مجلة كلية الآداب العدد١-٢لسنة١٩٢٦.

(٣) من سجل مهام الديوان الملكي رقم ٢٤ ص ٨٢ مجلة كلية الآداب العدد ١ - ٢ لسنة ١٩٢٦.

والإنكشاريين وجنود البحر ولحق بالجيش سرية المرتزقة اليمني[1] .

(١) تحفة الكبار ص ٩٧ .

فيما يلي الوثيقتان ١ و٢ بالترتيب .

يؤمر حكام الروم ايلي المأمورون بالسفر البحري بأن :

أرسلت لكم قبل هذا مرة أو مرتين مراسيم كريمة أمرتكم فيها بتحضير جنود ألويتكم عاجلاً ومستكملين العدة لتلاقوا في المكان المعين لكم أسطولي الملكي المتوجه لقتال العدو وأن تركبوا السفن لمباشرة العمل . ان المرسوم المذكور لا يزال نافذ المفعول وبما أن موعد خروج أسطولي الملكي للبحر قد اقترب فإنكم ستكونون مسؤولين إذا تغيبتم عن الموعد. إني أمرت بأن تهيئوا الزرود ولابسي الزرود وغيرها من آلات الحرب والقتال والطعن والنزال والبنادق وكل ما يحتاجه لقاء العدو على وجه السرعة لتلاقوا أسطولي الملكي المعين لكم لتركبوا السفن وتكونوا في الخدمة والزمالة وليكن معلوماً لديكم بأن من يهمل ويتساهل ولم يكن موجوداً في اليوم العشرين من ذي الحجة ٩٨١ في المكان المحدد له ويتأخر في اللحاق بالسفن المسافرة فليتحمل جزاء ذنبه ومن المقرر أن لا يعفى عنه بل سينفذ فيه أشد الجزاء . لذا فإن على كل فرد أن لا يقيس السنة الحالية بغيرها من السنين ويقول فيما بعد اننا ما علمنا وما سمعنا .

إذا كان يوجد في اللواء الذي تحت إدارتكم من القضاة من لم يعد المجدفين وإذا كان يوجد مجدفين من جماعة الغجر المسجلين للتجديف فساعدوهم وآزروهم لتخريج المجدفين واصطحابهم وتسلموهم للترسانة في التاريخ المذكور . لا تهملوا هذا الأمر وان القضاة الذين لا يلحقون المجدفين بالأسطول فقد أمرت بفصلهم وأن لا يسند إليهم فيما بعد أي عمل . نبه بالحذر من الإهمال والتساهل وأن لا يتوانوا في العمل ، وعلى العموم أكتبوا لنا تفيدونا عن اليوم الذي يصلكم فيه هذا =

كان الوزير سنان باشا قد عين قائداً عاماً يرافقه قلنج علي باشا .وفي ٢٣ محرم ٩٨٢ الموافق ١٤ مايو ١٥٧٤ أبحر الأسطول فخرج من المضائق ونشر قلوعه في البحر الأبيض، وفي ربيع الأول ذهب لضفـــة كالابريا فضرب أطراف قلعة طوبراق ونهبوهـا ثم ضربوا جوار مسينا وصادفوا سفينة كبيرة فأخذوها وبعـد أن نقلوا الغنائم التي تحملها أحرقوها ومن هناك قطعوا عرض البحر في خمسة أيام وصلوا بعدها للساحل الأفريقي فرمموا القلعة القديمة التي في فليبية ووضعوا فيها قليلاً من الجنود[1] .

في اليوم الثاني من ربيع الآخر أنزلوا العساكر بجـــوار حلق الواد

= المنشور ، وعن ماذا جهزتم . في ٧ ذي الحجة ٩٨١

إلى الحكام والقضاة الكائنين على شواطىء البحر الأبيض يؤمروا (باختصار) لقد بعثنا إليكم الربان محي أحد ربابنة خاصق ورئيس الربابنة المتطوعـين للجزائر ليجمع الربابنة المتطوعين والمراكب الـتي تحت إدارتكم ويوصلهم إلى الوزير سنان باشا المعين قائداً عاماً للأسطول، حين وصول هذا الكتاب إذا كان يوجد تحت حكم أي منكم من يرغب من الأبطال في الغزو وإن وجد بين الربابنة المتطوعين من يستطيع بناء المراكب فليرغبهم في الجهاد وليقدم لهم المساعـدة والمؤازرة ليتداركوا احتياجاتهم من المواد والمهمات اللازمة لبناء السفن الخفيفة (كادرغات) كل منكم مكلف بأن يذيع أمري هذا وبأن لا تفوتوا دقيقة واحدة دون الترغيب للغزو والجهاد . في ١٥ ذي الحجة ٩٨١

(١) تاريخ البجوي ج ١ ص١٩٢ ان قليبية كائنة على الساحل الشرقي من شبه الجزيرة شرقي تونس .

ونصبوا خيماً وحفروا متاريس[1] .

بينما كان الأسطول يتأهب في الأستانة كان حيدر باشا أمـــير أمراء تونس الذي انسحب للقيروان دائباً على العمل إذ حشد المجاهدين من الأهالي الذين من حوله وبعث للتعرف على عواطف التونسيين وبعث فرقـة من المحاربين لمراقبة العدو وإزعاجه . وقد تمكن هؤلاء من الهجوم على قـوة العدو التي خرجت من تونس وانتصرت عليهـا وأجبرتها على الفرار إلى داخل السور تاركة أسلحتها وذخائرها وخيامها . وفي هذا القتال أصيب مولاي محمد بجرحين من البنادق .

هذه الأخبار أوجبت السرور في الأستانة فارسلت خلعـــة إلى حيدر باشا[2] .

---

(١) ان هامر يرينا في تاريخه ان قوة الجيش تبلغ :

٧٠٠٠ إنكشاري و٧٠٠٠ سباهي و٦٠٠٠ عسكري سوري غير منظم وان المجموع ٤٠٠٠٠ مقاتل بينما قيودات الديوان الملكي تفيد أن حكام الروم ايلي أمروا بالتهيؤ للسفر فإنه لم يذكر لنا عدد الجنود القادمين من هناك. وان تحفة الكبار تبحث عن عساكر الأناضولي وقرمان ومرعش فقط .

(٢) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٢٤ ص ٧٥ .

يؤمر أمير أمراء تونس بأن :

أخبرتنا بأنك وعساكر المسلمين موجودون بالقيروان وقد رتبت محلة من الجنود بعثتهم لاستقصاء عواطف التونسيين عما إذا كانت تميل لجانبنا ولدى =

كانت الدولة قد كتبت أمراً لأمير أمراء الجزائر في ٤ ذي الحجة ٩٨١

=وصول الجند الذين بعثتهم أركن إلى الفرار أمامهم أربعماية من مرتزقة العرب المسلحين بالبنادق ودخلوا إلى تونس ملتحقين بالكفار .

زحف ألفا كافر من حملة البنادق ولحق بهم عشرون ألفاً من جنود الكفار الخاسرين وزحفوا على المحلة من أطرافها الأربعة الأمر الذي بعث الرعب في قلوب مقاتلي المحلة وكادوا يتوقفون عن اطلاق النار إلا أنهم بالإتكال على عناية الله ومعجزات رسوله وحدوا جهودهم وشنوا حملة على الكفار وقاتلوا قتالاً شديداً وتمكنوا بعلو عناية الله من الفتك بالكفار بسيوفهم وجرح الملعون الذي هو سلطانهم بطلقتين في مكانين من جسمه وأسر جل الكفار وغنمت مدافعهم وذخائرهم وخيامهم ولم يسلم من الملاعين الذين لا دين لهم إلا عشرون أو ثلاثون شخصاً وقتل من أشقياء العرب خمسة أو ستة آلاف شخص ثم زحف على تونس وحوصرت .

لقد أظهرت للملأ الشهامة المحصنة والشجاعـــة والفراسة المفرطة التي كانت مركزة في طينتك والزمالة والرجولة المأمولة أيضاً من كياستك. بيض الله وجهك.

ولما كانت خدماتك في سبيل العرش تستوجب التقدير الملوكي فإنها استدرت عواطفي السلطانية وأحسنت إليك بخلعة من خلعي الفاخرة وبما أنك قبل هذا أخبرتني أن الشيخ علي الذي كان تابعاً لخير الدين باشا قدم عليك في ثلاثة آلاف فارس وكان له نفع كبير فقد أحسنت إليــه بخلعة مع مزيد التقدير وكتبت له رسالة ترغيب أوصلها إليه واسعى لاستمالته وليعلم بأنه من المقـــرر إن شاء الله تعالى ألا يضيع له عمله وسيكون من بواعث التقدير العظيم وأن لا يقصر في ابداء اهتمامه وسعيه المشكور في شؤون الدولة. لقد جهزنا لفتح قلعة حلق الواد اللعينة التي سببت للاحتكاك والفساد في الولاية والتابعة حالياً لأسبانيا، جهزنا=

ونبهت على لصوص البحر والقراصنة بان لا يهاجموا سفن البندقية التي عقد الصلح معها حديثاً وسفن فرنسا وان من يخالف الأمر سوف لا يقبل له عذر[1] ان أمير أمراء تونس وأمير أمراء الجزائر رمضان باشا وأمير

=لتسخيرها ٣٠٠ من المراكب شبيهة الكواكب وعدداً وافراً من مماليك بابي وغيرهم من الزعماء وأرباب التيمار وعدداً وافراً من الجنود سيتوجهون في أوائل محرم من السنة المقبلة وحالما يصلكم أسطولي المنصور تكونون ، رمضان باشا الذي هو أمير أمراء جزائر الغرب ومصطفى باشا أمير أمراء طرابلس وأحمد باشا أمير أمراء الجزائر السابق وأنت ، على قلب واتجاه واحد فتزحفون وتنظرون أيها أنسب محاصرة تونس أو حصار (بنون).

نأمركم بأن تتقدموا وتهتموا بشأن الأنسب وفتحه وتسخيره . وآمر بأن: لما يصلكم كتابي هذا تجتمع مع أمراء الأمراء المشار إليهم في مـــكان مناسب وتبحثون في أحسن الوسائل للزحف على تونس أو بنون فتحاصروها وتنظرون وتباشرون فيما يمكن من فتحها وتسخيرها.

ولما يصلكم أسطولي الملكي المقرون بالظفر تعمـــل لما يبعد الضرر عن الولاية وعن الرعايا والبرايا من الكفار والعصاة وأرباب الشقاوة واسعى واهتم ببلوغ ما يبيض الوجه. وهيىء وأوجد منذ الآن مقداراً وافراً من الطعام ومن متطلبات حصار القلاع حتى إذا وصل الجنـــود المسلمون المنصورون تكون هذه متوفرة ولا توجب التوقف .   في ١٥ ذي الحجة ٩٨١

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٢٤ ص ٨٢ .

جرى اختصار الرسالة التالية بحذف الجمل المكررة والكلمات التي لا يتغير معنى الأوامر بتركها وكتب بصورة مطابقة تماماً لمعنى الأوامر .   =

أمراء طرابلس مصطفى باشا كانوا قد جاؤوا بعساكر أوجاقاتهم (أقاليمهم) ومتطوعيهم وكان ثمة متطوعون من مصر أيضـــاً ولما حاصر سنان باشا حلق الواد ترك محاصرة المدينة لعساكر لجنود الأوجاقات .

صمدت تونس للحصار مدة ستة أيام فقط ونظراً لامتــــداد طول أسوار تونس وخراب حصنهـــا الداخلي وان عدد المدافعين لا يكفي للمحافظة على مركز متسع كهذا انسحب الأسبانيون إلى حصن باب البحر الذي باشر دون جوان في تشييده ولم يتمه وأكملوه على أمتن مـا يكون وجمعوا فيه مدفعية هائلة وذخيرة تكفي لصمود الحصار الطـــويل . ان عساكر أوجاقات الغرب الذين انتهوا من احتلال تونس خصصوا لمحاصرة

= يؤمر أمير أمراء جزائر الغرب بأن :

لقد أضيف لمخصصات الربان محيي أحد ربابنـــة الترسانة العامرة عشرون آقجة (نوع من العملة) وعين رئيساً للربابنة المتطوعين للغرب وكتبت له رسالة كريمة ليلحق به القراصنة الذين يجهـــزون كادرغات وفرقاطات ويتجولون في البحر الأبيض للغزو . انه سيصل إلى هناك للمحافظة على تلك الديار ويغـــير ويخرب ويرد الكرة بالإغـــارة والتخريب على الجهات التي يتلقى أمراً بشأنها ويعمل هناك في الشؤون التي تراها وتعينها له إلى حين قدوم سنان باشا، وتوصي المذكور ليؤكد على لصوص البحر بأن مراكب البندقية وفرنسا المربوطة بالسدة العلية بمعاهدة أمن وسلام والتي تتنقل في شؤونها ذهابـاً وإياباً أو تصل إلى أي مكان من بلادي ، ان من يصيبها بأي ضرر أو تلف لا يقبـل له عذر ويتحمل وبال عمله . ادفع لأولئك الذين يعملون هناك مخصصاتهم من خزينة الجزائر .

في ٤ ذي الحجة ٩٨١

استحكام باب البحر . لما رأى الإسبان قدوم الجيش التركي سحبوا قوتهم التي في بنزرت ونقلوها إلى حلق الواد[1] .

بدأ القتال في حلق الواد وكان الإسبان والترك قد وضعوا خاصة جنودهم وجهاً لوجه في هذه الجبهة الصعبة . استمر القتال ليلاً ونهاراً لمدة ثلاثين يوماً وفي اليوم السادس من جمادى الأول ٩٨٢ هوجمت القلعة بكل قوة وشدة ، كانت قوة المدافعين المادية والمعنوية قد تحطمت واسقط هذا الهجوم القلعة وأبيد بحد السيف كافة الجنود الذين كانوا هنا مع من احتمى بالقلعة وقد أسر مولاي محمد والقائد الأسباني فقط[2] .

لقد تكبد العثمانيون أيضاً خسائر كثيرة في هذه الحرب الضروس وقد استشهد بالتالي اثنان من زعماء الإنكشاريين وبلغت خسائر الأسبان ٥٠٠٠ قتيل و٢٠٠٠ أسير وغنم ٥٠٠ مدفع متين الصنع وعديم المثال لقد استولى الأتراك في أربعين يوماً على القلاع التي شيدها ومكنها الأسبان في ٤٣ عاماً وأرسل ١٩٠ من المدافع للآستانة وترك البقية للدفاع عن تونس .

ان طول حصن حلق الواد ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرة أذرع،كانت صغيرة ولكنها قوية جداً . ولما كانت على الدوام هدفاً للعدو وجالبة لكل الناس فقد رؤي من الأنسب إزالتها ، فحفر تحتها ثلاثون لغماً ثم أخليت وبعد أن أبعدت السفن قليلاً في البحر فجرت الألغام فنسفتها وأزيلت

(١) تاريخ البجوي ج ١ ص ٤٩ .

(٢) تحفة الكبار .

عن وجه الأرض[1] وبعد سقوط هذه القلعة لم تبقَ لمقاومة قلعة باب البحر أي فائدة .

ان (باغانو دوريا وسينو كيرا) كانا المحافظين على القلعة وقد قررا المقاومة . وكان للقلعة ستة أبراج زحف الجيش للإستيلاء عليها وحوصر كل برج عدة أيام وأُخفقت الهجومات الثلاثة التي شنت في أيام ٥ و٨ و١١ من سبتمبر إلا أن بطولة الترك تغلبت على ثبات المحافظين في الهجوم الرابع ولم يبقَ في يد الأسبان إلا حصن سان جاك الذي في الجزيرة .

ان القبطان باشا والقائد العام قدّرا لهؤلاء شجاعتهم ووعداهم بعدم المساس بحياتهم وكلفاهم بالإنسحاب[2] ان باغانو دوريا بدلاً من الإعتماد على وعد الأتراك البطولي آمن بوعد الوطنين وعد أربعة من المرابطين بأنه في حالة تهريبه سوف يدفع لهم أربعة آلاف ذهبة وهم قبلوا بذلك ثم قطعوا رأسه وقدموه للقائد العام ، أما سينو كير فقد سلم نفسه حتى لا يتعرض لمثل هذه الحالة كما سلم للأتراك ١٥ ألف دوقة كان قد تلقاها من الملك .

سمح سنان باشا بانسحاب وذهاب الذين كانوا في القلعة قبل الإستيلاء عليها عنوة قائلاً بأن الذين لجأوا إليها فيما بعد من أمكنة أخرى لا يستحقون هذا اللطف فاستثنى خمسين شخصاً من الأسر وأسر الباقين عملاً باتفاقية الاستسلام[3] .

---

(١) تحفة الكبار .

(٢) هامر الكتاب ٣٦ ص ٢٧٨ .

(٣) هامر كتاب التاريخ العثماني رقم ٣٦ ص ٢٧٩ .

في ٢٥ جمادي الأول سنة ٩٨٢ كان قد تم الإستيلاء على كل قلاع تونس وحلق الواد وباب البحر وسان جاك ثم تجول الأسطول على سواحـــل الروم ايلي وفي رجب[١] قدم للاستانة[٢] .

حضر للاستانة مولاي محمد والقائد الأسباني سربلّلينو والأسرى . خسر الأسبان في هذا القتال كل موجودهم وهم ٨٠٠٠ ولا يعلم عدد القتلى من أعوان مولاي محمد وكانت خسارة العثمانيين بما فيهم الأعوان والمتطوعون المحليون عشرة آلاف شخص .

لقد انطفأت شعلة بني حفص على أن لا تضيء إلى الأبد .

---

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٢٦ ص ٢٨٧ .

يؤمر الوزير سنان باشا بأن :

كل ما بينته في الكتاب المرســـل بشأن الفتح وتسخير قلعة حلق الواد وأن تونس احتلت ونسفت حلق الواد من أساسها وان جل الكفار الذين كانوا فيها أكلتهم السيوف وبعضهم أصبح أسيراً مكبلاً وقد منحت عطايا للغزاة والرفاق وكل العاملين، كل حسب استحقاقـــه ، وانك وصلت مع الأسطول الملكي إلى ضفة الروم ايلي وغـــير ذلك كل ما يتعلق بأسطولي الملكي قرين النصر قد بلغ علمي .

(٢) النبأ الصحيح ص ٣٢٥ تحفة الكبار .

امارة أمراء حيدر باشا

التشكيلات – رجب باشا – تعيين حيدر باشا للمرة الثانية – مهاجمة الأسطول الأسباني لقرقنة – عصيان قفصة واحتلالها – فزان – برنو – الجبل الأبيض احتلال الجبل الأبيض وأوجلة – إعمار المهدية الخربة .

بعد أن احتل سنان باشا تونس في سنة ٩٨٢ ـ ١٥٧٤ فرز لمحافظتها أربعة آلاف من الإنكشاريين الذين جلبهم معه . كان على رأس كل مائة نفر بولوك باشا (قائد أو رئيس السرية .) ورؤساء أربعين أورطة أوبولوك يؤلفون ديوان الإنكشاريين ويقود كافتهم آغا الإنكشاريين ويوجد مع الآغا كتخدا (نائب) وثمانية شواش وخوجهوان (أي كاتبان) ومترجم واحد .

كان ديوان الإنكشاريين ينظر في شؤون العساكر وكان أمراء الأمراء يتشاورون مع ديوان الإنكشاريين في الشؤون الهامة . ان ديوان الباشا هو مركز الإدارة الأصلي وكل الأعمال تقرر وتنفذ على يديه .

وكان آغاوات الإنكشاريين يعينون بالترقية من نواب الإنكشاريين

إلا انه يحدث أن يعين ويرسل من الأستانة[١] . كان آغاوات الإنكشاريين يبدلون وفقاً للحاجة التي يراها أمراء الأمراء .

لقد جزئت تونس إلى ألوية وعين حكام للألوية وأسست قيادات أرسل لها قادة وعين حسين أفندي أحد فحول العلماء قاضياً للقضاة للعمل بالأحكام الشرعية وأوفد لكل الجهات قضاة ونواب[٢] وتحددت مرتبات الجنود والحكام والكتاب ووظائف الديوان .

لقد جزئت تونس لتقسيمات إدارية أسوة بالإيالات العثمانية وطبق هنا أيضاً نظام خاص وتيمار وزعامت والوقف وبعد اجراء هـذه التنظيمات والتقسيمات تركت إمارة الأمراء لحيـــدر باشا وعاد الأسطول والجيش للأستانة[٣] .

---

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٤٠ ص١٠٥ -لقد عين حسين زغرەجي آغا للإنكشاريين تونس – في ٩ رجب ٩٨٧ والمترجم يقول ان زغره هو نوع من كلاب الصيد أي إما انه كان مدرباً لكلاب الصيد الملكية أو انه ورث هذا اللقب عن أبيه .

(٢) خلاصة أحوال تونس لكاتب الأخبار أسعد أفندي .

(٣) تقول تحفة الكبار وبعض التواريخ الأخرى أن رمضان باشا بقي أميراً للأمراء بعد احتلال تونس وكاتب الأخبار أسعد يذكر أن أمير أمرائها كان حيدر باشا وانه ثمة رجل آخر يدعى رمضان بك كان حاكماً للواء تونس ولكن رمضان باشا كان قد عين لإمارةأمراء تونس عند احتلال قلنج علي باشا لها في=

ان حيدر باشا حكم الإيالة حتى أواخر عام ٩٨٣ وكان الإنكشاريون شانهم في كل مكان يقومون بمشاغبات كثيرة وكان الباشا يسعى لاصلاحهم وتنظيمهم . ولما كان التونسيون لم يتمرسوا بعد بإدارة الترك فإن كثيراً من المفسدين ـ حرصاً منهم على مكاسبهم الخاصة ـ يسعون لضمهم إلى صفوفهم في العمل للإتحاد مع الكفار . ولما عرف حيدر باشا بعض هؤلاء المفسدين استخدمهم ضد الآخرين منتهجاً بذلك سياسة إضعافهم وتصفيتهم[1] .

جاء رجب باشا مكان حيدر باشا. وتاريخ تعيينه غير معلوم بالضبط، ولكن ورد في الصفحة ٧٣ من سجل الديوان الملكي رقم ٢٨ كتابة عن صدور أمر مؤرخ في ١٣ ربيع الأول ٩٨٤ يبحث عن أمارة أمراء رجب باشا ، فإن من المحتمل أن يكون عين في آخر عام ٩٨٣ .

=سنة ٩٧٧ثم عزل من منصبه قبل اغتصاب دون جوان لها بقليل وجاءها حيدر باشا في ١٥ محرم ٩٨١ وهذه القيودات تؤكدها سجلات المهام ويفهم من تلك القيودات بأن رمضان باشا بعد عزله استأذن من السلطان للذهاب للاستانة وسمح له بموجب الأمر المؤرخ في ٢٢ شوال ٩٨١ بالقدوم مع الأسطول عند عودته ولكن الأسطول عاد قبل الذهاب إلى تونس وعمل رمضان باشا مع خلفه حيدر باشا في القيروان وأدى خدمات جليلة وبناءً على تقرير من حيدر باشا عين في ذي الحجة من عام ٩٨١ لإمارة أمراء الجزائر وجاء للحرب وبعد انتهائها عاد للجزائر لهذا لم يكن رمضان باشا أميراً لأمراء تونس في سنة ٩٨٢.

(١) سجل مهام الديوان الهمايوني رقم ٢٧ في ٢ ذي الحجة ٩٨٣ .

وجد أهل تونس رجب باشا عـادلاً فأعربوا للسلطان عن سرورهم به [1] إلا أنه سرعان ما خاب أملهم فيه بعد أن رأوا أعماله السيئة .

ظهر في تونس عام ٩٧٧ أحد الأعيان الإقطاعيين ويدعى أبا الطيب الحضارة . ويبدو أن هذا الشخص كان شريراً ومشاغباً فذهب إلى الأستانة وعرف عن نفسه وتمكن بدهائه من فرض مكانته إذ كان بين الذين خوطبوا بالمراسيم السلطانية لمعاونة أمير الأمراء في حالة اعتداء الأعداء المنتظر حدوثه في سنة ٩٨٠ . ان هذا الكفاح أوصله في السابق لأن يكون حاكماً للقيروان [2] وكان يبعث من القيروان أيضاً رسائـــل وأخبار للأستانة يقول فيها إن رجب باشا يسوق الجنود على الرعية فينهب أموالهم وأمتعتهم ويظلمهم ، كما أنه يلصق تهماً لبعض الأغنياء المقيمين في الدساكر والقرى فيحبسهم ولا يطلق سراحهم إلا بعد أن يبتز الأموال الكثيرة منهم وانه يجبر الأهالي على شراء الزيت الذي يتجمع لديـــه من الأعشار بسعر أغلى مما يساوي وانه سك نقوداً من فئة خمس خراريب ممزوجة بالنحاس وانه يختم الفضة ويضعها للتـــداول وانه باع بعض الأراضي والبساتين والكروم المحلية وأودع أثمانها في جيبه . والحاصل كان يكتب عنه بأنه يفعل ما لا يتصوره العقل [3] .ان أبا الطيب بالإضافة إلى شكواه

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٢٨ ص ٧٣ .

(٢) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٢٨ ص ٢٢٧ .

(٣) سجل مهام الديوان الهمايوني رقم ٢٨ ص ٢٢٧ .

من رجب باشا ومن أعوانه فإنه يبلغ عن وجود أموال أميرية في ذمة محمد الفاسي الكاتب تحت إدارته وفي ذمـة عبدالله بن حسن قائد سوسة . لقد ظهر تاثير هذه الأخبار وبالرغم من عريضة الشكر والإطراء التي بعثها أعوان رجب باشا (سجل مهـــام الديوان الملكي رقم ٢٨ ص ٧٣) فإنه عزل . وصـــدر أمر من الأستانة إلى أمير الأمراء الجديد وإلى دفتر دار خزينة الجزائروتونس وطرابلس محمد بك وإلى قاضي تونس والقيروان بأن تجرى في مجلس الشرع محاكمة الباشا ونائبه والموصلي المشترك في هـذه المساوىء ومحمد الفاسي وقائد سوسة محمد بن حسن[١] والإفادة بالنتيجة .

بما ان أمير أمراء طرابلس كتب للاستانة يعرض بأن حاكم قفصة بالإضافة إلى أنه لم يدفع الضرائب فإنه كان وكراً لتجمع قطاع الطـــرق ويسعى لإفساد جيرانه وانه متفق مع الأعداء ويطلب مده بالعون للإستيلاء على قفصة والقضاء على هذا الحاكم فووفق على هذا الإجـــراء وكتب إلى رمضان باشا أمـير أمراء الجزائر كما كتب إلى رجب باشا الذي في تونس بقربه وجواره بأن يساعده في هذا الشان في ١٣ ربيـع الأول ٩٨٤[٢] .

عين الأمير حيدر باشا أمير الأمراء السابق بـدلاً من رجب باشا[٣]

---

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٢٨ ص ٢٢٧ .

(٢) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٢٨ ص ٢٣١ .

(٣) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٢٨ ص ٢٤٦ . كتب في الأمر اسم رجب باشا . ونظراً إلى هذا الأمر فإن تعيينه كان في جمادى الأول أو في ربيع الآخر ٩٨٤ .

ونظراً إلى مكانة بنزرت ونابل الإقليمية فقد كتب للأستانة يبدي وجهة نظره بخصوص ترميم واصلاح قلعتيهما ووضع مقداراً كافياً من الجنود في قلعة نابل[1] . في ٢٥ ربيع الأول ٩٨٤ جاء أسطول اسباني مؤلف من ٣٥ سفينة حربية و٥ فرقاطات إلى قرقنة التابعة لإيالة طرابلس الغرب وأنزل مقدار ٧٠ أو ٨٠ فارساً ولما قاوم السكان هذه القوة القليلة تغلبوا عليهم ونقلوا بالزوارق ثلاثماية من الأهالي المسالمين للأسطول ثم أضرموا النار في أطعمتهم . ولما بلغ خبر هذا الحادث إلى تونس تجمع على سواحل بنزرت وسوسة والمنستير قرابة الستة آلاف مسلح وباشروا في حراسة الشواطىء .

جاء الأسطول أمام المهدية وأنزل البعض من الجنود للبر للتزود بالماء ولما كان الحراس المسلحون متهيئين لذلك فقد باغتوهم بالهجوم وقتلوا البعض منهم والآخرون هربوا إلى مراكبهم .

وكانت السفن بقيادة ماركي دي سانتا موريتشي الذي تعهد لملك اسبانيا بأسر وإحضار ستة آلاف مسلم .ولقد كان ضمن مفرزة العدو التي أنزلت في قرقنة والمهدية أحمد بن حميدة الذي التزم جانب الأعداء ووقع في الأسر وعلم انه كان يبعث لبعض العربان المخالفين يحرضهم على التمرد[2] . ولما كانت هذه التحرشات والاعتداءات تقتضي التحصن ضد الخارج

---

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٢٨ ص ٢٣١ في ٨ رجب ٩٨٤ .

(٢) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٢٨ ص ١٢٩ في جمادى الأخرى ٩٨٤ .

والداخل فقد كان حيدر باشا يبـــذل جهوده للمزيد من التحصينات في بنزرت وتونس إلا أنه كان يفتقر للمال.

كتب للآستانة يعرض عليها ان ولاية تونس لم تسلم إليه وهي عامرة بل كانت بلاداً محتاجة للاعمار وانه لما جاءها لم يجد بارة واحدة في خزينتها وانه بذل كل جهوده لإعمارها ولما كانت سواحل العدو قريبة فهو مضطر للإنفاق على عدد كبير من الجنود وبما أن الجنود الكثيرين يحتاجون لمصاريف كثيرة فقد زادت نفقاتهم وأخيراً يسترحم إعادة إلحاق القيروان والمنستير بتونس.

في الحقيقة أن تونس صغرت كثيراً وأصابهـا الفقر وبما أن التمرد لا يزال مستمراً في هذا الإقليم الصغير فكان من المتعذر جباية الضرائب وكان اعتداء أسطول العدو على قرقنة والمهدية قد زاد من صعوبة الجباية ولذا فقد كانت كل الواردات عبارة عن واردات مدينة تونس.

أمر ديوان استانبول باعطاء القـيروان والمنستير إلى تونس إلا أن ديوان استانبول يأمر بتقدير وارداتهما مع دخول أمـارة الآمارة وبعد تنزيل المصاريف ارسال الباقي للاستانة[١].

لم ينفذ بعد الأمر الصادر في القضاء على ثورة قفصـة[٢] ولما كان ذو

---

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٢٨ ص ١٤٦.

(٢) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٢٨ ص ١٨٥.

النون حاكم قفصة لم يألُ جهداً في بث الفتنة والفساد وتذاع أقواله الداعية لإثارة العربان واحلال الفوضى فقد باشر حيدر باشا بالعمل بموجب الأمر السالف الذكر . لقد أرسل له من طرابلس ألف جندي ومدافع عن طريق البركا شحنت له أسلحة ومدافع بسفينة خفيفة بقيادة حاكم المنستير وزحف الوالي السابق رجب باشا أيضاً على رأس أكثر من خمسماية فارس . لم يستطع ذو النون الصمود في قفصة أمام هذه القوات فانهـزم مع بعض أعوانه والتجأ وإياهم إلى قلعة نفطة التي كان بها في السابق .

استولت القوات التابعة لحيدر باشا على قفصـة وأرسل محمود بك حاكم فزان على رأس ألف فارس في أثر ذي النـون . تسلل ذو النون من حصار نفطة أيضاً وانسحب إلى جبال تبغة .

بعـد قلعة نفطة ، استولى على خمس قلاع واحدى عشرة بلدة وقتل ألفاً من العربان المتمردين البالغ عددهم أكثر من ألفين والبـاقون رحلوا منفيين إلى تونس وجربة وطرابلس .

رممت القلاع ووضع فيها بعض المحافظين والمؤن وقـد بلغ مجموع الجنود الموضوعين هناك ٥٠٠ جندي وأسست خمس قيادات .

تبين من تصرفات محمود بك حاكم لواء فزان انه رجل مجد ومسموع الكلمة . كان أثناء حكمه في لواء فزان يوسع مناطق إدارته حتى وصل إلى دلتا بحيرة تشاد وإلى حدود دولة برنو . كانت برنو حينذاك بـلاداً

مترامية الأطراف في الجنوب الغربي من بحيرة تشاد وعاصمتها كوكا وسكانها زنوج مسلمون، وكانت في القرن العاشر أقوى دول السودان وكانوا قد عقدوا مع ولاة طرابلس بعض الإتفاقيات التجارية[١] وكان في امكانها تجهيز ١٥ ألف فارس عدا المشاة . وفي سنة ٩٨٤ بعث الملك ادريس حاكم برنو سفيراً للأستانة يعرض عبوديته واحتراماته . وبعد أن أدى السفير مهمته أعطى جواب السلطان وعاد مصحوباً بالسلامة وكتب لأمير أمراء تونس بإعادته آمناً مطمئناً لبلاده[٢] .

ان صدور الأمر لأمير أمراء تونس بتوصية محمود بك حاكم فزان بتحسين علاقاته مع حاكم برنو يشير إلى حدوث شكوى السفير للاستانة بحق محمود بك[٣] .

ان الكتابة لأمير أمراء تونس بشأن برنو وعامل فزان وتمرد قفصة تعني ان إيالة طرابلس الغرب أيضاً مربوطة بأمير أمراء تونس. ان سكان الأراضي المسماة بالجبل الأبيض وأوجلة التي بين طرابلس الغرب ومصر كانوا عرب متمردين، إذ كانت مراكب النصارى تأتي لميناء رأس الهلال القريب من الجبل لترسو وتتزود بالماء وكان سكان هذه الجهات على صلة

---

(١) قاموس الاعلام .

(٢) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٣٠ ص ٢١٣ و ٢١٥ في ٥ ربيع الأول ٩٨٥ .

(٣) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٣٠ ص ١٨٨ .

مستديمة مع هؤلاء[1] .

وعدا ذلك بما ان القوافل التي تذهب وتـاتي من مصر إلى طرابلس مضطرة للمرور من هذين المكانين فقد كان هؤلاء المتمردون يهاجمـون تلك القوافل وينهبونها لذلك يلزم جداً الإستيلاء على هذه الجهات ولما كانت هذه الجهات على حدود مصر فقد التمس حيدر باشا من الأستانـة مساعدته للإستيلاء عليها[2] .

لما زال الخوف والخطر عن البلاد وُكل إلى رجـل كفء حراسة طرابلس وحصل على الإذن لاحتلال تلك الأرجاء إلا انه عرف من الأمر المؤرخ قبل هذا بعدة أيام بأن تونس وطرابلس انفصلتا عن بعضهمـا البعض وبأن يستمر في المحافظة على طرابلس إلى حين قدوم التشاقرجي باشاحسن باشا المعين والياً لطرابلس الغرب[3] في عام ٩٥٧ (سبتمبر ١٥٥٠) كان

---

(١) ان الجبل الأبيض ورأس الهلال ببرقة ورأس الهلال غربي درنة وبالقرب من خرائب آبولونيا وتسمية الجبل الأبيض تحريف للجبل الأخضر أو أحد فروعه وأوجلة واحة في الصحراء جنوبي برقة على طريق القوافل الواردة من مصر إلى طرابلس .

(٢) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٣٠ ص ٣٣٨ .

(٣) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٣١ ص ٢٠٧ .

يؤمر أمير أمراء تونس حيدر باشا بأن :

لقد انفصلت إمارة أمراء طرابلس منذ الآن وفي اليوم ١٨ من ربيع الأول=

الأسبان قد افتكّوا المهدية من درغوث وانسحبوا تاركين فيها القليل من المحافظين وبما أن البلدة دمرت والسكان جلوا فلم ير الأسبان نفعاً من بقائهم فيها وحاولوا اقناع فرسان مالطــــة بتسلمها منهم إلا أن هؤلاء لما رفضوا ذلك أخلاها الأسبان وانسحبوا. دام خراب المدينة ثلاثين عاماً . ولما نمت قوة الترك ورسخت دعائم الأمن والسكينة عاد سكانها القدامى لتجديد بنائها . وبما أن العمل الصعب الذي يجابههم لتجديــــد بنائها إذا ضمت إليه الضريبة والرسوم لا يوفقون لتنفيذه كتبوا عريضة للأستانـة يسترحمون اعفاءهم ثلاث سنوات من دفع الرسوم . قبل هذا الطلب من الأستانة مع ادخال بعض التعديلات عليه وأبلغ أمير أمراء تونس بإعفاء القادمين حديثاً من دفع الرسوم لمدة ثلاث سنين إلا أن المقيمــــين اليوم سيدفعون الرسوم الحالية [(١)] .

= وجهت إلى من هو التشاقرجي باشا المقام السامي حسن دام إقباله وان أمارة أمراء تونس بقيت لك للمرة الثانية وإذا كنت قد صفيت ذمتك من المبلغ الذي أحيلت به إليك في السابق فقد أحيلت عليك بمثله مرة أخـرى وإلى أن يصل حسن إلى ذاك الجانب فلا تتوانَ دقيقة في حفظ وحراسة طرابلس الغرب أيضاً.

في ١٨ ربيع الأول ٩٨٥

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٣٥ ص ١١٧ .

حضر للأستانة البعض من رعايا المهدية وأفادوا بأن العرب دمروا قلعة المهدية ووقع بعض أهلها في الأسر والآخرون جلوا عن الوطن وبقيت المدينة خراباً وتعهدوا بتجديد بناء المهدية واعمارها شرط اعفائهم مـن دفع الضرائب لمدة ثلاث سنوات وعليه فقد أمرت بأن البلدة المذكورة إذا كانت دامرة تعفى من=

إلا أن هذا الأمر لم ينفذ أو لم تجد المهدية رغبة في التوطن بها فكتب سنان باشا في رجب سنة١٠٠٢يستأذن أعضاء معمري المدينة من الضرائب لمدة ثلاث سنوات وتلقى الموافقة على ذلك [١] .

كان رمضان باشا قد أقيل من أمارة أمراء الجزائر . فكتب للأستانة يطري الإنكشاريين وجميع مماليك جـــزائر الغرب الذين شاركوا في الحرب ضد المغرب ، وانهم جنود مطيعون وذلك خلاف للحقيقـــة والسلطان أوعز في ٥ ربيع الأول ٩٨٥ لأمير الأمراء العتيد حسن باشا بان يكافىء المستحقين منهم كلا حسب استحقاقه [٢] .

كان رمضان باشا يعرف ان الإنكشاريين لا يستحقون هذا الإطراء إلا انه يداريهم لجلبهم إلى جانبه إذا أُصيب بنكبة وكان حسن باشا يسره جداً التخلص من أمير الأمراء السابق الذي سيكون ينبوع فساد وتمكن من اخراجه من البلاد بطريقة مناسبة .

= الضرائب ثلاث سنوات شرط أعمارها وإذا كان بعض السكان يتم حالياً تؤخذ منهم الرسوم كالسابق والقادمون حديثاً لا تؤخذ منهم الضرائب لمدة ثلاث سنوات .

في ٢١ جمادى الآخر ٩٨١

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٧٢ ص ٢٤٣ .

(٢) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٣٠ ص ١٨٥ .

وجهت للآستانة شكاوى كثيرة في حق حيدر باشا فعين رمضان باشا لتونس الذي رؤي انه اهون شراً وعين حيدر باشا أمير أمراء تونس منقولاً إلى أمارة أمراء طرابلس الغرب .

بقي رمضان باشا في منصبه بتونس التي يعرفها جيداً حتى جمادى الأولى ٩٨٧ وفي الثامن من شهر رمضان من تلك السنة عين حاكماً للواء تلمسان . ان تعيين أمير أمراء حاكماً للواء كان عملاً سيئاً إلا أن هذه الوظيفة يظن انها عمل ظاهري أريد به في الحقيقة أن يقوم بعمل سري ، ولم يعثر على وثيقة تبين أساس هذه الوظيفة[1] من المؤكد انه مكلف باعمال تتعلق بفاس ومراكش وحل جعفر باشا مكان رمضان باشا[2] .

ان أمراء أمراء تونس ليسوا في درجة باشاوات الجزائر كفاءة ومقدرة ، لقد تفسخت الإدارة في مدة قصيرة إذ كان جل الإنكشاريين والحكام والموظفين يرتشون ويرتكبون أنواع المساوىء كالظلم والنهب

---

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٤٠ ص ٦٣ .

يؤمر أمير أمراء الجزائر :

ان رمضان باشا دام علوه أمير أمراء تونس الذي منح لواء تلمسان أوكلت إليه بعض الأمور الخاصة بولاية المغرب فليباشر العمل الذي صدر له الأمر بشأنه وقدم له المساعدة التي يطلبها منك . في ٨ رجب ٩٨٧

(٢) سجل المهام رقم ٤٠ ص ٦٥ يؤمر الباشاوان أمير أمراء تونس جعفر وأمير أمراء طرابلس الغرب حيدر بأن : في ٩ رجب ٩٨٧

والتزييف وغير ذلك . وقد قيـل في الأمر المبعوث في ٩ رجب لأميري أمراء تونس وطرابلس أن :

بلغني انها تجري في إمارة أمراء تونـس أمور منافية للقانون لا تتناسب مع ما تجري في غيرهـــا من الممالك المحروسة وتخترع أنواع البدع والذي يُجبى من الرعايا يدخل جيوب الذين يجبوها ولا تعطى للخزينـــة ، والإنكشاريون والموظفون يغتصبون أراضي الأهالي فيزرعونهـــا ويحصدونها ولا يدفعون اعشاراً للدولة ، ويسجلون ابناءهم وخدامهم غير القادرين على الخدمة في قوائم المرتبـــات ويقبضون مخصصاتهم عن ثلاثة شهور سلفاً . وكانوا يجرون ترقيات لا لزوم لها فيبددون أموال الخزينة ويظلمون الرعايا . ان في أوضاعهم وأطوارهم ما يخـل بناموس وكرامة السلطنة وينافيه اصلحوا هذه المساوىء[1] .

كانت هذه المساوىء هي الهموم المشتركة لأوجاقات الغرب إلا أنـه ليس من الممكن اصلاحها لأن المسيء والمشجع على الإساءة هو المخاطب في الأمر . لقد نُحي عن تونس وسُلط على طرابلس. لمـا استولى على تونس نصب حيدر باشا أميراً لأمرائها وألحق بها القيروان وسوسة والمنستير التي احتلها درغوت باشا من قبل إلا أن الياس باشا[2] أمير أمراء طرابلس

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٤٠ ص ٦٥ . في ٩ رجب ٩٨٧

(٢) لا توجد معلومات عن إمارة أمراء اليـاس باشا في غير الأمر الذي يحتويه سجل مهام الديوان الملكي رقم ٣٦ ص ٧٧ .

عرض بأن هذه البلدان استولى عليها مع طرابلس وكانت سابقاً تابعة لها ونظراً إلى قربها من طرابلس لا يناسب إلحاقها بتونس وحصـــل على الموافقة لربطها بطرابلس وأبعدها عن مجال النزاع والتدخل من تونس[1].

كان في تونس وكيل لقنصل الفرنسيين وكان هذا الشخص يستوفي رسماً من التجار الفرنسيين الذين يترددون على مرسى تونس وبما أن هذا الرسم بالإضافة إلى إضراره بالفلاحين كان يترتب عنه اقلال واردات الجمارك فإن أمير الأمراء السابق رمضان باشا كان قد كتب للاستانـــة يلتمس الغاء هذا الرسم وجـــاء في ٢٨ جمادى الآخر ٩٨٧ أمراً بالغاء هذه البدعة[2].

عمل جعفر باشا أميراً للامراء من ٩٨٧ حتى ٩٨٩ وبذل جهـــده في التحقيق عن مساوىء سلفه أمير الأمراء حيدر باشا وفي اصلاح آثارها.

بعد احتلال حلق الواد وفد شخص يدعى محمد مأموراً لمعرفـة واردات الإيالة ومصاريفها وتسجيلها وبعد لأي، كتب الدفتردار مصطفى أفندي للاستانة يخبرها بأن هذا الشخص لم يصحح سجـــلات الواردات الصحيحة للولاية بل تواطأ مع حيدر باشا وبالاضافة إلى أنهما اختلسا مبالغ ضخمة من أموال الدولة فانهما استوليا على الأطعمة التي خلفها الأسبان

---

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٣٦ ص ٧٧ في ٢٢ ذي الحجة ٩٨٦ .

(٢) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٤٠ ص ٤٠ .

في حلق الواد وعلى المؤن والمواد المتبقيـة بقلعة باب البحر وعلى مخلفات أبي الطيب[1] واثمان أشياء وتركة الميتـين من الوباء التي بيعت من قبل الحكومة واستولى على الكثير من واردات الدولة. وبالإضافة إلى أنه كتب لجعفر باشا أمير أمراء تونس يستوفي هذه المبالغ فقـد كتب أيضاً لأميري أمراء طرابلس والجزائر ليعاوناه في هذا الشان[2] ومع ذلك فقـد عينت الأستانة حيدر باشا مرتكب هذه الفضائح أميراً لأمراء طرابلس.

في سنة ٩٨٨ فصل جعفر باشا من أمارة أمراء تونس واستأذن للعودة إلى الأستانـــة[3]. وفي تلك الآونة فصل أيضاً حيدر باشا وذهب للأستانة.

حاول الباب العالي ارسال حيدر باشا أميراً لأمراء كفة إلا أن الباشا دبر أمره وبدلاً من الذهاب إلى كفة نقل تعيين وظيفتـــه إلى طرابلس[4].

ولما كان حيدر باشا غير معتاد على دفع النقود (أي بخيلاً وخسيساً) فقد حاول ارضاء التشريفاتي صباح الدين بقبول البشارة عن وظيفـــة واحدة باعتبار تعيينه في كفة أولاً ثم تحويل نقله إلى طرابلس وظيفة

---

(١) كان أبو الطيب قد تدخل في أمور كثيرة وجاء للاستانـــة فبلغهم بعض الأخبار.

(٢) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٣٦ ص ٢١٤ في ١٢ محرم ٩٨٨.

(٣) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٤٢ ص ٢٤٨ في ٣ ربيع الأول ٩٨٩.

(٤) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٤٢ ص ٢٣٩ في ٢١ صفر ٩٨٩.

واحدة يستحق دفع بشارة واحدة بدلاً من بشارتين إلا أن صبـــاح الدين لم يوافق على حرمانــــه من حقوقه بل أوصل شكواه للديوان الذي أصدر أمره لحيدر باشا بأن لا يسافر قبل أن يدفع الحلوان كاملاً بـلا نقصان [1] .

أمـا جعفر باشا فلم يكتب له الذهاب للآستانـــة وعين لأمارة أمراء الجزائر .

لم ينقض بعد من الوقت ما ينسي التونسيين التأثير الذي تركه حــــكم الأسرة الحفصية لعدة قرون ان ابن الأمير الأخير حميدة يقيم في مالطة . وكان يبعث من هنك على الدوام رسائـــل ورجالاً ويخابر شيعته وغيرهم من المفسدين الذين يسعون في كل زمان ومكان للاستفادة من اثارة القلاقل .

كان من المحتمل هجـــوم فرسان مالطة على تونس وذلك لالتزامهم بالمساعدة الفعلية لدعى الحكم المغفل الذي سيعود عمله بالضرر على الدين الاسلامي وعلى القومية التركية وللوقوف ضـد هذا الاحتمال كان يجب أولاً اصلاح حال رابطـــة المماليك (أي الإنكشاريين) الذين في تونس وفرض النظام على الأحوال التي تسود البلاد والاستعداد لمواجهة هجوم العدو ومقاومة الإستيلاء . وإذا مست الحاجة إلى طلب المدد فيطلب من طرابلس والجزائر .

---

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٤٢ ص ٢٤٨ في ٣ ربيع الاول ٩٨٩ .

لقد كتب بذلك من الأستانة إلى جعفر باشا وإلى أميري أمـــراء الجزائر وطرابلس في ٢ صفر ٩٨٩[١] ومن ثم صدر الأمر إلى قلنج علي باشا الذي أجبر للجزائر بأن يحقق في صحة الخبر الذي ورد من بعض التونسيين ومفاده ان شرذمة من المشاغبين على وشك التمرد وأن يتخذ الاجـــراء اللازم للحيلولة دون ذلك[٢] وخلاصة الأمر انهم يوصون كل الجهات بالانتباه والعمل بالتعاون .

وبالرغم من كل هذه التواصي والتحذيرات فإن الأمر الوارد ذكره فيما يلي يشير إلى أن مولاي أحمد دخل إلى تونس[٣] :

يؤمر أمير أمراء طرابلس بأن :

بعث حاكم قفصة رسالة يذكر انه قبل أن توجه إليه ادارة اللواء المذكور بشهر جاء من بلاد الكفر أمير تونس السابق مولاي أحمد العيسوي وأخرج حرس انكشاريي (أبواب القلعـة) الكائنة هناك وأودعهم في قلعة قفصة ثم غاب وجمـع ما يقرب من العشرين الف عربي من أطراف قفصة وهو على وشك الانتهاء من تجنيد عساكر من الأهالي لقـد ذهب إلى مقربة (منزلة) التابعة لقفصة المشار إليها ولم يتيسر له الدخول إليها وكل

---

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٤٢ ص ٨٦ .

(٢) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٤٢ ص ٨٢ في ٤ رجب ٩٨٩ .

(٣) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٤٧ ص ١٨٦ .

العرب ثائرون ولم نتلقَّ المدد من تونس وطرابلس وبالإهمال والتكاسل ستختل الأحوال وبما انه يرجو صدور الأمر لمكافحة العصاة فقد أمرت بان تكونوا متيقظين تماماً لهذا الأمر وأن تساعدوهم بجنودي المكللين بالنصر وبحملة البنادق وبعدد كافٍ من القوات .

في ١٦ جمادى الآخر ٩٩٠

اننا لم نعثر على معلومات تبين آخرة هذا الحادث ولما كان المفهوم ان قفصة كانت تحت الطاعة يظهر أن مولاي أحمد الذي جاء ليجرب حظه لم يجد أمامه من يتعاون معه غير بعض المشاغبين ويظن انه قتل هناك . ان استعمال سجل المهام كلمة العيسوي مع اسم مولاي أحمد ربما تعني ارتداده وتنصره .

الأحوال بعد سنة ٩٩٠هـ .

كان جعفر باشا قد استبدل في عام (٩٨٩ ـ ١٥٨١) بمصطفى باشا وأوصى حاكم قوجةايلي الذي سيأخذ حيدر باشا المعين لإمارة أمراء طرابلس الغرب من الأستانة إلى طرابلس بأن يحضر معه في عودته جعفر باشا[١] .

اختل في هذه الآونة نظام كل الأوجاقات في أفريقيا الشمالية وبينما كانوا يشكون في الجزائر من مساوىء حسن باشا فقد كان حسن باشا يرتكب في تونس أموراً منافية للأصول .

كانت رقعة الإيالة التونسية قد ضاقت كثيراً، إذ أن باشاوات الجزائر لا يتنازلون عن شبر واحد من الحدود الغربية كما أن باشا طرابلس يضم إليه الأراضي القريبة جداً لتونس والمناسبة لها .

ان حيدر باشا أمير أمراء تونس السابق راجع الأستانة وتمكن من

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٤٢ ص ٢٤٨ في ٣ ربيع الأول ٩٨٩ .

الحصول على الموافقة لضم بلدان توزر ونفطة وقفصة إلى طرابلس[1].

ان أمراء الأمراء كانوا يمنحون لبعض الأعيـــان أوامر بإعفائهم من دفع الضرائب وكانوا يتكرمون بمنح مخصصات لمن لا يستحقونها. وكانت واردات تونس القليلة تزيد بهذا الاجراء الفاسد قلة ولا تتجمع نقـــود تكفي لتسديـــد مصاريف العساكر. وكانت ترد أوامر من الأستانة بالامتناع عن منح تلك المخصصات وربط الزعامات بالخاصـة الملكية[2]. وقد تعرضت الأعمال الحكومية في تونس لاهمال شديد، وبما أن ديوان الباشا الذي ينظر في شؤون الأهالي لا يجتمع اضطر الأهـــالي لارسال عرائض للأستانـــة يلتمسون صدور الأمر إلى المفتي والقاضي والعلماء وغيرهم لعقد اجتماع في يوم كل سبت بالديوان للنظر في شؤون الفقراء[3].

كان مصطفى باشا لا يأبه لمثل هذه الصرخات والشكايات وكان يعالج الشؤون التي تعود على شخصه بالمنفعة فيشتري البضائع التي ترد للتجـــار

---

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٤٦ ص ١٧٨ في ١٠ شوال ٩٩٢.

(٢) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٥٢ ص ٢٣٧ في ١٩ محرم ٩٩٢.

ويضيف المترجم بأن الدولة العثمانيـــة منذ أوائل تأسيسها كانت تخصص لبعض الجنود والقواد وكبار رجال الدولة ضياعاً وأراضي لها موارد متدرجة يستغلونها لصالحهم ولا يدفعون عنها أية ضرائب. المترجم

(٣) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٥٨ ص ١٩٠ في رجب ٩٩٣.

قسراً بأسعار رخيصة ثم يبيعها للأهالي بأسعار غالية ويبتدع ألف نوع من الضرائب ليجمع بها الأموال[1].

ان أحد أمراء الأمراء السابقين المدعو كايا بك تعهد للأستانـــة بأنها إذا ألحقت أوطان سوسة والمنستير والقيروان بتونس فسيدفع لها بالإضافة لمرتبات الجنود الشهرية مبلغ ثمانية عشر ألف فلورين . فبعث الديوان السلطاني إلى تونس يسألها رأيها في هذا الشان وقد اجتمع أعيان وأشراف تونس وغيرهم من المطلعين على هـذه الشؤون وقرروا ان ايرادات هذه البلدان لا تتحمل المبلغ المذكور وأبلغوا الأستانة بذلك وبهذه الطريقـة حالوا دون تنفيذ اجراء قذر ،وهو تفويض قطر كبير لأحد الملتزمين[2].

في سنة ٩٩٢ ترك مصطفى باشا مكانه إلى حسن باشا وكان حسن باشا سيحقق في صحة المساوىء المدعى بها على سلفه[3] وقد أكد عليه الباب العالي بأن يحاسب مصطفى باشا وأن لا يسمح له بالذهاب للجـزائر ما لم يدفع مستحقات الإنكشاريين والأموال الأميرية التي في ذمته[4] .

---

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٥٨ ص ١٩٠ و١٩١ في رجب ٩٩٣ .

(٢) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٥٢ ص ٢٣٧ في ١٩ محرم ٩٩٢ .
لا توجد أية معلومات أخرى عمن هو كايا بك وفي أي زمن تولى أمارة الأمارة.

(٣) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٥٨ ص ١٩٠ .

(٤) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٥٨ ص ٢١٦ في ١٧ شوال ٩٩٣ .

ان المتظلمين من مصطفى باشا كانوا كثيرين حتى أن قاضي تونس المكلف بالنظر في هذه الشكاوى كان أحد المتظلمين وبما انه قد ألقي القبض على قسيس أسباني مسافر من الأستانة إلى الجزائر واستولي على أمواله فقد جاء الأمر باسترجاع الأموال من مصطفى باشا وارسالها للأستانة[1].

كان أمراء الأمراء وغيرهم ممن يتولون الأمور يستخدمون الأهالي في أراضيهم الخاصة دون أجر ويأخذون بالمجان ما يجدون بأيديهم من طعام وشراب ويسومونهم سوء العذاب.

كان الأهالي يرفعون شكاواهم للأستانة وهذه تمطر الفاعلين بالأوامر لمنع هذه الأفعال[2] وبالطبع لا يكون لذلك أدنى فائدة.

ان مدة أمارتيْ أمراء مصطفى باشا وحسن باشا تصادفان زمن ازدياد واستفحال القرصنة في الجزائر وتونس. ان ابطال الإيالتين كانوا يبذلون الجهود الكبيرة ويجلبون الغنائم الوفيرة.

ان ابراج حلق الواد التي هدمت بعد الاستيلاء على تونس دعت الحاجة الآن لتجديدها. ان السفن التجارية ومراكب القراصنة التي تعود من

---

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٥٨ ص ٢١٧ .

(٢) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٥٨ ص ٢١٩ و٢٢٥ .

غزواتها لا تطمئن لوجودها في هذا الميناء وكانت سفن القراصنة الأعداء تجيء وتناشب هذه الأنحاء لذلك كتب أعيان ووجهاء تونس للآستانة يلتمسون الاذن بإنشاء قلعة في حلق الواد. وصدر الأمر لأمير الأمراء بتشييد هذه القلعة[1] .

ان فوضى الإنكشاريين وتدخلهم في كل أمر كانت يفسد تماماً إدارة أمراء الأمراء والقضاة الذين لم يبقَ لهم نفوذ،وتحول دون القيام باي عمل.

كان الإنكشاريون بسبب تدخل بعض المفسدين من مختلف الجهات ولأغراض مختلفة وبتحريض المتظلمين يقضون جل أوقاتهم في الفتنة والشغب ويتدخلون في أعمال أمراء الأمراء والقضاة . وكان الديوان الهمايوني الذي بالأستانة يامر أمراء الأمراء وأغاوات الإنكشاريين ورؤساء المشاة ورؤساء السرايا وسائر ممالك الإنكشاريين لمنع هؤلاء من

---

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٥٨ ص ٢١٣ .

يؤمر أمير أمراء تونس بأن :

بعثت رسالة تخبر أن أعيان ووجهاء تونس قالوا لك بأنه يوجد منذ القديم مرسى صغير في حلق الواد قريب من تونس إذا جاءته سفن المسلمين وأرست فيه لا تأمن من أن تباغتهم سفن قراصنة اعداء الدين بالهجوم وتنهبهم وذلك لخلوه من حصن يحميه . وبما أن تشييد حصن على خمسة محاور سيحفظ مراكب المسلمين فإني أمرت بأن تنشيء حصناً جديداً في المكان المذكور .

في ١٧ شوال ٩٩٣

التمادي[1] .

لما كان حسن باشا يتقن شؤون البحر خيراً من باشاوي طرابلس والجزائر فقد عين قائداً لعموم القوات البحرية للإيالات الثلاث[2] . كانت في تونس

---

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٦٢ ص ١٢٦ سنة ٩٩٥ .

يؤمر أمير أمراء تونس وآغـا الإنكشاريين ورؤساء المشاة ورؤساء السرايا وغيرهم من ممالكي بأن :

ان بعض الإنكشاريين بتحريض من بعض المنافقين يقضون أوقاتهم في الفتنة والفساد ويتدخلون في الشؤون المفوضة لأمراء الأمراء والقضاة وفي شؤون الضرائب ويسببون الأضرار للخزينـة . لقد أمرت بأن تبلغوا ممالكي حين استلامكم لهذا وتوصوهم بأن يمتنوا بشؤونهم الخاصة ولا يتدخلوا في أمور غيرهم وإذا لم ينتهوا تطبقوا عليهم الجزاء الذي يستحقونه . في ١٢ذي الحجة ٩٩٥ .

(٢) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٦٢ ص ١٧٠ .

يؤمر أمير أمراء تونس بأن :

لما بلغ مسموعنا أن سفن الكفار الخاسرين بالإضافة إلى أنها تؤذي المراكب التجارية التي تقدم للاستانة فإنهـا تهاجم بعض الشواطىء لممالكي المحروسة وتعيث فيها فساداً فإني عينت أمير أمراء تونس حسن باشا لمهارتـه في أمور البحر عينته قائداً عاماً على الغزاة الكائنين في أمارات أمراء جزائر الغرب وفي تونس وطرابلس وفوضت للمذكور كل الأمور المتعلقة بالبحـر . فليذعن له بالطاعة كل العساكر الذين في الإيالات المذكورة وستكون لتوصياته الوزن والسمع كما أنه لا يمانع في مرور سفن فرنسا والبندقية وانكلترا الذين هم على ود مع سدة سعادتي . في ١٠ صفر ٩٩٦.

كما هو في الجزائر منافسة انتفاع بين الإنكشاريين وبين الربابنة . لقد كانت مكاسب الربابنة من حروب البحر كبيرة ولذلك فقد انهمك الإنكشاريون في البحث مقابل ذلك عن المكاسب في البر . كانوا عندما تجرى تبديلات لأمراء الأمراء يطالبون بضمائم عامة على مرتباتهم اسوة بما يجري في تبديل السلاطين وكانت هذه العلاوات تضخم مصاريف الجنود على أكبر مقاس ، ولإيجاد هذه الأموال كانت تزاد الضرائب على الشعب وبما أن الأهالي لم تبقَ لهم الامكانيات ولم تبق لهم القدرة للتمرد على الدولة فإنهم كانوا أمام هذا التعسف يهربون تاركين البلاد[1] .

ثانياً : كان الإنكشاريون فيالسابق يقيمون في الثكنات والمعسكرات الخاصة بهم ويقضون أوقاتهم في الشؤون الملكية ثم ظهرت عادة ارسال حراس أي محافظين إلى مختلف الجهات .

كانت مفارز المحافظين في بادىء الأمر ترسل إلى الجهات التي يهددها اللصوص وقطاع الطرق ولها فوائد إلا أن الإنكشاريين أخذوا فيما بعد يبعثون المحافظين من أجل منافعهم الخاصة . إذ كانت الفرق التي تبعث للمحافظة تفرض على الأهلين اطعامها وكانوا يرتكبون أنواع المخازي متذرعين بأنواع الحجج .

لقد كانت هذه الفرق تستبدل كل ستة شهور وكان المغادرون

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٦٤ ص ١٠٥ في سنة ٩٩٤ .

والقادمون يأخذون من الأهالي الكثير من المواد والمؤن[1].

ثالثاً : كان الإنكشاريون متفقين على تبديل الآغاوات كل ستة شهور دون الحصول على ترخيص أمراء الأمراء ويرهقون الأهالي بطرح أنواع الضرائب على الفقراء وكانوا بتخصيص العلاوات لأنفسهم يصيبـون خزينة الدولة بأضرار فادحة . بيد أن تعيين الأغاوات كان من اختصاص أمراء الأمراء[2] .

رابعاً : كان الإنكشاريون يجمعون من المقاطعـات دراهم باسم الضيافة ولم يكن لهم أدنى حق في هذا[3] .

---

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٦٤ ص ١٠٦ .

(٢) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٦٤ ص ١١١ .

يؤمر أمير أمراء تونس بأن :

بعثت لسدة سعادتي عرائض متعددة بأن جماعـة الإنكشاريين يبدلون آغاواتهم كل ستة شهور وبالإضافة إلى أنهم يحملون الفقراء أنواع التكاليف وان الخزينة أصيبت بعجز شديد من جراء العلاوات المتتالية على مخصصاتهم . وبما أن نصب الأغاوات وعزلهم كان من اختصاص أمـراء الأمراء وانهم يعملون خلاف رضاهم فقد أمرت بأن تنبه على جماعة المماليك بأنه إذا اقتضى الأمر تبديـل الأغاوات السابقين فليكن ذلك مرة واحدة في العام ويجري من قبلك .

في ١٥ شوال ٩٩٦ .

(٣) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٦٤ ص ١١١ .

يؤمر أمير أمراء تونس بأن :

ليكف عساكري المنصورون عن استيفاء مصاريف الضيافة بدون علم أمراء=

وبينا كان الإنكشاريون يفعلون ذلك ، كان حكام الألوية يسلبون أموال الأهالي لحسابهم[1] . وكان الأهالي يكتبون هذه المساوىء في رقع يبعثونها للمقـــام السامي ، والديوان الملكي يبعث أوامر وتأكيدات ومراسيم سامية إلا أن الأوامر تظل دون تنفيذ .

بينا لواء سفاقس يجب أن يكون مرتبطاً بتونس فإنه كان تحت إدارة طرابلس . وقد أخذت حاجة تونس إليه بعين الإعتبـــار فألحق بها في ٢١ شوال ٩٩٦ .

ان جنود هذا اللواء في حالة حدوث الحرب سيكونون تحت أمر أمير أمراء تونس[2] .

ان أعمال النهب والظلم والفوضى السائدة في تونس يعمـل مثلها في

=الأمراء. ولما بلغني انهم يجمعون النقود من المقاطعات لضيافة الذاهبين والقادمين. فقد أمرت بأن تحول دون جمع الضيافة والنقود من المقاطعات وتجازي المخالفين.
في ١٥ شوال ٩٩٦.

(١) يؤمر أمير أمراء تونس بأن :

لما بلغني أن حكام الألوية لا يقنعون بالمخصصات الشهريـة التي كانوا ولا زالوا يقبضونها ويطلبون المزيد عليها فقد أمرت بأن تمنع —حين وصول هذا— أولئك الذين يطالبون بأكثر من مرتباتهم وتكتب اسماءهم وألويتهم وتعرضهم علينا .
في ١٥ شوال ٩٩٦.

(٢) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٦٤ ص ١١٦ .

طرابلس . وظناً من أهاليهـــا انهم سيجدون الخلاص في التمسك بأذيال الرجل الضال المدعو يحيى الذي ادعى انه المهدي ثاروا في وجه الحكومة[1] .

وفي حالة طلب العون من طرابلس للقضاء على هذه الثورة فقد كتب لأمير الأمراء ولأغاوات الإنكشاريين ولجماعة المماليك في تونس بأن يأخذ أمير الأمراء شخصياً الجنود ويذهب أو يتبعهم مع أحد القواد[2] .

ذهب أمير أمراء تونس بجنوده لنجـــدة طرابلس كما أن القبطان باشا (وزير البحرية وقائد الأسطول) حضر لجهات طرابلس ولما حل الشتاء ولم يقبض على المتمهدي عاد الأسطول للأستانة وتلقى أمير أمراء تونس أمراً بالبقاء هناك مدة أخرى مع جنوده وأن يسعى لتوطيد النظام في الولاية وأن يتدارك مؤونة عساكره ويجلبها من تونس[3] .

عين محمد باشا لأمارة أمراء الإيالة بدلاً من حسن باشا الذي كان قـد عين في صفر ٩٩٦ قائداً عاماً للجيوش البرية والبحرية في تونس وطرابلس الغرب والجزائر[4] ولذا فقد ترتب على محمد باشا ان يتفق مع أمير أمراء

---

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٦٤ ص ١٧٦ عام ٢٥٦ .

(٢) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٦٤ ص ١٧٨ عام ٩٩٦ .

(٣) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٦٦ ص ١٢ سنة ٩٩٧ .

(٤) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٦٤ ص ١١٣ .

طرابلس وان يبعث الفرسان وجنود المشاة لمطاردة المتمرد الذي انسحب للدواخل والقبض عليه وحراسة الولاية .

لقد بلغ الأستانة بأن المجدفين النصارى هربوا بإحدى سفن محمد باشا التي كانوا يعملون عليها فبعث السلطان يسأل عن سبب هذا الحادث وعن الفاعلين[1] .

بقي محمد باشا في أمارة الأمارة حتى سنة ٩٩٩[2] .

---

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٦٦ ص ١٤٩ عام ٩٩٧ .

(٢) يقول (مارجل ج.ج – تونس – أونيفرس) في مؤلفه ان بعد عامين من احتلال سنان باشا لتونس وعودته ثار الإنكشاريون وقتلوا أعضاء الديوان كلهم وانتخبوا ديواناً جديداً عينوا لرئاسته شخصاً من بينهم تحت اسم داي . وبعد عشر سنوات أيضاً طرد الإنكشاريون أمير الأمراء وبعد مناقشات مطولة قبلوا تعيين أمير للأمراء بشرط أن لا يتدخل في أي شيء ما عدا تمثيل السلطان. ان هذه الرواية تسجلها بعض الكتب الأخرى ، فيذكر اسعد أفندي مسجل الوقائع في مقاله (خلاصة أحوال تونس الغرب) عام٩٩٩ « حدث تمرد وتعرض المعينون للديوان والضباط لهجوم الجهلة والأوباش وقتلوا. ثم سعى الوالي والعقلاء والضباط لتسكين الحال وجرى الإتفاق مع ممثلي الجند بأن ينتخبوا أحد الأربعين يوزباشي المذكورين أعلاه رئيساً لهم على أن لا يقوم رجال الديوان بتنفيذ أي عمل ما لم يستشيروه ويحصلوا على موافقته وانتخبوا من بينهم شخصاً يدعى إبراهيم ليكون آغا يسمى داي ، ولما كان إبراهيم رجلاً عاقلاً ومدبراً فقد قضى ثلاثة أعوام داياً ثم ذهب للحج ولم يعد بعد لتونس بل ذهب لبلده في=

في التاريخ المذكور عين جعفر باشا سنة ٩٩٩ .

بما ان قبطان البحر سنان باشا سيخرج في أول ربيع عام ٩٩٩ للبحر فقد كتب لأمراء أمراء الجزائر وتونس وطرابلس الغرب بأن يتهيأوا للالتحاق به في سواحل كورون وميتون[١] وفي سنة ١٠٠٠ جاء حسين باشا مكان جعفر باشا .

حدث القحط في طرابلس واسعفت هذه الإيالة بإرسال المؤن[٢] وهذا أيضاً تلقى أمراً بالذهاب إلى طرابلس للتنكيل بالعصاة[٣].

=رودس . ثم يذكر الدايات الذين جاءوا فيما بعد . لا توجد في قيودات سجلات المهام لعامي ٩٩٩ و ١٠٠٠ ولا حكمة واحدة في هذا الشأن .

ظهر اسم داي في الأوامر التي كتبت لأوجاقات الغرب بتاريخ ١١٠٠ ومن الممكن أن يعطف السبب إلى أن الدايات كانوا في مقام آغاوات الإنكشاريين ولم تظهر لهم أهميــــة تذكر ، يمكن ان يكونوا قد أخذوا زمام السلطة في أيديهم سنة ١١٠٠ .

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٦٨ ص ١١ في ٢٤ ذي القعدة سنة ٩٩٩.

(٢) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٦٩ ص ١٥٣ في أوائل جمـــادى الأخرى عام ١٠٠٠ .

(٣) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٦٩ ص ١٨ .

يؤمر أميرا أمراء تونس وطرابلس الغرب حسين ومحمد باشا بأن :

تذهبا مع محمد باشا باي طرابلس للقضــــاء على الثوار الذين ظهروا في طرابلس ... اعلاه ...   في ٣ جمادى الآخرة سنة ١٠٠٠

قضى على ثورة يحيى بتعاون كل الأطراف[1] وبالرغم من القضاء على هذا التمرد فقد كان من المحتمل ان يتجدد ويستعر لهيبه وقد أمر أمير أمراء تونس ـ في هذه الحالة ـ بأن يسارع للنجدة[2].

كانت حكومة الأستانة في هذه الآونة قليلة الإتصال جداً باوجاقات الغرب وكانت أحوال هذه الجهـــات تعرف من أقوال أمراء الأمراء وتصرف الأمور بالموافقة على ما يقولونه وحدود تونس وطرابلس تتبدل باستمرار وفقاً لنفوذ أو لقوة حجة الباشاوات وكان لواء سفاقس يعطى ويُسترجع إلى ومن طرابلس وتونس المرة تلو الأخرى وأخيراً عرض حسين باشا بأن اعطاء سفاقس ثانية إلى طرابلس سيقضي على الأهالي بيد اللصوص فووفق على بقائها مرتبطة بتونس[3].

---

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٦٩ ص ١٣١ .

يؤمر أمير أمراء طرابلس بأن :

ان محمداً أمير أمراء طرابلس السابق بعث رسالة يذكر فيها « اننا لما وصلنا إلى طرابلس للكفاح ضد الخارج المدعو بالمهـــدي فإن مماليك طرابلس بذلوا في سبيل السلطان ما يبيض الوجه وخلصوا البلاد من أيدي الجماعة الباغية وأصبح الرعايا والبرايا مطمئنين .   في ٢٢ جمادى الأولى ١٠٠٠ .

(٢) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٦٩ ص ١٥٣ في أوائل جمـــادى الأخرى سنة ١٠٠٠ .

(٣) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٧٢ ص ١١٦ .   =

ان شيخ عرب قلعة تبسة التابعة لتونس حاول الثورة، وبالإضافة إلى أنه لا يدفع الأتاوة ولما كان يسعى لبث الفتنة بين القبائل المجاورة له فقد عرض أمره على الأستانة وجاء أمر بالقضاء عليه إذا ما تبين انـه سيقوم بالعصيان والاحتراز من الإعتداء على الرعايا الوادعين[1].



= يؤمر أمير أمراء تونس بأن :

بعثت لسدة سعادتنا رسالة مع قاضي تونس بأن لواء سفاقص خلافاً لوضعه الصحيح مربوط بطرابلس ، كان اللصوص وجماعات العرب يغيرون على القرى التابعة لتونس ولا يستطيع أحد الذهاب للارياف ويقطعون الطرق ويقتلون النفوس ولما ألحق هذا اللواء بتونس أرسل له عدداً وافراً من المحافظين وتمت حراسته . فقد ورد الأمر الكريم بالحاقه بطرابلس وقد عرضت بأنه إذا أخرج محافظو تونس من سفاقص وألحق بطرابلس فإن اللصوص سيلحقون الضرر بالرعايا . عندما يصلك أمري فقد أمرت بأنـه لما كان اللواء المذكور في السابق ملحقاً بتونس فقد صدر أمري بالحاقه بتونس وتبعث بعدد كافٍ من المحافظين لحراسته . في رجب سنة ١٠٠٢ .

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٧٤ ص ٢٤٣ في ٩ شوال ١٠٠٢ .

دور الدايات في تونس

قام الإنكشاريون بثورة في عام ٩٩٩ قتلوا فيها أعضاء الديوان والضباط ثم تدخل الوالي والعقلاء والأمراء الذي سوّي على أساس أن ينتخبوا أحد اليوزباشية من بينهم ليكون رئيساً وأن يستشار في كل ما له علاقة بالجنود في الديوان ، وكان أول داي هو بولوك باشا يدعى إبراهيم ـ٩٩٩ـ عمل هذا الشخص مدة ثلاث سنوات داياً وكان عمله يصادف مدة الوالي حسين باشا . كان رجلاً عاقلاً ومدبراً وفي عام ١٠٠١ سافر إلى مكة بنية الحج ولم يعد بعدها إلى تونس بل عاد إلى رودس التي هي بلده . ومن بعده صار البولوك باشا موسى داياً (١٠٠١) لقد حاول الاستبداد بالحكم ولكنه لم يوفق. وبعد عام ذهب للحج وبعد أن عاد بدأ في النزاع مع أحد البولوك باشية المدعو قره عثمان وحدث القيل والقال والمضاربة بين أنصار الطرفين وأخيراً تغلب عثمان على موسى ونفاه للجزائر وصار داياً (١٠٠٧ ـ ١٥٩٨)[١].

---

(١) كاتب الأحداث أسعد أفندي .

أبدل أمير الأمراء حسين باشا في مبـــدأ تبادل الاتهامات فيما بينهم (١٠٠٣ ـ ١٥٩٤) وجاء أحمد باشا مكانه[١] في هذا التاريخ كان مراد بك المعروف بأمير الأوطان أمير لواء تونس أو حاكمها .

وأصبحت تونس تتأرجح بين ثلاث قوى: أمير الأمراء وحاكم اللواء والداي إلى أن آلت إلى أسرة حسين باشا بالوراثـة . في بعض الأحيان لم يوفد أحد من قبل السلطان وأحياناً توجه إمارة الأمراء إلى الدايات أو إلى حكام الألوية ومع وجود الدايات فيوجد أيضاً آغاوات الإنكشاريين[٢].

كانت تنظيمات الجزائر وتونس وطرابلس الغرب تشبه بعضهـــا البعض إلا أن غوائلها تحدث حسب اتساعها إذ أن للأمزجـــة والطباع والخصال أيضاً تأثيراً هاماً على الإدارة وقد استقر الحكم في سنين متقاربـة بتونس وطرابلس الغرب في أسرتين وتوقفت محـــاولات الإستيلاء على الحكم وتمتع البلد بالهدوء النسبي إلا أنـــه لم يحدث في الجزائر مثل هذا الحال . لقد ظهرت بدعة الداي أولاً في تونس ثم طبقت في طرابلس ثم في الجزائر. بينما طبقت أولاً هذه الإدارة في البلدان التي انقلب حكمها وراثياً

---

(١) يقول السجل العثماني ان أحمد باشا هو ابن حسين نيكساري عـــين في في سنة ١٠٠١ دفتردارا لمصر وفي سنة ١٠٠٣ عين أمـــيراً لأمراء تونس ثم فصل في سنة ١٠٠٥ .

(٢) كانت الأوامر التي تكتب من الديوان الملكي إلى أميري أمراء طرابلس وتونس تخاطب أمير الأمراء والداي والآغا .

ومطلقاً فإن حكم الدايات استمر في الجزائر حتى آخر لحظة .

أرسل أمراء الأمراء من الأستانة إلى تونس وطرابلس حتى انتقلت الإدارة لحكم أسر مختلفة إلا أن الأستانة اكتفت فيما بعد بتصديق مامورية المتولين على الحكم .

توجد أوامر قليلة جداً في تسجيلات الديوان الملكي تتعلق بالغرب خلال هذه الفترة، لذا فإن تاريخ أمراء أمراء تونس خلال هذه المـــدة ناقص جداً .

ان حكام مركز لواء تونس بالنسبة للأوجاقات الأخرى احرزوا في أكثر الأزمان نفوذاً كبيراً وتركوا الدايات في الظل . ان مراد باشا ومحمد باشا وحسين باشا كانوا من هذا القبيل .

في سنة (١٠٧١ ـ ١٦٦١) وقف البايات (الحكام) في وجه الدايات ثم استمر الحال على هذا النمط . أخذ الجزائريون تشكيلات الداي عـــن تونس إلا أنها لم تعطِ هناك نتيجة حسنة وذلك بسبب الفرق في طبيعـة أهالي البلدين . ان اختلاف هذه الطبيعة موجود على الدوام[١] .

كان السلطان أحمد قد عين بعد سليمان باشا ـ وبالرغم من الشكاوى التي في حقه ـ عين خضر باشا لأمارة أمراء الجـزائر (١٠١٣ ـ ١٦٠٤) وبالرغم من الأوامر القطعية التي تلقاها خضر باشا فقد أنزل ضربات شديدة بالمصالح الفرنسية وأمر بنهب مؤسسات لاكال ورأس العبد .

---

(١) فوربيكه .

بعث السلطان أحمد الكوسة محمد باشا للجزائر ليقوم باعدام خضر باشا ويطلق سراح الأسرى الفرنسيين وقد تمكن الكوسة محمد من قتـــل خضر باشا إلا أنـــه لم يوفق إلى تخليص الأسرى (١٠١٣ ـ ١٦٠٤) .

كان المـيو ديبريوي سفير فرنسا في الأستانة قد ذهب مع قواصـــة كوسة مصطفى إلى تونس وذلك ليسعى من هناك أيضـــاً كما في الجزائر لتخليص الأسارى وقد واجه المسيو ديبريوي معارضة شديدة من الأهالي ومن الإنكشاريين ومن عثمان داي وحاول الهرب لما ظن أن حياتـه في خطر إلا أنه أخيراً وبوساطة المحترم والقبطان القديم مراد تمكن من تخليص الأسارى الذين في تونس وقضى مهمته بصورة مناسبة (١٠١٣) . جدّ عثمان داي لتقوية النفوذ التركي في تونس . جاء الأندلسيون المطرودون من الأندلس إلى تونس في عهد عثمان داي وتلقاهم المذكور بقبول حسن وأسكنهم في (سليمان) القريبة من تونس وقـــد شيد هؤلاء المسلمون المعروفون باسم (مور) فـــيما بينهم قرى ومساجد . لقد كانت أزياؤهم ولغتهم ولونهم غير دارج في البلاد . لقد كانوا بساتنـة من الطراز الأول وفلاحين وأصبحوا عنصراً مفيداً جداً لثروة تونس [١] .

ان بحارة تونس رموا أنفسهم على القرصنة أسوة بالجزائريين ، إلا أن أمام هؤلاء كان فرسان مالطة وكانوا مضطرين للاصطدام بهم ، كما أن الفرسان لا ينقطعون عن التجول في البحار ويطرقون السواحل التونسية

---

(١) فيكتور بيكه (مدنيات أفريقيا الشمالية) .

باستمرار . وفي عام ١٠١٤ ـ ١٦٠٥ هاجم المالطيون الحمامات وقاموا بعملية نهب إلا أن الذين أخذتهم المباغتة، لما زالت عنهم الدهشة، كروا على الذين نزلوا لليابسة وجعلوا معظمهم طعمة لسيوفهم .

طرد عثمان بك عربان الشوابية من القيروان وأدى لأمن البـــلاد خدمات جليلة .

كان عربان الشوابية منذ سنين طويلة مستولين على أواسط تونس وكانوا يضطهدون سكان المنطقـــة التي تمتـد من القيروان حتى محاذاة تبسة[1].

توفي عثمان داي في عام (١٠١٩ ـ ١٦١٠) وانتخب نسيبه يوسف داياً بديلاً له[2].

لما جاء للأستانة المنفصل من امارة أمراء تونس عام ١٠١٦ تلقى أمراً بالمثول أمام المحكمة للنظر في الشكوى المرفوعة من السفير الفرنسي ضده ولربما ركب سفينة وهرب ورأينا أن الأمر الصادر في هذا الشان يستأهل التدقيق فقد أوردناه بعينه :

سجل مهام الديوان الملكي رقم ٧٦ ص ٦٢ .

---

(١) فوربيجي .

(٢) كاتب الحوادث أسعد أفندي .

يؤمر أمير أمراء تونس بأن :

لما كنتَ أميراً لأمـراء تونس كنت متفقاً مع عصبة رجال البحر في الظلم والاعتداء على رعايا فرنسا وقد بلغني انك على وشك مغـادرة سدتي العلية صدر لك أمـــري الكريم بأن لا تذهب قبل أن تتحاكم مع سفير فرنسا إلا أنك لم تطع أمري الكريم وهربت وبذلك أصبحت مستحقـــاً للعتاب والعقاب . والآن فقـد صدر خطي السلطاني المقرون بالسعادة بامري العـــالي الشان لتحضر سريعاً لسدتي العلية من أي مكان أنت فيه. وقد أمرت عندما يصلك أمري الملكي أن لا تتاخر لحظة أو ساعة ولا تتراخَ . في أي مكان يردك ويصلك أمري هذا لا تتعلل أبداً ولا تعانـد ولا تخالف بل تركب سفينتك وتحضر عاجلاً إلى عتبة سعادتي، هذا ولتعلم بانك في هذه المرة أيضـــاً إذا عاندت وخالفت في القدوم فسوف تعاتب وتعاقب .

في ٩ جمادى الأخرى ١٠١٦ .

في سجلات مهام الديوان الملكي (رقم ٧٨ ص ٥٧٣) يوجد أمـــر كتب خطاباً لسليمان باشا أمير أمراء تونس السابق بتاريـــخ ٢٠ شوال ١٠١٨ ربما كان المخاطب في الأمـر المذكور أعلاه هو هذا الشخص ومن قيودات الديوان رقم ٧٨ ص ٥٧٣ أيضـــاً يوجد ضمن الأمر المبعوث إلى محي باشا أمير أمراء قبرص بالذهاب إلى استانبول يوجد أمر بتعيـــين سليمان باشا قائداً عاماً على الأمراء الموجودين هناك وهذا يعني أنه صـدر العفو عن سليمان باشا . يكتب (السجل العثماني ان أحمد باشا جاء في عام

١٠٠٣ مكان حسين باشا أمير أمراء تونس وفصل في تاريخ ١٠٠٥) إلا أن هذا الاسم غير موجود في قيودات الديوان . فقط هناك أمر بتاريخ١٠١٣ (سجل المهام رقم٧٥ ص ٣٠٥) يبحث عن مصطفى باشا متصرف لواء سفلة وأمير أمراء تونس السابق . يفهم من هذا ان مصطفى باشا كان قبل عدة سنوات أميراً لأمراء تونس . في ١٠١٨ كان محمد باشا في امارة تونس (سجل المهام رقم٧٨ ص ٦٩٤) ولا يصادف في القيود التي بعد ذلك لأسماء أمراء أمراء تونس . إلا أنه في (سجل المهام رقم ٨٨ ص ٩) يرى في أمر بتاريخ ١٠٤٧ يبحث عن أبي بكر باشا الذي كان في السابق أميراً لأمراء تونس وهو حالياً متصرف للواء رودس بطريق الانتداب. لقد بقيت اسماء امراء الأمراء مجهولة لعدد من السنين .

في سنة١٠١٨ شُكيَ للسلطان من الفزانيين . لقد خرجوا عن الطاعة منذ خمسة عشر عاماً ولم يعودوا يدفعون الضرائب . كانت هذه الجهات مربوطة بتونس منذ الفتح. فأجاب السلطان بأن هذه الكتابات إذا كانت صحيحة يجبرون على الطاعة وبعد الاستيلاء على بلادهم تخصص وارداتهم لمخصصات عساكر تونس[1].

كان يوسف داي لبيباً أريباً وسار على النهج الذي مشى عليه عثمان داي .

كانت تقيم في المنطقة التي بين لواء قسنطينة وبين تونس عدد من

---

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٧٨ ص ٦٩٥ .

القبائل الشرسة ، الفوضوية والمتمردة وكانت أهم هذه القبائل الحنينشة وهؤلاء ينقسمون إلى فخذين أحدهم الحرار وهم يقيمون في تبسة والثاني ابن شنّوف يقيمون في الكاف .

ان حاكم قسنطينة كان قد خصص لهؤلاء فريقاً من المحافظين وكان الحرار تابعين للجزائر وبنو شنّوف تابعين لتونس. كانت هاتان القبيلتان تتنازعان على الكلأ والمراعي والأراضي ويسببون بذلك توتر العلاقات بين الجزائر وتونس .

زحف يوسف بك على هاتين القبيلتين ونكل بهمـــا . ان المنازعات القبلية أوجبت تعيـــين الحدود بين الإيالتين وفي ١٠٢٣ ـ ١٦١٤ أقيمت أول حدود بين تونس والجزائر .

كانت العلاقات الخارجية بين تونس والجزائر من جهة وبين الدول الأجنبية من عام ١٦١٠ حتى آخر القرن السابع عشر تنحصر في القرصنة وفي مساعي الدول النصرانية لمنع القرصنة .

بلغ عدد المراكب التي غنمها الجزائريون والتونسيون ٩٠٠ سفينة[١] .

---

(١) كانت المراكب التي غنمت من ١٦١٣ حتى ١٦٢١ منهـا ٤٤٧ لهولاندا و١٩٣ لفرنسا و١٢٠ لأسبانيا و٦٠ للانكليز و٥٦ لدول الحلف القديم ولم يدخل في الحساب المراكب التي أحرقت أو أغرقت والسفن التافهة والصغيرة .
فوربيجه

كانت سفن مالطة وسانت ايتـين وجنوا وليفورنو تحاول على قدر الامكان المقابلة بالمثل وبما أن أوجاقات الغرب لم تكن تملك مراكب تجارية يخشى اصابتها بالضرر فكان المتضررون هم الدول النصرانية .

كانت جزيرة جربة منذ البداية مربوطة بضريبة مقطوعة وفي عام ١٠٢٢ حوول الزامهم بدفع العشور وغيرها من الضرائب أسوة بالأمكنة الأخرى إلا أنه بناء على شكاية الأهالي للاستانة فقد أمر أمير الأمراء بأن يعامل الأهالي كالسابق وأن لا يعطى مجال للقاضي لظلم الفقراء(١).

كان في عهد عثمان داي أمير لواء تونس (أي حاكمها) هو رمضان بك الذي توفي في ١٠١٤ وصار أخوه رجب بك أمير لواء مكانه إلا أنه لم يعمر ولما توفي خلف ولداً صغيراً يدعى سليمان تولى امارة اللواء مراد بك الذي تربى وكبر في حجر رمضان بك. كان مراد بك ويوسف داي أصدقاء مخلصين متحابين. كان يوسف داي قد حبب نفسه للناس بدرايته وحنانه وقد شيد في المدن التونسية كثيراً من المبرات لقد كان يسود البلاد الرغد والاستقرار. وتقديراً من حكومة الأستانة لكفاءة مراد بك الادارية عينته أميراً للامراء وباشا .

في عام ١٠٣٧ ـ ١٦٢٧ نشب بين الجزائريين والتونسيين أول خلاف وقد اصطدم أتراك الجزائر وتونس على الحدود ، إلا أن باشا الجزائـــر

---

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٨٠ ص ١١٢ و١١٣ عام ١٠٢٢ .

وداي تونس علما بفاجعة اراقة دماء الاخوة فلم يطيلوا المناقشة وعينوا الحدود ثم انسحبوا. ولمجازاة العربان الذين خانوه في القتال الذي حدث مع الجزائر قام يوسف داي في بادىء الأمر بالدس والتفرقة بينهم ثم ساق قوة بقيادة حمودة بك ابن مراد بك قتلت العديد من رجال قبيلتي ابن شنوف وأولاد سعيد وقد تقدم حمودة بك حتى الحامة (١٠٤١) وبهذه الطريقة رسخ بشدة نفوذ الترك في تونس. كانت الإدارة التونسية تحظى بالعطف في سياستها المعتدلة في الخارج . توفي مراد بك ولحقه يوسف بك أيضاً . توفي ليلة الجمعة اليوم السابع من رجب عام ١٠٤١ [١] .

جاء بدلاً من مراد باشا ابنه أبو عبدالله محمود بك وبدلاً من يوسف بك مراد قبطان . كان مراد قبطان حميد الخصال وصيت بطولته ذائع في بلاد الافرنج [٢] وكان مراد قبطان هو الذي رمم قلاع مرسى (غار الملح ـ بورتوفارينا) وحلق الواد وقليبية [٣] .

عاشت تونس في هدوء ورفاهية بفضل كفاءة مراد داي وشجاعته وتجوال حمودة بك شخصياً في أنحاء الإيالة والزامها بالطاعة. توفي مراد قبطان سنة ١٠٥٠ وصار داياً بعده الدفتردار اوزون أحمد خوجة [٤] الذي كان رجلاً

---

(١) كاتب الحوادث أسعد أفندي .

(٢) كاتب الحوادث أسعد أفندي .

(٣) كان مراد قبطان قد سن قانوناً للغنائم البحرية .

(٤) قاموس الأعلام وأسعد أفندي وفوربيجه .

يتقن العمل ، كفؤاً ، كاملاً وكان يحظى بحب الشعب .

في بدء عمله داياً هاجم الفرسان المالطيين في حلق الواد وأحـــرق السفن التي كانت هناك .

ان الحصن الذي أقيم بمساعدة السلطان مكان القلعة المدمرة لا يقوى على المحافظة على الميناء وقد أضاف أحمـــد خوجة برجاً آخر للحصن المذكور سنة ١٦٥٠[١] .

ان محمود بك اشتهر باسم حمودة . كان قد تولى قيادة عساكر الإيالة في عهد أبيه وقام بجولات موفقة اكسبته الشهرة . كان البربر والعربان خوفاً منه يدفعون الضرائب بانتظام ويتمسكون بالهدوء ، ومع ذلك فقد اقتضى الحال حمودة أن يعمل لمدة طويلة . بدأ أولاً بطرد أولاد شنوف من الكاف وقتل زعماءهم ثم زحف على القبائل التي كانت تعيش منذ عصور في الغرب الجنوبي من تونس على الشقاوة واللصوصية وشتتهم ، ثم أرضخ للطاعة الهمامة وقبائل الجريد الذين كانوا دائمـــاً متمردين . وقد عقد حمودة بك الصلـــح مع الدول النصرانيـــة وبعث سفيراً إلى لويس الرابع عشر .

لقد بلغت تونس في عهده الاستقرار الذي لم تنله في أي زمان[٢] .

---

(١) فوربيجه .

(٢) فيكتور بيجه .

كلما زادت قدرة حمـــودة بك ، انخفضت أهمية الدايات . وفي سنة (١٠٥٧ ـ ١٦٤٧) توفي أحمد خوجة وصار داياً مكانه أحد رؤساء السرايا الحاج محمد بتنسيب من حمودة بك .

كان محمود بك ذا طباع حميـــدة وفي هذه الفترة زوج ابنه مراد من بنت يوسف بك وأقام عرساً رائعاً لم تر تونس له مثيلاً .

كان محمود بك يسعى ويجاهد بالاتفاق مع حمودة بك لاعمار تونس . ان الجسر الذي على طريق القيروان هو من آثـار محمود داي. ولما توفي محمود داي في سنة ١٠٦٣ـ١٦٥٢ انتخبوا داياً مكانه وبإيحاء من حمودة بك اللازحاجي مصطفى . كانت القرصنـة ناجحة جداً في عهد حمودة بك وكان الأوروبيون قد قرروا بالاتفاق فيما بينهم الوقوف والحرب ضـــد هؤلاء وخرج أسطول انكليزي بقيـــادة روبرت بلاك للبحر الأبيض لهذا الغرض . جاء هذا الأسطول إلى حلق الواد فضرب استحكاماتـــه بالقنابل واسكتها وأحرق السفن التي في الميناء ثم ذهب إلى طرابلس وعاد من هنـاك للجزائر وكان كل ما عمله هو استرجاع بعض الأسرى سنة ١٠٦٦ ـ ١٦٥٥[١] .

شيد بك تونس الأبراج والحصن التي دمرهـــا الأسطول الانكليزي أكثر متانة وأضاف إليها بعض الطوابي وسحب على مدخل الميناء من الداخل والخارج سلاسل متينة .

---

(١) فوربيجه .

منحت رتبة الباشاوية من قبل الدولة لحمود بـك . وفي المرسوم المرسل شرف بتسميته ابن الباشا، وكان السلطان ـ بمختلف الوسائل ـ يغمر الباشا بإرسال الخلع والهدايا إليه رافعاً من قدره وشانه . كان لحمود باشا ثلاثة أولاد ، كان أحدهم في تونس والثاني حاكماً لسوسة والثالث كان حاكماً للجريد . ان العمل المتواصل مدة واحد وثلاثين عاماً أرهقت محمود باشا ولذا فقد استقال ليأخذ قسطاً من الراحـــة وترك إدارة البلاد لابنه مراد بك .

ان محمود باشا لم يهدأ عن العمل في أيام راحته بل كان مشغولاً بالأعمال الخيرية فانشا مسجداً ومستشفى وعدداً وافراً من سُبل المياه وجلب المياه وأنشا ضريحاً في القيروان وقد جمع العلماء والشعراء من حوله وقضى أيامه في منادمتهم[١] وتوفي عام (١٠٧٥ ـ ١٦٦٤) .

على أثر استعفاء حمودة باشا تولى ابنه مراد بك أمـــارة تونس وفي عام (١٠٧٥ ـ ١٦٦٤) توفي مصطفى داي وجيء مكانه بالحاج مصطفى قره كوز (ذو العين السوداء) ولما كان مهيب الطلعة فقد كان القاصي والداني يرهبه إلا أنه جُن بعـــد مدة قليلة فعزل اضطرارياً وأُعطي مركز الداي للحاج محمود داي المعروف بابن الحاج[٢] .

---

(١) فوربيجه .

(٢) فوربيجه .

بما أن مصطفى داي أظهر خشونة متناهية في تصرفاته مع الأهالي فقد فصل من منصبه . وفي اليوم الذي قتل فيه جيء بابن الحاج محمد وكان هذا شيخاً طاعناً في السن ونزل به الخرف إلى درجة الطفولة ففصل سنة ١٦٦٩ وجيء بشعبان داي .

ان القرصنة كانت في هذه السنين لا تزال قائمة (١٠٧٩ ـ ١٦٦٨) وعملاً بالأمر الوارد من الديوان الملكي فقد بعث أوجاقا الجزائر وتونس عشر قاليونات إلى كريت[١] .

كانت علاقات تونس بالدول الأجنبية أكثر ملاءمة من الجزائر . فقد عقدت صلحاً مع فرنسا في سنة ١٠٧٣ ـ ١٦٦٢ وتفاهمت مع انكلترة وهولاندا . عقد الداي السابق الحاج مصطفى مع الدوق دوبوفور ممثل فرنسا معاهدة مفيدة جداً لفرنسا .

لما ظهرت الغرابة والفوضى والتضارب في أحكام الحاج محمود داي فصل في سنة ١٠٨٠ ـ ١٦٦٩ وجيء مكانه بدفتردار تونس الحاج شعبان خوجة وصار داياً[٢] .

ان شعبان خوجة الذي كان يتظاهر بالطيبة حاول عندما صار داياً نهب أموال الناس ، وتجاسر حتى على مناهضة نفوذ البك . إلا أن البك

---

(١) تاريخ السلاحدار محمد آغا غلاف ١ ص ٤٨٠ .

(٢) كاتب الوقائع أسعد أفندي .

كان أقوى منه فتوترت العلاقات بينهما وحاول ترتيب مؤامرات خفية لعمل ما لم يستطعه بالقوة . سمع مراد بك بهذه المؤامرات وخرج لظاهر المدينة لكي يوقعه في الحبالة . ولما شاعت المسالة قام الجنود والضباط الذين كانوا يحبون مراد بك ، بعزل الدايي المفسد وفي ذي الحجة من عام ١٠٨٣ نفوه إلى زغوان وبتصويب من مراد بك نصبوا الحاج محمد المنتشه لي دايا .

كان محمد دايي عاجزاً عن الضبط والربط ، ولما ذهب مراد بك حسب العادة لدواخل البلاد لجمع الضرائب وفي الفترة التي غاب فيها عن تونس تجمع بعض الإنكشاريين وقاموا بخلع الدايي ونفوه إلى زغوان وفي أواخر سنة ١٠٨٣ نصبوا لاز علي دايا .

أخذ علي دايي في التاهب لإزالة مراد بك من الميدان فجمع حوله عدداً كبيراً من الأشرار وهجم على قصر الوالي وأحرقه . لما أبلغ مراد بك بنبأ ثورة الإنكشاريين وعزلهم الحاج محمد من منصبه قفل راجعاً إلى تونس جاء لتونس خلال حرق علي دايي للقصر فهجم على العصاة وحدث بين الطرفين قتال شديد . أسميت هذه الوقعة بـ (وقعة الملاشين) .

قتل علي دايي في هذا الحادث في (أواسط ١٠٨٤) انتخب بتنسيب مراد بك الحاج مي الملقب بالجمل داياً[1] لقد كان رجلاً عفيفاً محباً للفقراء

---

(١) كاتب الوقائع أسعد أفندي وفوربيجه يكتبه مامي جمال .

وشاذلي الطريقة .

في عام (١٠٨٣ـ١٦٧٢) جاء لتونس أسطول فرنسي بقيادة المركيز دومارتل وتوعد بحجة المساس ببعض مواد المعاهدة المنعقـــدة في عـام ١٦٦٥ ثم انصرف .

أصبح مراد بك الآمر المطلق بعد أن تغلب على المحاولات والمؤمرات التي حيكت ضده وأقـام في قصر باردو كأحد الملوك . عين أبناءه أمراء للألوية وعاش في هدوء إلى أن توفي في عام (١٠٨٦ ـ ١٦٧٥)[١] ان لـه مبرات كثيرة مثل أبيه .

كان له عم يدعى محمد الحفص له ثلاثة أولاد : محمد وعلي ورمضان . إن رمضان كان صغير السن ولا أهمية له. تنازع محمد وعلي على تقسيم إمارة لواء تونس التي ورثاها عن أبيهما ، والنتيجة جلبت الضرر للبلاد . ترك محمد بك أمر انتخاب البك للديوان مؤملاً نجاحه لكونه أكبر سناً ، والديوان خلافاً لكل الآمال انتخب عمهم محمد الحفص بيكاً .

ان محمد بك الذي لم يرضَ عن هذا الانتخاب خرج من المدينة وجمع أعوانه ثم عاد إليها واستولى على الحـــكم قسراً سنة (١٠٨٦ ـ ١٦٧٥) . حضر في هذه الفترة أمير الأمراء المعين من الأستانة [٢] إلا أن أحـــداً لم

---

(١) يقول فيكتور بيكه انه مات مسموماً .

(٢) فوربيكه لم يكتب اسم هذا الباشا .

يولِ هذه المسالة اهتمامه . استغل محمد بك وجود السفينة التي أحضرت أمير الأمراء فاركب عمه فيها وبعثه للأستانة .

ورغبة من السلطان محمد الرابع الذي كان متربعاً على أريكة الحكم في تقوية حقوقه الملكية والحد من نفوذ البكوات عين محمد الحفصي بيكاً وبعثه إلى تونس في ١٠ جمادى الآخرة ١٠٨٧ مع القبوجي باشا محمد آغا في أسطول قوامه تسع قطع حربية ولما وصل الأسطول إلى تونس رأى استحالة تنفيذ هذا الغرض . وبما أن العداوة كانت في السابق شديدة بين الأهالي والأعيان من جهة وبين محمد الحفصي فقد كتبوا عريضة تشير إلى احترازهم مكره وحيله وقدموها ثم عـــاد الأسطول للأستانة في ٨ ذي القعدة ١٠٨٧[١] .

بعد أن صار محمد بك أميراً للأوطان وضع أخـــاه علي بك تحت رقابة مشددة ومع ذلك فان علي بك وجـــد واسطة ففر إلى قسنطينة سنة (١٠٨٧ _ ١٦٧٦) .

بدأ الإتصال بالقبائـل المجاورة واتخذ لنفسه أعواناً . وبعد أن جهز

---

(١) تاريخ راشد غلاف ١ ص ٣٣١ — لما رفض قبول محمـــد الحفصي كما رفض إبراهيم باشا المبعوث إلى طرابلس وأعيد من حيث أتى اجتمـــع شيخ الاسلام والوزراء وآغاوات الاوجاقات في قصر الصدر الاعظم وبحثوا في هذه المسألة وفي النتيجة قرروا أنه من الأنسب الموافقة على رغبـــات سكان هذه الأقاليم النائية .

قوة تحت أنظار وحماية حاكم قسنطينة دلي عبد الرحمن (أي عبد الرحمن المجنون) باغت أخاه محمد في جبل السلاة (أو جبل استاد) فهاجمه وهزمه واستولى على معسكره إلا أن محمد بك أعاد الكرة وتغلب عليه في القتال الذي حدث في اليوم التالي إلا أنـــه اضطر للانسحاب لتلقي المدد . ثم أعـــاد الكرة وباغت علي بك في سبيطلة إلا أن جنوده بكروا بالنهب قبل الأوان فهاجمهم علي بك وانتصر في النهاية عليهم. وبعد ذلك صـــار الكل من شيعة علي بك وقدموا له فروض الطاعة .

كان محمد بك قد انسحب لجهـة الكاف . فزحف عليه علي بك . إلا أن محمد بك كان قد جمع حشداً كبيراً زاد من قوته فتغلب على عـلي بك ودخل لتونس سنة (١٠٨٨ ـ ١٦٧٧) .

كان علي بك قد بقي في جبل السلعات وفي الهجوم الذي شنه على أخيه محمد بك للتخلص منه غلب ثانية[١] .

بينما كان الأخوان يتعاركان ويتبادلان النصر والهزيمة كانت تجري تبديلات عديدة لدى الدايات . ان مامي جمال الذي انتخب في عـــام ١٠٨٤ عزل في عام ١٠٨٨ وصار داياً مكانه الدفتردار الحـاج محمد الملقب بشارة أو بيتشاره وقد دامت وظيفته ثلاثـــة شهور أعيد بعدها تعيين مامي جمال داياً . إلا أن مامي دايي الذي أدرك أنـه في الحالة التي كانت تسود

---

(١) فوربيكه .

فيها الفوضى لا يستطيع التحيز إلى أحد الطرفين وانه سيصاب بنكبة فانسحب إلى زاوية واختفى . أعطي الأمان ثم أخذ من الزاوية وأرسل إلى محمد بك الموجود في جهات الكاف وصار أوزون أحمد دايا مكانه إلا أنه في اليوم الثالث لتعيينه حضر أحد رؤساء البحر المسمى محمد الدباغ الذي عينه علي بك دايا ثم استقال أوزون أحمد (أحمد الطويل) إلا أنه أعدم[1] .

كان علي بك واثقاً من محمد الدباغ الذي أوفده لإدارة تونس ولما كان متأكداً من هزيمة أخيه الكافر ، لم يبقَ له ما يخاف من ذلك الجانب. انه بحاجة شديدة للمال من أجل الدولة ولذا فإنه سافر إلى جهات الجريد بعساكره لجمع الضرائب. ان جباية الضرائب تحتاج دائماً إلى ارسال الجنود وإلى ذهاب البك شخصياً .

كان لمحمد بك أعوان كثيرون في تونس تجمعوا وهاجموا محمد الدباغ الذي ما كان منه إلا أن التجأ إلى الحصن الداخلي .

أعلن أعوان محمد بامارة محمد بك ونصبوا حسين الصاقزلي دايا . ولما انتهت هذه الأعمال إلى علم علي بك زحف في الحال على تونس . خرج محمد بك لمقابلته وفي القتال الذي حدث انتصر علي بك على أخيه وفي هذه الآونة خرج محمد الدباغ أيضاً من الحصن واحتل المدينة ثانية وقتل حسين الصاقزلي الذي عمل داياً لعدد من الأيام سنة (١٠٨٩ ـ ١٦٧٨) .

(١) كاتب الوقائع أسعد أفندي .

في هذه الآونة جاء محمد الحفصي باشا لتونس بأمارة الأمراء ، ولما كانت أمارة الأمراء ليست من الأهمية بمكان فإن أبناء أخيه لم يحركوا ساكناً إلا أن محمد الحفصي كان يسعى لاحياء نفوذ أمراء الأمراء القديم مستفيداً من خلافات ابني أخيه[1] فيما كان علي بك يمارس السلطة الفعلية فإن محمد بك لم يسلم بعد بالهزيمة ويكرر هجماته على أخيه ويغلب في كل تلك الهجمات إلا أنه في أحد الهجمات انتصر محمد على أخيه علي سنة (١٠٩١ ـ ١٦٨٠) ، وكان جدال علي بك مع أخيه لا يكفيه فقد ظهر في طريقه عدوان آخران . كان أحدهما عمه محمد الحفصي باشا والثاني الجزائريين . لقد وجد الجزائريون ان هذه الفرصة تساعدهم على التدخل . كان بابا حسن زوج بنت الحاج محمد دايي الجزائر يزحف بجيش على تونس للقضاء من الفوضى التي استمرت في تونس عدة سنوات واعادة الاستقرار للبلاد. قام محمد الحفصي باشا بالتزام جانب الجزائريين واتحد معهم إلا أن علي بك هزم جيش حسين بابا أيضاً ، وقد حاول الجزائريون التحريض على العصيان إلا أنهم لم ينجحوا في ذلك . ان اتفاق أمير الأمراء الشخصي معهم لم يجدهم نفعاً لذا فإنهم اتخذوا دور الوسيط وصالحوا بين الأخوين .

أعطى محمد بك ابنه رهينة لعلي بك واستمر محمد الحفصي في إمارة

---

(١) يكتب أسعد أفندي مسجل الوقائع ان محمد الحفصي باشا جاء في عام ١٠٨١ .

الإمارة وعاد بابا حسن للجزائر وساد السكون نسبياً في البلاد سنة (١٠٩١ ـ ١٦٨٠)[١].

إلا أن هذا السكون لم يستمر طويلاً، إذ ان محمد الحفصي كان يريد ممارسة نفوذ أمراء الأمراء والباشاوات إلا أنه لا يملك القوة. كتب بهذا الخلاف للاستانة وهو أيضاً خرج من المدينة.

جاء من الأستانة قابوجي موفداً للتحقيق في أحوال تونس وبعد أن اطلع عليها عاد للاستانة مصحوباً بأمير الأمراء[٢] بعد ذهاب الباشا حدث سوء تفاهم بين علي بك وبين محمد الدباغ وقد دخل المفسدون بينهما بالفتنة وزادوها ضراماً. وفي سنة (١٠٩٣ ـ ١٦٨٢) أمر علي بك بالقبض على محمد الدباغ وقتله خنقاً.

في شوال ١٠٩٣ عين أحمد شلبي داياً بموافقة علي بك. كان شلبي مفسداً ظاهره لا يشبه باطنه[٣] باشر في التحضير للانفراد بالحكم والتفكير في الوسائل التي يتغلب بها على الأخوين محمد وعلي وإزالتهما من طريقه. لكن الأهالي كانوا قد ملوا من صراع الأخوين الذي استمر عدة سنوات والتزموا جانب شلبي الذي وعدهم ببلوغ الاستقرار. ولما توجه علي بك

---

(١) فوربيكه.

(٢) توفي محمد الحفصي باشا في الاستانة ونقل جثمانه إلى تونس ودفن فيها.

(٣) كاتب الوقائع أسعد أفندي.

لداخل الإيالة أعلن شلبي عن النوايا التي كان يضمرها للأخـــوين وقرر اقامة استحكامات داخل المدينة لمقاومة علي بك ومنعه من دخولها ، ولما عاد علي بك للمدينة تعرض لمقاومة شلبي .

طوق علي بك المدينة بجنوده وفي هذه الآونة هجم محمد بك على أخيه فغلبه واحتل إمارته وبالمقابلة ارتكب علي بك الفظائع في قتل ابن أخيه الرهينة لديه .

ربما كان محمد بك متفقاً مع أحمد شلبي ، إلا أن محمـــد بك لما تولى إمارة اللواء حاول أحمد شلبي التعالي عليه الأمـــر الذي أدى إلى اتحاد الأخوين المتعاديين ضد أحمد شلبي[1] .

ان أحمد شلبي كان قوياً ولم تجدِ الجهود التي بذلها الأخوان أي فائدة ولذا اقتضت الحاجة البحث عن قوة من الخارج وراجعـــا الجزائر . بعث ميزومورتو حسين جيشاً بقيـادة نائبه إبراهيم خوجه فدخلت هذه القوة تراب إيالة تونس في سنة (١٠٩٥ ـ ١٦٨٤) وحاصر المدينة . كان أعوان شلبي كثيرين وبقيت القوة الجزائرية مدة سنتين مطوقة الأسوار . وكلما مر الزمن زاد تضايق المحصورين في المدينة وملوا من العراك المستمر فانفضوا من حول شلبي . لما رأى شلبي تخلي أعوانه عنه وعدم امكانية الدفاع حاول الهروب مع ثلاثة أو أربعة من رفاقه إلا أنه قبض عليه وأتي

---

(١) فوربيكه .

به للأميرين محمد وعلي الموجودين مع الجيش الجزائري ثم فتحت أبواب المدينة ودخلها الأميران مع الجيش في سنة (١٠٩٧ ـ ١٦٨٦) .

كتب ميزومورتو حسين للأستانة بهذه الأخبار وأعرب عن ندامة علي بك وأخيه محمد وعرضهما للطاعة والإنقياد وانهما يلتمسان التكرم بالعفو عنهما . والسلطان أيضاً شطب بقلم عفوه الخسروي على هذين الأميرين وعلى جرائم أخيهما الآخر رمضان بك وبعث السر بايراقدار (رئيس حملة العَلَمْ) لإزالة الضيق الذي حل بالأهالي من جراء تنقل العساكر الجزائريين جيئة وذهاباً واستشارة وجوه وأعيان تونس لابداء رأيهم فيمن يرون من المناسب تعيينه لواء للمركز أي أميراً للوطن وايفاد الإثنين الآخرين للاستانة مع يوسف لاستخدامهما في وظائف الدولة،وأن يسافر أمير أمراء الجزائر للجزائر وأن لا يعود فيما بعد ويأتي لتونس ما لم يتلقّ أمراً بذلك وأن لا يضايق الأمة المحمدية المقيمة بقلعة تونس ويرهبها بالمدافع والقنابر وأن يحسنوا التعايش فيما بينهم . كتب بذلك إلى أمير أمراء الجزائر وإلى أمير أمراء تونس محمد باشا وإلى دايي تونس في أواخر جمادى الأخرى ١٠٩٧[١] .

كان قد عين لأمارة أمراء تونس من بعد محمد الحفصي باشا الدفتردار تونس محمد بكتاش باشا إلا أن الأمور لم تسر كما أراد السلطان

---

(١) سجل مهام الديوان الملكي وكتاب القبطان ميزومورتو حسين باشا تأليف صفوت بك .

إذ أن الداي فصل وأصبح محمد بك أميراً للوطن وأصبح أخوه علي داياً ؛ إلا أن كلا الأخوين لم يكن راضياً بهذه القسمة وكل واحد منهما يرغب في إزالة الثاني من الميدان .

لما دخل الغالبون للمدينة أراقوا دمـــاء غزيرة وتحرشوا بالمواطنين وارتكبوا الكثير من الظلم وكان الجند والشعب حاقدين جداً من جراء ذلك . لقد تضخم الحقد وثار الشعب وهاجم الأميرين للانتقام منهما .

بدأ الأميران أولاً بقتل شلبي السجين خنقاً خوفاً من إلقائه بذور الفتنة في رجب ١٠٩٧ـ١٦٨٦ . وخلال تبادل إطلاق النار بين الأهالي والأميرين أصابت علي بك رصاصة فمات وتمكن محمد بك من تهيئة الثورة وجمـــع في يديه أمارة الوطن والداية . وبسبب فرحه بمقتل منافسه نسي مهمـة القبض على قاتل أخيه ومعاقبته . في عام ١٠٩٦ـ١٦٨٥ جاء أسطول فرنسي أمام تونس وطالب ببعض الأسارى . فقبل هذا الطلب في الحـال بالنظر لحـالة الفوضى التي كانت تسود البلاد آنذاك وأقلع الأسطول بعد أن نال مطلوبه [1] .

لما بقي محمد بك دون منافس أظهر مزايا رجل الإدارة الممتاز . كان محمد بك متفاهماً جداً مع محمد بكتاش باشا وكان باراً بالأهالي والفقراء وكان يسعى لإعمار البلاد وتشييد المباني الكبيرة والجميلة وسُبُل المياه وكان

---

(١) فوربيكه .

أمره مطاعاً من الجنود. الضرائب كانت تجبى بانتظام وساد الهدوء والنظام على البلاد .

توفي محمد بكتاش باشا في سنة ١١٠٠ـ١٦٨٨ وعين ابن أخي محمد بك داياً وجاء لإمارة الإمارة من قبل الدولة مصطفى باشا. كان علي دايي رجلاً طيباً كما أن مصطفى باشا ومحمد بك وعلي دايي يسعون لخير الايالة . إنهم كانوا يبعثون الأسطول الذي تطلبه الدولة العثمانية كما يمارسون القرصنة ويجلبون الغنائم كما كان في السابق . في عام ١١٠١ جاء أمر من السلطان باشتراك الأوجاقات مع الأسطول الذي سيخرج للبحر الأبيض وأرسلت خلع لأمراء الأمراء والدايات ومكافآت للعساكر [١] ومن هـــذا القبيل أرسل لتونس ٧٠٠٠ ذهبة وملابس لأمير الأمراء ولعلي دايي وإلى محمد بك وخلعٌ لآغا الانكشاريين .

في جمادى الأخرى عام ١١٠٣ أيضاً بعث السلطان ملابس وخلـــع وأمر الربابنة بأن يلتحقوا بقبطان البحر يوسف باشا ويحافظوا على جزر البحر الأبيض وسواحله [٢] .

كان الديوان الملكي يبذل جهوداً كثيرة للمحافظة على المصالح الفرنسية

---

(١) سجل مهـــام الديوان الملكي رقم ٩٩ ص ٣٥ في أوائل جمـادى الأولى ١١٠٠ .

(٢) مهمة الركاب رقم ١٠٢ ص ١٣٣ .

في تونس كما في الجزائر واتخذ مهمة المحامي عن الفرنسيين والتصديق على كل ما ينطق به السفير الفرنسي، ومعاملة الربابنة بجدة .

في الأمر المؤرخ في أوائل شعبان من عام ١١٠٢ ذكر أنه في الوقت الذي كان البحارة الفرنسيون منذ القديم أصدقاءهم المخلصين وكانوا على صلح مع الأوجاق وبينما كانت سفينتان فرنسيتان ذاهبتان إلى بلدتيهما تصادفتا بالمراكب التونسية واستسلمتا لهم دون أن تبديا بادرة للقتال استولوا عليهما واعتبر الذين على ظهريهما أسرى حرب . وبينما صدر الأمر الكريم بواسطة القبطان باشا لإطلاق سراحهم ولم ينفذ بعد هذا الأمر فقد صدر الأمر الملكي بإعادة تسليم الفرنسيين مع أموالهم وإبلاغ الرؤساء بأن لا يقع أي ـ خلاف شرائط الصلح ـ اعتـــداء على بحارتهم المستامنين [١] . كان الديوان الملكي قد أوعز لأمير الأمراء في جمادى الأولى ١١٠٣ بأن يبعث دايي تونس علي دايي للأستانة العلية لبعض الأسباب وأن يعين من قبل المنتسبين للأوجاق شخصاً آخر يتصف بالتدين والاستقامة [٢] .

---

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ١٠١ ص ٥٧ .

(٢) سجل مهام الديوان الملكي رقم ١٠١ ص ١٣٤ .

إن الحوادث التالية تشير إلى عدم قيام علي دايي بالرحلة للأستانـة التي من المحتمل جداً أن تكون مشؤومة عليه .

كان شعبان دابي أمير أمراء الجزائر قد استخبر بان أمـــراء تونس اتفقوا مع المغرب . ولكن لا توجد وثيقة تثبت صحة هذا النبأ إلا أن منفعة المغاربة ورغبتهم في التفوق على الجزائريـــين يجعل هذا الاحتمال ممكناً . كان شعبان دابي قد أدرك أن التونسيين يفكرون منذ سنوات في الاعتداء على المناطق الشرقيـــة منتهزين فرصة الضعف الذي طرأ عليها وبما أن هذه لم تكن إلا من وحي الاحساس والإستخبارات فلم يذكرها وبدأ بالتحضير للزحف على تونس بحجة أن التونسيين اغتصبوا وصادروا الأموال والمواد التي تخص دابي الجزائر السابق شعبان الذي هرب في سنة ١١٠٠ والتجأ إلى تونس . شعر التونسيون بهذه التحضيرات وكتبوا بها في الحال للآستانة .

جاء في الأمر الذي كتبه الديوان الملكي بتاريخ أواخـــر رجب ١١٠٤ إلى أمراء أمراء تونس وطرابلس والجزائـــر وإلى داياتهم وإلى غيرهم من الرؤساء وجنود البحر بأن يزيلوا العداوات التي بينهم وان يراعوا حقوق الجوار وإذا وجدت بينهم خلافات أن يحلوها شرعاً بمعرفة المباشر الذي حمل الأمر . وإذا تعذر حلها هناك يُرسل الوكلاء المنتخبون من الأوجاقين للاستانة لينظر في القضية شرعاً لاحقاق الحق بحضـــور الوزراء العظـــام وقضاة الجنود في الديوان الملكي . أبلغ القبوجي باشا عثمان شاوش هذا الأمر إلى تونس وقبض مصاريف الطريق ثم استقل السفينة لتبليغه للجزائر إلا أنه لسوء الحظ صودرت السفينة من قبـــل بحارة نابولي فأسر عثمان شاوش ولم يبلغ الأمر للجزائر .

بالمقابلة للاتفاق المنعقد بين التونسيين والمغاربة اتفق الجزائريون مع الطرابلسيين. كان أحد الرعاع المدعو تشاقير محمد (محمد الأشقر) قد التجأ إلى شعبان دايي وحثه على الاعتداء واستعجله فزحف شعبان على تونس. إن الأمر الذي يصور جيداً هذا الحادث أدرج فيما يلي [1] :

يؤمر دايي الجزائر شعبان دايي وآغا الأنكشاريين والبلوك باشيين وشيوخ الأوجاق وغيرهم من اليولداس (المحاربين) بأن : أمير وطن دار الجهاد بتونس ودايها والمفتي وقاضيها والمدرسين والعلماء والصُّلاح وآغا الانكشاريين وكاهية المماليك ورؤساء المشاة ورؤساء السرايا والأوداباشيين (رؤساء الحجرات) وغيرهم من الأهـــالي بعثوا لمقامنا السامي عريضة يفيدون بأنهم في العام الماضي رفعوا عريضة تقول إنك تريـد الزحف على بلادهم زاعمـــاً انهم صادروا أموال ومتاع ابراهيم دايي ، دايي الجزائر السابق . لقد بعثنا لكم ولأهالي أوجاق تونس أوامر كريمة مع عثمان أحد قبوجي باشينا توصي بأنه إذا كانت بينكم وبين التونسيين دعاوى ينظر فيها بوجه الشرع وتفض بالإصلاح والتوفيق . ولما لم يتيسر له بحكمة الله الوصول إليكم فقد رفع لسمعي الملكي وعرض على مقامي السلطاني وعكر نوعاً ما مزاجنا الهمايوني في حقكم من أنكم بالاتفاق مع أوجاق طرابلس الغرب زحفتم على تونس فأخذتم مدافع وذخائر بعض القـلاع وحاصرتم قلعة تونس وضربتم بالمدافع والقنابر الأمة المحمدية التي بداخلها ومعابدها

---

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ١٠٥ ص ٧٥ .

التي هي الجوامع والمدارس والكتاتيب وقضيتم على الكثيرين من عبـــاد الله الصغير منهم والكبير والغني والفقير وحلتم في تلك الأيام دون قيامهم بالصلوات الخمس كما نهبتم القرى الخارجية وأبلغتم الضرر بكل واحدة منها كما مانعتم حينذاك من وصول الأطعمة. والحاصل بلغنا أنكم اعتديتم على أهالي تلك الديار وقمتم بأعمال غادرة وأعمــال منافية للشرع . لأجل ذلك نصّبنا وعيّنا أمير الأمراء الكريم محمد دام إقباله للجزائر ووجهنـا أمارة أمراء تونس إلى عمر دام إقباله وللإصلاح والتوفيق بينكما فقد عيّنا أحد قبوجي باشيي مقامي الأسمى افتخار الأماجد والأكارم... دام مجده.

إن الطعن والجدال والقتال من أجل ما يحدث من خلاف لا يتناسب مع المبادىء الإسلامية. يجب إعلان الرضا بامر الله العظيم الشان الكريمُ وفصلها بموجب الشريعة المطهرة وإذا تم ما تشكوه من التونسيين فيجب أن تعرضوها وتبثوا فيها هناك بمعرفة المباشر الموما إليه بموجب أحكام الشرع ...

ثم يعيد ما سبق أن ذكرناه آنفاً ويستطرد في الكلام إلى أن يقول : هذا وإذا لم تعملوا بنص الآية الكريمة (أطيعوا الله ...) وتخالفوا أوامري فسوف تسببون لغضبي ودعائي عليكم .فكروا في ذلك وامتنعوا عن إضرار بعضكم البعض وسيروا على وفاق حسن واتحاد تام . وإذا لم تكونوا – إن شاء الله – قد بعثتم قبل الآن سفن أوجاقكم قبل فوات الأوان وعملاً بامري الكريم الذي بعثته بكتابي الملكي المقرون بالسعادة فابعثوا شجعان

الغزاة المعتادين على الجهاد ليصلوا في الوقت المناسب ويشتركوا مع سفن أسطولي الملكي في جهاد الأعداء ليسترجعوا جزيرة صاقز ويثاروا بعون الله من أعـــداء الدين وفق مأمولي السلطاني ولاسترضائي وتطييب خاطري .

في أوائل جمادى الأولى ١١٠٦

إن صورتين من هذا الأمر أرسلتا في السابق إلى أميري أمراء تونس وطرابلس الغرب . وإن الصراع بين الأيالتين في وقت الحاجـة الشديدة لأسطولي تونس والجزائر كان قـد أوجب كدر الديوان الملكي . بعث شعبان دايي مـع تشاقرجي محمد قوة قليلة في مقدمته اجتمعت مع القوة القادمة من طرابلس ثم جاء شعبان دايي وتسلم القيادة بيده. إن أمير الوطن محمد بك الذي أسرع إلى لقاء الجيش الجزائري اشتبك معهم في قتال بالقرب من الكاف ومنى بهزيمة نكراء .

سر علي دايي لتحطم نفوذ محمد بك واستدعى فوراً رمضان بـــك وقلده أمارة اللواء إلا أن محمد بك لم ينسحب إلى داخل الأيالة كما كان يظن بل جـــاء لتونس الأمر الذي اضطر علي دايي ورمضان بك إلى ركوب سفينة والهروب. ثم جاء شعبان دايي أيضاً وحاصر المدينة في ١١٠٥ــ١٦٩٤ وكما ذكر في الأمر الملكي ارتكب مساوىء كثيرة. لما عاد أمير الوطن محمد بك إلى تونس وجد أن أخاه رمضان بك وعلي دايي قد هربا .

في ذي القعدة من عام ١١٠٥ أتي بإبراهيم خوجه ليكون داياً . لقـد

حدثت مع الجزائريين حتى ربيع الأول ١١٠٦ حروب دامية وبعد قتال استمر ثلاثة أشهر لم يتحمل محمد بك بعدها وغادر المدينة منسحباً إلى الدواخل ودخل شعبان دايي للمدينــــة وعيّن تشاقير محمد ـ الذي كان يحميه ـ أميراً للوطن وعاد للجزائر[1] . قام تشاقير محمد بعزل ابراهيم خوجه وأتى بجندي من الأنكشاريين لمنصب الدايي يدعى محمود.

كان تشاقير محمد عديم الكفاءة ، تافهاً ولا أخلاق له . ظهر للميدان رجل يدعى تاتار محمد (محمد التتري) فطرد محمود دايي بعد ثلاثة عشر يوماً من تنصيبه وصار داياً مكانه. لقـــد كان هذا التاتار محمد قاتلاً جباراً على نمط تشاقير محمد. خرج التشاقير محمد للدواخل لجباية الضرائب ولما وصل للقيروان أغلق السكان أبوابها في وجهه وشتموه .

كان محمد بك قد انسحب للمنطقة الجنوبية من تونس وتضخمت قواته ولما اطلع على حقيقة وضع التشاقير ،زحف عليه وهزمه بمساعدة القيروانيين له وألجأه إلى الفرار ثم زحف على تونس ودخل المدينة بدون أية صعوبة . التجأ التاتار محمد إلى الحصن الداخلي وبعد مقاومة طفيفة حاول الاستسلام إلا أن الشعب الذي قاسى من ظلمه قبض عليه وقطعه أرباً.

انتخبوا أحد ضباط الأنكشاريين المسمى يعقوب داياً إلا أنهم نَحُّوه

---

(١) كاتب الوقائع أسعد أفندي يكتب محمد المذكور باسم محمد بن شكَر محمد (محمد السكر) ويقول انه زوج بنت محمد بك. وفوربيكه يسميه تشاكار وغرامونت يسميه محمد الجركسي .

فيما بعد بسبب عجزه عن تمشية الأمور وشيخوخته وانتخبوا بدلاً منـه دفتردار تونس الحاج محمد في ربيـع الأول ١١٠٧ .انسجم محمد بك مع هذا الدايي ثم زال الخلاف مـــع الجزائر وساد الهدوء البلاد إلا أن محمد بك توفي في هذه الفترة (١١٠٨ـ١٦٩٦) .

كان البنادقة قداحتلوا جزيرة صاقز في ١ صفر ١١٠٦ وكانت الدولة تبذل كل جهودها لجعل الاسطول يستطيع القتال لاسترجاع الجزيرة ولما قدروا أن اشتراك سفن أوجاق الجزائر في هذه الحرب سيكون ذا فـائدة كتب لهم أمراً بالقدوم للالتحـــاق بالأسطول الملكي إلا أن الجزائريين والتونسيين وحتى الطرابلسيين قليلاً ، كانوا ، في هذه الفترة، يتطاحنون فيما بينهم ولم يكن الوقت زمن الاستماع للفرمانات لذا فإنهم لم يشتركوا في تلك الحرب . لقد انتصر الأسطول العثماني الذي كان تحت قيادة حسين باشا ميزومورتو على البنـادقة واسترجعت صاقز في رجب ١١٠٦ ـ ١٦٩٤ . أبلغ هذا النصر للأوجاقات وعنفوا [1] .

---

(١) مجلة التاريخ العثماني ص ١٧٦ و ١٧٧ وسجل المهام رقم ١٠٦ ص ١٥ .

من الأمر المرسل لأمير أمراء جزائر الغرب .

في الخط السلطاني المقرون بالشوكة الذي بعثناه قبـل هذا صدر لكم الأمر الكريم بقدوم مراكبكم للجهاد ضد الأعداء والاشتراك في استرجـاع جزيرة صاقز وبينا كان هذا منتظراً في ضمير سعادتنا فإنكم لم تأتوا وتلتحقوا .

إن العساكر شعار النصر والأسطول الملكي المرسل إلى صاقز تقابلوا مرة=

كان مصطفى باشا أميراً لأمراء تونس في عـام ١١٠١ ثم فصل وعيّن في سنة ١١٠٤ مأموراً لبوزجه آطه[١].

كان رمضان باشا قد جاء لإمارة أمراء تونس ولـما حدث النزاع بين تونس والجزائر كان أميراً للأمارة. ولقد كان الديوان الملكي قد حكم على أن مسببي الخلاف بين الأيالتين هما رمضان باشا ومحمد وآمنوا بما كتبته لهم الجزائر في ذلك الصدد فعين عمر باشا لإمـارة أمراء تونس وأمرت محمد بك ورمضان باشا بأن يتوجها بـــلا تأخير وبلا توقف لبلوغ الركاب الخسروي السلطاني[٢].

لما فكر الديوان الملكي في أن أمير الأمراء وأمير الوطن لا يجيئان بمحض إرادتهما كتب بنفس التاريخ أمراً لأمير أمراء الجزائر وإلى دايـيها بأن يقوما ـ في حالة امتناع رمضان باشا ومحمد بك من القـــدوم لباب الدولة واختفاؤهمـــا أو تغيبهما ـ بالقبض على هذين المفسدين اللذين سببا

=أو مرتين بسفن الكفرة المنحوسين البنادقة وتقاتلوا وتصادموا معه وبعون الله انتصر الأسطول الملكي في كل مرة وأغرق ودمّر منهم عدداً من السفن المختلفة الأحجام وانهزمت بقية السفن وهي معطوبة. وعدا هذا النصر المؤزر فقد تيسر الاستيلاء على قلعة صاقز. في أواخر شوال ١١٠٦

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ١٠٤ ص ١٨٤ في أوائل رجب ١١٠٤.

(٢) سجل مهـــام الديوان الملكي رقم ١٠٥ ص ٧٧ في أواسط جمادى الاولى ١١٠٦.

القتال بين الأوجاقيين وإرسالها للأستانـة مرفقين ببعض الأشخاص من الأوجاق [1] إلا أن هذا الأمر أيضاً لم يسفر عن نتيجة وكلاهما لم يذهب للأستانـــة. إن دايي تونس السابق علي دايي الذي قضى في تونس خمساً وثلاثين سنة يخدم في البر والبحر ويُثني عليه من كل الناس كان قد طلب الترخيص له بالرجوع إلى بلده فاسعف مطلبه وكتب الديوان الملكي إلى أمير أمراء تونس بأن يسمح له بالذهاب حيث يشاء [2].

كانت جزيرة جربة ملحقة بتونس وكانت أراضيها موقوفة ومخصصة من قبل السلطان محمد للحرمين الشريفين. إن أعشار وجمارك وجزية اليهود وبيت المال والحسبة وكافة الرسوم الكلية والجزئية والعرفية لهذه الجزيرة محددة ومقطوعة بخمسة آلاف قرش كان السكان يرسلونها في كل عام إلى آغا دار السعادة.

إلا أن أهل جربة لما تأخروا منذ أكثر من عشر سنوات عن إرسال هذا المبلغ كما أنهم تكاسلوا في الخدمة مع الأسطول الملكي شكاهم على آغا، آغا دار السعادة إلى السلطان؛ صدر الأمر السلطاني بأن يدفع أهالي الجزيرة وقفيتها المقطوعة لمدة تسع سنوات البالغة أربعين ألف قرش تماماً وأن

---

(١) سجل مهـــام الديوان الملكي رقم ١٠٥ ص ٧٧ في أواسط جمادى الأولى ١١٠٦ .

(٢) سجل مهام الديوان الملكي رقم ١٠٥ ص ٨٣ في أواخر جمـــادى الأولى ١١٠٦ .

يبعثوا في كل عـام خمسة آلاف ريال قروش وأذن لهم بأن يجهزوا خمس سفن بكافة مستلزماتها ويلتحقوا للخدمة بالأسطول الملكي وإذ يتكاسلون في ذلك، سوف تمنح إقطاعاً خاصاً للوزير حسين باشا[1].

في أوائل ذي القعدة ١١٠٨

لسبب ما صرف النظر عن هذه التسوية وبعد خمسة عشر يوماً صدر الأمر بأن يدفع في كل عــام لخزينة الحرمين الشريفين خمسة آلاف ريال قرش شرط تحضير خمس سفن في كل عام لتخدم مع الأسطول الملكي وأن تخصص واردات الجزيرة لمرتبات غزاة أوجاق تونس[2] في اواسط ذي القعدة ١١٠٨ بما أن أهالي تونس ألفوا انتقال الحكم في أمـارة اللواء بين أسرة معينة فقد اتفقوا على إشغال منصب أمير اللواء من قبل رمضان بك (١١٠٨_١٦٩٦).

كان رمضان بك ضعيف الإرادة جـــداً متطبعاً بأخلاق الدراويش ومائلاً للانزواء وكان واقعاً تحت نفوذ أحد الفلورنسيين المسمى معزول. إن هذا الشخص أقنع رمضان بك باحتمال قيام مراد بك ابن علي بك الذي له مكانة بين الشعب والمحبوب من كل الناس يمكن أن يحـــل مكانه فخاف رمضان بك من تحقق هذا الظن وأمر بالقبض على ابن أخيه وأمر الجراح

---

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ١١٠ ص ٨ .

(٢) سجل مهام الديوان الملكي رقم ١١٠ ص ٢٢ .

بقلع عينيه إلا أن الجراح جرح عينيه فقط ولم يعمها[1] ظن أن مراد بك أعمى وأرسل إلى سوسة ليسجن فيها . بعد مدة شفيت عينا مراد بك وفرّ من محبسه وطلع إلى جبل السلعات فأذاع بين الناس عن ظلم عمه فكسب عطفهم وجمع من حوله خلقاً كثيراً كما أن التونسيين التزموا جانب مراد بك فثاروا على رمضان بك وقبضوا عليه وأعدموه ونصبوا مراد بك مكانه في رمضان ١١١٠ ثم عرضوا الموضوع على الأستانة وحصلوا على الأمر بتعيينه أميراً للواء الوطن[2] .

إن الأهالي لما قتلوا رمضان بك كانوا قد نهبوا أمواله ومتاعه وكان رمضان بك قد تعهد بإرسال أربعين ألف قرش من الأموال المتخلفة عن محمد بك ومن ماله للسلطان إلا أنه قتل قبل أن يبعث هذا المبلغ .

كتب دفتر دار تونس إلى الأستانة يعرض عدم إمكان تحصيل هذه الأموال وإن أموال رمضان بك نهبت وأملاكه موقوفة وكان قد خلف خمسة أيام وعليه صدر مرسوم بصرف النظر عن ذلك[3] .

---

(١) فوربيكه .

(٢) سجل مهام الديوان الملكي رقم ١١١ ص ٥٢٩ في أواخر جمادى الأخرى ١١١٠ .

(٣) سجل مهام الديوان الملكي رقم ١١٠ ص ٥٣٩ . في أواخر جمادى الأخرى ١١١٠ .

لما أصبح مراد بك أميراً للوطن كشف عن طباعه الذميمة ، فتعرض للأموال والنفوس بدون حق وارتكب كل أنواع الفسق والفجور .

بدأ في مخاصمة الجزائريين وعزل محمد خوجه دايي ونصب مكانه دلي محمد (محمد المجنون) داياً . وجدد الاتفاق مع مولاي اسماعيل ملك المغرب ثم أخذ تعزيزاً من طرابلس أيضاً واجتاز الحدود الجزائرية في١١١٢ـ ١٧٠٠ وانتصر مرتين على حاكم قسنطينة ثم زحف على قسنطينة وحاصرها . ولما شاع هذا الخبر في الجزائر زحف الدايي الحاج مصطفى في اتجاه قسنطينة وكان مراد بك ينتظر قدوم خصمه ثم تقدم لملاقاته . تقابل الطرفان في سهل عبد النور الكائن بين قسنطينة وسطيف . لقد انهزم مراد بك في هذه المعركة هزيمة منكرة وخسر مدفعيته وأكثر جنوده وفرّ هارباً مع ألفي شخص وأمير طرابلس الذي جاء لإمداده وعاد إلى تونس .

طارد مصطفى دايي العدو المنهزم إلى ما وراء الحدود .

لما عاد مراد بك مغلوباً إلى تونس عزل الدايي دلي محمد ونصب في مكانه القهوجي محمد .

بما أن أمير أمراء تونس سليمان باشا كتب للأستانة بالحادث فقد أوفدت القهوجي باشا أحمد شاوش للمصالحة بين الأوجاقات الثلاثة (١١١٢) [١] .

---

(١) من سجل مهام الديوان الملكي (ميزومورتو حسين باشا - تاريخ صفوت) ص ٢٠ في أواخر رمضان ١١١٢ .

لما عاد أحمد شاوش للأستانة وعرف بزوال الخلاف وحلول الوئام التام بين الأطراف بعث السلطان إلى أمير أمراء تونس ولأمير الوطن وإلى أمير أمراء الجزائر علي باشا وإلى مصطفى دايي ولأمير أمراء طرابلس مصطفى باشا خلعاً سنية مع الشاوش الصغير أبو بكر[1] .

لما كان مراد بك في قتال بالجزائر ثار أهل القيروان ولما عاد مراد بك من الجزائر هاجم القيروان لإطفاء نار غليله من هؤلاء وقتل كل زعمائها وعلمائها وأشعل فيها النار ودمرها. ومنذ ذلك اليوم أصبح كل تفكير مراد بك هو الثأر من الجزائريين .

وفي سنة ١١١٤–١٧٠٢ جهز جيشاً لجباً وغادر تونس، بعد أن أخفى عن جنوده وجهة سفره . وفي اليوم التالي قصد الوجهة التي لا يمكن إخفاءها وتبين للعساكر أن الزحف على الجزائر فظهر عليهم عدم الرضا. قتل ابراهيم شريف مراد بك مستغلاً هذا الشعور في العساكر وتقلد قيادة الجنود وعاد إلى تونس فقتل كل أطفال مراد بك وأفراد أسرته وأيبس شجرتهم ثم استولى على أمارة الوطن (في ١٣ محرم ١١١٤–١٧٠٢) .

بقيت أمارة تونس ٨٣ سنة في أسرة مراد بك واستمر الحكم فيها

---

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ١١٢ ص ١١٢ في أواخر شعبان ١١١٣ .
إن تاريخ راشد يكتب أن المرسل للمصالحة بين الأوجاقات هو باكير شاوش إلا ان قيودات الديوان الملكي تذكر أن المرسل للتوفيق هو أحمد شاوش وأن أبا بكر شاوش أخذ لهم الخلع .

على أساس انتقال الحكم من الأب للابن . لقد اغتصب ابراهيم بك إمارة الوطن وخلع محمد القهوجي من منصب الدايي ونصّب مكانه قره مصطفى (مصطفى الأسود) وبعد برهة طرد هذا أيضاً وجمع إمارة الوطن والداي لنفسه كانت إدارة البلاد بهذه الطريقة أجدى وأنفع وقد جنح ابراهيم للاستبداد وباشر الظلم والشدة لكنه سالم الجزائريين . وأفسد العلاقات التي كانت مع الطرابلسيين حلفاء تونس السابقين وحاول الاتفاق مع الجزائر سنة ١١١٦ .

كان مصطفى دايي ذا حيلة ومكر ،فلم يحرك ساكناً عن جدال ابراهيم بك مع طرابلس الغرب لأنه يرى في اضعافهما فائدة للجزائر (١١١٦ــ ١٧٠٤) هاجم ابراهيم بك طرابلس الغرب وحاصر المدينة إلا أن الوباء الذي ظهر في جيشه اضطره للانسحاب (١١١٧) ولما عاد إلى تونس قوبل بزحف دايي الجزائر على تونس .كان دايي الجزائر يتقدم على رأس قوات كبيرة فقابله ابراهيم بك إلا أنه كان في جيشه الكثير من الناقمين وبعض المحاربين من العربان انسحبوا من القتال وحسين بن علي أحد القواد رفض القيام ببعض الحركات التي أمره بها مما أدى إلى خسران ابراهيم بك للمعركة ووقوعه في الأسر واحتل الجزائريون الكاف .

استمر استبداد ابراهيم مدة ثلاث سنين وشهرين .

تسلم حسين بك قيادة الجيش وعاد في الحـــال إلى تونس . انتخب بالإجماع لأمارة الوطن وعين صاري محمد خوجه (محمد خوجه الأصفر)

داياً وقد عاونه الديوان والأهالي بكل إخلاص .

سعى حسين من جديــــد لتشكيل الجيش وتقويته بسرعــــة . كان مصطفى داي قد قضى مدة طويلة في الكاف وكان قد سرح العربان الذين رافقوه للنهب وكان يبعث من الكاف إلى تونس بأوامره وشروطه. رد حسين بك في مبدأ الأمر بأجوبة غامضة ثم قطع عنه الرد ولمــا تقوى أجاب بردود ناشفة وصلبة وأخيراً أفهم مصطفى داي بأن عليه أن يعود للجزائر بعد أن لم يبقَ له ما يعمله في تونس. أخذ مصطفى داي في الزحف على مهل ولما وصل أمام أسوار تونس كانت تدابير الدفاع قد تم اتخاذها مع أن الجزائريين أصابهم الضعف بعد أن نهب المحــاربون المحليون أطراف البلاد وعادوا إلى منازلهم ومــع ذلك فإن التونسيين خوفاً من الاستيلاء على المدينة ونهبها عرضوا على مصطفى داي مــاية وخمسين ألف قرش فلم يقبل الداي ذلك واضطرت المدينة للدفاع عن نفسها . خسر الجزائريون في أول هجوم شنوه على المدينة ٨٠٠ قتيل وكلما تقدمت بهم الأيام قلّت مؤنهم وذخائرهم وبدأ الانكشاريون يتذمرون .

دخل مصطفى داي في مفاوضات لرفع الحصار غير أن التونسيين في هذه المرة رفضوا أن يدفعوا أي مبلغ بل طالبوا بالتعويض عن الخسائر .

في ٦ اكتوبر ١٧٠٥ـ١١١٧ رفع مصطفى داي الحصار وأخذ في العودة للجزائر . ولما عاد للجزائر خلع من منصبه ثم قتل في قولو .

أصبـح حسين بك فيما بعد صاحب تونس المستقـل [1] إلا أن محمد خوجه الذي كان يظنه موالياً له كان يجمع من حوله الأعوان وكان يسعى لتخليص الدايي من نفوذ الأمير .

كان حسن خوجه دايي الجزائر قد حصل من ابراهيم بك أمير تونس السابق الذي أسره مصطفى دايي على ماية وخمسين ألف قرش وعلى وعود كثيرة وأطلق سراحه وكان ابراهيم بك قادماً لأخذ الأمارة . أمـام هذين الخطرين خرج حسين بك من المدينة ليعرف مؤيديه . ولما كشف أعوان محمد خوجه عن أنفسهم عاد حسين بسرعة فقبض على محمد خوجه وقطع رأسه . وبعد مدة من الزمن نزل ابراهيم إلى البر قرب (غـــار الملح ـ بورتوفارينا) فقبض عليه أيضاً وأعدمـــه وبذلك تخلص من العدوين ، وأعطي منصب الدايي إلى لين العريكة مصطفى دايي وتجمعت كل القوات في يد حسين بك .

---

(١) يقول فوربيكه عن حسين بك أنه من القواد وفيكتور بيكه يكتب أنه آغا الانكشاريين ص ٢٧١ .

- ٥ -

دور البايات الباشاوات

ادارة حسين بك - فكرة الائتلاف - وارث حسين بك ، ولد له ابن - ثورة علي باشا - هجوم الجزائريين - أمارة علي باشا - مقتل حسين بك - جدال علي باشا مع الفرنسيين - تشرد الملازم سورين - هجوم الجزائريين - علي باشا وأولاده يتشاجرون - مقتل علي باشا وابنه - محمد بك ابن حسين بك يصبح أمير اللواء - علي بك - حمودة باشا .

●

إن حسين بك هو ابن علي بك التركي . إن لقبه التركي أحسن دليل على أصله . يقول كاتب الوقائع أسعد أفندي أنه كريتي الأصل ويقول فيكتوربيكه أنه رومي الأصل مهتدٍ . وهذا القول غير صحيح لأنه كان لا يعين في أوجاقات الغرب من الأنكشاريين إلا الأتراك الأقحاح . حتى القول أوغليين لا يؤخذون للأنكشارية ، لهذا لا يُعقل أن يكون رومياً مهتدياً .

ثانياً ـ كان من المعتاد في الجزائر وفي غيرهـا من ايالات الغرب أن يلقب كل فرد باسم ديانته أو ببلده ، مثال ذلك سليمان باشا البندقي ومحيي الأرناؤوطي ومحمد المغنيسالي وكثيرون غيرهم. لو كان حسين كريتياً لدعي بحسين الكريتي ولا يمكن تقدم رومي مهتدٍ في سلك الانكشاريين حتى يصل إلى منصب آغـا الأنكشاريين . لذا فإن كون حسين بك تركياً صحيح جداً .

كان علي بك قد حارب العربان مدة طويلة واشتهر بالبطولة وقد توفي عام ١٠٧٧ ـ ١٦٦٦ عمل حسين بك في عهود الأمراء محمد ورمضان ومراد وأصبح قائداً محنكاً ورجلاً إدارياً ويصلح للأمارة ولذا كان قد تسلم حسين بك في ١١١٧ ـ ١٧٠٥ زمام الإدارة فاتحة دور الاستقرار والرفاهية في تونس . سعى حسين بك لبناء سفن جديدة وزاد في نشاط القرصنة أن تجول الربابنة على متون البحار والغنائم التي كانوا يحصلون عليها زادت من ثروة البلاد إلا أن الشعوب النصرانية كانت تتذمر . إن أفكار الأمير في حسن التعايش كانت تحل الدعاوى بسهولة .

عقدت في تواريخ ١٧١٠ ، ١٧٢٠ و ١٧٢٨ معاهدات مع فرنسا وفي ١٧١٢ مع الهولانديين وعقدت اتفاقية مع الأمبراطورية في ١٧٢٤ وفي ١٧٢٥ وعقد أيضاً الصلح مع بعض الدول الأخرى .

أبدل في هذه الآونة عمر باشا أمير الأمراء وحل مكانه كتشي محمد

باشا (محمد باشا العتر)[1] .

عرض حسين باشا ـ حسب الأصول ـ كيفية انتخابه على الأستانة وأخذ الباشاوية[2] . في عام ١١٢٤ كان الجزائريون، عملاً بالقانون الجاري في الحدود قدروا فدية النصارى الذين أسروهم وأركبوهم قبل استيفاء الفدية في سفينة للكفرة أرفقوها بسفينة أخرى جزائرية لحمايتها ولقبض الفدية المقررة لهم وأبحرتا وقت الأصيل وحوالي منتصف الليل صادفهما هياج البحر وهما بالقرب من السواحل الجزائرية فافترقتا عن بعضهما . وفي تلك الفترة صادفت سفينة تونسية المركب الذي يحمل النصارى واستولت عليه . لما بلغ الجزائريين هذا النبأ بعثوا رسولاً إلى تونس طالب باسترجاع الأسرى لأنهم إذا خرجوا من الأوجاقات لقاء فدية مقطوعة كان أسرهم مرة ثانية قبل وصولهم إلى بلدانهم ينافي قانون الحدود ولم يسبق له مثيل، إلا أن التونسيين أجابوا بإصرار أن المركب والأسرى مال غنيمة .

إن هذا الحادث أدى إلى حصول وضع وخيم العاقبة جداً .

جاء لتونس موفداً من قبل السلطاي القبوجي باشي الخاص ماموراً لإزالة الخلاف ومعه أمر إلى تونس بإعادة الأسرى للجزائر وأن يعملوا

(١) تاريخ راشد غلاف ٣ ص ٢١١ عام ١١١٨ .

(٢) كاتب الوقائع أسعد أفندي .

متحدين ومتفقين[1] وقد حل الخلاف وحال دون حدوث القتال . أبدل الكجي محمد باشا من إمارة الإمارة وعين علي باشا مكانه . كان قد طلب من عموم الأوجاقات أن يبعثوا مراكب لتخليص جزيرة مورة من الكفرة البندقيين وفي هذه الآونة كتب علي باشا بأن يبعث من تونس ثلاثة مراكب[2] والأسرى ومدافع ومدفعيين من أجل الأسطول العثماني[3] .

كانت أساطيل الأوجاقات تجتمع في كل عام بالأسطول الملكي وكانوا أحياناً يطيبون نفوسهم ببعض المكافآت وأحياناً يمنحون الخلع .

في عام ١١٣٠ طلب من تونس ارسال خمس كاليونات وأرسلت من السلطان عشرين خلعة لتوزع على أمير الأمراء وعلى أمير الوطن وعلى ربابنة السفن وكلفوهم بحضور السفن للإشتراك في الغزو الذي سيشن على كفرة النمسا . كان القوشجي مصطفى (مربي الطيور) في هذا التاريخ أميراً للأمراء[4] في السنة التالية نقل مصطفى باشا من هناك وأمر بمحافظة سد البحر وما يجاورها[5] .

---

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم١١٩ص١٥٧في أوائل ذي القعدة ١١٢٤ .

(٢) سجل مهام الديوان الملكي رقم ١٢٠ص٢٨٤في أواخر ذي القعدة١١٢٦ .

(٣) سجل مهام الديوان الملكي رقم١٢٠ص٢٨٥في أواخر ذي الحجة١١٢٦ .

(٤) سجل مهام الديوان الملكي رقم ١٢٦ ص ٢٥٣ في أواسط محرم١١٣٠ .

(٥) سجل مهام الديوان الملكي رقم١٢٩ص١٢٧في أواسط ذي القعدة ١١٣١ .

لما عقدت الدولة العثمانية الصلح مع النمسا في ١١٣٠ ـ ١٧١٧ وعدت بعقد الصلح بين الأوجاقات وبين النمسا . في ذي الحجة ١١٣٧ جـــاء لتونس قابوجي باشيان اثنان يدعيان أوزون اسماعيل (اسماعيل الطويل) وسليمان آغا يحمـــلان الأمر الملكي ويصحبهما المندوب النمساوي مع مساعديه وقد وقع على الصلح أمـــير اللواء حسين باشا ومصطفى دايي وحسين آغا، آغا الإنكشاريين في ١٥ محرم ١١٣٨ ـ ١٧٢٥[1] .

عقد الصلح بين الدولة العثمانية وبين البندقيين وأدرج في المعاهدة أن لا تهاجم السفن البندقية ولمـــا كان البندقيون منذ القديم أعداء مع الأوجاقات فقد طلبت تعيين حدود بحرية بينهـــا وبين الأوجاقات ووعدت بأن لا تشكو للدولة العثمانية هجوماتهم التي تحدث خارج تلك الحدود وكانت الحدود على الوجه التالي :

من شواطيء بولية الكائنـــة على سواحل الخليج الذي هو وطن البندقيين ، على بعد درجة من رأس سانتـــا ماريا للجنوب من الجنوب الشرقي من زاكلسيا ثلاثين ميلا داخل البحر ، ولما يصل إلى موتون ومن موتون إلى الجنوب الشرقي من مياه كريت ولما يصل إلى جزر ايزباندت ومن ايزباندت إلى جوبانلر وكيربه وورودس ولما يصل الحد إلى يـــدي بورونلر يتعين الحد وضمت أيضا مسافـــة ثلاثين ميلا داخل البحر من

---

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ١٢٠ ص ٢٠٧ في أواخر ربيع الآخر ١١٣٢ .

موانىء البلاد الإسلامية قبرص والإسكندريةوصيدا وبيروت واسكندرون وانطاكية وطرابلس الشام وأن السفن البندقية لا تُعارض ولا يُعتدى عليها داخل هذه الحدود . إن هذا الالتماس الذي قدمه سفير البندقية قبله السلطان وأمر بان يراعى من قبل الأوجاقات وأبلغ هذا الأمر لكل أوجاق .

في سنة ١١٣٠ رفع أحد أمراء البحر المدعو جانم خوجه محمد باشا (روحي الخوجه) وكان محافظاً بورن لواء العصيان .

وفي سنة ١١٣٢ ذهب إلى جهات طرابلس الغرب على رأس خمس سفن مختلفة الأحجام وأربعة أو خمسماية مسلح من محاربي البحر فاستولى على درنة قائلاً أنه والٍ من قبل الدولة العلية وحرض الرعايا الذين في تلك الجهات على العصيان ونهب أموال الفقراء وأرزاقهم واعتدى على عائلاتهم ونشر الفوضى هناك وعطل نشاط سفن الأوجاق الأمر الذي أعطى الفرصة لكفرة مالطة لاحتلال بعض الموانىء ودعت أعماله لاستفتاء حكم الشرع الشريف فيه ولما صدرت الفتوى بإزالة وجوده كتب إلى طرابلس بإرسال رأسه المقطوع للأستانة وكتب إلى محمد باشا في تونس بإرسال التعزيزات اللازمة للطرابلسيين إذا طلبوها وإذا انتقل هو وأعوانه إلى تونس أن يلقى عليهم القبض[1] لم يلقَ القبض على جانم خوجه في طرابلس

---

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ١٢٩ ص ٣٥٣ في أواخر ذي الحجة ١١٣٢ .

لأنه أخذ قطعتين من سفن الأوجاق وذهب إلى تونس ولم يستقر هناك أيضاً بل ترك السفن هناك واختفى . ثم أرسل قبطان البحر الوزير مصطفى باشا مأموراً لنقل المراكب للآستانة [١] .

كان حسين بك يرغب في بقاء الأمارة في أسرته أسوة بمراد بك وبالرغم من احتواء حريمه على كثير من النساء فإنه لم يرزق ولداً . كان ابن أخيه علي بك آغا للانكشاريين وجعله وارثاً له وحل بذلك هذه المسألة ، إلا أن حادثة أفسدت هذا الترتيب ؛ إذا كانت بين الأسرى ، الذين غنمهم غزاة القرصان ، فتاة جميلة جداً من جنوه في العشرين من العمر . قدم له ربان السفينة هذه الفتاة . ففتن البك بهذه الفتاة وضمها إلى حريمه بعد أن أسلمت [٢] .

ولد طفل من هذه الفتاة وسمي محمد وولد من بعده علي بك ومحمود بك ولما كانت الوراثة تنتقل من أبناء علي بك إلى أبناء حسين باشا تكدر علي باشا كثيراً .

كتب حسين باشا تقريراً بعثه إلى السلطان يطري فيه علي بك وذلك لجبر خاطره وإدخال السرور إلى قلبه وسبب في توجيه رتبة الباشاوية

---

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ١٣٠ ص ١٩٢ في أوائل ذى القعدة ١١٣٣ .

(٢) فوربيكه .

وإمارة الأمراء لعلي بك وقيل في المرسوم الوارد : بناءً على مـــا لوحظ في التقرير المشير إلى تصرفاتك الحسنة وأطوارك الحميدة والصدق والخدمات الجليلة فقد تكرمت وأحسنت إليك بإمارة أمراء تونس شريطة الاهتمام بنظام الجنود وتبني وتجهز السفن التي أمرت بإنشائها وتصحب الأبطـال لزيادة مهابة الإسلام ورعاية المعاهدة المعقودة مع امبراطورية روما [1] .

تظاهر علي باشا بالرضى والسرور من هذه اللفتة الكريمة إلا أنـــه في الحقيقة لم يكن راضياً عن أمارة الأمراء التي أصبحت باهتـة ولا نفوذ لها . كان يريد الحصول أيضاً على أمارة الوطن وأن يكون مستقلاً . انـه في الوقت الذي كان يقيم فيـــه بتونس كان يتخذ له الأنصار في (جبل السلعات أو جبل الأستات) ولما حصلت لديه القناعة بأن هناك قوات كافية غادر المدينة وانسحب إلى جبل الاستاد . ان جبل السلعات أراض وعرة جداً ومسكونة من أهالي فقراء جداً وهو كائن على طريق تونس ـ القيروان . كانت كل القرى مقامة على تلال صخرية وصعبة المرتقى كما أن كل الطرق المؤدية للقرى ضيقة جداً وخطرة وقابلة للدفاع عنهـا بقوات قليلة وكل الغابات كانت تتألف من أشجار الفاكهة [2] .

---

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ١٣٣ ص ٨٤ في أواسط جمـــادى الأخرى ١١٣٨ .

(٢) فيكتور بيكه (من محمد الصغير) .

لما علم حسين باشا بالتجاء علي باشا إلى هذه الأنحاء زحف عليه بجيش لجب . لقد جرت حروب دامية دامت عاماً . وأخيراً انتصر حسين باشا وهرب علي وابنه إلى الجزائر [1] . حكم حسين باشا على القرويين الفقراء الذين شايعوا علي باشا بغرامة قدرها أربعون ألف قرش وبالرغم من انهم باعوا كل أموالهم وأملاكهم لم يستطيعوا تسديد هذا المبلغ . قام حسين باشا بتشتيت وتشريد سكان هـــذه القرى التي كانت ملجأً للعصاة وفي ثورة دائمة .

كان علي باشا يفكر في أخذ قوات من الجزائر والزحف بها على تونس إلا أن عبدي دايي ، دايي الجزائر لم يوافـق على ذلك أبداً وكان حسين باشا يطالب بتسليمه علي باشا ولكن الدايي لم يوافق على ذلك إلا أنه تعهـد باعتقاله في مكان ما بالجزائر لقـــاء عشرة آلاف (سَكين) تدفع له سنوياً [2] .

في المعاهدة التي عقدت بين الدولة العلية وبين امبراطورية رومـا أدخلت في العهد أوجاقات تونس وطرابلس والجزائر لكونها من الممالك العثمانية وأخبرت الأوجاقات بذلك .

وتأكيداً لشروط المعاهدة فإنها أوفدت قبوجي باشيين من أجل أن

---

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ١٤٠ ص ٣٨٢ .

(٢) فوربيكه .

يعقدوا مع الامبراطورية المذكورة مصالحة حسب قواعدهم[1].

كان في هذه الفترة عمر باشا أميراً لأمراء تونس[2].

أجريت بين القبوجي باشا وسليمان آغا أحد آغاوات القبطان باشا وبين نائب مفاوض امبراطور روما ثلاث محادثات عقدت فيها من ١٣ مادة وقعت في ١٥ محرم ١١٣٨ لوحظ أن المعاهدة إذا لم يُصادَق عليها وتبعث خلال ماية وخمسين يوماً إلى أوجاق تونس فإنه سينكل من عهده فارسل مرسوماً للأوجاق بان لا يحمل تأخر جواب الامبراطور على نية الرفض وما إلى ذلك إلا بسبب بعد المسافات التي بين أقاليم الولايات الخمس التابعة له[3].

بما أنه ذكر في المادة الخامسة من المعاهدة المعقودة مع امبراطورية روما « إذا بعثت مراكب الجزائر أو غيرها من أعداء النمساء لموانىء تونس ، أسارى من رعايا النمسا لا يسمح لهم بإخراجهم وإذا أخرجوا

---

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ١٣٢ ص ٣٣٨ و ٣٣٩ في أواخر رمضان ١١٣٧ .

(٢) سجل مهام الديوان الملكي رقم ١٣٣ ص ٤٤ في أواسط ربيع الآخر ١١٣٨ .

(٣) سجل مهام الديوان الملكي رقم ١٣٣ ص ٤٤ في أواسط ربيع الآخر ١١٣٨ .

يطلق سراحهم ، فقد أرسل للأوجاق أمر بتاريخ أوائل شوال ١١٤١ يؤكد وجوب إطلاق سبيل كل المراكب النمساوية وإعادة كل الأشياء مهما كان مقدارهـا التي استولى عليها من قبـل الأوجاق ومراعاة المعاهدة [١] .

إن أمير الأمراء السابق علي باشا الذي هرب للجزائر بقي هناك حتى عام ١١٤٧ .

لما آنس حسين باشا في نفسه القوة ولم يعد يخشى من قدوم علي باشا رفض دفع المبلغ الذي تعهد بدفعه للجزائر . إلا أن علي باشا لم يقض أيامه سُدى بل كسب أصدقاء كثيرين .

لقد وعد دايي الجزائر بأنه إذا عاد لأمارة أمراء تونس سيقبل البقاء تابعاً لإيالة الجزائر ويدفع لها الضرائب .

غضب الدايي ابراهيم باشا من عدم ورود المال من حسين باشا وأملاً في دفع الضيق المالي الذي تعانيه الجزائر بالمال الذي وعده به علي باشا فقد جهز جيشاً صغيراً قوامه سبعة آلاف رجل بقيادة زوج ابنته كوجوك ابراهيم باشا (ابراهيم باشا الصغير) وساقهم مع علي باشا إلى تونس .

---

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ١٣٥ ص ٢٨١ في أوائل شوال ١١٤١.

خاف أمير الوطن حسين باشا وعرض دفع خمسين ألف قرش [1]،وفي نفس الوقت علمت الأستانة بالأمر . أمر الديوان علي باشا وابنه بالقدوم للأستانة [2] وكتب لأمير أمراء الجزائر بإرسال علي باشا وابنه إلى الأستانة [3] .

وأمر ولي باشا أمير أمراء تونس أن : « بلغنا أن المرقومان لما أطلق سراحهما من السجن رأفة بهما وأحيطا بالرعاية أقدم علي ـ لاستئناف مخازيه وأملاً في تنفيذ الخيانة التي كان يضمرها ـ على إيفاد ابنه إلى شيخ عربان بني عزيز الكائنين على الحدود الجزائرية واتفقوا على العمل معاً فحشدوا من حولهم بعض اللصوص المغامرين من العشائر المجاورة وأعلنوا عن عزمهم على الزحف على تونس للنهب والغارة . وأنتم أمراء الأمراء ليكن معلوماً جميعاً : أعطوا للمذكورين الأمان وأفهموا المشار إليه بوجوب القدوم بالتي هي أحسن لهذه الجهة وفق أمري الملكي ليسند إليه أحد الألوية،وأن الباغين الذين لا يطيعون أولي الأمر بعد الإنذار سيهدر دمهم وتغنم أموالهم . فإذا استغفروا وتفرقت جموعهم أتوا إلى هنا فليكن وإذا أصروا وتمادوا في التمرد فإن ذنوبهم في رقابهم .

---

(١) غراممونت .

(٢) سجل مهام الديوان الملكي رقم ١٤٠ ص ٣٨٣ في أول ذي الحجة ١١٤٧ .

(٣) سجل مهام الديوان الملكي رقم ١٤٠ ص ٣٨٣ في أوائل ذي الحجة ١١٤٧ .

وأنتم أيضاً تأميناً للعبـاد من الاعتداء عجلوا بالاتفــاق وحاربوا واسعوا للقبض على المرقوم من كل بـد ونفذوا فيهم حكم الشرع وأزيلوا غائلتهم »[1] .

ومع ذلك فلا الجزائريون ولا علي باشا أطاعوا الأوامر .

تقدم ابراهيم آخذاً معه في طريقه حسين بك أبو كمية حاكم قسنطينة كما أن حسين باشا جهز جيشه وزحف للقـــاء الأعداء . تقابل الجيشان في سيمنجة[2] الكائنة على حافة وادي مليانة هجم محمد بك الابن الأكبر لحسين على القسم الكلي من الجزائريين وفرقهم إلا أن أبا كميـــة التف حينذاك بالفرقة الجزائرية التي تحت قيادته ودار حول المؤخرة واستولى على المعسكر الذي ترك تحت حراسة محمود بك. ولما التفت محمود بك للخلف كانت الفرصة قد فاتته وخسر الحرب .

انسحب حسين باشا مع أولاده إلى القيروان وقد كان جريحاً وبقيت الجهات التي جنوبي سوسة والقيروان موالية لحسين باشا .

دخل علي باشا مع جيش الجزائر إلى تونس (١١٤٧) وأخذ في يده

---

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ١٤٠ ص ٣٨٢ في أواخر رجب ١١٤٧.

(٢) سيمجنه كائنة على بعد ٤٩ كيلومتراً جنوبي تونس .

ملاحظة المترجم : ان المؤلف ذكر في البدء اسم المكان سيمنجة وفي الحاشية سماه سيمجنه .

إمارة الأمارة[1] كما أنه استأثر بأمارة الوطن لنفسه ولم يعطها لأحد[2] .

عاد جيش الجزائر من حيث أتى ولم يقف حسين باشا في القيروان دون عمل بل جمع أعوانه وجنوده حتى بلغ المكان المسمى (العالم)[3] وهزم القوة التي جاءت بقيادة يونس بك إلا أن يونس بك الذي كان قد انسحب إلى ما وراء حسين باشا جمع عساكره وتلقى قوات جديدة الأمر الذي اضطر حسين باشا للانسحاب والالتجاء إلى القيروان .

طوق يونس بك القيروان ولكن القيروان صمدت. وكان محمد بك ابن حسين باشا أيضاً يحشد العساكر في الأطراف ودام الحال على هذا المنوال أربع سنوات .

إن السلطان العثماني لم يتورع عن قبول الوضع الراهن بتونس وكان يخاطب علي باشا الذي بعث الأمر بمعاقبته بالوجه الشرعي ، يخاطبه بـ «أمير الأمراء علي دام إقباله » كان يكتب بلزوم إخراج حسين بك من البلاد حرباً ويهون الأمر بقوله« إن أمير الوطن الذي هو حسين جلا منذ أمد » ويبعث أمره بأن يوصي بتعيين أحد مكانه يستغرب عدم إنباء

(١و٢) سجل مهام الديوان الملكي رقم ١٤٧ ص ٧١ و ٧٢ في أوائل ذي القعدة ١١٥٢ .

(٣) ان المستنقعات التي غربي بحيرة الكلبية الكائنة شمالي القيروان تدعى بحر العالم والعالم يجب أن تكون في هذه الأرجاء .

الأستانة باخبار المذكور وأن يُنتخب لأمارة الوطن أحد غيره ويكتب اسمه في المكان الفارغ من الأمر »[1].

إن مهاجمة ابراهيم باشا لتونس وتولي علي باشا لأمـــارة الأمارة علم من الأستانة وسواء كانت الجزائر أو تونس قد بعثتا عن طريق القبطان باشا عرائض للسلطان يبرر كل منهما عمله .

كان السلطان يحل كل هذه الحوادث باختصار كبير ويقول « بينما كانت دولتي العلية منذ زمن مشغولة مـــع النمساويين والروسيين ولم تتمكن من الإشراف عليكم حصل بينكم ، بسعاية بعض المفسدين، فتور ونقاش . وبما أننا عقدنا مع النمساويين صلح الغالب ومـع المسكوفيين (الروس) ما يتفق مع صيت السلطنة السنية فقد حـــل وقت التفرغ إليكم . عرفونا بالأشياء التي تحتاجونها . لقد أرسلت لكم أوامر بان تتفق تونس وطرابلس والجزائر مع بعضهم ومرسوماً مفتوحاً لينتخب الرجل المناسب لأمارة وطن تونس ويدرج فيه اسمه ».

طلب علي باشا للمرة الثانية المعونة من الجزائر لوضع حد لهذه الحالة السائدة في البلاد وبما أنه لم يدفع المبالغ التي وعد بها وان مجادلة التونسيين بين بعضهم البعض وبقاءهم ضعفاء مرغوب فيه من قبل دايي الجزائر فلم

---

(١) سجل مهـــام الديوان الملكي رقم ١٤٥ ص ٢٨٧ في أواسـط رمضان ١١٥١ .

تسفر الحادثات عن نتيجة . إن محمد بك ابن حسين باشا انتقل للجزائر لتذليل هذه الصعاب [1]. كانت القيروان في هـذه الفترة في ضيق شديد . ولما أدرك حسين باشا أن بقاءه هنـاك أصبح غير ممكن ذهب إلى سوسة وأخذ المدينة من يونس بك . كان حسين باشا يريـــد الذهاب من سوسة للجزائر إلا أنه وقع في قبضة مؤيدي علي باشا وقتل من قبل يونس بك. لقد حاول ولداه محمود وعلي الثبات في مدن الساحل والمقاومة الا أنهما لم يوفقا وانسحبا للجزائر . وبذلك تم القضاء على أعداء علي باشا . كان حسين باشا رؤوفاً بالأهـــالي ، رحيماً بالفقراء ومتوسلاً إلى أقصى حد بالشريعة وكانت السكينة مستتبة في عهده ؛ الدساكر تنمو ،الشعب يُثري وكانت الخرائب في زوال. لقد شيد العديـد من المساجد والجسور. وكان يبعث لمساجد الحرمين ومصر في كل عام كمية كبيرة من زيت الزيتون. منع بيع الخمر في داخل المدينة وكان يألف ويُسر من مجالسة الرجـــال المتدينين والعلماء .

إن كاتبه وجليسه قاسم بن سلطان استغل توجيهات الباشا وجمـــع ثروة باهظة بالاختلاس والرشوة وجهز مركباً للقرصنة ضاعف بها ثروته وشيّد قصراً ريفياً لم يُر له مثيل ملأه باجمل الجواري .

علم حسين باشا بذلك فزار القصر وكان حينذاك يشيد جامع الجزيرة

---

(١) فوربيكه .

وبما أنه كان في ضيق مالي فقد صادر القصر وما يحتويه من العبيد والجواري والثروة المكدسة وأنفقها على الجامع .

بينما كان علي باشا وحسين باشا يتصارعان انتهز الفرنسيون فرصة هذه الفوضى وأخذوا في السعي لإكساء مؤسساتهم التي فتحوها كمتاجر يضعونها في قالب المستعمرات ويبذلون جهودهم لأخذ جزيرة طبرق من أسرة لوملليني الجنوي . كانت الشركة الفرنسية في لاكال ورأس العبد تفاوض أسرة ملليني .

لما علم علي باشا بذلك بعث جنوداً بقيادة ابنه فاحتل جزيرة طبرق ودمر المتجر الذي في رأس العبد ونقـــل الذين يعملون فيه أسارى إلى تونس(١١٥٣ــ١٧٤٠) لم تحرك فرنسا ساكناً في هذا الشأن.في عام ١٧٤٢ طلب ملازم البحرية سورين من فرنسا بأن تعهد إليه باحتلال هـــذه الجزيرة. كانت الحكومة الفرنسية ستمده بالسفن والشركة التجارية بالمال في ٢٦ ابريل ١٧٤٢ جاء إلى لاكال وكانت ستة مراكب ستلحق به إلا أن هذه لم تحضر . لقد عيل صبر سورين إلا أنه لم يجازف في خوض المعمعة بالعدد القليل من الرجال الذين كانوا في رفقته. إن فورغاس مدير شركة افريقيا وعد سورين بمده بمئتين أو ثلاثمائة من صيادي المرجــان وأقنعه بالهجوم قائلاً ان الوطنيين متعلقون بالشركة التي تنمي ثروتهم ويرغبون جداً في نشاط هذه المؤسسة .

في مساء اليوم الثـــاني من شهر يوليو تحرك سورين من لاكال

وفي الثانية من الصباح نزل للبر دون أن يلاقي أية مقاومة، إلا أن التونسيين كانوا على علم من أنه سيفعل ذلك وتأهبوا . ولما تقدم سورين ورفاقه رأوا المتاريس التي أمامهم ملأى بالجنود ، وبينما كان يعتزم المفاجأة باغتوه بنيران حامية . وفي الوهلة الأولى فقد صيادو المرجان صوابهم وهربوا إلى زوارقهم وبقي الضباط مع بعض الشجعان وحدهم إلا أنهم لم يستطيعوا عمل أي شيء . جرح سورين في رقبته وفي ذراعه الأيمن وقتل ضابطان وجرح آخر وقتل من الجنود مائة وجرح ستون وأسر ١٥٠ .

نقل التونسيون هؤلاء إلى تونس فعولج الجرحى وشفي الملازم سورين وتوسط في الصلح مع فرنسا .

في عام ١١٥٥ ـ ١٧٤٢ عقد الصلح مع فرنسا شرط أن تكون جزيرة طبرق لتونس وأن تستأنف المؤسسات التجارية التي في رأس العبد نشاطها .

نقل علي باشا بعد ذلك كل نقمته إلى الطرابلسيين .

كان إبراهيم باشا دايي الجزائر قد توفي عام ١١٥٨ ـ ١٧٤٥ وحل مكانه ابنه إبراهيم الصغير .

كان هذا الشخص قد أدار حرب ١١٤٨ ـ ١٧٣٥ وهو الذي ولىّ علي باشا للامارة إلا أن قوة علي باشا وعظمته غررتا به فقرر الهجوم على هذا الباشا .

ان ابني حسين باشا محمد ومحمود بك كانا في الجزائر . أوفد محمود إلى حدود تونس لجمع المتطوعين. ان الجيش الجزائري الذي وضـع تحت قيادة الباش آغا أحمد أخذ معه في طريقه حسين بوحنك حاكم الجزائر إلا أن بوحنك كان يشايع علي باشا ولم يكن راضياً قلبياً عن هذه الحرب لذا فإنه كان يعمل دون رغبة . حاصر جيش الجزائر الكاف وفي هذه الآونة انهزم بوحنك وباش آغا. اقنع بوحنك الدايي بخيانة باش آغـا واستحصل منـه على أمر بقتله فقتله عام ١١٥٩ وعاد جيش الجزائر إلى حدوده ويخلص علي باشا من الخطر .

لما أخفقت حرب تونس عاد ولدا حسين باشا إلى قسنطينة ومات محمود بك ، هناك كانت الدولة العثمانيـة قد عقدت الصلح مع دوق التوسكانا الذي هو امبراطور روما ، وقد أدخلت أوجاقات الغرب أيضاً في هذه المصالحة ، وكان السلطان قد تعهد بإجراء الصلح بين الأمبراطور والأوجاقات . سافر مندوبو الأمبراطورية مع موفد قبطان البحر وأحد القابوجيين الذي عينه القصر إلى أفريقيا الشمالية وقد صـدر الأمر للاوجاقات بعقد الصلح مع النمسا[١] وبضم توسكانة وهامبورغ وسكان الموانىء والمراسي والجزر التابعين للامبراطور للمعاهدة[٢] .

---

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ١٥٣ ص ٢٦٣ في أوائل ربيع الآخر ١١٦١ .

(٢) سجل مهـام الديوان الملكي رقم ١٥٣ ص ٢٦٣ في أواسط جمادى الأخرى ١١٦١ .

في عام ١١٦١ ـ ١٧٤٨ توفي إبراهيم باشا الصغير دايي الجزائر وحل مكانه محمد دايي وعاش على وفاق مع تونس . لقد نشب الخلاف هذه المرة بين علي باشا وبين أولاده . كان يونس قد شارك في حروب كثيرة وأظهر مقدرة كبيرة في توطيد السكينة بالبلاد . لقد كان شخصاً عظيم المكانة، قليل المثال ومحبوباً من الجيش وربما كانت حسناته هذه وكفاءته حركت دواعي الشك والغيرة في أبيه وأخيه . كان لعلي باشا ثلاثة أولاد هم محمد ويونس وسليمان وكان أحبهم إليه هو محمد بك،أوغر محمد بك صدر أبيه على يونس الذي اتهم بتدبير مؤامرة[1] .

كان يونس قد تعود في كل عام بأن يرأس القوة التي تذهب للدواخل وبعد اداء المهمة يعود وينهمك في ملاذه . في السنة الأخيرة لم تعط القيادة ليونس بك وهو لم يساوره الشك من ذلك إلا أنه رأى أن مكانته تنحط مع مرور الزمن ، ولما أبلغ بعد ذلك وجوب خروجه من البلاد أو يقطع رأسه تفتحت عيناه وطلب مهلة لعدة أيام وفي هذه البرهة جمع أعوانه واستولى بهم على الحصن الداخلي وعلى المدينة ثم احتل حلق الواد عام ١١٦٦ ـ ١٧٥٢ كان البك يقيم في بارود .

لقد تمكن علي باشا من وقف انتشار الثورة في الجهات الأخرى وبعث السفن للاطباق على حلق الواد وكلف ولديه محمد وسليمان بالإستيلاء

---

(١) كتب فيكتور بيكه عطفاً إلى كتاب محمد الصغير بأن يونس بك سمم أباه بفنجان قهوه أمر خادمه بتقديمه إليه .

على المدينة . استمر القتـــال شهوراً وأخيراً لما نفد البارود من يونس وأعوانه ترك حلق الواد ثم غادر تونس وانسحب إلى قسنطينة واستقبل من حاكمها ببالغ الإحترام .

لما دخل ولدا علي باشا لتونس نهبت متـــاجر النصارى واليهود وبذلك أخذ بثار العصيان . كان سليمان بك صافي السريرة ، لطيفـــاً ومحبوباً من الجيش إلا أن الأخ الأكبر محمد بك الوريث الطبيعي لأبيـه وكان يشك في سليمان ويدس عليه لدى أبيه .

كان محمد بك قد أضاف لنفسه إمارة الوطن أيضاً وفي هذه الفـــترة توفي سليمان بك[1] .

في سنة ١١٦٦ صدر مرسوم بإبقاء أمراء أمراء الغرب في مناصبهم وتلقى علي باشا مرسوماً مفاده أن إمارة الأمراء ابقاء « أعطيت لـــه وذلك تقديراً لحسن انسجامـه مع رجال الأوجاق ورعايته للفقراء »[2]

---

(١) فوربيكه يقول أن سليمان بك قتله أخوه .

واونيورس – تونس تقول أنه مات مسموماً .

فيكتور بيكه لم يذكر أسباب الوفاة إلا أنـــه يكتب أن أفراد الشعب حزنوا أياماً وتأثروا بالغ التأثر من هذه الميتة .

(٢) سجل مهام الديوان الملكي رقم ١٥٥ لا يوجـــد بهذا السجل رقم للصحيفة في جمادى الأخرى ١١٦٦ .

وفي عام ١١٦٧ ورد مرسوم ابقاء على نفس النمط[١] .

ان أمير الأمراء علي باشا وأمير الوطن محمد بك كانا في عام ١١٦٩ قد بعثا للسلطان هدايا وعرائض يلتمسان اعطاءهما بعض المهمات الحربية. فجاد السلطان بها وسلمت إلى الموظفين التونسيين المكلفين بهذه المهمة وأرسل أمراً باحترام الحدود البحرية مع البندقيين وأن لا يمس الصقليون بسوء[٢] .

في سنة ١١٦٨ ـ ١٧٥٤ نصب المدعو علي باشا أبو سبع داياً للجزائر . كان المذكور قد أوفد في السابق بمهمة من الجزائر إلى تونس وقوبل من يونس بك بجفاوة بالغة ولما صار داياً للجزائر لم يصغ إلى تعطف يونس بك بإمداده . أما محمود وعلي بك ولدا حسين بك فكانا في الجزائر وكان علي دايي أكثر عطفاً لرجائهما. جهز جيشاً وأمر حسين بك حاكم قسنطينة الملقب بأزرق عيون ليأخذ أهبته كما أن محمد وعلي حشدا المتطوعين على الحدود .

تجمعت كل هذه القوى ودخلت أراضي الإيالة التونسية وفي سنة ١١٦٩ ـ ١٧٥٥ وصلت أمام تونس فطوقتها ثم هوجمت المدينة واستولي

---

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ١٥٥ لا يوجد بهذا السجل رقم للصفحات . في أوائل شوال ١١٦٧ .

(٢) سجل مهام الديوان الملكي رقم ١٥٧ ص ٢٣٢ في أواخر ربيع الاول ١١٦٩ .

عليها وتعرضت مدة عشرين يوماً لنهب فظيع . كما نهبت من قصر علي باشا أشياء كثيرة وثمينة. وبينما كان علي باشا يحاول الهروب في اتجاه باردو قبض عليه وأعدم هو ومحمد بك وأخوه وأحفاده[1] . وبما أن الجزائريين لما استولوا على تونس نهبوا قنصليات النمسا[2] والسويد[3] وهولاندا[4] وأسروا القناصل وعائلاتهم ورجالهم. فقد أمرت الجزائر بانـــه مع الملاحظة بانه سيجري التحقيق فيما بعد عن الجانب المعتدي في هذا القتال ليعامل من السلطان حسب المقتضى وأمرت الجزائر بأن يخلى فوراً سبيل هؤلاء القناصل ورجالهم وإعادة أموالهم .

في ٦ ذي الحجة ١١٦٩ ـ ٣ اغسطس ١٧٥٦ انتخب محمد بك دايـــاً لتونس وصار أخوه علي بك أمـــيراً للوطن وبذلك انتقلت الإمارة لأسرة حسين بك .

أدى محمد بك نفقات جيش الجزائر إلا أن مقـدار هذه النفقات لم يعين إلا بعد مذاكرات مطولة . لما ادعى خـلال المحادثات ان قسماً من أموال الخزينة أخذه يونس بك لما هرب في الثورة السابقة قبض بابا عـلي دايي على يونس بك وسجنه مدة طويلة في سجن قسنطينة .

---

(١) غرامونت يقول ان محمد بك أخذ خزينـــة أبيه وهرب إلى نابولي وتنصر هناك .

(٢ و٣ و٤) سجل مهام الديوان الملكي رقم١٥٩ص٣٤و٢٥٨و٢٦٠و٢٦١.

عرض محمد بك على الديوان الملكي انتخابه دايا فأرسل له مرسوماً مآله « أحطت علماً بتنصيبك داياً ولما كان أمير الأمراء منذ القديم ينصب ويعين من قبل الدولة العلية فإنه تحقيقاً لرجاء رجال الأوجاق في تقريرهم والتماسك في عريضتك بخصوص توجيه واحسان إمارة الأمراء أيضاً إليك فقد حازت التماساتك موافقتي السامية وصدر أمري الملكي بالرفع من شانك بتوجيه رتبة مير ميران مع إمارة أمراء تونس إلى الموما إليه دام إقباله . وان رتبة امارة اللواء ولواء الوطن وجهت لأخيه على زيد علوه وللزيادة في ابتهاجه وافتخاره فقد صدر الاحسان الملوكي إليه بثوب من الخلع الفاخرة وأرسل مع ... وقد وصلت الهدايا التي بعثتموها مع محمد أفندي أحد سادة ديوان الأوجاق والباش يايا باشي (كبير رؤساء المشاة) مصطفى وأحمد شاوش أحــد شيوخ الأوجاق وقد صار احساني الملكي ببعض الأشياء التي التمستموها . علاوة على ذلك فقد جــدد الأمر الذي أعطي في السابق بأن لا تُستوفى رسوم الجمارك عن أموال الأوجــاق والأمتعة الخاصة والحوائج الضرورية التي يصطحبها معهم خدام بابي وان لا يُعترض من قبل موظفي بيت المال على مخلفات الميتين وأن لا يصاب جماعــة المستأمنين من رعايا الدول المصالحة للدولة العلية بأي ضرر أو خسارة » .

بقي محمد بك من سنة ١١٦٩ حتى ١١٧٢ مدة ثلاث سنوات أمــيراً وحسن علاقاته مع كل الجهات وكان رجلاً حليماً وسليماً وتوفي في ١٤ جمادى الأخرى سنة ١١٧٢ في ١١ فبراير سنة ١٧٥٩ .

خلف محمد بك ولدين صغيري السن وهما محمود واسماعيل بك (وقد صار أخيراً محمود بك أميراً لتونس في(١٢٣٠-١٨١٤) لما حضرت الوفاة محمد بك أوصى بأن يكون أخوه علي بك وصياً على ولديه الذين لا يزالان صغيرين لذا فإن إمارة الأمراء أعطيت إلى علي بـك وصودق على تعيينه من الأستانة وأصبح علي باشا . كان علي باشا قد تعهد بأن يترك كرسي الحكم لابني أخيه لما يكبرا . إلا أن جاذبية كرسي الحكم التي لا تقاوم وطمع انتقال الأمارة إلى أعقابه أنسياه عهده ولما كبر ابنا أخيه لم يتنازل لهما عن الأمارة وبذل أقصى جهوده لعرض نجله حموده على أنظار الشعب لينسيه ابني أخيه ؛ ثم أعطى أمـــارة الوطن لابنه حموده واستحضر الباشاوية من الأستانة.كان حموده يحاول جلب أنظار الناس إليه ومع هذا فإن علي باشا لم يهن عليه التفريط في حياة ولدي أخيـه ، فقد احترمهم . ولما حضرته الوفاة أوصى ابنه برعايتهم وقد عمل علي بك مـــدة (٢٣) عاماً أميراً للأمراء[1] .

---

(١) لا يوجد في سجلات مهام الديوان بشأن علي باشا إلا في السجل ١٦٣ يوجد أمر واحـــد بخصوص حماية أبي محمد أحد السادات (أو أحد السادة) وتاريخه ١١٧٦ . يوجد بتاريـخ أواخر جمادى الأخرى ١١٩٥ أمر إلى محمد أمير أمراء تونس (سجل المهام رقم ١٨٠) ان محمد باشا هذا يجب أن يكون حموده باشا . في هذه الحالة يجب أن يكون علي باشا قد توفي قبل هذا التاريخ . إلا أن (أونيفرس– تونس) تكتب أن وفاة علي باشا كان في ١٣ جمادى الأخرى ١١٩٦ في ٢٦ مايو ١٧٨٢ .

إن حوادث هذه الفترة كتبت فيما يلي :

مرت الإحدى عشرة سنة من حكم علي باشا في هـــدوء إذ كانت البلاد جادة في بناء وترميم المبـاني المتضررة والمهدمة من جراء الحروب والثورات .

في ١١٨٤ـ١٧٧٠ نشب خلاف مـع الفرنسيين . كان الفرنسيون قد أخـــذوا جزيرة كورسيكا من الجنويين وكان التونسيون معادين للجنويين وللكورسيكيين ولذا كان التونسيون يستولون على مراكب الكورسيكيين أينما ثقفوهم ولما استولى الفرنسيون على كورسيكا وأصبحت موحدة مع فرنسا بعث الفرنسيون مندوباً من قبلهم يطلبون إطـــلاق سراح المراكب والبحارة الكورسيكيين واعتبارهم أصدقاء. لم يوافق علي باشا على هـــذا الطلب وأخرج المندوب الفرنسي من تونس باعتبار أن لا جدوى من إطالة المفاوضة .

إن خلافاً آخر حدث بسبب صيد المرجان وهذا الحادث كان السبب في إعـــلان الفرنسيين الحرب على تونس . كانت المؤسسة التجارية التي في طبرق تكسب كثيراً وتدفـــع رسومات قليلة . لذلك حاول (ملك شركة افريقيا) الفرنسية الاستيلاء على هذه الجزيرة إلا أنـــه في ١٧٤٠ دمرت المؤسسات التي في طبرق وفي رأس العبد وفيما بعد سمح للفرنسيين بفتح مؤسساتهم التي في رأس العبد وأن تصطاد سفن لاكال المرجان لمدة ثلاثين عاماً ولمـا بقيت سنتان لانتهاء المدة فقد كان مدرجاً في المعاهدة

إمكانية تمديدها إذا طلب الفرنسيون ذلك [1] . بدأ موسم الصيد ولما بقي عامان لانتهاء المدة ولم يطلبوا تمديدها .لم تسمح لهم حكومة تونس ومنعت صيد المرجان . ادعى الفرنسيون حق الأولوية إلا أن التونسيين ردوا عليهم باعتقال سفن المرجان التي أتت إلى طبرق وبنزرت .

السبب الثاني هو أن مركب القرصنة الذي يملكه الريس سليمان الجربي صادف في عرض البحار مركباً فرنسياً وطلب منه بعض الزاد ولما عارض الربان الفرنسي ورفض إعطاءه ، نال من سليمان علقة حامية وأعطى الزاد قسراً . اشتكى الربان الفرنسي هذه الحال للأميرالية الفرنسية التي كانت تجهز سراً لحرب تونس وحشرت الدولة الفرنسية هذا الحادث ضمن الحجج التي تذرعت بها لمحاربة تونس . كانت هذه الحجج متوفرة في كل زمان إلا أن فرنسا لم تحرك ساكناً .

في ٢٨ محرم ١١٨١ ـ ٢٨ مايو ١٧٧٠ ألقت ثلاث سفن حربية فرنسية مراسيها أمام حلق الواد . سحب القنصل الفرنسي احدى السفن وذهبت المراكب التجارية الفرنسية إلى جانب السفن الحربية وهذا أظهر أن قدوم الفرنسيين كان عدائياً .

عندما جرت هذه الحركات التي لم يكن علي باشا ينتظرها تلقى نبأ مغلوبية

---

(١) لما كانت مناطق تجارة صيد المرجان مجاورة لتلاقي حدود الجزائر وتونس كان يتوجب التفاهم مع أميري أمراء تونس والجزائر .

جيش السلطان مصطفى على نهر بيروت لجيش رومانتزوف .

إن هذه السفن التي كانت مقدمة الأسطول الكبير حاصرت تونس مدة خمسة وعشرين يوماً . وفي يوم الخميس في ٢٧ صفر ١١٨٤ ـ ٢١ يونيو ١٧٧٠ كان الأسطول الفرنسي قد تجمع . إن هذه الفرقة التي كانت تحت قيادة الكونت بروفيس تتالف من مركبين حربيين أحدهما بـ ٧٠ مدفعاً والثاني بـ ٥٠ مدفعاً ومن فرقتين كل واحدة بـ ٢٦ مدفعاً ومن باركا كبيرة ذات ١٨ مدفعاً ومن شبكين بـ ٢٠ مدفعاً للواحد ومن قاليوني بومبا وستة مراكب مالطية أي أن مجموعها كان ١٦ قطعة . توقفت هذه القطع يومين دون أن تبدي أية حركة وفي اليوم التالي بعث قائد الأسطول رسالة إلى أمير تونس تحمل هذه المطالب :

١ ـ أن ينتفع الكورسيكيون من المعاهدة المعقودة في السابق مع الفرنسيين .

٢ ـ إرجاع المراكب والأسرى الذين استولى عليهم فيما مضى التونسيون وحكومتهم من الكورسيكيين بعد التحاق كورسيكا بفرنسا .

٣ ـ تسليم الأسرى الذين أخذوا قبل التحاق كورسيكا بفرنسا .

٤ ـ دوام صيد المرجان .

٥ ـ إقامة مؤسسة كما في السابق في المكان المسمى تمركات الكائنة في

رأس العبد فيا بين طبرقة وبنزرت .

٦ ـ معاقبة الريس سليمان الجربي بسبب اعتدائه على الربان الفرنسي.

٧ ـ تادية نفقات الحملة التي أجريت ضد تونس بالتمام .

وقد أعطيت مهلة ٣٠ ساعة للإجابة على ذلك وفي حالة رفضها ستبدأ العداوة .

أجاب علي بك في ٩٠ ساعة إلا أن كتابه كان مبهماً لا يحتوي على قرار صريح في أي واحدة من المواد المطلوبة .

ترك قائد الأسطول السفن الثلاث التي جاءت في السابق أمام تونس وذهب بالمراكب إلى (غار الملح ـ بورتوفارينا) فقذفها بالقنابل مدة يومين كاملين. وفي ١١ ربيع الآخر ١١٨٥ يوم الأربعاء (أغسطوس ١٧٧٠) بدأ بضرب بنزرت وقذفها يوماً وليلة وقد دخلت الحراقات للميناء وأشعلت الحرائق وبما أن السكان هربوا تاركين المدينة فإنهم لم يتضرروا في الأنفس إلا أن البلدة احترقت ودمرت . ولما هبت الرياح الشديدة عاد الأسطول ثانية إلى حلق الواد .

في ٦ أغسطس أقلع الأسطول وفي ١٣ منه ضرب سوسة فقذفها بما يقرب من الألف قنبلة وكان السكان قد غادروها بسرعة وبعد أن ضرب المنستير ايضاً عاد إلى حلق الواد . انقضت ثلاثة شهور منذ إعلان حالة العداء هذه ... فلا البك وافق على تنفيذ المطالب ولا القائد تنازل عن مطالبه .

بينما كان الفرنسيون منهمكين في ضرب السواحل الشرقية حضر أحد القابوجي باشيين من الأستانة لتونس وكان المراد من جولته هو تأمين اشتراك عسكر واسطول تونس في حرب الروس.

أراه علي بك الحالة وسرد عليه الوضع وأفهمه استحالة المساعدة.

توجه القابوجي باشا إلى الأستانة دون أن يعبأ بحصار الفرنسيين معتمداً على مكانته.

استدعى قائد الأسطول الفرنسي الراسي أمام حلق الواد السفينة التي يركبها القابوجي باشا وتحدث معه[1] أعرب القابوجي باشا عن خوفه من أن ضرب تونس التي هي إحدى بلدان الدولة العثمانية ستسبب للحرب مع الدولة العثمانية وعرض عليه التوسط بينه وبين تونس فقبل قائد الأسطول بذلك.

نزل للمدينة بارتليمي دوسيزيو القنصل بتونس مع عدد من الضباط للمباحثة فقابلوا علي بك وتحادثوا معه. قبل البك الشرطين الأول والثاني ورفض الشرط الثالث والرابع والخامس. وفيما يتعلق بالشرط السادس قال بأنه إذا تبين له ذنب الريس سليمان فسوف يعاقبه.

---

(١) (أونيفرس – تونس) يقول فوربيكه أن الباب العالي ضغط بشدة على بك تونس ليعقد الصلح مع الفرنسيين.

وعن الشرط الوارد في المادة السابعة بخصوص دفع الغرامة فإنه يرفضه تماماً وبالعكس فإنه يطالب بالتعويض عن الأضرار التي ألحقها الأسطول بالبلاد.

عقدت هدنة لمتابعة المفاوضات وفي ٢ سبتمبر ١٧٧٠ عقد الصلح على الشروط الآتية:

١ ـ ان كورسيكا ستستفيد تماماً من المعاهدات التي عقدت في السابق.

٢ ـ سيطلق سراح الأسرى الذين أخذوا بعد إلحاق كورسيكا بفرنسا والمراكب التي استولى عليها وهي ترفع العلم الفرنسي إما تعاد أو يؤدى بدلها بصورة عادلة.

٣ ـ مدد امتياز صيد المرجان خمس سنوات أخرى. الصيد سيجري باثنتي عشرة سفينة للاكال وبما أن الباي منع تجارة المرجان فإنه سيدفع خسائر (ملك شركة افريقيا).

٤ ـ ان شركة افريقيا تستطيع إخراج ١٥٫٥٠٠ هكتوليتر قمح من إيالة تونس دون أن تدفع رسوماً.

٥ ـ ان فرنسا ستصرف النظر عن مؤسسة تاميكارت.

٦ ـ ان فرنسا ستدفع هذه المرة الهدايا التي من المعتاد أن تؤدى في كل مصالحة.

٧ ـ ان تقرير الغرامة الحربية ستحمل في فرساي مع السفير الذي سيبعثه البك .

٨ ـ تستأنف المناسبات والعلاقات وان الاتفاقيات السابقة وبالأخص معاهدتي ١٧٢٠ و ١٧٢٤ ستبقيان مرعيتا الإجراء كالسابق .

وبعد التوقيع على هذه الاتفاقية عاد الأسطول . وبعد مدة قليلة بعث بك تونس إلى باريس وفداً يتألف من عدد من أعضاء الديوان وكاتب الديوان ابراهيم خوجه لتسلم نسخة من المعاهدة موقعة من ملك فرنسا . وقد عاد هؤلاء بهذا قيمة للبك وتطييباً لخاطر الفرنسيين لم يتحدثوا في الغرامة .

حكم علي بك ١٢ سنة أخرى لم يقع خلالها أي حادث ذي أهمية .

دور الباشاوات البايات

حمودة باشا – مسألة علي بك ومحمد بك – الاختلاف مع الجزائر – هجومات أميرال البندقية – حموده أيضاً تدخل في مسألة طرابلس الغرب – اسماعيل بك معاهدة تونس مع الكونفانسيون – مهاجمة ساردينيا – ضرب جزيرة القديس بطرس – معاهدة مع الأميركيين – الاختلاف ثانية مع الجزائر والحروب .

●

كان أمراء أمراء تونس يسمون (باشا بك) أو (بك ميرميران) .

وهكذا فإن حموده صار باشا بك. في آخر عهـــد علي باشا أوفي إدارة حمودة باشا ، ثار علي ومحمد بك في تونس وحاصراها . لا توجد معلومات حول بدء المسالة ونهايتها .

إلا أنه نظراً للأوامر التي بقيودات الديوان الملكي حصلت الضرورة فاوفـــد في أواخر جمادى الأخرى ١١٩٥ بصورة مستعجلة من الديوان الملكي مباشرين إلى الجزائر وتونس وطرابلس الغرب . ولما كان منتظراً وصول بعض الأشخاص من تونس فقد كتب لقائمقام الأستانة بأن لا يؤخر أو يوقف المذكورين ويبعثهم بالوسائط المناسبة إلى القبطـان باشا [١] وفي الأمر المكتوب بنفس التاريخ إلى قاضي تونس أمر بأن لا يسمح للآخرين بالتدخل في الحاصلات والرسومـات التي خصصها أمير أمراء تونس محمد باشا إلى أمراء الأمراء وأن يأخذها لنفسه فيقبضها ويتصرف بها [٢] .

كتب فيما يلي الأمر الصادر في شأن الثورة :

أمر إلى محمد باشا أمير أمراء تونس وإلى داييها أحمـــد داي وإلى محمد بك [٣] وإلى أغاوات الأوجاق وإلى غيرهم من الأفراد والمجاهدين بأن:

---

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ١٨٠ ص ٥٤ .

(٢) سجل مهام الديوان الملكي رقم ١٨٠ ص ٥٤ .

(٣) أغلب الاحتمال انه أمير الوطن .

عرفتمونا أن علي بك رفع لواء الفساد في تونس وانه أخل بالنظام والانتظام والسكينة وراحة الغزاة والمجاهدين والسكان والبلاد والأهالي في تلك البلاد الجايلة المقام وقد صدر أمري بالتخلص منه ؛ وانه من يوم إلى يوم يزيد في فساده وشقاوته وانه اجتمع بالعربان المشاغبين مثله ودمر أمكنة كثيرة من أطراف تونس وحاصرها وأظهر الفساد في الأرض وان عساكر الجزائر أيضاً قدموا إلى مكان قريب من تونس عملاً بأوامري الكريمة من أجل المهمة المذكورة وقد صدرت الآن أوامري الكريمة إلى طرابلس الغرب أيضاً لتخصص مقداراً كافياً من العساكر .

أنتم أيضاً إن شاء الله تشمرون عن ساعد الجد والحمية فتجمعون جنود تونس وجماعة العربان وتتخابرون مع عساكر وضباط طرابلس الغرب والجزائر وتسعون لتكونوا على اتفاق تام وحُسن تدبير للقبض على الشقي المذكور وتأتوا به لترفعوا وتزيلوا هذا الفساد (١) .

ان نفس الأمر وبنفس التاريخ كتب أيضاً إلى أمير أمراء طرابلس خليل باشا (٢) وإلى أمير الجزائر اسماعيل باشا (٣) .

---

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ١٨٠ ص ٥٥ في أواخر جمادى الأخرى ١١٩٥ .

(٢) سجل مهام الديوان الملكي رقم ١٨٠ ص ٥٥ في أواخر جمادى الأخرى ١١٩٥ .

(٣) سجل مهام الديوان الملكي رقم ١٨ ص ٢٠٨ في أواخر ربيع الآخر ١١٩٦ .

أضيف في الأمر المبعوث إلى طرابلس (إذا هرب للنجاة بنفسه يُقتفى أثره بعدد كافٍ من خيالة العساكر والعربان والقبض عليه لدفع فساده وشقاوانه عن عباد الله » .

ان ثورة علي ومحمد بك لم يقض عليها في سنة ١١٩٥ والظاهر انه لم تر فائدة من عساكر الجزائر وطرابلس الغرب فاوفد رجلاً مخصوصاً للآستانة وطلب المدد والجنود من السلطان ، وقد قيل في الأمر المكتوب من الديوان الملكي :

« رجوتم إرسال الجنود والمدد من هذا الجانب لدفع شر وفساد علي بك ومحمد بك العاصيين الطاغيين وبما أن كفرة البندقية حالياً نقضوا العهد بقصد الإضرار بممالكي المحروسة وبما أننا مشغولون بالتحضير لدفع ضررهم وفسادهم هم وغيرهم من أعداء الدين فإنه يتعسر إرسال المدد من هذا الجانب فعلى أمير أمراء الجزائر ودايبها وغيرهم من أهل الأوجاق وعساكرهم أن تذهبوا إلى تونس ... لتبدوا اهتمامكم لدفع الطغيان »[1] .

بينما كانت تونس تكافح هذه الغائلة كانت الدولة العثمانية تطلب من الأوجاقات إرسال السفن للثأر من كفار البندقية الذين نقضوا العهد ، وفي الأمرين الذين أرسلا إلى تونس في أوائل شوال ١١٩٥[2] وفي أواسط

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ١٨٠ ص ٥٦ في أواخر جمادى الأخرى ١١٩٥ .

(٢) سجل مهام الديوان الملكي رقم ١٨٠ ص ١١٩ .

ذى الحجة [1] يطلب إرسال ستة قاليونات وقد أرسل ألفا دينـار وسبع عشرة خلعة إحساناً عن كل قاليون .

التحقت السفن المطلوبة من تونس بالأسطول العثماني ولما دخـل الأسطول عبر المضيق تلقوا أمراً ملكياً بأن يفارقوا الأسطول دون إذن من القبطان باشا وأن يبقوا تحت الخدمـة في الوجه الذي يراه [2] . يفهم أن ثورة محمد وعلي قُضي عليها إلا أنـه لا توجـد تفصيلات في هذا الشأن .

لمـا صار حموده باشا أميراً للأمراء كان عمره ثلاثين سنة وكان له أخوان وخمس أخوات .

توفي كبير أخوته بدون عقب والثاني عثمان بك حل مكان حموده باشا وقد تزوج اسماعيل كاهية الذي صار فيما بعد قبطان باشا إحـدى أخواته وزوج اثنتين لمصطفى خوجه وتزوج إحداهن ابن بنت مصطفى خوجه ولم تتزوج الأخرى من أحد . كان صادقاً ومجداً .

كان مصطفى خوجه من رقيق الكرج وكان بمقام رئيس وزراء البك.

---

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ١٨٠ ص ١٥١ .

(٢) سجل مهـام الديوان الملكي رقم ١٨٠ ص ٢٢٤ في أوائل جمـادى الاولى ١١٩٦ .

ان هدوء سني أوائل حكم حمودة تدين لنصائح مصطفى خوجه الرشيدة . وبعد أن مات مصطفى خوجه لم يُعين أحد في مكانه إلا أن حموده باشا الذي استفاد من تجارب مصطفى خوجه كان قد اكتسب خبرة ليدير البلاد شخصياً .

في عام ١١٩٩ــ١٧٨٤ كادت، بسبب منازعات القبائل التي على الحدود، أن تسمع فرقعة السلاح بين صالح بك حاكم قسنطينة وبين حمودة باشا إلا أن صالح بك سلك طريق التفاهم وفض النزاع دون استعمال السلاح .

ان هروب بعض المفسدين ورؤساء الفساد في١٢٠٢ــ١٧٨٧ الى تونس جددت خطر الصدام .

تجمعت قوات الجزائر في قسنطينة وأذن دايي الجزائر بالحرب وبالرغم من أن صالح بك كان إلى حد ما مخطئاً فإن حموده باشا نفذ لصالح بك مطلبه ولم يخل بالصلح .

إلا أن محاولة التونسيين التظاهر تجاه الجزائر بالجار الصالح كانت بسبب الجدال الذي بينهم وبين البندقية .

كانت الأيالة التونسية منذ عهد علي باشا تطالب بتسوية الأضرار التي لحقت برعاياها من البندقيين ، وكان حموده باشا يلاحق هذه المسالة بلا هوادة . ولما حدثت في أول سنة ١١٩٩ــ١٧٨٤ مسالة أخرى جاء مندوب خاص من البندقية لحل هذه الخلافات إلا أن حموده باشا قطع العلاقات

مع البندقيين ؛ وعلى الأثر بعث دوتشي البندقية أسطولاً بقيادة أمو إلى تونس. ضرب هذا الأسطول سوسة وفي العام التالي (١٧٨٥) عاد وضرب سوسة وصفاقس وحلق الواد .

كان حموده باشا يسجل كل الأضرار التي سببها هذا الضرب في دفتر الديون المطلوبة وبالرغم من هذا الضرب فإنه لم يقترب أبداً من التفاهم . ولما كان الأميرال أمو مقتنعاً بحق الباشا في هذه القضية فإنه كان دائماً يعرض الصلح ويقطع لفترة عمليات ضرب القنابل ليمنحه فرصة للتفاوض .

ربما كانت هذه المسألة تطول أكثر لولا مات أمو في مالطة فبطلت هذه العملية .

ان هذه الحرب كانت تكلف البندقية غالياً . إلا أن حموده باشا كان يعتبر أمو عدوه الشخصي ويعاند في رفض عقد الصلح ؛ إلا أنه بعد موت أمو لم يبقَ مانع لعقد الصلح .

كان الجزائريون أيضاً في هذه الفترة يستعدون لمهاجمة تونس . لذلك بوشرت مفاوضات الصلح مع البندقيين إلا أن وثيقة المصالحة لم توقع إلا في ١٢٠٧_١٧٩٢ .

في عام ١٢٠٦_١٧٩١ ظهر خلاف بين تونس والجزائر إلا أنه حل بالاتفاق بين الايالتين نتيجة لإبلاغ المقام السلطاني لكل من أميري

الأمراء بذلك[1].

كان قد جاء إلى تونس أيضاً أمر للإشتراك في الحرب التي نشبت في سنة ١٢٠٣ بين الدولة العثمانية وبين النمسا وروسيا[2].

في آخر ربيع الآخر من نفس العام بعث السلطان إلى حمودة بك ثوبَ خلعة وأمراً بالبقاء في إمارة الأمراء وبإغراق واحراق مراكب الأعداء التي تقطع البحر في تلك الجهات ذهاباً وإياباً[3].

في الحرب التي أعلنت على الموسكوف وحليفته النمسا أمر بتجول مراكب أوجاقات الغـــرب في البحر الأبيض وفي الجملة صدر الأمر إلى تونس بأن تبعث ثلاثة مراكب[4] وعرف في نفس الوقت بأن تخـــرج

---

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ١٨٦ ص٩٥ في أوائل رمضان ١٢٠٦.

(٢) سجل مهام الديوان الملكي رقم ١٨٨ ص ٥١ في ربيع الآخر ١٢٠٣ .

(٣) سجل مهام الديوان الملكي رقم١٨٩ص٢٩في أواخر ربيع الآخر١٢٠٣ .

هذا هو الأمر الأول في قيودات الديوان الملكي الذي مر فيه اسم حمودة باشا في الأمرين بتاريخ سلخ جمادى الأخرى ١١٠٥ كان محمد باشا يخاطب بأمير أمراء تونس ، لذلك فإني أظن أن علي باشا توفي قبل التاريخ المذكور وأعطيت إمارة الأمراء لمحمد باشا وأخيراً وجهت إمارة الأمراء إلى حمودة باشا .

(٤) سجل مهام الديوان الملكي رقم ١٨٩ ص ٣٠ في أواخـــر ربيع الآخر عام ١٢٠٣ .

سفائن الأوجاقات إلى تريستة وآليكورنا للقرصنة[1].

في عام ١٢٠٥ أنقذ السويديون الذين يحاربون بالاتفاق مع العثمانيين، من مراكب الروس ٥٣ أسيراً مسلحاً وأودعوهم في سفينة توجهت بهم إلى الأستانة ولما جاءت هذه السفينة إلى تونس قيد حموده باشا ٣٩ منهم يولداش بالأوجاق (أي جندي بحري) وبعث الآخرين للأستانة بمركب فرنسي مع الرسالة التي أعطاها للسويدي واشترى المركب الذي جاء بالأسرى من ربانها لوضعها في قالب فرقاطة[2].

بما أن الصلح كان قد عقد في سنة ١٢٠٦ مع روسيا والنمسا وأن الدولة العلية تعهدت بالتعويض عن الخسائر التي تلحقها الأوجاقات برعايا دولة النمسا فقد أخطرت الأوجاقات بأن لا تهاجم سفن التجارة الروسية والنمساوية[3].

سمح لسفن الأوجاق الذين جلبوا منذ سنوات للبحر الأبيض بسبب حرب النمسا وروسيا بالعودة وتقديراً لحسن خدماتهم وُجه مرسوم لأمير الأمراء بذلك[4].

---

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ١٩٠ ص٧٠ في أواخر شعبان ١٢٠٣ .

(٢) سجل مهام الديوان الملكي رقم ١٩٦ ص ٢ في أواسط رجب ١٢٠٥ .

(٣) سجل مهام الديوان الملكي رقم ١٩٨ ص ٧٨ في أواخر رجب ١٢٠٦.

(٤) سجل مهام الديوان الملكي رقم ١٩٨ ص ٩١ في أوائل شعبان ١٢٠٦.

بما أن سيدي علي باشا الجزائري عين في ٢١ من ذي الحجة سنة ١٢٠٧ أميراً لأمراء طرابلس الغرب وأوفد إلى طرابلس الغرب . فقد كان علي باشا أمير أمراء طرابلس المعزول وأبناؤه قد التجأوا إلى تونس ومحمود باشا أحسن استقبالهم وخصص لهم مرتبات وطمأنهم بأنه سيساعدهم على استرجاع إيالة طرابلس . بعد مدة استغفل الموالون للبك السابق علي باشا الجزائري وحرضوه على احتلال جربة .

ان استيلاء علي باشا الجزائري على جربة أغضب حمودة باشا وسبب إعطاء جنود لعلي باشا وأولاده للزحف على طرابلس[١] .

عرض سيدي علي باشا على السلطان هجوم علي باشا وأولاده وقد أرسل أمراً إلى حموده باشا بان يحسن الأوجاقات الثلاثة التعايش فيما بينهم وأن لا يعمل ما يوجب تزلزل إمارة أمراء طرابلس وأن لا يساعد أمير أمراء طرابلس السابق علي باشا وأولاده .

وأرسل للجزائر أيضاً خطاباً في هذا الشان في قالب النصيحة وأحيطت تونس علماً بالمخابرة الجارية[٢] .

ذكر حمودة باشا في الرسالة الجوابية ان معاونة علي باشا لم تخطر

---

(١) تاريخ ابن غلبون ص ٥٨ .

(٢) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٢٠٠ ص ٥١ في ربيع الآخر ١٢٠٨ .

أبداً في باله ولما كان اللاجئون من خدام وفقراء الدولة فإنهم يمنحـــون نصيباً من التموين وان ولديه المعتـــدين مع العربان على طرابلس منشقين عن والدهم .

وبما أن خطاباً آخر قد أرسل من طرابلس الغرب فقد رأى الديوان الملكي التباين بـــين الجوابين وكتب إلى حمـودة باشا بأن علي باشا أمير الأمراء السابق لم ينظر في رفع مستوى قوة الأقليم وكان شغله الشاغل البحث عن المنافع والملذات وقد ترك قلعة طرابلس مهدمة وهوى بالبلاد للحضيض كما انه لم يبعث للحروب الملكية سفناً قيمة واكتفى بالإشتراك بواحدة أو اثنتين من نوع البرغاندي (نوع من السفن الصغـــيرة) . القليلة النفع[1] .

أشعرت طرابلس الغرب بهذه البلاغات واكتفى بإضافة انها سطرت أوامر كريمة إلى أزمير للتجنيد حسب المعتاد[2] .

لم يؤثر واحـد من هذه الأوامر على حمـــودة باشا فزود علي باشا وولديه بالقوة التي جهزها وساقهم إلى طرابلس. ولما استقل سيدي علي باشا أحد المراكب وغادر طرابلس احتـــل علي باشا المدينة وباتفاق الآراء نصب ابنه أحمد والياً .

---

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٢٠٠ ص ٢١٠ في أواخر شوال ١٢٠٨ .

(٢) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٢٠٠ ص ٢١٥ في أوائل ذي القعدة ١٢٠٨ .

قدرت مصاريف الجيش التونسي عن تنقلاته مدة شهرين مع المكافاة بماية وستين ألف محبوب مصري جمع عشرون ألفاً منها من أهـل المنشية فدفعت سلفاً وكُتب بالباقي سند لتدفع على أقساط سنوية[1] .

توفي في قسنطينة ابن علي باشا أمـير أمراء تونس الأسبق وخلف إبناً يدعى اسماعيل . كان حموده باشا يخاف من أن يكون هذا الولد آلة في يد الجزائريين لحبك المؤامرات ضده وكان اسماعيل بك يرغب في التنازل عن كل حقوقه والسماح له بالرجوع إلى بلاده .

لذلك استدعى الباشا اسماعيل بك للقدوم وأعطاه جناحاً في قصـــر باردو حيث استقر اسماعيل بك واستراح .

بدأ الجزائريون الاتصـال بإسماعيل بك ولما بلـغ هذا الخبر مسمع حمودة باشا أمر بقتله مع كل من لهم صلة بهــــذه المؤامرة ولم تقم بعد ذلك أية ثورة على حمودة باشا .

في هذه الفترة قامت الثورة في فرنسا وسقطت الملكية وحلت مكانها الإدارة العرفية (كونفانسيون) .

بعثت الحكومة التونسية قراصنتها لمهاجمة سواحل مناطق البحـر الأبيض الفرنسية معتبرة نفسها غير مرتبطة بأي ميثاق مع حكومـــة

---

(١) التفصيلات في تاريخ طرابلس الغرب .

العهد الجديد .

كلفت ادارة الكونفانسيون قنصلها في تونس بالدخول في مفاوضات بهذا الشان .

كانت المعاهدة السابقة تحرم على الطرفين داخل حدود ثلاثين ميلاً من سواحلهما وقد تقرر في المعاهدة العتيدة تحديد المياه الإقليمية برمية مدفع ووقعت في ٢٥ مايو ١٧٩٥ ــ ١٢١٠ .

في يناير من عام ١٧٩٧ سافر إلى باريس وفد برئاسة محمد خوجة أمين الترسانة يحمل إلى الديركتوار رسالة الباشا وعاد محملاً بالهدايا الثمينة وبوعود الصداقة[1] .

لما هاجم الفرنسيون مصر أعلنت الأوجاقات الحرب على فرنسا وبعث لهم الديوان الملكي أمراً بمهاجمة السواحل الفرنسية التي تتنقل بينها وبين مصر والإستيلاء عليها ولما يتم تجهيز الأسطول الملكي ويخرج للبحر الأبيض يلحقون به[2] .

بعد انتهاء الحرب المصرية عقدت الهدنة مع الفرنسيين في ٩ ربيع الأول ١٢١٥ و٧ أغسطس ١٨٠٠ ولما كانت فرنسا تطلق على الرؤساء

---

(١) اونيورس — تونس .

(٢) سجل مهام الديوان الملكي رقم٢٠٧ص٤١ في أواخر صفر ١٢١٣ .

الذين يديرون شؤون الدولة اسم قنصل فقد أصبح القناصـــل الذين يعملون في البلاد الأجنبية يدعون (الكوميسير العام للشؤون التجاريـة والقائم بأعمال الجمهورية) .

وهذه مواد الهدنة التي وقعهـــا المواطن دي وواز القائم بالأعمال في تونس :

١ ـ توقف في ٩ فركتيدور العداوات بين البلدين .

٢ ـ ان بك تونس سيأمر رؤساء سفن القراصنة المجهزة من قبله أو من قبل بعض الأهالي بان لا يعتدوا على العلم الفرنسي وستعاد إلى أربابها الأمتعة التي تثبت اسانيد وشهادات المراكب التي تقع في أيدي القراصنة بانها تخص الفرنسيين ، كما أن المواطن دي وواز يتعهد باستصدار أمر من حكومة الجمهورية للسفن الفرنسية وبالخصوص الكورسيكية بالكف عن الاعتداء على العلم التونسي. والفرنسيون سيعاملون المراكب التونسية التي أخذوها من أعدائهم بنفس المعاملة المذكورة أعلاه .

٣ ـ ستعاد بحمولتها وبحارتها كل أنواع المراكب التي تصادر من كلا الجانبين بعد ٩ فركتيدور .

٤ ـ إلى أن يوقع الصلح من كلا الطرفين تستطيع المراكب الفرنسية الدخول للموانىء التونسية كما أن للمراكب التونسيـــة الحق في دخول الموانىء الفرنسية .

٥ ـ في حالة فسخ الهدنة سيخبر الطرفان بعضهما البعض بذلك قبل استئناف العدوان أثناء قيام حالة الحرب بين تونس والفرنسيين ، كان قراصنة الجزائر وتونس قد ضاعفوا نشاطهم وكان الساردينيون أكثر من تعرض لضرباتهم . لقد حاول الساردينيون عبثاً أن يقابلوهم بالمثل كما ان كالياري حاضرة الجزيرة حوصرت عدة أيام من قبل القراصنة .

جاء لتونس، بدافع الغيرة، رجل من أهل جزيرة جابراجا ، متزوج من جزيرة القديس بطرس ، جاء من أجل الإنتقام من أهل هذه الجزيرة وأصبح مرشداً للقراصنة باغتت عشرة مراكب للقرصنة بالهجوم على جزيرة القديس بطرس بدلالة هذا المرشد ففتكت بحاميتها وساقت ٨٠٠ أسير معظمهم من النساء والبنات ـ إلى تونس حيث باعتهم .

تعقبت سفينة فرنسية من نوع فرقتين هذه المراكب إلا أنها لم تنل أية فائدة .

عقد الصلح مع الفرنسيين في عام ١٢١٧ ـ ١٨٠٢ إلا أن حمودة باشا أخر كثيراً اطلاق سراح الأسرى الفرنسيين لأن الفرنسيين كانوا يبخلون في قيمة وعدد الهدايا المعتاد تقديمها في مثل هذه الحالات وحمودة يثور لهذا الاجراء ويعتبره ماساً بكرامته .

وبعد أن حلت هذه الخلافات ساد البلاد عهد من الهدوء والسكينة حتى عام ١٢٢٦ ـ ١٨١١ .

عقد الأميريكيون في عام ١٧٩٨ اتفاقية مع تونس لمنع القراصنة من السطو على المراكب الأميريكية وتعهد الأميريكيون في هذه الاتفاقية بان يزودوا تونس بكمية وافرة من العتاد الحربي .

كانت شؤون البلاد الداخلية والخارجية تسير على خير مـا يرام وإدارة الأمارة كل يوم تزيد مناعة .

كان علي باشا في سنة ١١٤٩ـ١٧٣٦ قد قبل أن يكون تابعاً للجزائر وأن يدفع لها الأتاوة وكلما مرت الأعوام انخفضت كمية الأتاوة وأخيراً صرف النظر عن إرسال حمولة سفينة من زيت الزيتون .

بقي شرط واحد ثقيل فقط وهو أن التونسيين لا يقيمون تحصينات على الحدود الجزائرية . وجد حموده باشا الوقت مساعداً جداً للتحرر من هذا الشرط الذي يستثقله وللخلاص من النير الجزائري الثقيل ، كان قد أمر بضرب وقتل بعض الجزائريين المقيمين في تونس ممن كان لهم ضلع في المؤامرة المحبوكة ضده في عام ١٢٢١ـ١٨٠٦ .

لقد أدرك دابي الجزائر أحمد دابي سبب تنفيذ هذه المعاملة الشديدة وأجاب عليها في عـام ١٢٢٢ـ١٨٠٧ باحتلال الأراضي المجاورة للحدود ونهبها وإيفاد الأسطول لمحاصرة حلق الواد .

كان حموده باشا قد تأهب للأمر فبعث جيشاً بقيادة سليمان كاهية قوامه خمسون ألف مقاتل هـاجم الجزائر أولاً وبدأ بتطويق قسنطينة ومنعـاً

لمحاصرة المدينة شتت الجزائريين الذين كانوا خارجها إلا أنه لم يستفد من هذا النصر ورد الهجوم الذي شنه للاستيلاء على المدينة وطال الحصار .

في هذه الاثناء زحف عليه جيشان أحدهما قادم من عنابة والثاني من الجزائر . هاجمها سليمان كاهية إلا أنه هزم وترك القيادة إلى سليمان آغا الصغير . إلا أنه أصبح من الضروري الانسحاب وقد خسر التونسيون ضحايا كثيرة أثناء تقهقرهم .

بعث أحمد دايي قوة بقيادة خازنه لتعقب المتقهقرين .

عيّن الخازن قائداً عاماً للجيش وأمره بالتعاون مع حسين بك حاكم قسنطينة باحتلال تونس والاستيلاء على الكاف وتقديم الحدود الحالية إلى بجا .

جمع حموده باشا فلول الجيش المتقهقر وعززها بالعساكر الذين جندهم ووضع جملتهم تحت قيادة مهر داره (حامل ختمه) يوسف آغا . تصادم الجيشان مرة أخرى بالقرب من الكاف وبالرغم من قلة أفراد الجيش التونسي فإنه انتصر على الجزائريين واستولى على معسكرهم .

لم يُسيء حموده باشا معاملة الأسرى وسمح لمن يريد منهم العودة للجزائر بالذهاب وقابله أحمد دايي بإطلاق سراح العربان التونسيين ثم شفى غليله من هذه الهزيمة بإعدام حسين بك حاكم قسنطينة خنقاً وبعث الرجل المدعو علي بك حاكماً لقسنطينة وأمره بأن يتأهب للقتال .

كتب أوجاق الجزائر للاستانة أن منشأ هذا النزاع بين الطرفين كان بسبب تمسك تونس ببعض الأمور التافهة وتلقت الأوجاقات الثلاثة بأن مثل هذه الخصومات المنافية للشرع وللرضاء السامي يجب استبدالها بالتفاهم والاتفاق التام وأن تجهز أكبر عدد من السفن وتخرجها للبحر الأبيض[1] .

في عام ١٢٢٣ـ١٨٠٨ جاء باشاغا إلى قسنطينة بعدد قليل من العساكر واجتمع بعلي بك إلا أن شخصاً من بين العساكر يسمى أحمد شاوش حرّض الجنود على التمرد وبعد أن قتل باش آغا وعلي بك أعلن نفسه حاكماً على قسنطينة ثم وزع الأموال التي كانت بخزينة الدولة في قسنطينة على الجنود .

لما بلغ خبر الحادث للجزائر بث أحمد دايي المدعو أحمد بك الأعرج (طوبال أحمد بك) لأمارة قسنطينة . انحاز الشعب الذي سئم ظلم أحمد شاوش إلى جانب الحاكم الجديد وقبض على أحمد شاوش وأعدم إلا أنه لم يبق جيش يستطيع الزحف على تونس .

عرض أحمد بك على تونس عقد الهدنة ووافق حموده باشا على ذلك .
بعد بضعة أشهر صار علي خوجه الغسال داياً للجزائر وهذا أيضاً حاول مناجزة تونس إلا أن أحوال الجزائر حالت دون ذلك ، ثم قامت

---

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٢٢٦ ص ٣٤ في أواسط رمضان ١٢٢٢ .

ثورات في اللواء العربي. لم توجد فرصة للحرب مع تونس في التوجيهات الصادرة في أوائـــل شوال ١٢٢٣ جاء الأمر بإبقاء إمـــارة تونس لحموده باشا [1].

في الوقت الذي كانت الحرب مع الجزائر مؤكدة كان علي باشا والد حموده باشا قد أكثر من الانكشاريين . ولما رأى حموده باشا تفاقم خطر ومساوىء الانكشاريين سعى للإقلال منهم ولم يسجل جديداً منهم وشكّل فصائل من القول أوغليين ومن المماليك واتخذ حرساً له .

فهم الانكشاريون مرمى هذه التدابير .

في الحقيقة أن دوام الحكم في أسرة واحدة كان يحول دون ظهورهم ودون الانتفاع من وراء بثهم للفوضى وعليه :مقابلةً بالمثل قرروا التخلص من الأمير واختيار أمير من بينهم .

كان الأمير يأتي في كل يوم جمعة من باردو للصلاة في مسجد المدينة.

قرر الانكشاريون قتل الأمير أثنـــاء قدومه ثم الإسراع إلى باردو للتخلص من جميع أفراد الأسرة بالقتل .

لما علم حموده باشا بهذه المؤامرة لم يصدقها في بادىء الأمر إلا أنـــه احتياطاً لم يذهب لصلاة الجمعة .

---

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٢٢٧ ص ٢٢١ في أوائل محرم ١٢٢٤.

ان عدم ذهاب الأمير لصلاة الجمعة أقنع الانكشاريين بافتضاح ما كانوا يبيّتون وحتى إذا لم تكتشف مؤامرتهم فإنها حتى يوم الجمعة التالية ستشاع بين الناس ويعلمها الخاص والعام ، لذلك قرروا تنفيذ مخططهم. وفي الساعة التاسعة من الثلاثين من شعبان ١٢٢٥ ـ ٣٠ أغسطس ١٨١١ ثاروا ونهبوا متاجر اليهود الذين في المدينة وخربوا وأشعلوا النيران فيما وقع تحت أيديهم ، ولما همَّ السكان باسلحتهم لمقابلة هذا الاعتداء والفوضى بالمثل انسحب الانكشاريون للحصن الداخلي وبما أن محافظي الحصن الداخلي كانوا من الانكشاريين فإنهم فتحوا أبوابه لزملائهم العصاة .

كان عدد المتمردين يبلغ ٢٥٠٠ اتخذوا إجراءات الدفاع داخل الحصن وانتخبوا من بينهم أميراً عليهم ولما تم الانتخاب أطلقوا نار الوغى إيذاناً إلى حلق الواد وبنزرت وسوسة والكاف والسواحل بانتصارهم وكان الذين سيسمعون هذه الإشارة المقررة سيرفعون علم الثورة . إلا أن كاهية رأس العبد لما بلغه نبأ أول تمرد، سلح العربان والمهاجرين الأندلسيين واحتل بهم قلعة حلق الواد لأنه اشتبه في إمكان تمرد الجنود الموجودين هناك أيضاً وفي نفس الوقت جاء للمدينة كاهية الأمير بالقوات التي تمكن من جمعها .

رفع الانكشاريون الملتجئين للحصن الداخلي علماً أخضر يريدون به عدم اعترافهم بالأمارة التونسية وانهم من رعايا الدولة العثمانية .

صوبت كل المدافع التي بالاستحكامات في اتجاه الحصن الداخلي وباشرت في ضربه .

دام إطلاق النار بين الطرفين من السادسة صباحاً حتى الساعة الثانية ولما أمسى اليوم خفت نيران الحصن الداخلي . بقي في الحصن الداخلي قرابة ١٧٠٠ جندي ، ولما أدركوا أن لا مناص من الهروب تسللوا ليلاً من الحصن فارين وكان الأمير قد أوعز بأن يفتح لهم طريقاً للفرار لأنه إذا سدت أبواب السلامة في وجوههم فإنهم بدافع اليأس سيقاتلون بضراوة ويسببون الكثير من الضحايا كما أن سكان المدينة يهربون وتخلو منهم المدينة وربما نشأت حوادث أخرى ليست في الحسبان وبما أن القبائل المجاورة أخطرت بالأمر فإن نجاة الهاربين عسير .

ان الخمساية جندي المحافظين الأصليين للحصن لم يلجأوا للفرار بل استسلموا . وفي ١ رمضان ١٢٢٥ ـ ١ سبتمبر ١٨١١ أوقف ثلاثون منهم أمام الأمير فعنفهم وأمر بقطع رؤوس البعض منهم وسجن الباقين وهكذا حل الهدوء والسكينة في المدينة .

توجه الفارون من الحصن إلى طبرق وكانوا قد قرروا ركوب السفن من هناك ونظموا أمورهم على هذا الأساس ولما تقدم العربان لقطع طريقهم قرروا الانسحاب إلى (جبل انصارية) الكائن على بعد ٨٠ كيلومتراً من تونس وبيع نفوسهم بأغلى ثمن .

طوق العربان هذا الجبل وبدأوا في مهاجمتهم ، فدافع الانكشاريون عن أنفسهم بشدة إلا أنهم ديسوا تحت أقدام الكثرة وقبض على ٦٠٠ منهم .

أمر حموده باشا بقطع رؤوس هؤلاء وقضى على العصيان بهذه الطريقة الدموية .

في عام ١٨١٢ حاصر الأسطول الجزائري حلق الواد وعرض قائـــد الأسطول شروطاً معتدلة للصلح فبدأت المحادثات وكان حموده يتجنب البحث في التابعية والمتبوعية وكان الجزائريون يكتفون بأن ترسل إليهم كمية الزيت المعتاد إرسالها في السابق ، إلا أن حموده باشا يعتبر هـــذا الإجراء من علامات التابعية ويرفضها ، إلا أنه وافق أخيراً على أن يبعث الزيت لغرض استعماله في تنوير المساجد إلا أن الجزائريين لم يوافقوا على هذا التفسير .

وفي نفس العام توسط الأميرال الانكليزي اللورد بنتنك بصورة شبه رسمية ووافق على عقد معاهدة بين صقلية وتونس .

طلب مورات ملك نابولي بواسطة القنصل الفرنسي عقـد معاهدة. ان المحادثات التي دارت بشأن تحديد فدية الأسرى أخرت الصلح وأخيراً عقدت في سنة ١٨١١ معاهدة مع مورات .

في سنة ١٨١٣ جاء أسطول جزائري أمـام حلق الواد فقصفها وبقي قرابة شهر ثم عاد من حيث أتى وقامت على حدود البلدين حروب فيما بين عساكر تونس بقيادة يوسف آغا وبين عمر آغا والقوة التي بقيادة نعمان بك حاكم قسنطينة.

كان الجزائريون يريدون محاصرة الكاف إلا أن تحركات المحاصرة

كانت تجري في بطء وتأن وأخيراً انسحبوا دون أن يحصلوا على نتيجة .

لقد كانت هذه الاصطدامات آخر مصادمات فعلية حدثت بين الجزائر وتونس،وهكذا فإن الصلح لم يتم عقده رسمياً إلا بعد مرور بضع سنوات إلا أنها لم تحدث مصادمات جديدة بين الطرفين .

توفي حمودة باشا في اليوم السابق لعيد الفطر من عـام ١٢٢٩ في ١٤ سبتمبر ١٨١٤ إذ سقط فجأة في بهو العدلية ومات . البعض يقولون انـه مات مسموماً والبعض يقولون انه مات بالسكتة القلبية . مارس الإمارة مدة ٣٣ عاماً .

لقد وفق توفيقاً باهراً في إعمار البلاد وإحلال السكينة والأمن خلال هذه المدة الطويلة .

كان ختمه من العقيق الغامق اللون ومحفور وسطين بيضاوي الشكل (حموده باشا بك ميرميران) وعلى حاشيتـه (اللهم دام ملكه في دار الجهاد تونس ١١٩٦) .

وفي كلمات (اللهم دام ملكه) يرينا تاريخ ١١٩٦ .

يعتقد المشارقة أن حاملي هذا الحجر ينالون السعادة[١] لذا فلا عجب

---

(١) يقول الدكتور فرانك الذي وجـد بتونس في عهد حموده باشا بأن التونسيين يتفقون عموماً على خصائص الحجارة وفي المشرق تسند للحجارة فوائد خاصة بها . =

إذا اعتقدوا في أن هذا الطلسم كان سبباً لحكم الأمير مدة طويلة .

= ان للكاتب العربي (ني فجهي ؟) في المكتبة القومية الفرنسية مؤلفاً خطياً يذكر فيه ان للحجارة المهمة التأثير التالي :

الياقوت : يقوي القلب ، يبعد الوباء والزلازل ، يذهب العطش ويوقف الدم .

الزمرد : يشفي لدغات ولسعات الحيات وجميع الحشرات السامة وإذا عرضت على الحية تعمى ، يبعد العفاريت والأرواح الخبيثة والجنيات الضارة .

الماس : يفيد الآلام وأوجاع المعدة والصرع .

الفيروز : يقوي البصر ويداوي التهابات العين ولسع العقارب .

العقيق : يزيل الغضب ، يقطع سيلان الدم ، يوقف آلام الأسنان، يقي من المصائب ، يديم السعادة ، يطيل العمر .

المغناطيس: يسكن آلام النقطة ، يسهل الولادة ، يزيل (أو يبطل) مفعول السم .

اليشم : يحفظ من الرؤى المرعبة ومن الصواعق .

عين الهر : تحفظ من إصابة العين ، تقي من المصائب ، يخفي في الحروب من عين العدو .

اونيفرس — تونس .

- ٧ -

عُثمان بك - مأساة الأسرَة - محـمُود بك
حسَين بك - مُصْطفى بك - سيدي أحمَد باشا
المشير الثاني محمّد باشَا

ان الإمارة التي تسلمها علي بك بالوكالة تمسك بها طوال حياتـــه ولما توفي حل ابنه مكانه وبقي محمود بك صاحب الحق مرة ثانية على الهامش. وعدا ذلك فإن لحمودة باشا أخاً هو عثمان بك. لقد أظهر محمود بك في هذه المرة أيضاً زهده في الإمـارة وأنتخب لها عثمان بك في ١ شوال ١٢٢٩ - ١٥ سبتمبر ١٨١٤.

كان لعثمان بك ولدان هما صالح وعلي كما أن لمحمود بك ابن في عمرهما يدعى حسين. فكر صالح وعلي في أن محمود وابنـــه سيحولان دون بلوغهما الحكم فقررا التخلص منهما، ولما بلغ محمود ما يبيته هـذان الشابان قررَ الأخذ بزمام المبادرة. وفي احدى ليالي ديسمبر قام الموالون لمحمود بك بقتل عثمان بك والمقربين إليه في قصر باردو وهرب ابناه

علي وصالح كما ألقي طفـــل عثمان الصغير مع أمه في السجن حيث وضعت طفلاً آخر .

دامت إمارة عثمان بك ٩٦ يوماً.

هرب صالح وعلي بك إلى حلق الواد ليستقلا منه أحد المراكب ولما اشتبه قائد المركز في حالهما طمأنهما شاكاً في وقوع حادث هام في تونس. ولما لحق حسين بك ابن محمود بك بالهاربين ألقى الأمـيران بنفسيهما في البحر إلا أنهما أُخرجا منه وقُطع رأساهما أمام الأمير[1] .

انقرضت أسرة علي بك على هذه الصورة وانتقل زمام الحكم ليـد محمود بك وهكذا نال محمود أمنيته في الحكم التي خبأها مدة نصف قرن بين ثنايا قلبه في ٨ محرم ١٢٣٠ (١٨١٤م)[2] .

ان أوجاقي الجزائر وتونس لم يلاحظا التطور الفكري الذي طـرأ على أوروبا . وكانت العقلية القديمة القائلة « على الكفار أن يختاروا بـين السـيف أو دفع الجزية وان مالهم ودماءهم حـــلال على المسلم » لا تزال تتحكم في تصرفاتهما .

بما أن فترة الثورة الفرنسية وعهد نابوليون قلبتـا أوروبا رأساً على

---

(١) فوربيكه .

(٢) أونيفرس – تونس .

عقب، فقد وُجدت أوجاقات البحار خالية وأتاحت للتونسيين فرصة ليضربوا جزيرة القديس بطرس[1] .

ان عقد الصلح في أوروبا بعد سقوط نابوليون وحكم المابة يوم جعلت الأوروبيين يلتفتون للبحر الأبيض . اقترح الأوروبيون في سنة ١٢٣٥ ـ ١٨١٩ على الجزائر الغاء الرق إلا أنهم لم يتلقوا الجواب .

كان الأميريكيون أول من تدخل فعلاً في المسألة إذ جاء أسطولهم للجزائر في سنة ١٢٣١ ـ ١٨١٥ وألزموا حكومتها بالغاء الأتاوة المدرجة في معاهدة سنة ١٢١٣ ـ ١٧٩٨ .

ان عمر بك الذي تكدر من هذا الإجراء قرر إلقاء ثقله على التونسيين فبعث أسطولاً لتامين ربط تونس بالجزائر ودفع الخراج لها ، إلا أن محمود بك رفض ذلك وتاهب للدفاع وبما أن التهديد لم يجدِ نفعاً فقد قرر الطرفان ان الحالة الحاضرة لا تحتمل المهاتره وتصالحا رسمياً .

كان محمود بك قد قوى أسطوله تحسباً لهجوم الجزائر . ان هذا التقوّي أظهر مسألة تفتحت لها أنظار الأوروبيين .

ضرب القراصنة بعد عام ١٧٩٨ سواحل ساردينيا عدة مرات وأخذوا أسرى .

---

(١) أنظر حاشية رقم ١ من الصفحة التالية .

في صيف ١٢٣١ ـ ١٨١٥ شوهد في خليج كالياري أسطـول مكون من ١٨ قطعة مجهزة ومسلحة أحسن تجهيز وتسليح ثم أنزل جنـــوداً في جزيرة انتيوجو[١] .

حاول ضابط مدفعية يدعى مَلّيس احتلال الجزيره إلا أنه في النهاية قتل هو وال ٢٨ محافظاً الذين كانوا في معيته وأسر القراصنة ١٥٠ أسيراً من بينهم آنجلينا أخت مَلّيس التي كان عمرها ١٥ سنة .

ان هذه الضربة أزعجت أعضاء مؤتمر الدول الأوروبيـة الذي كان حينذاك منعقداً في ديانة . فكروا قبل كل شيء في تخليص الأسرى وقد أخذت انكلترة هذه المهمة على عهدتها .

جاء اللورد اكسماوت في عـام ١٢٣٢ ـ ١٨١٦ أولاً للجزائر ومن ثم إلى تونس .

كان يطالب بتسريـح الأسرى مقابـل الفـدية وإلغــاء الرق ومنع القرصنة.

---

(١) ان جزيرتي القديس بطرس وانتيوجو المتجاورتين تقعان على السواحل الغربية من أقصى جنوب ساردينيا .

ملاحظة المترجم : ان المؤلف كتب اسم الجزيرة الأخـيرة (آنتيوجو وآنيتوجو) .

تقدمت المفاوضات بسرعة ومن جهة أخرى كان محمود بك يجري بواسطة القنصل الفرنسي مفاوضات الصلح مع مملكة نابولي وكان يتوق إلى إتمام الصلح معهـا حتى لا يظهر عليه انه أجبر على قبول شروط اللورد اكسماوت . ولكن اللورد اكسماوت ـ رغبة منه في تحطيم النفوذ الفرنسي ـ كان يريد ويصر أن يعقد المعاهدة هو الأول (أي أن يكون له السبق في عقد المعاهدة) وأخيراً وافقت حكومة تونس على كل الشروط.

في المعاهدة التي أبرمت نُسي إدراج الرومان والتوسكانيين فيها وقد بعث اللورد رسالة يطلب إدخال هذين الشعبين في المعاهدة ووافق البك على هذا أيضاً .

في المعاهدة المعقودة مع مملكة نابولي كان قد ووفق على دفع هدية سنوية للبيك. سافر اللورد اكسماوت من بعد تونس إلى طرابلس وألزمهم بقبول نفس الشروط .

كان معلوماً في تونس أن عقد هذه المعاهدة سيسبب ثورة عسكرية وقد حدث هذا التمرد المنتظر .

بعد إقلاع الأسطول الانكليزي بثمانية أيام تمرد الجنود بتحريض من تشوبان وتكه لي وابراهيم بهلوان ودلي باش[١] .

---

(١) ان جوبان (تشوبان) تعني الراعي وتكه‌لي نسبة رجل إلى بلدة تسمى =

كانوا يريدون الإطاحة بمحمود بك من مقامه ونصب أخيه اسماعيل بك مكانه إلا أن اسماعيل بك أيضاً لم يكن راضياً على ذلك.

التجأ المتمردون إلى الحصن الداخلي وكانوا يظنون أن زملاءهم عساكر حلق الواد سيجارونهم إلا أن الجنود الذين كانوا هناك لم يجاروهم وظهر بينهم الخلاف والفرقة إذ ندم فريق منهم على العصيان فقبضوا على دلي باش الذي حرضهم وأوثقوا يديه ثم سلموه للبك.

ان قرابة ١٢٠٠ منهم ذهبوا إلى حلق الواد فركبوا خمساً من السفن الأميرية وتغلغلوا في البحر. كانوا يقصدون القيام بالقرصنة إلا أن ربابنة المراكب لم يوافقوهم على ذلك.

ذهبوا إلى ميناء جزيرة براتا الكائنة أمام نافارين وبعد أن أنزلوا فيها الباترونا القبطان أحمد أقلعوا ثانية.

ولما وصل أحد المراكب ميناء موتون شاهدها وكيل تونس وصادرها وتفرق الجند الذي كان بها والباقون قاموا بالقرصنة في البحار وأخذوا في السطو على مراكب النصارى والعثمانيين وبينما كانت الدولة العثمانية تطارد لصوص البحر من الروم إذ ظهر هؤلاء أيضاً.

=تكه وبهلوان تعني المصارع ومعنى دلي باش هو رئيس المجانين أي أن دلي تعني مجنون وتطلق أيضاً على البطل المغامر الذي لا يفكر في عاقبة ما أقدم عليه، وباش تعني الرأس. «المترجم»

ولما بلغ الخبر للاستانة أصدرت أوامر تؤكد وجوب معاقبـــة أي شخص يقبض عليه من أولئـــك الخارجين بالجزاء الذي يترتب عليـه ومصادرة السفن المذكورة أينما وجدت . (تاريخ جودت المجلد ١٠ ص ١١ في عام ١٢٣١) .

لم يمض وقت طويـل حتى قبض على هؤلاء المتشردين من قبـل سفن دول مختلفة .

في أوائل شوال من عـــام ١٢٣٦ ورد أمر بإبقاء محمود بـــك في وظيفته [١] .

انقضت السنون الأخيرة من عهد محمود بك في هدوء . وبما أن شكاوى القناصل ومداورات الحكومة معهم هي من جملة هموم أوجاقات الغرب فإنها لا تستحق البحث.

بعد أن قضى محمود بك في الحكم تسع سنوات وثلاثة شهور وعشرة أيام توفي في ٢٨ رجب ١٢٣٩ ـ ٣٠ مارس ١٨٢٤ وأخذ مركزه ابنه سيدي حسين بك [٢] .

---

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٢٣٨ ص ٢٤٠ .

(٢) ان هذا هو التاريخ الذي بينته أونيفرس – تونس .

وفي المجلد ١٢ ص ٩١ من تاريخ جودت يذكر انه لمـــا انتقل محمود باشا إلى دار البقاء وجهت إلى ابنه حسين بك رتبة امارة أمراء تونس في الثالث من ذي الحجة عام ١٢٣٩ .

تعرضت افريقيا الشمالية في عهد حسين بك لأكبر كارثــة وهي استيلاء الفرنسيين على الجزائر أقوى الأوجاقات الثلاثـة . ان التونسيين ـ بسبب العداوات القديمة التي بينهما ـ لم يقدموا للجزائريين أقل معاونة؛ بل بالعكس مانعوا في ذهاب تشنكل أوغلي طاهر باشا للجزائر عن طريق تونس ، وكانوا قد عقدوا في سنة ١٨٣٠ اتفاقيــة مع الفرنسيين متوهمين انهم يثبّتون بها مركز البك[١] . لم يفكروا بأنهم سيكونون بعد الجزائر لقمة سائغة للفرنسيين . لقد وقــع المعاهدة بين الفرنسيين والتونسيين بالنيابة عن الأولين القنصل الفرنسي ماتيودي لسبس .

مضت سنوات حكم حسين بك بلا حوادث وبعد أن قضى في الحكم ١١ عاماً وشهرين توفي في ٢٩ محرم ١٢٥١ ـ١٦ مارس ١٨٣٥ وحل مكانه أخوه مصطفى بك .

ان المرسوم الصادر بتعيين مصطفى بك لإيالة تونس هـام من وجهـة نظر تنوير وضع الأمراء .

يؤمر مصطفى باشا دامت معاليه الموجهة لعهدته في هذه المرة رتبة فريق العساكر المنصورة وامارة أمراء تونس :

لما بلغت علمنا الملكي العريضـة المرفوعة من أركان الإيالة عن طريق

---

(١) اونيفرس — تونس .

قبطان البحر طاهر باشا لنسمح بإحالة امارة الأمراء إليكم بسبب وفاة أمير أمراء تونس أخيكم حسين باشا بحلول أجله الموعود .

فقد صدر توجيهي وإحساني الملكي إليكم بإمارة أمراء تونس المذكورة مع رتبة الفريق الأول وأرسل لكم الوسام الخاص برتبة الفريق مع سيف ذي قبضة مرصعة .

في أوائل جمادى الأولى ١٢٥١ .

يرى صراحة انه لم يكن في المرسوم إشارة للوراثة وان التعيين كان بناء على توصية أركان الأيالة ، إلا أن الديوان الملكي أبدل هذه الطريقة بغية توثيق ارتباط تونس أيضاً بالمركز أسوة بطرابلس .

ان مندرجات العريضة التي نلخصها أدناه توضح الأفكار الخاصة بهذا الشأن : لما ان حضر القبطان باشا أول أمس إلى الباب العالي صرح بأنه سيلتمس تعيين مصطفى باشا لإمارة أمراء تونس مكان أخيه أمير أمرائها المتوفى حسين باشا . ويُروى انه سجن الاقطاعي المدعو صاحب الطابع وان لجماعة تونس أي ان المتوفى وذويه المماثلين له يتصلون بالفرنسيين بسبب الجوار ، ونظراً لاحتمال ميلهم إلى ذلك الجانب ومثلاً إذا أبقينا هناك ثلاث قطع من الأسطول الملكي الموجود في طرابلس وأرسلنا ما بقي إلى إمام تونس . ان عدم وجود الأسباب التي تبرر للفرنسيين حق التدخل في شؤون تونس لا تجوز في أي وقت الوثوق من الافرنج فإلى أن يرد المرسوم العالي بامارة الامارة طمئن الأهالي بأن لا تظاهر أي طرف .

وبما أن توجيه امارة الأمارة أيضاً من هذا الجانب إلى رجل مناسب لا شك في أنه سيكون أنسب وأسلم خصوصاً مـــا يقال عن دخول نجيب باشا الموفد إلى طرابلس إلى قلعتها وشتت العصاة الموجودين خارجها وحينما يذاع نجاح الباشا المشار إليـــه في إجراءاته المعتدلة وإجراءاتـه الحسنة سيطالب أهالي تونس من السلطنة السنية نصب وإيفـاد وال وحينذاك يتسنى حصول المطلوب بأكثر سهولة . ان توجيه امارة الأمارة الآن إلى مصطفى بك وإذا كانت التقاليد المرعية بشأن امارة الأمارة تتيح لنا الفرصة فيجب انتهازها على أن تمسك المصلحة على سبيل الاحتيـاط من طرفيها ، وإذا رؤي أن الحالة الراهنة هنـــاك تقتضي تعيين مصطفى فيتخذ الإجراء اللازم لذلك ولا يتعسر بعد ذلك تعيين أمير للأمراء من قبل السلطنة السنية .

وإذا كان اصطحاب بعض الجنود النظاميين لا يتنافى مع مصلحـة طرابلس ويكون سالماً من المحاذير فإن قائد الأسطول الملكي القبطان أحمد بك سيتسلم في الحال إدارة تونس بصفته قائمقاماً على أن توجه إليـه فيما بعد إذا صدر مرسوم ملكي بها أو ينتخب ويرسل لها غيره .

لقد بحثت هذه الاحتمالات الثلاثة كما رؤي إرسال أمرين وتعليمات إلى أحمد بك ويقتضي إبلاغ نجيب باشا بالوصايا اللازمة إلا أنـه أوفد موظفاً خاصاً إلى طرابلس لبحث تفاصيل الوجوه الثلاثة .

ان الأحوال لم تسمح بتنفيذ هذه الخطط فأُسندت امارة الأمـارة إلى

مصطفى بك وهذا قضى عامين ونصف العام في الحكم ولما توفي في العاشر من رجب ١٢٥٣ ـ ١١ اكتوبر ١٨٣٧ حل مكانه في امارة الأمـارة ابنـه أحمد .

ان علاقـة البك الجديدة مع الاستانة في بادىء الأمر لم تكن على ما يرام [١] .

كان الديوان الملكي لا ينظر إلى التجديدات القائمة في تونس بعين الرضا وفي عام ١٢٥٤ـ١٨٣٨ أقلع من الأستانة أسطول وجاء إلى ميـاه تونس . كانت مهمته تاكيد السلطة العثمانية على تونس وطرد الباي ؛ إلا أن الدولة الفرنسية علمت مسبقاً بالأمر فبعثت الأميرالين لالاند وغولواي لمنـع طاهر باشا من إنزال العساكر في تونس وبهـذا أخفقت مهمة طاهر باشا [٢] .

لا يوجد أي شيء عن هذه الحوادث في قيودات الديوان الملكي .

عاد الأسطول إلى طرابلس وبعد هذا الحادث قام أحمد باشا بمراجعة الأستانة فقبلت التماساته ووجهت إليه رتبة الباشاوية وامارة الأمارة [٣] .

---

(١) اونيفرس — تونس .

(٢) اونيفرس — تونس .

(٣) قاموس الأعلام (المشير الأول أحمد باشا) .

بذل سيدي أحمد باشا مساعيه لإدخـــال محاسن الحضارة الأوروبية لتونس وشارك في جهود الدول الأوروبية بشان الرق بالدرجة التي تتلاءم مع أحوال وتقاليـــد بلاده فأوصد أسواق الرقيق وأحسن معامـــلة الأوروبيين ، ولما كانت الدولة العثمانيـة قد ألغت تشكيلات الانكشاريين واستعاضت عنها بتشكيلات العساكر المنصورة الحديثة، أمر في١٤ صفر ١٢٧٤_١٨٣٠ بتطبيق نفس الاجراءات في تونس .

صرف أحمد باشا اهتمامه للجيش ، فجلب ضباطـاً فرنسيين لتنفيذ هذه الاصلاحات والتنظيمات الجديدة على أحسن وجه ؛ لقد عهد إلى مقدم المدفعية (لي كورَتِيْ) ولقائد الفصيلة (كيبار) وإلى عقيـــد المشاة (لاويلين) بتنفيذ هـــذه المهام وكسا العساكر التونسيين على الطراز الأوروبي .

لما تولى أحمد باشا امارة تونس كان عدد أفراد الجيش قرابة الـ ٥٠٠٠ جندي زيد عددهم إلى الـ ٢٠٠٠٠ كما أنشأ كورَتِيْ في تونس مصنعاً لصب المدافع ووضع المهندسون الفرنسيون خارطة للبلاد. طبعت هذه الخارطة في سنة ١٨٤١ .

قام أحمد باشا بزيارة لملك فرنسا ، فغادر حلق الواد في ١٤ ذى الحجة ١٢٦٣ ـ ٥ نوفمبر ١٨٤٦ تاركاً شؤون إدارة البلاد لابن أخيه سيدي حمزه والمدعو صاحب العتبة .

(توجد في الصحيفة ١٥١ من مرآة شؤون ممدوح باشا رتبة تسمى صاحب العتبة وهذا يعني أن حمزه بك في هذه الرتبة).

كان في معية أحمد باشا مصطفى باشا خزنه دار وقائد الجيش مصطفى آغا (كلاهما صهر له) ومحمد المرابط باشا وقائد الحرس العقيد صالح بك وأمير أمراء البحر حسونه باشا المورالي وغيرهم من الذوات .

وصل البك في ٢٣ نوفمبر إلى باريس ونزل ضيفاً في قصر الأليزه وفي اليوم التالي قابل الملك ؛ ولما كان البك يعرف الإيطالية قليلاً تحدثا بها[١] .

احتج السفير العثماني على استقبال البك وأفراد حاشيته استقبال الملوك إلا أن ذلك لم يجد[٢] .

عاد البك في ٣٠ ديسمبر إلى حلق الواد وبما أنه كان يشيع في كل عام ان الدولة العثمانية سترسل حملة على تونس فقد أرسلت من طولون سفناً حربية أخذت تحرس طول السواحل التونسية[٣] .

---

(١) اونيفرس — تونس .

(٢) تاريخ لطفي المجلد ٨ ص ٧٠ .

(٣) اونيفرس — تونس .

بعد ان عاد المشير الأول احمد باشا من فرنسا أوفد إليه سليم بك أحد كبار رجال القصر الملكي ومعه موظف آخر يحملان مرسوماً كريمـاً موشحاً عاليه بالخط الهمايوني تطرى فيه مساعيه الصادقـة وتعلقه الفعلي بالسلطة الملكية وتقديراً لتصرفاته الحميدة فقد صدر التأييد بإبقاء امارة الأمارة في عهدته .

ربما كان إرسال هذا المرسوم نوعاً من التدبير الذي اتخذه الباب العالي للمجاملة [1] .

في سنة ١٢٦٩ أصيب المشير احمد باشا بمرض ؛ فاوفد إليه السلطان بباخرة خصوصية أحد وكلاء الديوان المسمى عطا أفندي فابلغه الرسالة الشفوية التي كتب عنها عطا أفندي بانه قد ظهر لها أخيراً تاثير حسن [2] .

توفي المشير الأول أحمدباشا [3] في سنة ١٢٧١ وحل مكانه المشير الثاني محمد باشا [4] وبوفاته بعد أربع سنوات من الأمـارة وجهت إمارة تونس

---

(١) تاريخ لطفي المجلد ٨ ص٧ وسجل مهام الديوان الملكي رقم٢٦٥ ص١٢٥ سنة ١٢٦٢ .

(٢)تاريخ الأندرونيعطا (كل رجل ينتسب للديوان الملكي يدعى اندروني) .

(٣)بما أن ألقاب المشيرية أبدلت في هذه التواريخ بألقاب أمراء الأمـراء فقد وجهت لولاة تونس أيضاً رتبة المشيرية .

(٤) في الأمر الذي كتب في سجل مهام الديوان الملكي رقم٢٥٩ ص ٥١ في أواخر ذي القعدة سنة ١٢٧١ يذكر أنه وُجهت في ١٤ ذي القعدة إلى محمـد باشا رتب الوزارة والمشيرية وولاية إيالة تونس .

لأخيه المشير الثالث محمد صادق باشا .

آخر بك للدولة العثمانية في تونس :

المشير الثالث محمد صادق باشا - سيدي علي باشا

في سنة ١١٧١ كان قد عين حسين باشا أميراً لأمراء تونس وان الأمراء الذين حكموا بعد ذلك هم من هذه الأسرة . إلا أن هذا الأمر لم يكن نوعاً مقرراً لنتيجة الوراثة . عندما يموت الأمير ينتخب أركان الإيالة الشخص الذي سيحل مكانه ويعرضونه بواسطة القبطان باشا على السلطان ملتمسين تعيينه للإمارة والسلطان يأمر بتعيين ذلك الشخص لولاية الإيالة برتبة أمير الأمراء أو كما حدث أخيراً برتبة الفريق أو بالمشيرية .

ان مرسوم تعيين مصطفى باشا هو أقرب دليل قطعي على ذلك .

كانت مناصب الأمراء أسوة بولاة الإيالات الأخرى تجدد في في كل سنتين أو ثلاث بمراسيم البقاء ، الأمر الذي هو ثابت بالمئات في قيودات الديوان .

لذلك فإن الصادق باشا أيضاً سار على هذا المنوال ودون أن يكون ثمة قيد للوراثة وجهت ـ بعد وفاة محمد باشا ـ اعتباراً من العاشر من جمادى الأولى لسنة ١٢٧٦ رتبة المشيرية السامية لأخيه محمد صادق باشا وأنعم عليه بولاية إيالة تونس وفي أواسط الشهر صدر المرسوم لأخيه محمد صادق

باشا ليحل مكانه[1] .

في سنة ١٢٨٠ ـ ١٨٦٤ أوفد صادق باشا للأستانة خـــير الدين باشا التونسي للبحث في تحوير شكل ارتباطه بالدولة العثمانية واعطـاء كيفية توجيه الأمارة قالب الوراثة .

ان الفرنسيين علموا بهذا الأجراء ودهشوا .

بعد أن احتل الفرنسيون الجزائر وجهوا أنظارهم إلى تونس ، لقد كانوا يرغبون في بقاء تونس ضعيفة ومنفردة على حالتهـا الراهنة إلى أن يحل الوقت المناسب للاستيلاء عليها . ان ازدياد نفوذ الأتراك في تونـس يضاعف مخاوف الفرنسيين من طردهم من الجزائر .

ان ميل صادق باشا للعثمانيين أغضب الفرنسيين وبذلوا جهودهم في كل الجهات للاحتفـــاظ بالوضع اراهن في تونس ودفعهم للضغط على الدولة العثمانية .

(١) لقد أدرجت أدناه خلاصة الرسائل الرسمية التي توضح وتوثق هذه الأحوال :

من وزارة الخارجية إلى سفير فرنسا في الأستانة الماركي دي موستير .

باريس في ١٣ مايو عام ١٨٦٤ .

---

(١) سجل مهام الديوان الملكي رقم ٢٥٩ ص ٥١ .

قرأت خلاصة محضر اجتماعنـــا بكل سرور ووثقت من وعود علي باشا (اتخذت وعود علي باشا سنداً) . إني مقتنع من أن البـاب العـالي لا يفكر في الإخلال بالعهود المعطاة في السابق بشأن تونس .

أظن ان الباب العالي سيعترف بعلاقاتنا الخاصـــة مع تونس بسبب ملكيتنا للجزائر وسوف لا يجري اخلال بالوضع الراهن في تونس.

اننا نظاهر بقاء حكم الأسرة الحالية في تونس . لأن تبدلهـا سيؤدي إلى محاولات لإحراز مناطق نفوذ الأمر الذي يرجح اجتنابه . أرجوكم أن تتأكدوا من وجهة نظر الباب العالي الحقيقية وأن تفهموا ـ في حـدود الدائرة التي رسمتها لكم ـ اننا مستعدون دائماً للتفاهم معهم[1] .

(٢) ـ إلى الماركي دي موستير   في ١٠ يونيو عام ١٨٦٤ .

ان رئيس وزراء بريطانيا يقدر علاقاتنا الخاصة مع تونس بسبب المجاورة ويستصوب خطوط اتجاهنا[2] .   دروين دي لويز

(٣) ـ إلى الأمير تور دي ويردي سفير فرنسا في لندن .

ان غايتنا هي سعادة تونس.وان معاملتنا التجارية معها توثق علاقاتنا

---

(١) الوثائق السياسية لوزارة الخارجية الفرنسية المجلد ٥ ص ١٤٠ .

(٢) الوثائق السياسية لوزارة الخارجية الفرنسية المجلد ٥ ص ١٤٠ .

وتجعلنا نتمنى للشعب التونسي اليسر والسعادة ، كما اننا يهمنا الهدوء في تونس لأننا نخشى من انعكاس صدى الفوضى التي قد تحدث هناك على الجزائر . ومع اننا لا نفكر في أن يكون لنا النفوذ الأوحد في تونس إلا أننا لا نقبل أن يتفوق نفوذ أية دولة ـ بما فيهم تركيا ـ على نفوذنا ، لأن سياستنا ـ بعد أن أصبحنا أصحاب الجزائر ـ يوجب منع كل أشكال التغيير في تونس وهذا ما صرحنا به في كل حين .

علمت من اللورد كاولي ان الجنرال خير الدين أوفد إلى الأستانة مأموراً يحمل مخططاً لتنظيم علاقات التابعية بين تونس والباب العالي.

أخطرنا السفير الإنكليزي بأننا عازمون على منع كل نوع من التغييرات التي تبدل الشكل الحاضر للاستقلال الإداري وتؤدي إلى الإتصال التركي بالجزائر .

في الواقع اننا مقتنعون بان مثل هذه المجاورة ستبدل العلاقات التي نباهي بالعمل لادامتها مع الباب العالي بطريقة لا يمكن تجنبها .

ان احتكاك القبائل الرحل غالباً ما يؤدي إلى النزاع ، فتعظم تلك المناقشات وتتأتى عنها الخصومة ، وإذا بقي الخصام على الصعيد المحلي ولا يهدد الأمم الأخرى فيطفئ الحريق في أقصر مدة ، أما إذا كانت هذه الأراضي تخص دولتين كبيرتين فإن الخرق يتسع وتستفيق المنافسات الكبيرة وتتحرك القوات الضخمة ويحدث الإنفجار العام من أصغر شرارة . لذلك فإننا نود اجتناب مثل هذه الأخطار .

فنحن أصدقاء مع تركيابالقدر الذي لا نكون فيه جيرانها[1] .

إلى ديموستي سفير فرنسا في الأستانة .

« ان التقرير الذي قدمتموه بشان تونس وتصريحات على بك توحي بالسرور .

ان التعهد الجديد برعاية الوضع القائم في تونس قضى على الشائعات التي ذاعت عن مهمة الجنرال خير الدين كما أن قنصلنا في تونس يعرفنا ان الإمارة تكذب ما يشاع بان رسولاً قد أوفد للأستانة لإجراء تحوير في العلاقات القائمة »[2] .

هذه الوثائق تثبت أن الحكومة الفرنسية ضغطت على الباب العالي للحيلولة دون نجاح المساعي التي يبذلها خير الدين باشا لتوثيق الأواصر بين الدولة العلية وبين تونس .

كان بك تونس في عامي ١٢٨٠ و١٢٨٢ (١٨٦٣ ـ ١٨٦٥) قد عقد قرضين مع فرنسا. ولما عجز في سنة ١٨٦٧عن دفع الأقساط المستحقة أجبرته فرنسا على تشكيل لجنة لإدارة الديون العامة (في ٥ يوليو ١٨٦٩) .

تألفت هذه اللجنة من عضوين عن كل من إيطاليا وانكلترا وفرنسا

---

(١) الوثائق السياسية لوزارة الخارجية الفرنسية المجلد ٥ ص ١٤٠ .

(٢) الوثائق السياسية لوزارة الخارجية الفرنسية المجلد ٥ ص ١٤٠ .

وعين فيها خير الدين باشا والخزنه‌دار محمد باشا ممثلين لتونس .

ان خير الدين باشا الذي حل في رياسة مديري تونس مــــكان حمودة بعد وفاته ، انتهز فرصة هزيمة فرنسا في عام ۱۸۷۱ ووفق لبلوغ أمله في توثيق الروابط مع الدولة العلية .

في المرسوم الصادر في رجب عام ۱۲۸۸ أودعت الأمارة التونسية في عهدة محمد صادق باشا وأولاده من بعــــده على أن تبقى تابعة رأساً للدولة العثمانية[1] .

كان المرسوم يوجب على أمير تونس أن لا يعلن حرباً أو يبرم صلحاً بدون اذن من السلطان ولا يسمح له بالتنازل عن أي جـزء من الأراضي التونسية للغير وان الدولة العثمانية إذا دخلت في حرب فإن الجنــــد التونسي أيضاً سيخوضها .

رفضت فرنسا الإعتراف بهذا المرسوم كما ان الصادق باشا لم يعمـل مؤخراً بمقتضاه ويبعث عساكره للإشتراك في الحرب التي دارت بين الدولة العثمانية وبين روسيا وفصل خير الدين باشا الذي كان يؤيد الاشتراك في الحرب المذكورة .

بالإضافة إلى تغلغل النفوذ الفرنسي فالنفوذ الإيطالي أيضاً تزايد في

(۱) سجل مهام الديوان الملكي .

تونس وبعد الحرب البروسية الفرنسية أصبح الإيطاليون والفرنسيون يتنازعون تونس .

يقال ان الأمير بيسمارك أحدث الشقاق في مؤتمر برلين بين فرنسا وايطاليا واستفاد من ذلك إدخال إيطاليا في الاتفاق مع ألمانيا والنمسا ورغبة منه في تشكيل الإتفاق الثلاثي وعد كلاً من الطرفين ـ فرنسا وإيطاليا ـ بمساندته في ضم تونس إليه . إلا أنه لا يوجد ما يؤيد صحة هذه الرواية .

ان ايطاليا غضبت جداً لخروجها من مؤتمر برلين صفر اليدين ولم ينلها من الغنيمة شيء بينما جاراتها النمسا والمجر احتلت البوسنة والهرسك .

كان أفراد الشعب ينظمون اجتماعات للمطالبة بالاستيلاء على تارانت وتريسته كما انهم يذكرون من على منبر خطابة البرلمان بأنه « لم يبق باب مفتوح أمام تبسط وتوسع ايطاليا غير تونس »[1] .

ان فرنسا في الجزائر بسبب مجاورة تونس ووحدة الوضع الجغرافي والسياسي للبلدين لا تسمح لدولة أخرى بأن تستقر في تونس .

كانت بريطانيا قد خططت لسياستها فيهذه المسألة أثناء مؤتمر برلين

---

(١) دور السلطان عبد الحميد وحياته الخاصة المجلد ٢ ص ٦٦٧ .

وصرحت انها توافق على احتلال فرنسا لتونس بسبب الجوار وانها سوف لا تدّعي أي حق فيها .

شعر الإيطاليون بهذه الأحوال وأدركوا انه قد حل موعد العمل السريع إلا انهم لم يفهموا ان استعجالهم هذا حفز الفرنسيين للتاهب بالسرعة القصوى لاحتلال تونس[٢] . بينما كان الطرفان يفكران في الحجة التي يتذرعان بها للإسراع في حل هذه المسالة . حدث في أواخر مارس ١٨٨١ نزاع بين القبائل على الحدود من المحتمل جداً أن يكون مدبراً وحضر للفرنسيين السبب الذي يبحثون عنه .

ان البرقيات المدرجة في الوثائق السياسية الفرنسية التي تبين تفاهة مبدأ هذه المسالة تذكر أدناه :

من قيادة الفيلق التاسع عشر إلى وزارة الحربية

في ٣١ مارس ١٨٨١

حدثت اضطرابات وخيمة على الحدود الجزائرية التونسية . ان الكروميين اعتدوا على أراضينا وهاجموا الأهالي وتبودل إطلاق النار وبتدخل قواتنا حدثت حرب حقيقية قتل جندي واحد وأصيب عريف بجروح مميتة . ان كتيبة الزواف الثالثة التي في الحدود متوجهة إلى مكان

(١) دور السلطان عبد الحميد وحياته الخاصة المجلد ٢ ص ٦٦٧ .

الحادث . ان الجنرال فورجول أمر كتيبته بالتحرك من قسنطينة .

التوقيع : اوسمونت

من الوالي العام للجزائر إلى وزارة الخارجية

الجزائر في ١ ابريل ١٨٨١

ان القائد العام يريد أن لا تمر حوادث الحدود التونسية بدون عقاب. يطلب في البرقية التي بعثها لوزارة الحربية بأن يؤدب العصاة من قبلنا . أنا أيضاً أشاركه في هذا الرأي وأصر بأن استمرار الاصطدام وخسائرنا في ٣١ مارس يعتبرها للكروميون فشلاً لنا، لذا وَجُبت معاقبتهم قبل أن يستنفروا قبائل الحدود الأخرى .

أ . غريوي

من قيادة الفيلق التاسع عشر إلى وزارة الحربية

في ١ ابريل ١٨٨١

اتخذنا الترتيبات التاليـــة لحماية قبائلنا التي على الحـــدود من الهجمات المقبلة .

في سوق هراس : كتيبة مشاة وسرية تحصينات وقسم من رجـال الأمن ومفرزة من السباهي .

في وادي جنان : كتيبة بونزواف وسريتين .

ان الكتيبة التي أخـــذت من قسنطينة ستحضر هـــذا المساء إلى مون دووي وسوف تتجه مع فصيلة جبلية واحدة للحدود. ان سرية من السباهي موجودة في الطرف وإذا تأزم الأمر فسوف أبعث للحدود كتيبة القناصة الموجودة في سطيف وفصيلة جبلية .

التوقيع : اوسمونت

من قيادة الفيلق التاسع عشر إلى وزارة الحربية

الجزائر في ٢ ابريل ١٨٨١

لم يهجم الكروميون أمس . إلا أنهم سيجتمعون قرب الحدود في وضع مهدد . ان بقية القبـائل لم تشترك في الهجوم إلا أنهم متهيئون عند أول إشارة للهجوم. سابعث من سطيف كتيبة القناصة وفصيلة الجبل لاحتياط كتيبة الزواف الموجودة في الخط الأمامي . أجـــدد اصراري بوجوب القيام بحركات عنيفـة . ان ماساة فلا تترز [١] أوجبت علينا العمـــل للمحافظة على نفوذنا .

اوسمونت

من قيادة الفيلق التاسع عشر إلى وزارة الحربية

الجزائر في ٣ ابريل ١٨٨١

تفيد الأخبار التي وردتنا من قسنطينة ان التحريضات تتزايـد على

(١) إن فلا تترز كان على رأس بعثة حربية أبيدت في عام ١٨٨١ في الصحراء الكبرى من قبل الطوارق .

طول الحدود. ان القبائل المجاورة لسوق هراس في حالة هياج والموظفون التونسيون يحرضونهم وهذا يعني أن الحالة ستزداد خطورة لأن السوقيات العسكرية المقبلة سوف لا تنحصر على الكروميين ، سنكون مضطرين للدفاع عن أنفسنا على طول الحدود ومع ذلك فإننا بانتظار التعليمات المفصلة .

اوسمونت

ان هذه البرقيات تفيد ان المسالة بحذافيرها ليست إلا من الحوادث التي تقع دائماً على الحدود وان خسائر الفرنسيين كانت جندياً واحداً فقط وان القتال توقف يومي ٢ و ٣ ابريل ، ويرينا بوضوح كيف ان قائد الفيلق والوالي العام يكتبون للحكومة مطالبين الترخيص لهم بتأديب العصاة ويسبغون على وجوب تدخلهم رداء الجبورية والمشروعية .

ان الفرنسيين اتخذوا ذريعة من هذا الحادث الطفيف ومن الادعاءات التي ضمنوها النشرات، فتخطت الحدود التونسية في ٢٤ ابريل ١٨٨١ ثلاثة فرق بقيادة الجنرال فورجيمول قوامها ٢٥ ألف جندي . كان جول فري رئيساً لوزراء فرنسا وبارتليمي دي سان هيلر وزيراً للخارجية .

ان وزارة الخارجية الفرنسية بعثت منشوراً للموظفين الديبلوماسيين بذلت فيه جهودها لتبرير هذا الاعتداء .

باريس في ٩ مايو ١٨٨١[١].

منشور الجمهورية الفرنسية للممثلين الديبلوماسيين .

أبعث لكم الملفات التي تضم الوثائق التي تريكم أسباب العمليات الحربية الجارية ونتائجها المنتظرة . ان دولة الجمهورية أوضحت مراراً الأسباب والنتائج .

انكم تتذكرون البيانات التي أدلى بها رئيس مجلس الأمة من على كرسيّه فيه . ان الهدف الوحيد لسياسة فرنسا في تونس هو المحافظة على السكينة في مستعمرتها الكبرى الجزائر . منذ ١٨٣٠ لم تهمل أية حكومة هذه العقيدة السياسية .

ان حدود الغرب والمغرب يسودها الهدوء منذ حرب أيسلي في سنة ١٨٤٤ إلا أننا مضطرون للتنكيل بمثيري الحوادث العابرة المخلة بالنظام .

ان الفوضى في الجانب التونسي هي مستديمة بالرغم من المساعي التي نبذلها فهي منذ عشر سنوات مستمرة وقد زادت منذ أن قاموا في سنة ١٨٧١ بالتمرد بقيادة القيلوتي وقتلوا ضابط السباهيين . ان هؤلاء الثوار يلتجئون لأراضي تونس .

---

(١) الوثائق السياسية لوزارة الخارجية الفرنسية المجلد ٤٨ .

في عام ١٨٧٨ جنحت الباخرة اوفرني للبر ونهبت محتوياتهـا وأخيراً حدثت غارة الكروميين ونهب سانتوني .

لقد احتار العالم لصبرنا الطويل إلا اننا غير آسفين على ذلك ؛ وبعد هذا الصبر والأضرار الكبيرة التي لحقت بنـا فقد اضطرتنا الظروف للتفاهم مع بك تونس بشان توطيد الأمن على الحدود بصورة لا تترك مجالاً لتجدد الاضطرابات على الحدود التونسية سترون محتارين كثرة المساوىء التي تحدث قبل علم الحكومة بها والعجز عن مكافحتها[1] .

توجد في منطقة الحدود الجزائرية ـ التونسية قبائل متمردة ومشاكسة وهم دائماً يتقاتلون ويتضاربون . وبما ان الذين تحت حكمنا أكثر انقياداً أو مسالمين وأقرب الى الاستقرار فإنهم يتضررون من تلك الأفعال . ان قبائل تونس أكثر توحشاً وأكثر تمرساً بالقتال . منها قبائل الكروميين والفريشيش والأوشتيتاش ولا يعلم بالضبط عدد المقاتلين منهم ، إلا أن تقدير الحاجة إلى عشرين ألف مقاتل للعمليات الحربيـة القائمة تشير إلى

---

(١) نذكر فيما يلي نقـلاً عن وثائقهم ، المساوىء الكبيرة التي حدثت ضد الفرنسيين والأعمال التي أعلنوها للملأ على انها تبين مبلغ صبر الفرنسيين :

وضع الحجارة على الخط الحديدي ، تفكيك براغي عوارض السكة الحديدية ، تجريد سائق قطار من ملابسه ، قلع عمود خط برقي ، قطـع أسلاك البرق ، تجريد عمال الطرق من ملابسهم ، لم تراعَ امتيـازات الفرنسيين الذين يعملون في دواخل تونس .

بأس المتمركز وراء التحصينات في أراض يمكن القول بأنها صعبة الاجتياز .

كانت الحدود بين تونس والجزائر مجهولة وغير معينة لأنهـــا لم تحدد رسمياً .

لقد حوول في سنة ١٨٤٢ القيام بهذه العملية واستمرت ثلاثة أعوام وصودق على الخريطة الموضوعة لها أثناء الرحلة التي قام بها أحمد إلى فرنسا عـام ١٨٤٧ إلا أنه لم يعمل بهـــا رسمياً ولا تزال كما كانت في أيام حكام قسنطينة غير منتظمة وهذا نقص يقتضي استكماله. ان غايتنا الوحيدة من هـذه العمليات هي إقرار السلام على حدودنا الشرقية. اننا لا نخـــاف بَكْ تونس إذا انحصر هجومه في قواته .

إلا ان الاحتياطات الأولية جداً تقتضينا أن نكون يقظين للاعتداءات التي قد تتعرض لها تونس ، لأن مثل هذا العمل يخلق صعوبات كبيرة في الجزائر ويصل عكس ضربتها إلى فرنسا، لذا يجب أن يكون أمير تونس حليفنا الذي نتفاهم معه بصدق .

يجب على جارنا أن يبادلنا العواطف فيكن لنا الإخلاص وان يكون حسن النيـــة وان لا يلقى بالاً لتحريض الأجانب الذي يمس حكومتنا الشرعية ويسبب لأضرارنا وهذا ما نتمناه له .

منذ أكثر من أربعين عامـاً ونحن نصرح بأننا من أجـــل الجزائر مضطرون للحصول على مركز ممتاز في الإيالة التونسية .

ان مصالح الشعوب الأخرى ستحيا وتزدهر بجانب مصالحنا لأن الدول تعرف أن أحاسيسنا تجاههم ثابتة لا تتغير .

استمرت علاقاتنا مع حكومة البك حتى السنين الأخيرة على خير ما يرام . لقد حدثت بيننا بعض الاختلافات فيما يتعلق بالتعويض عن خسائر بعض قبائلنا إلا ان علاقاتنا بالرغم من هذه الاختلافات البسيطة كانت تزداد وثوقاً .

لقد تبدلت في المدة الأخيرة تصرفات الحكومة التونسية تجاهنا نتيجة للأسباب الدقيقة التي تعذرت معالجتها ، إذ سلكت الحكومة التونسية في بادىء الأمر سياسة غامضة ضد المصالح الفرنسية في تونس وبمرور الوقت أخذت تظهر في قالب عدائي إلى ان بلغت الحالة إلى الوضع الحاضر .

سترون في الكتاب الذي بعثناه لكم مرفقاً بهذه الرسالة ان هذه المقاومة العنيدة كانت مملة وغالباً ما تكون غير محقة وضارة .

سترون مسألة سكة حديد حلق الواد ـ تونس وستجدون أبحاثاً تتعلق بخط البرق البحري ما عدا خطنا البرقي ـ المراد تمديده دائسين على حقوقنا ثم الأراضي التي تملكها شركة من مارسيليا في منطقة نفيضه ويراد الاستيلاء عليها بدون حق وعن إنشاء طريق سوسة وغيرها من المسائل .

لقد بذلنا كل جهودنا في هذه المسائل للتفاهم في حدود العدل إلا أن

مساعينا لم تثمر لأننا وجدنا أنفسنا مجابهين لقرار قطعي برفض التفاهم وحينذاك تاكدت لدينا استحالة التفاهم ووجدنا أنفسنا مضطرين لمراجعة وسائل أخرى لمعالجة الشؤون التي لم يجد فيها الإقناع والتفاهم .

ان هذه كانت من جملة الأسباب التي أدت للقيام بهذه الحملة العسكرية التي كنا نود تجنبها إلا ان المعاملات السيئة التي تحملناهـا لمدة أطول من اللازم ساقتنا إليها .

ان تحميلنا لأمير تونس المسئوليـة الشخصية عن هـــذه الشكاوى المنطقية كانت بسبب اعتبارنا لتونس مملكة مستقلة .

كانت لتونس تابعية قديمة إلا ان هذه التابعية كانت اسمية لأن العثمانيين أهملوا منذ عصور هذه المتبوعية .لقد أثيرت هذه التابعية أحياناً وبفواصل طويلة جداً إلا أن سني الإذعان لهـــا كانت أقــل كثيراً من سنوات التحرر منها .

لقد وقعت تونس أثناء القرن السادس عشر عدة مرات في قبضة باربارس وخرجت منها. أخيراً سقطت في عام ١٥٧٣ وفي القرن السابع عشر وتحت ضغط حكم الانكشاريين الفوضوي اقتسمت بين حوالي الأربعين حاكماً الذين كانوا يرأسونهم وذلك كما فعل المماليك بمصر .

في عام ١٧٠٥ تمكن الأمير المدعو حسين بن علي ـ وهو كورسيكي أو يوناني ثم أسلم ـ بمهارته الفـائقة على رفاقـــه من القضاء على منافسيه

وقبض على زمام الإدارة في يديه وتربع على كرسي الحكم .

ان حسين هذا ،الذي نودي بإمارته من قبل رفاقه في السلاح، أسس الأسرة الحسينية. ان هذه الأسرة مارست الحكم حتى الآن كإمارة إسلامية وان إمارة تونس تحوز اليوم استقلالاً عمره مايتي سنة . كانت رابطتها خلال هذه المدة الطويلة بالباب العالي رابطة دينية فقط . انهـــا تعترف بالخلافة دون أن تكون تابعة للسلطان ولا تؤدي أية ضريبة قط .

لما يتولى أحـد الأمراء الحكم يبعث ـ من قبيـل الاحترام ـ للزعيم الديني المقيم في الأستانة هدايا قيّمة ولم تجر خلال حكم الأمراء أية معاملات سياسية عن طريق الباب العالي .

ان الأمارة كانت تتمتع بحقوقها الملكية وتعقد المعاهدات مع الدول الأخرى، فقد كانت تعقد مع الأجانب اتفاقيات تحمل توقيع الأمير فقط لها قوة القانون .

ان فرنسا عقدت اتفاقيات في سنوات١٧٤٢ وفي العام الثالث والعاشر وفي ١٨٢٤ على هـــذا النمط ، كما عقدت الاتفاقية المشهورة لمنع القرصنة وتحريم الرق في ١٨ أغسطس سنة ١٨٣٠ .

نحن لا نتكلم عن الاتفاقيات القليلة الأهمية مثل تلك الخاصة بصيد المرجان .

كان الباب العالي قد قرر مكرهاً انفصال هـذه الإيالة إلى غير رجعة

وكانت توافق دائماً على تصرف هذه الإيالة .

ان الباب العالي طوال القرن الثامن عشر كان يرفض قبول شكاوى الدول الأوروبية المتعلقة بقراصنة البربرية (أوجاقات شمال أفريقيا الثلاثة) ولا يملك الباب العالي أي حق على هذه الحكومات وبما ان الباب العالي غير حاكم ومتصرف في هـذه البلدان فإنه كان يرفض الإجابة على الأضرار الهائلة والباهظة التي تلحق بأرباب سفن البحر الأبيض .

ان الدول الأوروبية دخلت مع هـذه الإيالة في عشرين حرب دون أن تكون محاربة مع الباب العالي ان مؤتمر أكس لاشابل قرر في سنة في سنة ١٨١٩ إلغاء القرصنة في تونس ولم يطلب من تركيا التدخل بسبب المتبوعية المزعومة .

في سنة ١٨٣٣ دخلت ساردينيا وصقلية الجديدة في حرب مع تونس دون أن يكونا محاربين لتركيا لأن تونس في نظرنا نحن وايامُ كانت مستقلة .

بعد الاستيلاء على الجزائر كنا نتعامل مع تونس رأساً ولما جاء أحمد بك في سنة ١٨٤٧ لزيارة فرنسا استقبل استقبال الملوك .

هل امتعضت تركيا من هذا الاستقبال؟ كلا ! [١]

---

(١) الحقق أن سفير تركيا احتج على هذه الطريقة في الاستقبال .

ومثلها أوروبا لم تمتعض ، لأن أوروبا كانت على رأي اللورد أبردين ؛ لقد كان اللورد أبردين يقول في الإحتجاج الشهير (في ٢٣ مارس ١٨٣١) بشأن احتلال الجزائر : « ان الدول الأوروبية كانت منذ زمن بعيد تعامل دول أفريقيا الشمالية معاملة الدول المستقلة » وزيادة على ذلك فإن تونس أيضاً لم تفكر تجاه الباب العالي في غير تامين حرية تصرفاتها .

ان الوثيقة الأخرى التي لهـــا بالغ الأهمية وغير قابلة للاعتراض هي القانون الأساسي التونسي. إن أمير تونس الحالي محمد الصادق بك لما جلس على العرش في ٢٣ سبتمـــبر ١٨٥٩ أقسم أيضاً على هـــذا القـانون أسوة باسلافه .

ان هذا القانون المسمى بقانون المملكة التونسـية ذو الـ١١٤ مادة نشر في بون وتونس باللغتين العربية والفرنسية . لا يوجد فيه ولا كلمة واحدة عن السلطان . وحتى لا يحدث تردد في أي من تصرفاته قيل في الصفحـة الرابعة من المقدمة : « لقد جرى انتخابه لرياسة الدولة من قبــل موظفي الدولة السامين عملاً بقانون الوراثة المعمول به في المملكة التونسية » .

كانت الفصول بكاملها تنحصر في حقوق الملك وواجباته وفي وضع أمراء الأسرة الحسينية وحقوق وواجبات أفراد الشعب وتنظم وظائف الوزراء وأعمالهم وفي المجلس العالي للايالة وفي الضرائب وغيرها.

لو نوقشت هذه الوثيقة العجيبة وفق النظرية الأوروبية الصرفـة

لكانت تستحق النقد ؛ إلا أنها كانت كافية لإشعار ذوي العقلية المحدودة ان تونس تشق طريقها بمجهودها وتؤكد انها غير مرتبطة بسلطان أجنبي.

لا توجد في المعاهدات التي عقدت خلال العصور الثلاثة الأخيرة بين الدول الأوروبية وتونس إشارة لاسم سلطنة دولة غير أمير تونس .

توجد هذه الألقاب على حوالي ١٥ـ٢٠ معاهدة ، وعلى هذا العدد من المعاهدات من ١٨٦٢ـ١٨٦٣ حتى سنة ١٨٧٥ توجد تواقيع انكلترة ؛ وفي الثلاثين معاهدة المعقودة من ١٦٠٥ حتى ١٦٣٢ توجد تواقيع فرنسا والمعاهدة التي عقدتها إيطاليا أيضاً في سنة ١٨٦٨ عقدت مع المملكة التونسية .

لذا فإن تونس لم تفعل أي شيء غير ذكر الاسم الذي أعطاه لها العالم في قانونها الاساسي . لقد أعطت لنفسها اسم الملكية لتعرب على انها تملك امتيازات السلطة والاستقلال المتعلقة بهذا الاسم اللامع .

أمام هذه الأمثال المتعددة فإن فرنسا رفضت دائماً ادعاء تركيا بأي شكل من المتبوعية ويجب على الباب العالي ان لا يعجب من رفضها اليوم أيضاً .

نحن نعترف بأن الباب العالي منذ نصف قرن يصر بشدة على أفضليته في هذه القضية. لقد قام الباب العالي في سنة ١٨٣٥ بإزالة الفوضى القبيحة من طرابلس واسترجع حكمه هناك . ان هذه الوسيلة رؤي

انها قد تساعده على توسيع نفوذه على تونس ، إلا أنه تخلى عن هذه الخطة بسبب معارضة فرنسا الشديدة .

بعد عشر سنوات في ١٨٤٥ جاء لتونس أحد رجال القصر موفداً من قبل السلطان يحمل مرسوم الأمارة ورفض الباي أن يكون تابعاً للسلطان. مضت عشرون سنة قبل أن يعاود محاولة جديـــدة . في سنة ١٨٦٤ عادت المحاولة القديمة للظهور ، إلا أن الإمارة في هذه المرة طلب توجيهها أمير تونس بالذات . حتى ذلك الوقت كان يستغرب صدور مثل هذه الرغبة من عاهل يظهر أنه يهتم كثيراً باستقلاله . إلا أنه بفعل الضغط والنصائح خاف الأمير وبعث خير الدين باشا إلى الباب العالي للحصول على المرسوم. وفي هذه المرة قذفت فرنسا بالفيتو . وأعيد الباشا ومستشاروه بالأمر السامي لمقام الصدارة المحتوي على المواد المعتادة بدلاً من المرسوم الذي كان يعطى من السلطان .

في عهد الملك لوي فيليب قطعنا عدة مرات الطريق على الأسطول العثماني الذي كان متوجهاً إلى تونس،والأتراك بالإستفادة من هزيمتنا عام ١٨٧١ نفذوا رغباتهم التي كنا في عهد الأمبراطورية نصر على منعهم منها .

ان المرسوم الذي استرحم منحه وطلبه الأمير وحصل عليه في ٢٥ أوكتوبر ١٨٧١ بفضل المصيبة التي حلت بنا أعلن في ١٨ نوفمبر ١٨٧١ في قصر باردو .

وعلى كل حال فإن فرنسا اعتبرت وأعلنت ان هذا المرسوم كأنه لم يكن وكلما سنحت فرصة مناسبـــة أظهرت معارضتها له . ان مرسوم ١٨٧١ حطم استقـــلال دولة تونس الذي عاش قرناً إلا أنه بقي مجهولاً بصورة عامة ولكنه معلوم لدى الدول ذات العلاقة رأساً .

ومهما كان الأمر فإن طـــابع مرسوم ١٨٧١ كان يسلم تونس ـ إلى حد ما ـ للباب العالي .

انه اعترف بمبدأ انتقال إمارة تونس لأفراد الأسرة الحسينية بالوراثة كما هي منذ قرنين من الزمان إلا أن أمير تونس كان يعتبر والياً عاماً على الإيالة التونسية . ان الوالي والوالي العـــام يمكن تبديلهما وفق رغبة السلطان .

ان الأمير الحالي أدرك مبلغ الخطأ الفاحش الذي ارتكبه ضد تاجه وقيمة حياته . يجب على محمد الصادق أن لا يخاف بتاتاً من فرنسا . بالرغم من الشكاوي الجدية والمعارضة فليس لدى الدولة الفرنسية نية الإعتداء على شخصه أو على سلطنته أو على أراضيه .

نظراً للصداقة الصميمة والعلاقات الحسنة مع تركيا فلقد كنا نود أن نرى وضع تونس على ما هو عليه . إلا أنه كما يفهم من الأمثـــلة التي ذكرناها فإن الحقيقة لدينا غير قابلة للاعتراض . نحن نسأل من البـــاب العالي بأنه ما دام أمير تونس هو واليه لماذا لم يمنعـــه مما يعمله منذ سنتين

ضد فرنسا ؟ لماذا لم يكتشف مسبقاً الأزمة الخطيرة الحالية التي نسعى كل هذه المدة لمنعها ، ويحول دون حدوثها . لقد أدت هذه الأزمة الخطيرة إلى عقد معاهدة وهذه المعاهدة توجب صيانة حدودنا من الاعتداء وأن تطمئننا ضد التهديدات التي تصدر عن باردو أو يتخذ باردو أداة لتنفيذهـــا . هذان هما سببا حملتنا العسكرية ، وهذا موقفنا ضد الباب العالي وتونس .

ان موقفنا تجاهها مشبع بحسن النية . كل الذي نطلبه من الأمير هو أن لا يكون عدونا إذا كان الأمير يدرك منافعــــه الحقيقية فإنه يستفيد أكثر مما نستفيده منه . اننا نحمل إليه محاسن المدنية . إذا أراد الإعــــتماد علينا فإننا سننظم أيضاً أمور الإيالة الداخلية . اننا سندخل إلى هنا أيضاً الاصلاحات القضائية التي في مصر . ليس فرنسا فقط بـــل ستستفيد كل الأمم المتمدينة من رقي تونس » .

ان المنشور الموقع من بارتلمي دي سان هيللر وزير خارجية فرنسا والذي أخذت منه باختصار أهم النقاط الصالحة لإيضاح مآل هذه المسألة ، مليء بالمغالطــــات الكثيرة إلا أنها كانت تحتوي على حقيقة واحدة وهي ان الدولة العثمانية تركت للأوجاقات الثلاثة حرية التصرف ولم تمنعهـا من عقد المعاهدات مع الدول الأخرى واجابتها على شكاوى الدول الأخرى من تصرفات الأقاليم (الأوجاقات) معها بأن « هذه الأقاليم (الأوجاقات) حرة التصرف في أمورها الداخلية ونحن لا نتدخـــــل » وبذلك لم تشغل نفسها بأمور الأوجاقات . إن هذا الإهمـال كان السبب في ظهور الأسرة

الحسينية في تونس وفي ظهور الأسرة القرمانلية في طرابلس الغرب .

احتج محمدالصادق باشا في المذكرة التي بعثها لقنصل فرنسا في تونس «الموسيو» روستان على اعتداء الجنود الفرنسيين على تونس ، كما أعلم الباب العالي بذلك وطلب مده بالمعونة ، وبين لفرنسا أن الإعتداء على الحدود يعني الإعتداء على حقوقه الإدارية وعلى المنافع التي أودعتها الدول الأجنبية بين يديه ويعني خاصة الاعتداء على الحقوق الملكية للدولة العثمانية الأمر الذي ستتحمل الدولة الفرنسية كافة المسؤوليات التي تترتب عن ذلك .

كان الصادق باشا قد سير على قبائل الكروميين قوة نظامية تونسية قوامها ثلاثة آلاف جندي لتأديبها ، إلا أن الفرنسيين الذين كانوا يقصدون احتلال تونس أصروا على أن يؤدبوا بأنفسهم القبائل التي كانت تعكر صفو أمن الجزائر .

كان الباب العالي قد احتج بشدة على اعتداء الفرنسيين. كان السلطان يفاوض في قضية الحدود اليونانية وقبل اقتراح السفراء بالاقتراب من التفاهم لاكتساب عطف دول أوروبا . تاهب لارسال الأسطول العثماني بقيادة هوبارت باشا إلى تونس إلا أنه صرف النظر فيما بعد عن هذه العملية بسبب اعتراض تيسو سفير فرنسا وتهديداته[1] .

ان مخابراتنا مع وزارات الدول العظمى بشأن القضية التونسية يمكن

---

(١) دور السلطان عبد الحميد الثاني المجلد الثاني ص ٦٦٨ .

أن تملأ صفحات مجلد ضخم إلا أن المساعي القلمية لا تكفي للمحافظة على الحقوق بل تجب المدافعة الفعلية . طلبت في باديء الأمر أن تؤمر وزارة البحرية سراً بارسال ثلاث بوارج حربيـــة لميناء تونس وأن تسرع في ارسالها وقدمت لائحة مفصلة في هذا الشأن .

في الواقع كانت فرنسا قد اعترضت في عام ١٨٣٦ على ارسال الأسطول العثماني إلى تونس وحدث في سنة ١٨٤١ تهديد مماثل لهذا من فرنسا .

لما قدم كيزو رئيس وكلاء فرنسا إلى مجلس النواب المعاهدة المعقودة أخيراً مع تونس ذكر فيما قال انه أوعز للأميرال بأن يرد الأسطـــول العثماني المنتظر قدومه إلى تونس بالحسنى أو بالقوة الجـــبرية . وإذا لم أكن مخطئاً في رأيي اننا لو بعثنا سفناً من عندنا فمن الممكن أن تحـــاول دول أخرى وخاصة إيطاليا ارسال مراكبها للمياه التونسية وهذا الاجراء يمكن أن يفتح الباب[1] لمناقشة المصالح الدوليـــة ويسبب لمنع فرنسا من اغتصاب تونس . لقد أدرجت في تقريري هذه النقاط مدعمة بالبراهين القوية إلا أن النقاش بشأن ارسال السفن قد طال .

صورة للتقرير الذي رفعه سعيد باشا للحضرة السلطانية

أعرض وأرفع إليكم هذه المرة صورة وترجمة للبرقيتين الواردتين

---

(١) مذكرات سعيد باشا المجلد ١ ص ٥٤ .

من حضرة والي تونس . وكما سيبلغ علم مقامكم السامي من مدرجاتها ان الحاجة ماسة لإرسال العون لتونس لتسكين الهيجان والإضطراب الذي حدث بسبب التحركات الفرنسية المعلومة ، ويذكر في الثانية ان القنصل طلب من الحكومة المحلية بأن توافق على انزال الجنـــود ومدفعين من السفينة الفرنسية إلى البر في تونس ذاتها .

لا شك ان الفرنسيين في بادىء الأمر ستروا مقاصدهم الأساسية تحت ستار سوق العساكر على الحـــدود لتأديب العشائر ولتوطيد الأمن ، إلا ان المراكب الحربيـــة أنزلت أمس الأول جنوداً على مرسى طبرق وطلبت انسحاب العساكر التونسيين .

ان بإنزالهم المدافع والجنود إلى تونس لم يبـقَ أي شك في عزمهم على الوصول إلى بغيتهم في إيقاع الفوضى داخل البلاد كما ذكر في برقيتـه الأخيرة إلى الوالي المشار إليه .

ان الوالي لم يقاوم هذه العمليات بالقوة ونزولاً عند ما تقتضيـــه الحوادث يوافق على ما يطلب منه ، فإذا لم تقدم له المساعدات الفعلية من قبل الدولة العلية ، وإذا لم تفعل الدول الأخرى ـ كما يشاهد حالياً ـ سوى التزام الحياد فنرى انه لم يبقَ على الوالي ما يفعله غـــير الرضى والموافقة وهذا أيضاً سيؤدي بالطبع إلى أن توضع تونس في الحال والمركز الذي تريده .

إذا رفضت الدول تفوق النفوذ الفرنسي الكلي وتسلطه في تونس ، وحتى إذا تدخلوا في النهاية فإن ذلك سيكون من أجل الحصول على مواثيق لإبقاء الوضع الحاضر في تونس بحيث تبقى الاتفاقيات التي عقدتها الحكومة التونسية حتى الآن سارية المفعول وسوف لا تعدل إلا بموافقة الأطراف ذوي العلاقة بها . هذه أمور مرهونة بالحصول على تأكيدات من فرنسا بشأنها، وأرى أنه لا يمكن إبقاء حق سيادة الدولة العثمانية على هذه الصورة.

إذا رضيت فرنسا اليوم بالوضع والإدارة الحالية التي أخلت بها في تونس ، فإنها سوف تنتهز الفرص لتوسيع دائرة نفوذها ، وأقرب الاحتمال أن دولاً غيرها ستجاريها في الحصول على منافع اضافية في غير تونس، وهذا يعني أنه بعدمدة وربما بعد أمد قريب سيحيق الخطر بولايتي طرابلس الغرب وبنغازي والأراضي المصرية والحجازية واليمنية ، والحاصل أنه ستتعرض جزيرة العرب وافريقيا العثمانية للخطر . أمام هذه الحالة الداعية لانتباه الدولة العثمانية والخلافة السنية فقد استؤنف البحث لإيجاد حل يتناسب مع الحالة الحاضرة .

إن المطالعات التي تتبادر على الفكر القصير تنحصر في ثلاث صور إحداها : ادعاء الحقوق ومراجعة أسباب مظاهرة الدول الأخرى ، والثانية : نتيجة تحركات فرنسا ، والثالثة : هي الطريقة التي عرضها التقرير المرفوع للمقام السامي وهي دعوة الحكومة الفرنسية للدخول مع الدولة العلية في مفاوضات لإيجاد تسوية تتكفل إرضاء الطرفين . وبما

أن هذا القرار الذي سيتخذ برضاء الطرفين سوف لا يكفي لتأمين المصالح العثمانية فإن من الضروري الوصول إلى ما يرضي الجانب الآخر .

إن فرنسا سوف لا ترفض الحقوق العثمانيـــة كما تفعل الآن وترفض الاجتماع للتفاوض المباشر . وإذا وافقت على المحادثات للتأليف بين مرامي الطرفين فإن ذلك سيستدعي النظر في قبول بعض التنازلات .

إننا حاولنا منذ بدء القضية ولا زلنا نسعى إلى غايتنا بواسطة البند الأول من النقاط الثلاث إلا أنها لأسباب عديدة لم تأتِ بفائدة . والنقطـة الثانية هي انتظار نتيجة تحركات فرنسا . إن هذه العمليات قائمـــة وفي استيلاء العساكر الفرنسيين على طرق السواحل فسوف لا يجدي أي مجهود تبذله الدولة العثمانية ولذا فليس ثمة أمل في سلوك أي طريق غير المذكور في البند الثالث .

لما كانت فرنسا ــ كما ذكرنا آنفاً ــ تنكر بالخصوص حقوق الدولة العثمانية التي تدعمها المستندات الكثيرة والوثائق التاريخية والآثار الماديـة وتتباعد عن المباحثة والمداولة فيها فإن فرص قبول مبدأ التفاوض يوجب على الدولة العثمانية اتخاذ موقف ايجابي وهذا يمكن بالاطلاع على الأعمـــال الجارية في تونس وإرسال بارجتين الى تونس لتطمين الشعب الذي قال الباشا الوالي في برقيته أنه في حالة هيجـان واضطراب . ان المحذور الذي يخطر على البال في حـالة ارسال بارجتين أن لا توافق السفينة الراسية في الميناء على دخوله .

ان الممانعة الفعلية في حالة اصرار البارجتين على دخول الميناء تعني أن تطلق السفينة الفرنسية مدافعها على البارجتين العثمانيتين لمنعهما من دخول الميناء .

يستبعد أن يتظاهر الفرنسيون في بادىء الأمر بإطلاق النار لمنع سفينة دولة أخرى من دخول ميناء ليسوا أصحابها ، اذ أن هذا يعني قيام حالة العداء .

ان جرأة فرنسا في العمليات القائمة للوصول الى مطامعها في تونس لا يظن أنها تدفعهـا قدماً الى اعلان الحرب على دولة أخرى في الوقت الذي هي مضطرة للتحسب والحيطة من ألمانيا . حتى ولو أن بعض الدول ومن جملتها المانيا يسرت لها الآن معنوياً عملياتها في تونس فلا يحتمل أن تعتمد فرنسا على هذه الحالات . غير أن من جملة ملحوظاتنا أن مثل هذا الإجراء من قبل الدولة العثمانية سيؤدي الى تدخل الدول الأخرى فتبعث مراكب حربية الى تونس وفي هذه الحالة لا تخسر الدولة العثمانية أي شيء وستتوقف تحركات فرنسا الحاليـة المنفردة وتتقرر المسألة بانضمام آراء الدول وفي هذه الحالة ستتحدد وتتأكد حقوق الدولة العثمانية .

اذا سرنا على مبدأ ارسال البارجتين وفكرنا في فائدة الحصول على موافقة بعض الدول بشأنها ، فلا يمكن أن تعرض هذه الفكرة وتوافق عليها أي دولة في الوهلة الأولى ولما ينعكس صداها على فرنسا فمن البديهي أن يتعذر تنفيذ هذا الرأي .

فإذا نالت هذه الملاحظات تصويباً من المقام السامي السلطاني ،

وبما أن اعتداءات الفرنسيين براً وبحراً تزداد من يوم الى يوم ،

وبما اننا لا نستطيع القيام بأعمال كهذه إذا أنزل الفرنسيون العساكر بعد يوم أو يومين إلى نفس تونس فقد ورد على البال الإبراق إلى السفارة الملكية في باريس لتقوم بالاتصالات السرية بالدوائر المختصة وفق القرار السابق .

في ١٤ جمادى الأولى ١٢٩٩

ترجمة البرقية المرسلة من قبل الباب العالي إلى سفارات باريس ولندن وبرلين وبترسبورغ وروما .

« كنا في محرراتنا السابقة قد لفتنا أنظاركم الكريمة إلى الطرق المختلفة التي تسير عليها القضية التونسية لما قيل ان بعض القبائل التونسية اعتدت على بعض القبائل الجزائرية أجاب الموظفون التونسيون بأنهم مستعدون لتأديب المعتدين ؛ إلا أن فرنسا قررت إرسال عدد كبير من الجيوش احتلت معظم أراضي الإيالة وأصبحوا على بعد أميال من حاضرتها .

ان فرنسا لم تلق أذناً صاغية إلى قول والي تونس بأنه اتخذ التدابير التنكيلية في حق المعتدين ولا إلى وعودنا بتهدئة الجهات المهتاجة وإعادة الأمن والسكينة إلى نصابهما ؛ كما انها تعطي للروابط التونسية القديمة التي

تجعلها جزءاً متمماً من السلطنة العثمانية ؛ شكلاً وتفسيراً بعيدين كل البعد عن الحقيقة وترى كأنها ترفض طلب الباب العالي بالتفاهم للتأليف بين حقوق الدولة العثمانية وبين المصالح الفرنسية في هذا الصدد .

إني أكرر وأكرر على الدوام وأفيدكم بأن تابعية تونس لسدة الحضرة السلطانية المؤسسة والقائمة منذ القديم وحق السيطرة الغير قابلة للاعتراض لم تكن يوماً ما هدفاً لاعتراض الدول ؛ لم يخل أبداً بهذا الحق واستمر بدون انقطاع منذ احتلال تونس في عام ١٥٣٤ من قبل خير الدين باربروس، كما أرسل لها قلنج علي باشا في سنة ١٥٧٣ من قبل الدولة العثمانية على رأس قوات برية وبحرية ومنذ ذلك التاريخ انحدر ولاة تونس من أسرة الوالي الأول المنصوب من قبل المقام السلطاني الكريم بموجب أصول وقواعد موضوعة واستمرت بلا انقطاع تصدر وتعطي لهم مراسيم من قبل سني الجوانب مولانا السلطان[1] .

سواء كانت هذه المراسيم وسواء كانت العلاقات السياسية بين الولاة وبين الدول الأوروبية والتحارير العديدة التي تبودلت بين الولاة وبين الباب العالي فيما يتعلق بشؤون الإدارة الداخلية كلها مسجلة في مكتب الديوان الملكي .

---

(١) هنا يتبين أن ولاة تونس لا ينحدرون من أسرة أول وال لها وان سعيد باشا أخطأ في هذا الشأن . ان هذا يدل على مبلغ الاهمال في هذه الفترة الهامة في الاطلاع على شؤون تونس وعلى قلة المعلومات عنها .

ان الباب العالي ـ حتى الأزمنة الأخيرة ـ احتفظ بالإضافة لحقه في تعيين الوالي تعيين قاضي الإيالة والكاتب العام وإرسالهما من الأستانة ، ثم سمح بموجب امتيـــاز خاص من الدولة العثمانية للوالي شخصياً بان يعيّن هذين الموظفين . ومن أكبر علائم المتبوعية هي الدعاء في خطب الجوامع وسك النقود باسم الحضرة السلطانية .

لقـــد كانت تونس تبعث القوات البرية والبحرية لتعزيز القوات السلطانية في الحروب ؛ وحسب التقاليد المتبعة منـــذ القديم كان الولاة يبعثون إلى دار السعادة وفوداً للإعراب عن العبودية والطاعة للسدة الملكية ولتلقي التعليمات والاستئذان من الباب العالي فيما يتعلق بالشؤون الهامة للايالة . بناء على طلب الوالي اللاحق وأهالي البلاد والمعترف به من الدول فقد منح المشار إليـه في المرسوم الصادر عام ١٢٨٨ـ١٨٧١ بعض الامتيازات وان هذا الوالي بعث اليوم يستنجد من متبوعـــه الشرعي ليخلصه من الأزمة التي تواجهها تونس .

ان الحقيقة تنحصر في الأمور المشروحة والتي لا أحد يعارضها . وإذا أردنا الاستشهاد بالوقائع التاريخية المؤيدة للشؤون المذكورة فتوجد لدينا الدلائل العديدة .

وبما ان هذه البرقيـة لا تتسع الدلائل العديدة التي نملكها أو الوقائع التاريخية المؤيدة لما ندعيه فإني أكتفي بإيراد بعض الأمثلة :

في المعاهدات القديمة المعقودة بين الدولة العثمانية وبين فرنسا ذكر

إلى جانب عنوان الحضرة السلطانية عنوان حاكم تونس (ومن قبيل المثال تراجع المعاهدة المؤرخة في ١٠ صفر ١٠٨٤هـ ـ ١٦٨٨م) كان مشروطاً في العهود المذكورة بأن كافة المعاهدات المعقودة مع الدولة ستكون نافذة المفعول أيضاً في تونس . ذكر في الأمر السامي الصادر إلى أمير تونس وقاضيها حوالي أواسط القرن السابع عشر ، أي بتاريخ ١٥ صفر ١٠٦٦ بشأن المرسوم المعطى من الباب العالي إلى القنصل الفرنسي بتونس بأن القنصل الموما إليه أعطي الإذن بأن يتولى أعمال قنصليات بعض الدول التي ليس لها سفير في دار السعادة أمثال البرتغال وكاتالونيا واسبانيا والبندقية وفلورانسة . ولما كانت حماية تجارة ورعايا الدول المذكورة الذين يتنقلون بين الموانىء الرئيسية التونسية تحت العلم الفرنسي هي من واجبات القنصل المذكور فقد منع في الأمر المذكور قناصل انكلترة وهولاندة وغيرهم من القناصل بأن لا يتدخلوا في قيام موظف فرنسا بواجبه .

عملاً بمعاهدة زيشتووي المعقودة بين الباب العالي والنمسا في ٩ رمضان ١١٩٧ والمصدقة بالسند الرسمي المؤرخ في ٣ ربيع الأول ١٢٠٥ صدر الأمر والتنبيه إلى موظفي أوجاقات الجزائر وتونس وطرابلس الغرب بأن يحموا باسم مقام الحضرة السلطانية مراكب امبراطورية روما التجارية . حتى انه في مقدمة الورقة المعقودة عملاً بالرغبة السلطانية بين الأوجاقات الثلاثة وبين امبراطوية روما في ٥ شوال سنة ١١٦١ قبل السندات المذكورة الموقعة من قبل علي باشا والي تونس والحائز لرتبة أمير الأمراء

كتبت كلمات (متبوعي المفخم الغازي السلطان محمود).

وإذا انتقلنا للعصر الحاضر نجد أن الباب العالي كتب أمراً بتاريخ ١٥ ربيع الأول ١٢٤٥-١٨٢٧ إلى الجزائر وتونس وطرابلس الغرب بالوقوف على الحياد من النزاع الناشب بين دولتي النمسا والمغرب. والأوامر المكتوبة إلى تونس في ١٤ صفر ١٢٤٧-١٨٣٠ لتنظيم وتجديد قوات الجيش في تونس وفقاً للأصول والتنظيمات القائم عليها الجيش العثماني . كما أذكر على سبيل المثال العريضة المرفوعة في سنة ١٢٧٧-١٨٦٠ من والي تونس إلى مقام الحضرة السلطانية يعرب فيها عن طاعته وانقياده .

ان هذه العريضة نشرت في الصحف الأوروبية دون أن تصادف حينذاك اعتراضاً من أي جهة .

لما عقدت تونس في سنة ١٨٦٣ قرضاً في باريس دون الحصول على إذن من الباب العالي ، فإن وزير خارجية فرنسا الموسيو درونين دوليس بناءً على إنذار من جانب الدولة العلية ، وحرصاً على إعطاء قالب شرعي للعملية المالية ، ومحافظة على الحقوق التي يطالب بها الباب العالي إقترح أن يُلتَمس ترخيص الباب العالي من قبل والي تونس والممول لإتمام هذه العملية ونصح صاحب البنك أن يتخذ بعض الإجراءات من هذا القبيل .

(لا ينكر أن بعض الأمور المغايرة لما ذكرنا والمغايرة للسندات المشروحة حدثت في القرنين السابع عشر والثامن عشر وأخيراً في عام

١٨٣٠ حيث عقدت اتفاقيات بين فرنسا وتونس أدرجت فيها بعض الألقاب مثل دولة تونس ، إلا أن هذه الاتفاقيات لم يكن لها غير حكم وقوة اللوائح الداخلية بين المتعاقدين ولا تبرز كدليل ضد التمسك بتصحيح حق نقض في غير صالح الدولة المتبوعة كما أن الباب العالي لم يعترف مطلقاً بشرعية هذه الاتفاقيات وكان الولاة بعد أن يوقعوها دون علم بمراميها يسارعون بإظهار الندم لمتبوعهم المشروع الذي هو صاحب المقام السلطاني ويبطلون أحكام الاتفاقيات المذكورة) [١] .

اننا نحيل الملاحظات المبسوطة بكل ثقة إلى عدالة وإنصاف الدول الموقعة على معاهدة برلين.إن الدول التزاماً بالتعهدات الدولية التي تترتب على المجموع ، والمحافظة على حقوق الباب العالي التي توجبها المعاهدة المذكورة فإننا مطمئنون كما ذكرنا آنفاً من انهم في حدود اقتراحنا سيتوسطون بحياد للتاليف بين مصالح الدولتين في ايالة تونس التي هي جزء متمم للدولة العثمانية. نتمنى منكم أن تعطوا لحضرة وزير الخارجية كل الإيضاحات التي ترون لزوم الإدلاء بها لشرح ما ورد في هذه البرقية .
(يظهر ان الباب العالي ربط أمله في وساطة وتدخل الدول الأوروبية .

---

(١) ان الفقرات التي بين القوسين كانت قد أضيفت للمسودة من قبل آرتين أفندي مستشار الخارجية إلا أنها حذفت لما رؤي عدم ملاءمتها لصالح الدولة .

مذكرات سعيد باشا المجلد ١ ص ٤٦٤ .

إلا أن هذا الأمل أيضاً ذهب سدى . ولم يتوسط أو يتدخل أحـد) [1] .

وأخيراً تقرر الرجوع إلى فكرة إرسـال أسطول إلى تونس وصدر الأمر إلى ثلاث بوارج كانت راسية في كريت بالسفر تحت قيـــادة حسين باشا [2] .

بينما كانت تـــدور المخابرات السياسية كانت القوات الفرنسية تحتل الأراضي التونسية .

وبينما كانت الفرق الثلاث الزاحفة على تونس على ثلاثـــة أرتال جمعت فرنسا قوة عسكرية في طولون قوامها ٨٠٠٠ جندي بقيـــادة الجنرال بري آر فاركبتها خفية في السفن وأنزلتها في بنزرت واستولت على الميناء والبلدة دون أن تطلق رصاصة واحدة .وبهذه الطريقة زحف الفرنسيون من كل الجهات . وصل الجنرال بري آر في ١٢ مايو ١٨٨١ إلى منوبه القريبة من تونس وأنبأ القنصل روستان بانه رهن أمره .

لما علم صادق باشا باقتراب العساكر الفرنسيين احتج للمرة الثالثة على

---

(١) كتب في المؤلف المسمى دور سلطنة عبد الحميـــد الثاني أن انكلترة عرضت وساطتها وانها رفضت بلطف من قبل فرنسا. إلا أن سعيد باشا لم يذكر أي شيء في هذا الصدد .

(٢) مذكرات سعيد باشا الجلد ١ ص ٥٥ .

دخول الجنود الفرنسيين إلى تونس وقدومهم للعاصمة ، وفي نفس الوقت وافق على استقبال الجنرال بناءً على طلبه .

ذهب الجنرال بري آر مع القنصل في نفس اليوم مع سريتين من الفرسان إلى قصر الصادق باشا . قرأ الجنرال نص المعاهدة المطلوب عقدها مع فرنسا. طلب صادق باشا التشاور مع هيئة المديرين. بعد ساعتين استقبل الجنرال ثانية وأبلغه بقبول الشروط الفرنسية . ووقع معاهدة باردو المسماة باسم المكان الذي عقدت فيه .

نص المعاهدة :

المادة الأولى : ان أحكام كل المعاهدات والاتفاقيات الخاصة بالصداقة والتجارة القائمة حتى اليوم بين جمهورية فرنسا وأمير تونس ستبقى مرعية الإجراء كما كانت .

المادة الثانية : ان حضرة أمير تونس يوافق على احتلال النقاط المناسبة على طول الحدود والساحل من قبل الجنود الفرنسيين وذلك لتوطيد الأمن ولتسهيل وتطبيق الإجراءات التي ستتخذها حكومة الجمهورية الفرنسية للوصول إلى الغاية التي يتوخاها الطرفان المتعاقدان وينتهي هذا الاحتلال في اليوم الذي يصادق فيه الرجال العسكريون من الفرنسيين والتونسيين على أن الحكومة المحلية أصبحت في حالة تمكنها من القيام

بالمحافظة على الأمن .

المادة الثالثة : إذا تعرض أمن وسلامـــة حضرة أمير تونس الشخصية أو أسرته أو بلاده للخطر فإن حكومة الجمهورية الفرنسية تتعهد لهم بتقديم المساعده في كل الأوقات .

المادة الرابعة : ان دولة فرنسا تتعهد بتنفيذ المعاهدات الموجودة حالياً بين حكومة تونس وبين سائر الدول الأوروبية .

المادة الخامسة : سيصبح لدى حضرة أمير تونس سفير من قبل حكومة الجمهورية الفرنسية للاشراف على تنفيـــذ هذه المعاهدة وللوساطة في الشؤون والمصالح المشتركة بين الحكومـــة الفرنسية وبين حكومة تونس .

المادة السادسة : ان موظفي فرنسا الديبلوماسيين وقناصلها الذين في البلدان الأجنبية سيتكفلون بحماية مصالح الأمـــارة التونسية ورعاياها ومقابل ذلك يتعهـد حضرة أمير تونس بأن لا يعقد أية معاهدة لها صبغة دولية قبـل إعلام الجمهورية الفرنسية وقبل الحصول على رضائها وموافقتها بشأنها .

المادة السابعة : سيتقرر في المستقبـــل بالاتفـاق بين حكومـــة فرنسا وحكومة تونس وضع أسس التنظيمات بصورة تؤمن الديون العامة للإمارة وتحافظ على حقوق الدائنين .

المادة الثامنـة : ستطرح غرامات حربية على القبائل المتمردة المقيمة على الحدود على طول السواحل وستعين بموجب اتفاقية تعقد فيما بعد مقدار هذه الغرامـــة وطريقة جبايتها تحت مسؤولية الحكومة التونسية .

المادة التاسعة : للمحافظة على الجزائر ، مستعمرة الدولة الفرنسية ، من تهريب الأسلحة والمهمات الحربية إليها تتعهد الحكومة التونسية بمنع ادخال الأسلحة والمهمات الحربيـــة من جزيرة جربـــه ومن ميناء قابس وغيرها من موانىء جنوب تونس للبلاد .

المادة العاشرة : ستعرض هذه المعاهدة على الجمهورية الفرنسية للمصادقـة عليها وتسلم النسخـة المصادق عليها في أقرب وقت ممكن إلى حضرة أمير تونس .

بعد التوقيـع على هذه المعاهـدة انسحب الجيش الفرنسي بطلب من صادق باشا دون أن يدخل لمدينة تونس وذهب إلى جهات أخرى[١] .

علم الأسطول العثماني الذي غادر كريت بقيادة حسين باشا خــبر احتلال تونس وعقد المعاهدة فقفل عائداً وجاء إلى ميناء سوداء[٢] .

---

(١) دور سلطنة عبد الحميد مجلد ٢ ص ٦٦٩ .

(٢) مذكرات سعيد باشا مجلد ١ .

لم يعمل السلطان عبد الحميد في هذه الفترة على أكثر من ارسال عشرين ألف جندي إلى طرابلس الغرب للقيام بتنظيمات الدفاع ضد الطوارىء[1] .

إلا أن الدولة العثمانية كانت تحتج دائماً على احتلال الفرنسيين لتونس[2] .

سحبت فرنسا معظم جيش الإحتلال بعد أن وطدت الأمن في تونس. ولما انسحب الجيش قام الأهالي الذين ضاقوا بالإحتلال ، بثورة .

جلب الفرنسيون ثانية عساكر وأسطولاً . قام أسطول البحـــر الأبيض بضرب صفاقس بالقنابل . ثم أنزل للـــبر ثلاثة آلاف جندي واحتلوا المدينة .

احتل قائد الأسطول موانىء سوسة وقابس وجزيرة جربة . بلغ عدد الجنود الفرنسيين الذين أرسلوا لتونس الخمسة وثلاثين ألفاً .

زحف الجيش على ثلاثة أرتال إلى القيروان مركز التمرد واحتلها دون مقاومة . استقر الفرنسيون تماماً في تونس وأصبح وجود الأمـير وجوداً رسمياً فقط .

---

(١) دور سلطنة عبد الحميد المجلد ٢ ص ٦٦٩ .

(٢) ذكر في الصحيفة ١٥٥٣ من العدد السابع عشر من مجـلة الأسطول أن عبد الحميد لم يحرك ساكناً على احتلال تونس ونهبها من أيدينـــا وذلك مقابل تسليم مدحت باشا له من قبل القنصل الفرنسي بأمر السفير .

ان الدولة العثمانية لم تتنـــازل عن حقوقها في تونس إلا بموجب معاهدة سيفر[1].

ان الدولة العثمانية بسبب عجزهـا في الإدارة فرطت في أبناء الوطن الأم الذين كانوا يتعيشون بالحرب من الأوجاقات وأعطت الجـــزائر وتونس عدداً من القوات[2].

النفوس المحليون في الجزائر ٥ ملايين والذين أخـــذوا تحت السلاح ٢٥٠ ألفاً . النفوس المحليون في تونس ١٩٠٠٠٠٠ والذين أخـــذوا تحت السلاح ٨٩ ألفاً .

لم ترَ فرنسا ان معاهدة باردو كافية للمحافظة على منافعها فعقدت في ١٨٨٣ بالتهديد معاهدة أخرى تدعى معاهدة المرسى .

استولت فرنسا على كافة المقامات العسكرية والسياسيـــة في تونس

---

(١) المادة العشرون من معاهدة سيفر :

ان تركيا تصادق على الحماية الفرنسـية على تونس ، وتعـترف بكل النتائج التي تترتب عنها وتعتبر هذه المصادقة نافذة المفعول منذ ١٢ مايو ١٨٨٦ .

لا يوجد في معاهدة سيفر أي شيء عن تونس ، وقيل « إن تركيـا تعلن بأنها تنازلت عن كافة الحقوق والإدعاءات التي كانت لها خارج الحدود المذكورة في هذه المعاهدة » .

(٢) الحرب العثمانية في الحرب العالمية للقائمقام نهاد بك .

كما انها اشترت المزارع الجيدة والأراضي بأموال الإمارة ووزعتها على الفرنسيين وحصر الكاتب الذي عينته في معية الأمير كل السلطة في يده. ان اليهود والأجانب لا يدفعون أية ضرائب. كل شيء يحمّل على الوطنيين. لا يعترف في المحاكم باي حق للمواطنين فالمدارس خاصة كلها بالفرنسيين حتى المستشفيات لا يقبل فيها المواطنون .

سلبت فرنسا الوطنيين فاخذت أملاكهم من أيديهم وعملت جهدها لملء البلاد بالفرنسيين .

الأتراك الذين في تونس – قول أوغليو تونس

كان العثمانيون قد استولوا على تونس بصورة قطعية في ٩٨٢ ـ ١٥٧٤ ونظراً إلى أن احتلال تونس من قبل الفرنسيين كان في ١٨٨١ فقد تشكلت خلال ٣٠٧ أعوام في الدواخل وفي المدن الساحلية التي كانت مقاماً للعساكر والبحارة الأتراك أسر تركية كثيرة . أن عددها الصحيح غير معروف . وعلى كل حال فإن كون ثلث نفوس تونس منحدر من أبناء الترك لم يكن تقديراً مبالغاً فيه .

فهرس

صفحة

صفحة

صفحة

الجزء الثاني :

طبع على مطابع
دار لبنان
للطباعة والنشر
بيروت . ص.ب ٥٦٢٠ - هاتف ٢٩٢٠٤٢

١٨٩٨/٣٢٠٠/٦٩

طبع على مطابع
دار لبنان
للطباعة والنشر
بيروت - ص.ب ٥٦٢٠ - هاتف ٢٩٣٠٤٣٩

الثمن جنيه ليبي واحد او ما يعادله